الجمهورية العربية السورية
جامعة البعث
كلية الآداب والعلوم الإنسانية

البطولة في الشعر العربي
حتى نهاية صدر الإسلام

بحث أعد لنيل درجة دكتوراه في اللغة العربية وآدابها

بإشراف الأستاذ الدكتور
أحمد علي محمد

إعداد الطالب
محمد عيسى اليوسف

٢٠١٠ / ٢٠١١

البُطُولَةُ في الشِّعرِ العَرَبيِّ

حتَّى نِهَايَةِ صَدرِ الإسلامِ

فِهرِسُ المُحتَوَى

مقدمة البحث

بسم الله الرحمن الرحيم

فِكْرَةُ البُطُولَةِ في الشِّعْرِ العَرَبِيِّ لَيْسَت جَدِيْدَةً في سُبُلِ البَحثِ ، فَقَدْ عَرَضَ لِجَوَانِبَ كَثِيْرَةٍ مِنْهَا في دِرَاسَاتِهِم الوَافِيَةِ الَّتي تَهْتَمُّ بالشِّعْرِ الجَّاهِلِيِّ ، وَ شِعْرِ صَدْرِ الإسْلاَمِ بَاحثون كِرام ، فَكَانَتِ الجُهُودُ المشْكُورةُ في إِبْرَازِ أَهَمِ القَضَايَا المُتَّصِلَةِ بِشِعْرِ البُطُولَةِ وَ الفُرُوسِيَّةِ .

لَقَدْ وَقَفْتُ على دِرَاسَاتٍ عَدِيْدَةٍ في هَذَا المَيْدَانِ المُبَارَكِ أَذْكُرُ مِنْها بِإجلالٍ :

- ((**بُطُولاتٌ عَرَبِيَّةٌ وَ إِسْلامِيَّةٌ**)) للدكتور أَحمد الشَّرْبَاصِيّ .
- ((**الفِدَاءُ في الإسْلام**)) للدكتور أَحمد الشَّرْبَاصِيّ .
- ((**البُطُولَةُ في الشِّعْرِ العَرَبِيِّ**))للدكتور شَوْقي ضيف .
- ((**شِعْرُ الحَرْبِ في العَصْرِ الجَاهِلِيِّ**))للدُّكتور عَليّ الجُنْدِيِّ .
- ((**الفُرُوسِيَّة في الشِّعْرِ الجَّاهِلِيِّ**)) للدكتور نوري حمودي القَيْسِي .
- ((**الشُّعَرَاءُ الفُرْسَانُ**)) لبُطْرُس البُسْتَانِيّ .
- ((**الفُتُوَّةُ عِنْدَ العَرَبْ**)) للدكتور عُمَرْ الدَّسوقيّ .
- ((**شِعْرُ الفُتُوحِ الإسْلامِيَّةِ**)) للنُّعْمَانِ عبدِ المُتَعالِ القَاضِيْ .

وَلَمْ أَقَعْ عَلَى دِرَاسَةٍ مُتَقَصِّيَةٍ مُقَارَنَةً بَيْنَ بُطُولاتِ العَرَبِ الجَّاهِلِيِّينَ ، وَ بُطُولاتِ غَيْرِهِمْ مِنَ الأُمَمِ ، وَ كَذَلِكَ كَلَّ بِي البَحْثُ عَنْ دِرَاسَةٍ كَمُوازنَةٍ بَينَ البُطُولاتِ الّتي سَجَّلَها الشِّعْرُ الجَاهليَّ و البُطُولاتِ الّتي سَجَّلَها شِعرُ صَدرِ الإسلامِ .

لِذَلكَ صَحَّ مِنِّي العَزْمُ على اسْتِدراكِ هَذَا الأَمرِ المُنصِفِ مُتَمِّماً مَا أَشَرْتُ إليهِ. وَ وَجَدْتُ السَّبيلَ أَمَامي مَفتُوحاً أَسْلُكُهُ بِعَمَلٍ جَديدٍ أَسْمَيْتُهُ ((البُطُولَةُ في الشِّعرِ العَربيِّ حَتَّى نِهَايَةِ صَدرِ الإسلامِ)).

- و لعلَّ الوَاقِعَ النَّفسيَّ السَّلبيَّ الّذي يُدفَعُ إلى لَظَاهُ السَّوادَ الأَعظَمُ مِنْ أبناءِ أُمَّتِنَا العَربيَّةِ يُفضِي بالمَرءِ الغَيورِ إلى الحُلمِ بالخَلاصِ مِنْهُ مِنْ خِلالِ اسْتِرواحِ أَنسَامِ القِيَمِ الإيجابيَّةِ المَوروثَةِ.
- و ثَمَّةَ دَوافِعُ مَوضُوعِيَّةٌ ذَاتُ وَشَائِجَ بالدَّوافِعِ النَّفسِيَّةِ ، جَاءَتْ وَليدَةَ رَغبَةٍ فِي طَلَبِ العِلمِ الّذي لا يَنتَهي عِنْدَ سِنٍّ مُعيَّنَةٍ ، و لِقَولِهِ ﷺ :((**لَيسَ فِي أُمَّتي إلاَّ عالِمٌ أو مُتَعَلِّمٌ**)) و لِقَولِ أَهلِ العِلمِ:((**اطلُبُوا العِلمَ مِنَ المَهدِ إلى اللَّحدِ**))[1]. و لأَنَّ العِلمَ كَلِمَةٌ يُرادُ بِهَا كُلُّ عِلمٍ بِشُموليَّتِهِ وَ سَعَتِهِ يَنفَعُ أُمَّتَنَا ، و يَدفَعُ عَنْهَا الشَّرَّ و الأَذَى.
- و مِنَ الدَّوافِعِ البَارِزَةِ العَدَاءُ التَّاريخيُّ لأُمَّتِنَا الّذي تَوارَثَتْهُ نُفُوسٌ استَعصَتْ عَلى الخُضُوعِ لِقِيَمِ الخَيرِ و الحَقِّ و الجَمالِ ، و رَوَّجَ لَهُ مُستَشرِقُونَ أَلصَقُوا بالعَربِ زُوراً و بُهتاناً تُهَماً هُمْ بَريئُونَ مِنْهَا ، و أَعرَضُوا عَنْ إظهارِ الصُّوَرِ المُضيئَةِ فِي حَيَاةِ عَرَبِ الجَاهليَّةِ الّتي أَظهَرَهَا مُستَشرِقُونَ تَوهَّجَتْ ضَمائِرُهُمْ بالحَقِّ المُبينِ ، و نَهَجُوا مَنْهَجَ النَّصَفَةِ فِي الكَشْفِ عَنِ الجَوانِبِ المُضِيئَةِ الّتي غَلَبَتْ عَلى حَيَاةِ القَبائِلِ العَربيَّةِ ، و زَيَّنَتْهَا قَبلَ أَنْ يُوَحِّدُهَا الإسلامُ.
- و عَسَى أَنْ يَكُونَ هَذَا العَمَلُ إسهاماً فِي الجُهُودِ الّتي سَبَقَتْ فِيمَا يَتَمَنَّاهُ كُلُّ عَرَبِيٍّ حُرٍّ يَصبُو إلى خَيرِ أُمَّتِهِ .
- جَعَلتُ هَذَا البَحثَ مِنْ مُقَدِّمَةٍ تُسَوِّغُهُ ، وَ مِنْ بَابَيْنِ ، و خَاتِمَةٍ تُبَيِّنُ مَا وَصَلْتُ إليهِ مِنْ نَتَائِجَ تُتَوِّجُ البَابَينِ اللَّذَينِ قَدَّمتُهُما.
- جَاءَ البَابُ الأوَّلُ فِي فُصُولٍ أربعةٍ:

- تَناوَلتُ فِي الفَصْلِ الأوَّلِ البُطولةُ عند الأُمَمِ و مَفهُومَ البُطُولَةِ فِي اللُّغَةِ ، و فِي الدِّرَاسَاتِ الجَماليَّةِ و النَّفسيَّةِ و النَّقدِيَّةِ ، مُشيراً إلى الفَرقِ بَينَ البُطُولَةِ و الفُروسِيَّةِ.
- وَ جَعَلتُ الفَصْلَ الثَّاني تحتَ عُنوانِ ((البُطُولَةِ فِي الشِّعرِ الجَاهليِّ)) و بيَّنتُ فِيهِ أنَّ الشَّاعرَ صَوتُ القَبيلَةِ ، مُتَتبِّعاً صُوَراً مِنَ البُطُولةِ العَربيَّةِ ، و لَمْ أَترُكِ الإشارَةَ إلى اعتِرافِ الأبطالِ الفُرسَانِ بِبُطُولاتِ الخُصُومِ ، و هذَا الاعترافُ وَرَدَ فِي قَصَائِدَ سُمِّيَتِ المُنصِفَات.

[1] يقول العلاّمة المُربّي الشَّيخ عبدالفتاح أبو غُدَّه : هذا مِنْ كلامِ النَّاس ، و لَيس بِحَديثٍ نَبَويٍّ ، و هذهِ طَريقَةُ العُلماءِ و المَشَايخ ، فإنهم يقولونَ : طلبُ العِلمِ مِنَ المَهدِ إلى الَّحدِ ، يُنظَرُ كتاب ((قيمة الزَّمن عِندَ العُلماءِ)) ص57

- وأَفرَدْتُ الفَصْلَ الثَّالِثَ للبُطُولَةِ الفَردِيَّةِ في صُوَرٍ مُتَعَدِّدَةٍ شَهِدَ لَهَا ذَوُو العَدلِ تُقَابِلُهَا صُورَةُ هِجَاءِ القَعَدَةِ عَنِ القِتَالِ الّذينَ تَجسَّدَتْ في سُلوكِهِمْ صُورةُ الجُبنِ المَذمُومِ ، و ثَمَّةَ صُورَةٌ بَينَ الجَانِبَينِ هِيَ الفُتُوَّةُ اللاَّهِيَةُ الّتي تَستَجيبُ إذا نُدِبَتْ إلى البُطُولاتِ.

- و أمَّا الفَصْلُ الرَّابعُ فقَدْ كانَ لِلحَديثِ عَنْ وَاقِعيَّةِ البُطُولَةِ العَربيَّةِ .

و كذلكَ كانَ الحَديثُ فِيهِ عَنْ مُقَوِّمَاتِ الشِّعرِ المَلحَمِيِّ عِندَ العَرَبِ و الّذي وَضِحَ في العَصرِ العَبَّاسيِّ فيما بَعدُ.

و لَمْ أُغفِلْ دَورَ المَرأَةِ في صُنعِ البُطُولَةِ و هِيَ تَسيرُ خلفَ الأبطالِ إلى المَعارِكِ ، و دَورَ الخَيلِ الّتي اعتَزَّ بِهَا الفَارسُ البَطَلُ اعتِزازه بِسَيفِهِ و رُمحِهِ عُدَّتِهِ في سَاحَاتِ المَعَارِكِ . و جَعَلتُ الحَديثَ عَنِ الفَارسِ البَطَلِ عَنترَةَ ، فبَيَّنتُ مَا لَهُ و مَا عَليهِ ، و لِغَلَبَةِ مَكارمِ الأَخلاقِ و النُّبلِ على سِيرَتِهِ اتَّخذتُهَا سَبيلاً لِلوُلُوجِ إلى الحَديثِ عَنِ البُطُولَةِ في صَدرِ الإسلامِ، و خَتَمَتُ هذا البَابَ بالوُقُوفِ عِندَ جماليَّةِ القُبحِ في صُوَرِ البُطُولَةِ العَربيَّةِ فَلَيسَتْ كُلُّ صُورةٍ في البُطُولةِ جَميلَةً.

و في البَابِ الثَّاني مَهَّدتُ لِلحَديثِ عَنِ البُطُولَةِ بِأَثَرِ الدِّينِ الجَديدِ في إنشاءِ الإنسانِ خَلقاً آخرَ ، ثُمَّ أَفَضْتُ في الحَديثِ عَنْ مَفهُومِ البُطُولَةِ في الإسلامِ ، و استَعرَضْتُ صُوَرَ البُطُولَةِ الّتي خَاضَها الأبطالُ في صَدرِ الإسلامِ ، و سَجَّلَها الشِّعرُ مُضيئَةً بالقِيَمِ الّتي رَضِيَ اللهُ عَنهَا و رَسُولَهُ قَبلَ فَتحِ مَكَّةَ هذا ما في الفصل الأول ، و افتَتَحتُ الفَصلَ الثَّاني بِبُطولاتِ فَتحِ مَكَّةَ ، و أطَلَّتْ على هذا الفَصلِ بُطُولاتُ المَرأَةِ المُسلِمَةِ ، كَما أرادَتِ الأخلاقُ الإسلاميَّةُ ، و خَتَمْتُ هَذا الفَصلَ بالحَديثِ عَنْ بُطُولَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ و التي شَهِدَ بِعَدَالَتِهَا و نَزَاهَتِهَا طَائفَةٌ جَليلَةٌ مِنَ المَستَشرِقِينَ .و أما الفَصلُ الثَّالثُ فقد خصَّصتُه لإبانة القِيَمِ الجَليلةِ الفَريدَةِ في بُطُولاتِ الفُتُوحاتِ بروعَتِهَا و، و اتِّسَاعها و امتِدَادِها خَارجَ الجَزيرةِ العربيَّةِ ، و تَفرُّدِهَا بِسِمَاتٍ و خَصَائصَ عزَّ نَظيرُها على مَرِّ العُصُورِ ، و لَمْ يُسَجِّلهَا تاريخُ الدُّنيَا إلا بِحُروفِ الإجلالِ و الإكبَارِ .

و وَقَفتُ في الفَصلِ الرَّابعِ عِندَ بُطُولاتٍ مَا أَحَبَّ مُنصِفٌ أَنْ تكُونَ في الرِّدَّةِ و الفِتنَةِ ، و لكنْ قَدَّرَ اللهُ ، و مَا شَاءَ فَعَلَ ، و جَعَلتُ هَذَا الفَصلَ تحتَ عُنوان : ((مِنْ مَآسِي البُطُولاتِ الإسلاميَّةِ .))

0 هَذَا مَا فِي الفَصْلِ الأوَّلِ ، و أَمَّا الفَصلُ الثَّانِي ، فقَدْ خَصَّصْتُهُ لإبَانَةِ القِيَمِ الجَليلَةِ الفَريدَةِ في بُطولاتِ الفُتُوحاتِ بِرَوعَتِها ، و اتِّسَاعِهَا ، و امتِدَادِها خَارِجَ الجَزيرَةِ العَربيَّةِ ، و تَفَرُّدِها بِسِمَاتٍ و خَصَائصَ عَزَّ نَظيرُها على مَرِّ الدُّهُورِ ، و لَمْ يُسَجِّلْهَا تَاريخُ الدُّنيا إلاَّ بِحُروفِ الإجلالِ و الإكبارِ .

و بَعدُ ، فإنْ أَصَبْتُ مَا يُرضِي عِلميَّةَ البَحثِ ، و جلالَ التُّراثِ فَبِنعمَةٍ مِنَ اللهِ و فَضلِهِ ، و إنْ لَمْ أَرْتَقِ إلى تِلكَ القُدسيَّة فَلِقِلَّةِ حِيلَتِي ، و بَكِيِّ بَيَانِي ، وَ لِهَوانِ هِمَّتِي على تُراثِنا العَظِيمِ ، و حَسبي أَنَّنِي ، قَصَدْتُ وَجْهَ ذِي الجَلالِ و الإكرامِ في أُمنيَّةٍ أو بَعضِ أُمنيَّةٍ حتَّى لا تَذْهَبَ نَفسِيَ حَسَراتٍ . و عَلى اللهِ قَصْدُ السَّبيلِ ، و لَهُ الحَمْدُ في الأولى و الآخِرَةِ .

****

مُحمَّد عيسى يُوسف

مَواقِفُ بُطُوليَّةٌ في مُواجَهَةَ المَوتِ:

إذا فَقَدَ البَطَلُ سُبُلَ المَوتِ في سَاحاتِ المُواجَهةِ القِتَاليَّةِ ، وَ ضَاعَتْ مِنْ يَدَيْهِ أَدَواتُ الاسْتِفَادةِ للوُصُولِ إلى غَايتِهِ تَحوَّلَتْ سَلامَتُهُ و طُولُ حَيَاتِهِ إلى عِبْءٍ ثَقيلٍ مُزْعِجٍ ، وَ عَذَابٍ مُضْنٍ ، وَ رَمَتْهُ الحَيَاةُ في قَبْضَةِ الوَهَنِ و الخَيْبَةِ و السَّأَمِ . وَ ما جَدْوى امتِدادِ الأَجَلِ بالفَارِسِ البَطَلِ إذَا كانَ المَوْتُ غَايَةَ كُلِّ حَيٍّ ، وَ نِهَايةً لا يَسْتَطيعُ الإنْسَانُ الفِرارَ مِنْهَا ؟ لأَجْلِ ذَلكَ عَدَّ الجَاهِليُّونَ ذِروةَ البُطُولَةِ أَنْ يَموتَ تَحْتَ ظِلالِ السُّيوفِ مُقْبلاً غَيْرَ مُدْبِرٍ لا أَنْ يَمُوتَ مِيتَةَ فِرَاشِهِ حَتْفَ أَنْفِهِ كما تَمُوتُ البَعيرُ ، لأَنَّ ذَلكَ يَحْمِلُ مَعْنَى الذُّلِّ وَ الهَوانِ و العَارِ و هَذَا ما يَتَعارضُ مَعَ اعتِزازِهِم بِنُفُوسِهِمْ ، و بنَاءً عَلى سَلْبيَّةِ المَشَاعِرِ النَّاجمةِ تُجاهَ الفَنَاءِ الحَتمِيِّ كَانَ ((**اسْتِبْدالُهُمْ بالانْهِزامِ وَ الاستِسْلامِ مِيتَةَ القَتْلِ الَتي تُحقِّقُ المَجْدَ و الشَّرَفَ ، وَ تُخَلِّدُ ذِكْرَاهُمْ بَعْدَ المَمَاتِ**))[1]

وَ الحَقُّ أنَّ الشِّعرَ الجَاهليَّ زَيَّنَهُ الشُّعراءُ الفُرسَانُ بالمَواقِفِ البُطُوليَّةِ النَّبيلةِ المُنْبَثِقَةِ عَنِ الإحسَاسِ بِحَتْميَّةِ الفَنَاءِ ، و التّي تُبَلْوِرُ المَواقِفَ الجَميلةَ في اختِيارِ المَوتِ في مُلتَقَى الخَيْلِ وَ اضْطِرابِها.

الشَّاعِرُ بَشَامَةُ بنُ الغَديرِ يَحضُّ قَوْمَهُ عَلى اخْتِيَارِ المَوتِ ، وَ أَنْ يَتَّخِذُوهُ حَتْمِيَّةً تُحَقِّقُ مِعْيَاراً كَرِيماً للتَّرفُّعِ عَنِ الحَيَاةِ الذَّليلَةِ ، و الارتِقَاءِ عَمَّا يَصِمُ وُجُودَهُم الإنسَانيَّ بالقُبْحِ ، فَلِمَ يُعْطُونَ الضَّيْمَ ، وَ يَرْضَوْنَ الدَّنِيَّةَ ، و المَوْتُ لا بُدَّ أَنْ يَغْتَالَهُمْ ، فَلْيَسيروا إلى نُصْرَةِ صَدِيقِهِمْ ، وَ لْيَسيروا إلى المَوتِ سَيْراً لاَ يَشُوبُهُ الخِزْيُ وَ الخُذْلانُ إلى مَوْتٍ جَميلٍ تَمنَّاهُ هُوَ :

فَإمَّا هَلَكْتُ وَ لَمْ آتِهِمْ ... فَأَبلغْ أَماثِلَ سَهْمٍ رَسُولا
بأنَّ قَوْمَكُمُ خُيِّروا خَصْلَتَيْنِ ... كِلْتَاهُما جَعَلُوها عُدُولا
خِزْيُ الحَياةِ وَ حَرْبُ الصَّـــديقِ ... وَ كُلٌّ أَراهُ طَعَاماً وَبيلا
فَإنْ لم يكُنْ غَيْرُ إحْدَاهُما ... فَسيرُوا إلى المَوْتِ سَيْراً جَميلا
و لا تَقْعُدُوا و بِكُمْ مُنَّةٌ ... كَفَى بالحَوادثِ للمَرْءِ غُولا [2]

---

[1] النَّفسُ في الشِّعرِ الجَاهليِّ ، حُسْني عبدالجليل يُوسف ، مكتبة الآداب و مطبعتها . القاهرة 1989 ، ص19.

[2] المُفضليَّاتُ ص59 ، و سَهمٌ : قومُهُ ، و أماثلهمْ : خيارُهُمْ ، عُدولا: جَوْرا ، عَدلوا فيها عن الحقِّ ، خِزيُ الحَياةِ : ما يلحقُهم منَ العَار، إذا خَذَلُوا حُلفَاءَهُمْ ، حَربُ الصَّديق إذا نَصَروهُمْ فَحاربُوا غَطفَانَ ، المُنَّةُ : القُوَّةُ.

إنَّ الشَّاعِرَ يَعْقِدُ لقَومِهِ مُفاضَلَةً بَيْنَ الحَيَاةِ وَ المَوتِ لتُفْضِيَ بِهِ المُفَاضَلَةُ أنَّ المَوتَ هُوَ الأَجْمَلُ و الأَسْمَى لأَنَّ فِي اختِيارِ المَوتِ حُرِّيَّةً مِنَ الحَتْمِيَّةِ ، و انْطِلاقاً مِنْ قَيْدِ الغَايةِ الّتِي لا بُدَّ مِنْهَا.

و إذا كانَ الإيمانُ الّذي لا يَتَزعْزَعُ بِحَتْمِيَّةِ المَصِيرِ النِّهائيِّ للمَرْءِ دَفعَ ابنَ الغَديرِ إلى اخْتِيارِ البُطُولةِ لقَومِهِ فِي مُواجَهةِ المَوتِ وَ جَعْلِهِ قِيمةً جَماليَّةً فَلَيْسَ ذَلكَ مَرَدُّهُ إلاّ إلى كَونِهِ مَسْؤُوليَّةً نَدَبَ نَفْسَهُ إليها ، وَ مَوقِفاً مِنَ الحَياةِ إذا غَدَتْ عَقيمةً ، تَفْتَقِرُ إلى كُلِّ مَا هُوَ نَبيلٌ.

إنَّ النَظْرَةَ إلى الحَياةِ شَجَّعَتْ الشَّاعِرَ حَاتماً الطَّائيَّ عَلى أَنْ يَخْتَارَ المَوْتَ فِي فِعْلٍ بُطُوليٍّ ، لِيُكَوِّنَ مِنْ هَذَا الفِعلِ البُطوليِّ المَجيدِ هُوِيَّتَهُ فِي دَائرةِ الحَتْمِيَّةِ ، إنَّهُ أَشَدُّ مِنَ الحربِ الضَّروسِ ، و يَمْنَعُ نَفْسَهُ مِنْ أَنْ تُذَلَّ فتكونَ فِي إسَارِ العُبُوديَّةِ القَميئَةِ للحَياةِ ، بمُلازَمَتِهِ سَاحَاتِ الوَغى

أَخُو الحَربِ ، إنْ عَضَّتْ بِهِ الحَرْبُ عَضَّهَا وَ إنْ شَمَّرتْ عَنْ سَاقِهَا الحَرْبُ شَمَّرا
وَ إنِّي إذا مَا المَوتُ لَمْ يَكُ دُونَهُ قَدَى الشِّبرِ أَحْمِي الأَنفَ أَنْ أَتَأَخَّرا [١]

إنَّ الشَّاعرَ جَدَلَ مِنَ الأَلفَاظِ المعانِيَ القَوِيَّةَ المُشِعَّةَ ، فَلَفْظُ (عَضَّتْ) لَيْسَتْ مُجرَّدَ لَفْظٍ ، إنَّما هِيَ رُعْبٌ و خَوفٌ ، و كذلكَ لَفْظُ (شَمَّرَتْ) تُوحِي بِالرَّهْبَةِ وَ الشِّدَّةِ.

و الصُّورَتَانِ : (شَمَّرَتْ عَنْ سَاقِها) وَ (شَمَّرَا) كِنايتانِ عَنِ الشِّدَّةِ وَ عَنِ الاسْتِعْدَادِ لمُواجهتها . و هُمَا تُطْلِقَانِ لنا الخَيالَ لِنَعيشَ هذهِ الصُّورةَ المُلتَحِمَةَ المكوَّنَةَ مِنْ صُورتِي قَسْوَةِ الحَرْبِ و الثَّباتِ فِيها ، و لِنَعيشَ مَا عَاشَهُ الشَّاعِرُ ، و لا فَرْقَ بَينَ أنَّنا فِي العَصْرِ الحَديثِ و الشَّاعِرُ فِي العَصْرِ القَديمِ ، فَالمَوروثُ مِنْ قِيَمِ الرُّجُولةِ و البُطولةِ و الإباءِ وَاحِدٌ فِي تَارِيخِنَا .

البُطُولةُ الفَرديَّةُ فِي الآخَرِ:

الافتِخَارُ بالنَّفسِ ، و الثَّناءُ عَلى شَمائِلِهَا ، و التَّرنُّمُ بِخِصَالِهَا ، أبرزُ مَا يُمَيِّزُ الحَيَاةَ الجَاهِلِيَّةُ . و لقَدْ حَفِلَتْ نَفسُ العَربِيِّ الجَاهليِّ بِأَنماطٍ مُختلِفَةٍ مِنْ عَواطِفِ الحُبِّ و الكُرهِ ، و الرِّضَى و الغَضَبِ ، و الإعجابِ . و إذا كانَ الإعجابُ بالنَّفسِ و الازدِهَاءُ بِمَا تَنطَوي عَلَيهِ مِنْ أَعمَقِ المَشَاعرِ و أَشَدِّهَا تَوَهُّجاً لِشِدَّةِ لُصُوقِهَا بالعَاطِفَةِ الإنسَانيَّةِ ، فلا عَجَبَ أَنْ تَتَوَهَّجَ فِي نُفُوسِ الفُرسَانِ الأَبطالِ.

[١] ديوان حاتم الطّائي ، دار صادر ، بيروت ، ص49 ، القدى : المِقدارُ

يَتَمَشَّى الإحساسُ بِصُوَرِ البُطُولَةِ على وُجُوهِهَا في رُوحِ الشَّاعِرِ حتَّى التَّمازُجِ، ثُمَّ تَشِعُّ في ذِهنِهِ تِلكَ الصُّوَرُ أَبيَاتاً خَلقاً سَوِيَّاً ، إنَّهُ يَبُثُّ الرُّوحَ في صُوَرِ الفُروسيَّةِ و الإقدَامِ ، يُحرِّكُهَا حَرَكَاتٍ تَملأُ القُلوبَ ، و تَبهَرُ الأَبصَارَ.

و صِدقُ العَاطِفَةِ الإنسَانيَّةِ هُوَ الّذي يُمَحِّصُ الفَارِسَ البَطَلَ مِنَ الخَتْلِ و المُوارَبَةِ و الأنانيَّةِ لِيَكُونَ مَعنَى البُطُولَةِ النَّبيلِ أوسَعَ شُمُولاً ، فَتَسْطَعُ رُوحَهُ بِنُورٍ شِعريٍّ وَهَّاجٍ ، و إشْراقٍ رُوحِيٍّ مُتأَلِّقٍ بالرُّوحِ الشِّعريَّةِ المُنصِفَةِ ، تُنصِفُ البَطَلَ الآخَرَ ، و تَعترِفُ بِفُروسِيَّتِهِ ثَابِتاً ، غَيرَ هَيَّابٍ ، لإنجازِ مَا نَدَبَ نَفسَهُ إليهِ ، لِتَحقيقِ مَا يَراهُ نَبيلاً في مَجموعَةِ قِيَمِ الجَمَاعَةِ ، الّتي تَأَلَّفَتِ القُلوبَ ، و مَلأَتِ النُّفُوسَ.

إنَّ الحَقيقَةَ المَعنَوِيَّةَ لانتِصارِ عَنترَةَ على خَصمِهِ كانَتْ رَكِيزَةَ فَخرِهِ ، إلاَّ أنَّ عُنصُراً مَعنَوِيَّاً آخَرَ ، جَعَلَهُ عَنتَرَةُ رَكيزَةً تُقَابِلُ رَكِيزَةَ فَخرِهِ ، و هَذَا العُنصُرُ هُوَ صُورَةُ البَطَلِ الّذي أَحجَمَ الفُرسَانُ الصَّناديدُ عَنْ مُنَازَلَتِهِ ، و دَاخَلَتْهُمُ الخَشيَةُ مِنهُ ، فَهُوَ المُدَجَّجُ بِالسِّلاحِ ، المِقدامُ على أَعتَى الفُرسَانِ ، لا تُكرِهُهُ قَسوَةُ المَعرَكَةِ على الفِرارِ أوِ الاستِسلامِ ، و كما أقَرَّ عَنترَةُ بالبُطُولَةِ لِخَصمِهِ ، فقَدْ عَكَسَ نُبلَ نَفسِهِ على ذَلكَ الخَصْمِ ، فقَدْ جَعَلَهُ كَريماً يَقتُلُ أو يُقتَلُ ، و قُتِلَ هذا الفَارسُ البَطَلُ الكَريمُ بِطَعنَةٍ مِنْ عَنترَةَ سَلَكَتْ دِرعَهُ ثُمَّ جَسَدَهُ :

وَ مُدَجَّجٍ كَرِهَ الكُمَاةُ نِزَالَهُ — لا مُمعِنٍ هَرَباً و لا مُسْتَسلِمِ
فَشَكَكْتُ بالرُّمحِ الأَصَمِّ ثِيَابَهُ — لَيسَ الكَريمُ عَلى القَنَا بِمُحَرَّمِ [١]

و إذا كانَ ضِيقُ العَيش في الصَّحراءِ دَفَعَ الفُرسَانَ الصَّعاليكَ إلى أَنْ يَعيشُوا لَوناً خَاصَّاً مِنَ الحَياةِ يَقُومُ على المُغَامَرَةِ و رُكُوبِ المَخاطِرِ ، و الاحتِيَالِ في انتِزَاعِ لُقمَةِ العَيشِ ، و دَفَعَتْهُمْ مَشاعِرُهُمْ الذَّاتيَّةُ إلى اتِّخاذِ هذهِ الحَيَاةِ مَادَّةً لِلفَخرِ بأَنفُسِهِمْ ، فقَدْ دَفَعَهُمُ النُّبلُ و الإنصَافُ إلى الثَّناءِ على الأَبطالِ الّذينَ عُهِدَتْ صِفَاتُ البُطُولَةِ و الصَّعلَكَةِ بِهِمْ. و هَذا الشَّاعرُ الفَارسُ ، الفَاتِكُ ، المُغَامِرُ (تَأَبَّطَ شَرّاً) يَمدَحُ صُعلوكاً آخَرَ بطَائِفَةٍ مِنَ المَعَاني الّتي يَتحلَّى بِهَا الفُرسَانُ الصَّعاليكِ ، فَهُوَ قَليلُ الشَّكوى إذا نَزَلَتْ بِهِ الهُمُومُ ، بَعيدُ الهِمَّةِ ، واسِعُ الأَمَلِ ، يَسْلُكُ شَتَّى السُّبُلِ لِيَبلُغَ مَا يُريدُ ، و هُوَ ابنُ الصَّحراءِ ، يُصبِحُ في مَفَازَةٍ ، و يُمسي في غَيرِهَا ، و يَسيرُ في جَنَبَاتِها وَحيداً ، لا يَهابُ مَخَاطِرَها و أَهوالَها ، و إذا نَامَتْ عَينَاهُ لَمْ يَنَمْ قَلبُهُ ،

---
[١] ديوانه ص 153

و إذا صَحَا كَانَتْ عَينُهُ رَقيباً لِقَلبهِ ، تَنقُلُ إليهِ مَا تَرى ، فَإنْ دَهَمَ الخَطَرُ كانَتْ سَلَّةُ السَّيفِ القَاتِلِ ، الّذي إذا ضَرَبَ بهِ بَطلاً استَقبَلَتهُ المَنَايا ضَاحِكَةً مُتهَلِّلَةً :

قَليلُ التَّشكّي لِلمُهِمِّ يُصِيبُهُ	كَثيرُ الهَوى ، شَتَّى النَّوى و المَسَالِكِ
يَظَلُّ بِمَومَاةٍ ، و يُمسي بِغَيرِهَا	جَحيشاً ، و يَعرَوري ظهُورَ المَهالِكِ
وَ يَجعلُ عَينَيهِ رَبيئةَ قَلبِهِ	إلى سَلَّةٍ مِنْ حَدِّ أَخلَقَ صَائِكِ
إذَا هَزَّهُ في عَظمِ قِرنٍ تَهلَّلَتْ	نَواجذُ أفواهِ المَنَايَا الضَّواحِكِ [1]

الأَبياتُ تَفيضُ بِعَاطِفةٍ قَويَّةٍ مِنَ التَّقديرِ و الاعتزاز ، و لعلَّنا نَلمَحُ ذلكَ في هذه الصَّورة التي رُسِمَتْ لِلبَطَلِ المُغامِرِ ، و الّتي تَنبضُ بالحَيَاةِ و الحَرَكَةِ حتَّى لَيُخَيَّلَ إلينَا أنَّ الفَارسَ البَطَلَ مَاثِلٌ أمَامَنا في مُغامَراتِهِ البُطُوليَّةِ على امتِدادِ الصَّحراء.

و تَرسُمُ الأَبياتُ صُورَةً وَاضِحَةً لِشَخصيَّةِ الفَارسِ البَطَلِ المُغَامرِ في الصَّحراءِ ، و للصِّفَاتِ الّتي تَتعَمِدُ عَلَيها حَيَاتُهُ ، مِنْ صَبرٍ ، و سَعَةِ حِيلَةٍ ، و تَنَقُّلٍ بَينَ أَرجَاءِ البِيدِ ، و خِبرَةٍ بِمسَالِكِهَا ، و أُنسٍ بِوَحشَتِها ،
و بَرَاعَةٍ في استخدامِ السِّلاحِ .

تِلكَ هِيَ صُورَةُ البُطُولَةِ المُثلَى ، المُنبَثِقَةِ عَنْ خُلُقٍ مِعطَاءٍ ، يَبزُغُ مِنْ أَبرَزِ المَظَاهرِ الّتي تَعَارَفَتْ عَلَيهَا قَبَائلُ العَرَبِ في الجَاهليَّةِ.

و إذا كانَ ((الفُرسَانُ)) وَحدَهُمْ في أوربا القُرون الوُسطَى يَتحلَّونَ بِبَعضِ طِبَاعِ البُطُولَةِ النَّبيلَةِ ، فَقَدْ كَانَتْ تِلكَ الطِّبَاعُ الدَّالَّةُ على رُقيٍّ نَفْسيٍّ و ذِهنيٍّ حِليَةً ، لِكُلِّ بَطَلٍ مِنهَا نَصيبٌ ، لا يَعطَلُ مِنهَا فَارسٌ ، و لا يَتمايَزُ الأبطالُ إلاّ بِمِقدارِ عُمقِ البُطُولَةِ و أَصَالَتِهَا.

رِثاءُ الأبطالِ:

وَ حينَ يكونُ الرِّثَاءُ تَعبيراً عَنْ عَاطِفَةٍ إنسانيَّةٍ يَدْفَعُ إليها الإجلالُ المَشُوبُ بالوَفَاءِ الّذي يُوضِّحُ صِلَةَ الشَّاعرِ بالمَرْثيِّ ، وَ هُوَ مَعَ نُبْلِ المَقْصِدِ مُجَرَّدٌ عَنِ المَطامِعِ فإنَّ مَوضُوعَ الرِّثَاءِ على صَلَةٍ وثيقةٍ بالبطولة و الحماسةِ .

[1] شرح ديوان الحماسة، العلامة التبريزي ، دار القلم ، بيروت ، ج1 ، ص22 ، 23 ، تاريخ الأدب العربي، الدكتور عمر فروخ ، دار العلم ، بيروت ، ط1 1965/1385 ، ص108 ، 109 ، شتى النوى : كثير التحول من مكان إلى مكان ، الموماة: المفازة التي لا ماء فيها ، جحيشاً : وحيداً ، يعروري ظهور المهالك : يركب المخاطر ، ربيئة قلبه : رقيبه ، اخلق : أملس ، صائك : شديد.

وَأَسْهمتْ أَيَّامُ العَربِ في تفجير يَنابيعِ الرِّثَاءِ للأَبطَالِ الَّذينَ قَضَوْا في سَاحَاتِ الشَّرفِ ذَوْداً عَنْ حِمَى القَبيلَةِ و أَعْرَاضِها ، وَ مَعْنَى ذَلكَ أَنَّ الرِّثَاءَ الحَماسيَّ يرْتَبِطُ بالدَّورِ الَّذي كَانَ يَقُومُ بِهِ الشَّاعِرُ في المُجتَمعِ القبَليِّ.

كأنَ التَّجلُّدُ وَ الصَّلابَةُ سِمَةً وَاضِحَةً غَالبَةً عَلى العَربِ في مِثْلِ هَذِهِ المَوَاقِفِ الّتي يَخْشَعُ لها النَّاسُ .

وَ يَقُومُ مِثْلُ هذا الرِّثاءِ عَلى إظْهَارِ شَمائِلِ الفَقيدِ و تَعْدادِ مَحَاسِنِهِ وَ مَناقِبِهِ ، و الإشَادَةِ بمآثرِهِ كالكَرمِ و الشَّجاعَةِ و البُطُولةِ و الإقْدامِ بِشَكلٍ يَقْتَربُ اقْتِراباً مَلْمُوساً مِنَ المَديحِ ، و لكنْ بِشَكلٍ مُرْتَبطٍ بالصِّدقِ وَ الصَّراحةِ اللَّذينِ جُبِلَ عَليْهِمَا الخُلُقُ العَربيُّ.

الشَّاعرُ دُريدُ بنُ الصِّمَةِ يَرثي أَخَاهُ عَبْدَاللهِ وَ قَدْ قَتَلَتْهُ بَنُو عَبسٍ ، وَ هُوَ يُصَوِّرُ مِيتَتَهُ الكَريمَةَ بَيْنَ الرِّمَاحِ، وَ يُظْهِرُ ثَبَاتَ قَدَمِهِ في المَعارِكِ ، وَ دِقَّةَ ضَرَباتِهِ و تَسْدِيدِهِ:

فَجئْتُ إليهِ وَ الرِّمَاحُ تَنُوشُهُ	كَوَقْعِ الصَّيَاصي في النَّسيجِ المُمَدَّدِ
تَنادَوْا فقَالُوا : أَرْدَتِ الخَيْلُ فَارِسَاً	فَقُلْتُ : أَعَبْدَاللهِ ذَلكُمُ الرَّدِي؟!
لئنْ يَكُ عَبْدُاللهِ خَلَّى مَكَانَهُ	فَمَا كَانَ وَقَّافاً و لا طَائشَ اليَدِ

هَذَا اللَّونُ مِنَ الرِّثَاءِ لا تَفَجُّعَ فِيهِ وَ لا بُكاءٌ و الأبيَاتُ لَوْحَةٌ مَتَكامِلَةٌ تَتَشَابَكُ أَجْزَاؤُها لتُظْهِرَ المَوْتَ البُطُوليَّ ، فَفِي البَيْتِ الأَوَّلِ صُورةٌ تَليقُ بِالبُطُولَةِ و الأَبطَالِ فَوَقْعُ الرِّمَاحِ عَلى جَسَدِ البَطَلِ كَوَقْعِ صَيَاصي الحَائِكِ في الثِّيابِ المَنْسُوجَةِ . و في البَيْتِ الثَّاني اسْتِفْهامٌ وَليدُ مَشَاعِرِ الأخُوَّةِ وَ الإعْجَابِ بالسَّجايا التّي يَعْلَمُهَا الشَّاعِرُ في أَخيهِ . لِذلكَ جَاءَ الاسْتِفْهَامُ مُكَلّلاً بالتَّعظيمِ و التَّقريرِ ، فَهُوَ يَعْلَمُ عِلْمَ اليَقينِ أنَّ أَخَاهُ هُوَ الفَارسُ الّذي أَردَتْهُ الخَيْلُ.

وَ اجْتِماعُ القَسَمِ و الشَّرطِ في البَيْتِ الثَّالثِ أَحْكمَ نَسِيجَ الصُّورةِ ، و حَقَّقَ الانْسِجَامَ و التَّلاحُمَ .

وَ تَرْبطُ الخَنْسَاءُ مَوْتَ أَخيهَا صَخرٍ بِفِعْلٍ بُطُوليٍّ يَنْبَثِقُ مِنَ الإقْدَامِ و يُحَقِّقُ المَوْقِفَ الأَمْثَلَ وَ الهَدَفَ الأَسْمَى ، وَ هُوَ مِنْ سَدَنَةِ القِيَمِ الجَاهِلِيَّةِ وَ صُنَّاعِ القَرَارِ القَبَليِّ:

صَريعُ أَرْمَاحٍ وَ مَشْحُوذَةٍ	كَالبَرْقِ يَلْمَعْنَ خِلالَ الدِّيَارْ
وَ لْتَبْكِهِ الخَيْلُ إذَا غُودِرَتْ	بِسَاحَةِ المَوْتِ غَدَاةَ العِثَارْ

يَا ضَارِبَ الفَارِسِ يَومَ الوَغى　　بالسَّيْفِ في الحَوْمَةِ ذَاتِ الأُوَارْ
نَازَلْتَ أَبْطالاً لها ذَادَةً　　حَتَّى ثَنَوْا عَنْ حَرُمَاتِ الذِمارْ [1]

إنَّ البَطَلَ المَرثِيِّ اتَّصَفَ بروحِ المُواجَهَةِ وَ الإقْدامِ ، و خَاضَ الصِّراعَ بجَدارةٍ حِينَ عَثَرتِ الخَيْلُ بفُرسَانِها ، وَ تَولَّى الحَمَاةُ المُدَافِعُونَ فَرَقاً على أَنْفُسِهِمْ ، فَما أَجْدَرَ هَذَا الفَارسَ البَطَلَ بُبكاءِ الخَيْلِ عَلَيْهِ ؛ إنَّهُ بَطَلٌ تصَرَّفَ و سَلَكَ مَسْلكَهُ النَّبيلَ تَحْتَ إحْسَاسِهِ العَميقِ بِمَبْدَأٍ قَائمٍ في نَفْسِهِ لِذَلكَ تَحمَّلَ الفَاجِعَةَ و خَاضَ هذا الصِّراعَ النَّبيلَ.

وَ إنَّ إعْجَابَ الشَّاعِرِ تَأَبَّطَ شَراً بالشَّاعرِ الفَارسِ الصُّعْلوكِ الشَّنْفَرى يَرْجِعُ إلى تَجسيدِهِ المَثَلَ الأعلى الجَاهِليِّ وَ هُوَ المَوتُ صَابراً ، إنَّ ذَلكَ دَفعَ تَأَبَّطَ شَرَّاً إلى رِثَائِهِ مُسْتَرْعِياً الانتِبَاهَ إلى رُؤْيَتِهِ المُثْلَى وَ هِيَ البَونُ الشَّاسِعُ بَيْنَ إرادةِ المَثَلِ الجَماليِّ الأَعلى و إرادةِ الحَياةِ القَميئة:

وَ أَجْمَلُ مَوْتِ المَرْءِ ، إذ كَانَ مَيِّتاً　　و لا بُدَّ يَوماً ، مَوتُهُ وَ هُوَ صَابرُ [2]

و الشَّاعِرُ زُهيرٌ الّذي مَثَّلَ الجَانِبَ السُّلوكيَّ الأَخْلاقي المُترفِّعَ في تَفْكيرِهِ وَ مِثاليَّتِهِ عَلى المُستوى السَّائِدِ في العَصْرِ الجَاهِليِّ يُقَدِّرُ في قَومٍ الصِّفَاتِ الحَقَّةَ مِنَ الخِصَالِ الحَميدَةِ ، فَيُؤَكِّدُ سَريعَ اسْتِجَابَتِهمْ لِمَنْ يَسْتَغيثُهُمْ لِيَنالُوا شَرَفاً يَسْعَى إليهِ الأَبْطَالُ وَ أَشْهَى مَنَاياهُمُ القَتْلُ لا المَوتُ عَلى فُرُشِهِمْ :

إذَا فَزِعُوا طَارُوا إلى مُسْتَغيثِهِمْ　　طِوالَ الرِّمَاحِ لا قِصَارٌ وَ لا عُزْلُ
بخَيْلٍ عَلَيْها جنَّةٌ عَبْقَرِيَّةٌ　　جَديرُونَ يَوماً أَنْ يَنَالُوا و يَسْتَعْلُوا
وَ إن يُقْتَلُوا فَيُشْتَفَى بِدمَائِهِمْ　　و كَانُوا قَديماً مِنْ مَنَاياهُمُ القَتْلُ [3]

حِينَ تَمتَلِكُ الذَّاتُ وَسيلةَ المُواجهةِ معَ المَوتِ فَإنَّها تَنتَقِلُ إلى مَواقِعِ المُبارزَةِ مِنْ خِلالِ فَتْحِها لِلقَامُوسِ الشِّعرِّ الجَميلِ لمعنى الحَياةِ ، و مَا يُغْدِقُ مِنْهُ عَلى الإنسانِ مِنْ نِعَمِ التَّغَنِّي بِمَعاني البُطُولَةِ الخَالدةِ . و في ذلكَ إذْلالٌ و انهزاميَّةٌ للمَوتِ المُحَقّقِ رُغْمَ الأَنْفِ.

[1] ديوان الخَنْسَاء ، دار صادر ، بيروت 1379-1960 ، ص69
[2] الطَّرائفُ الأدبيَّة ص29
[3] شَرْحُ شِعر زهير بن أبي سَلمى

إنَّ الشُّعراءَ الفُرسَانَ وَضَعُونا أَمامَ لَحظَاتٍ تَصْفُو فيها الذَواتُ إلى النُّفُوسِ ، و تُحقِّقُ فيها انتِصَاراً بَاهِراً على المَوتِ الّذي يَبْدُو صِنْواً للزَّمَنِ ، فَهُوَ سَيْرُورَةٌ جَارِيَةٌ لا نِهَايَةَ لَها ، و لا يَقْوى إلاّ الشِّعرُ عَلى كَبْحِهِ.

هِجَاءُ القَعَدَةِ عَنِ القِتَالِ:

إذَا كَانَ المَوتُ يَمتَلِكُ القُوَّةَ القَاهِرَةَ على اختِرامِ الجَسَدِ الإنسَانِيِّ و إخْضَاعِهِ فإنَّهُ كانَ في المُقَابلِ يَنْتَكِسُ أمامَ قُوَّةِ المَعَانِي الّتي تَركَتْها الآثارُ الشِّعريَّةُ مُسَجِّلَةً لَحَظاتِ التَّحدي بَينَ البُطولَةِ و المَوتِ ، و مَنْ غَيْرُ الفَارسِ البَطَلِ ذُو المِرَّةِ و القُدْرَةِ على مُنَازلةِ المَوتِ و الامِّحَاءِ ؟ وَ لكنْ ثَمَّةَ مَنْ نَاقَضَ المُثُلَ الرَّفيعَةَ الّتي كان يُؤْمِنُ بِهَا المُجتَمعُ الجَاهليُّ ، وَ لم يكُنْ في مَواكِبِ الفُرْسَانِ الأَبْطَالِ الّذين ثَأَرُوا لِلحياةِ ، و جَعَلُوا الخُلُودَ يَنْفَلِتُ مِنْ شِراكِ المَنايا . لَقدْ تَخلَّى أُلُو النُّفُوس الضَّعيفةِ عَنْ قِيمَةِ البُطُولَةِ أَمامَ رَهْبَةِ المَوتِ ، و تَهَاوَوْا في لَحْظَةِ مُواجَهَتِهِ. إنَّ انهزاميَّتَهُمْ و عَمَى بَصَائِرِهِمْ عَنِ الحَقيقَةِ الحَتْمِيَّةِ بَلْوَرَها الشِّعرُ في صُورَةٍ لا تُبَدِّلُها الأَيَّامُ بَدلاً مَنْ أَنْ تَبْلُغَ الأَبَدِيَّةَ لأَنَّها تَحرَّرَتْ مِنَ الزَّمانِ.

الشَّاعِرُ الفَارِسُ العَبَّاسُ بنُ مِرْدَاسٍ يُبْدِي كُرْهَهُ للحُروبِ وَ نَدَمَهُ على ما أَسْرَفَ فِيهَا ثُمَّ يَتيقَّنُ أنَّهُ سَيُكْسَى الخِزْيَ وَ العَارَ بِهجَاءٍ يَصِمُهُ :

أَلَمْ تَرَ أَنِّي كَرِهْتُ الحُرُوبَ ... وَ أَنِّي نَدِمْتُ على مَا مَضَى
نَدَامَةَ زَارٍ على نَفْسِهِ ... تِلكَ الَتي عَارُها يُتَّقَى
و أَيْقَنْتُ أَنِّي لِمَا جَنَتْهُ ... مِنَ الأَمْرِ لابِسٌ ثَوْبِيْ خزَى [1]

وَ وَجَدَ هذا الفَارِسُ الّذي أَنْكَرَ على نَفْسِهِ مَا قدَّمَتْ هِجَاءَهُ حَاضِراً عَلى لِسَانِ الشَّاعِرِ خُفَافِ بنِ نُدْبَةَ بِصُورة السُّخريةِ بهِ فَهُوَ الّذي اختارَ الحَربَ سَبيلاً ثُمَّ تَراجَعَ وَ نَكصَ على عَقِبَيهِ ، و هذا شَرُّ المَعَايبِ عندَ العربيِّ :

أَعَبَاسُ إمَّا كَرِهْتَ الحُروبَ ... فَقَدْ ذُقْتُ مِنْ عَضِّها مَا كَفَى
أَ أَلقَحْتَ حَرْباً لَهَا درةٌ ... زَبُوناً تُسَعِّرُهَا بِاللَّظَى

[1] ديوانُ العبَّاس بن مرداس السُّلميِّ ، جمعه و حققه ، د . يحيى الجبوري ، مطابع دار الجمهورية ، 1388-1968- ص29-30

فَأَصْبَحْتَ تَبْكي على زَلَّةٍ وَ مَاذا يَردُّ عَلَيْكَ البُكَا ؟ ١

و الشَّاعِرُ الجَاهليُّ يَسْتَمِدُّ إحسَاسَهُ بالطُّمأنينةِ مِنَ ارْتِبَاطِهِ بِقَبيلتِهِ ، و تَشْتَدُّ حَاجتُهُ إلى ذَلكَ الارتِبَاطِ إذا دَهَمَهُ خَطَرٌ ، فَهُوَ يَرى أنَّ مِنْ حَقِّهِ على قَبيلتِهِ أَنْ تَهُبَّ لِنُصرَتِهِ لأَنَّهُ يَهُبُّ لنُصْرَتِها حينَ تَدْعُوهُ ، و لكنَّ حَالَةَ الرِّضَا كانَ يَعْرُوها الفُتُور و الجَفَاءُ بَينَ الطَّرفَين ، فلِعَواملَ مُتَبَاينَةٍ ، لم تكنْ قَبيلةُ الشَّاعرِ تُلبِّي اسْتِغاثَةً يُطْلِقُها ، فَتخيبُ آمالَهُ ، وَ تُمسِي عُرْضَةً لِمشَاعِرَ مُخْتَلِفَةٍ مِنَ الغَضَبِ و الألَمِ و غَيْرَ ذَلكَ.

الشَّاعِرُ قُرَيطُ بن أُنَيفٍ التَّميميُّ يُعبِّرُ عَنْ ضِيقِهِ و غَضَبِهِ لأنَّ قَوْمَهُ خَذَلُوهُ و أَسْلَموهُ ، و لَمْ يَسْتَنْقِذُوا إبِلَهُ مِنَ القَومِ الْمُغيرينَ ، فَطَلَبَ النُّصْرَةَ مِنْ بني مَازنٍ ، فَشَدُّوا أَزْرَهُ ، وَ مَضَوْا مَعَهُ في غَارةٍ على بني شَيبانَ حَتَّى اسْتَرَدُّوا لَهُ إبِلَهُ ، فَهَجا قَومَهُ ، و رمَاهُمْ بِالجُبنِ عَنْ دَفَعِ الْمُغيرينَ ، و يَمْدَحُ مَنْ أَعَانُوهُ ، مُتمنِّياً لو كانَ مُنْتَمياً إلى غَيرِ قَوْمِهِ:

لكنَّ قَومي و إنْ كَانُوا ذَوي عَدَدٍ لَيْسُوا مِنَ الشَّرِّ في شَيءٍ وَ إنْ هَانَا
يَجزُونَ مِنْ ظُلمِ أَهْلِ الظُّلْمِ مَغْفِرَةً وَ مِنْ إسَاءةِ أَهْلِ السُّوءِ إحسَانا
فَلَيْتَ لي بِهِمْ قَوْماً إذا ركِبُوا شَدُّوا الإغَارَةَ فُرسَاناً وَ رُكْبَانا
لو كُنْتُ مِنْ مَازنٍ لم تَستَبِحْ إبلي بَنُو اللَّقيطَةِ مِنْ ذُهْلِ بن شَيْبَانا ٢

و شَاعرٌ آخرُ يَتجرَّعُ مَرارةَ الخَيْبَةِ إذْ أَعْرَضَ عَنْهُ قَوْمُهُ ، و لم يتحمَّلُوا عنه دِيَاتِ قَوْمٍ قَتَلَهُمْ غَيْرُ مُلتَزمينَ بعُرْفٍ قَبَليٍّ يَقُولُ باشتِراكِ العَشيرةِ في جَريرَةِ فَرْدٍ مِنْ أفْرادِهَا ، و ازْدَادَ إحساسُ الشَّاعرِ بالمَرارةِ حِينَ قَدَّمُوا أَبَاعرَ لرَجلٍ طلبَها مِنْهُمْ ، فَقَالَ الشَّاعِرُ أَفنونُ التَّغلبِيُّ يُبْدي حُزْنَهُ وَ يُذكِّرُ قَوْمَهُ بسَابقِ فَضْلِهِ عَلَيْهِمْ:

أَبْلِغْ حَبيباً وَ خَلِّلْ مِنْ سَرَاتِهِمُ أنَّ الفُؤَادَ انْطَوى مِنْهُمْ عَلى حَزَنِ
قَدْ كُنْتُ أَسْبَقُ مَنْ جَارُوا على مَهَلٍ مِنْ وِلْدِ آدمَ مَا لَمْ يَخْلَعُوا رَسَني
سَأَلْتُ قَومي وَ قَدْ سَدَّتْ أَبَاعِرَهُمْ ما بينَ رَحبَةِ ذاتِ العِيصِ و العَدَنِ

---

[١] ديوان العباس بن مرداس ، هامش ص30.
[٢] شرح حماسة أبي تمام ، للأعلم الشَّنتمري - تحقيق د. عليّ المُفضّل حمودان ، ط 1 بيروت 1992 ، ج1 ص359.

لِلهِ دَرُّ عَطَاءٍ كانَ ذَا غَبَنٍ   إذْ قَرَّبُوا لابنِ سَوَّارٍ أباعرَهُمْ [١]

وَ انطلاقاً مِنَ الشُّعُورِ بفقْدانِ الانتماءِ الحَقِيقيِّ اسْتَهانَ الشَّاعِرُ عُروةُ بنُ الوَرْدِ بوشَائجِ القُربى بَيْنَهُ و بَيْنَ قَومِهِ الّذينَ تَخلَّوا عَنْهُ فانْطَلقَ في صِراعٍ مَعَهُمْ، فَهُوَ يَأْنفُ حَيَاةَ الفَقْرِ وَ الذُّلِّ ، و يُؤْثِرُ أنْ يَمُوتَ فِي سَاحَةِ الصِّراعِ معَ ذَوي قُرْبَاهُ على خُضُوعِهِ للمَظَاهرِ الاجتِماعيَّةِ وَ العَلاقةِ الّتِي تَحْكُمُ الأَفرادَ دَاخلَ بُنيَةِ القَبيلةِ:

إذا المرءُ لَمْ يَسْرَحْ سَوَاماً وَ لَمْ يُرِحْ   عَلَيْهِ ، وَ لَمْ تَعْطِفْ عَلَيْهِ أَقَارِبُهْ
فَلَلْمَوْتُ خَيْرٌ لِلفَتى مِنْ حَيَاتِهِ   فَقيراً وَ مِنْ مَوْلَىً تَدُبُّ عَقَارِبُهْ
فَلا أَتْرُكُ الإخْوانَ مَا عِشْتُ للرَّدى   كما أنَّهُ لا يَتْرِكُ المَوْتُ شَارِبُهْ [٢]

إنَّ النُّصُوصَ الشِّعريَّةَ الّتِي مَثّلَتْ مُواجَهةَ المَوتِ قَدَّمَتْ رؤيةً انْبَثَقَتْ عَنْ وَعْيٍ عَميقٍ ، فَالفارسُ البَطَلُ وَجَدَ نَفْسَهُ يَنْقَادُ إلى النِّهايَةِ المُتَّحمَةِ لِذَلكَ حَوَّلَ بِوَعيهِ مَعْنَى المَوْتِ إلى سَعْيٍ لِيُثْبِتَ وُجُودَهُ بَعْدَ المَوْتِ ، وَ يَخْتارَ صَيرورتَهُ الدَّائمةَ ، و كأنَّ أَحداً لن يَمُوتَ بَديلاً عَنْهُ ، فَلِهذا لَنْ يَمْنَعَهُ أحدٌ حَقَّهُ و حُرِّيَّةَ اختيَارِهِ تِلْكَ الصَّيرورةَ الدَّائمةَ، فَكَانَ ذلكَ إنجازاً عَظيماً هُوَ الارتقاءُ بذَاتِهِ خَارجَ الوَاقعِ المُرتَبطِ بالنِّهايَةِ الحَتميَّةِ (المَوْتِ) وَ يُشْرِفُ عَلى حركة المَصيرِ الّذي تَنْدَفِعُ إليهِ الحَيَاةُ. وَ هَذا الإنجازُ مَهَّدَ لِبدَايَةِ تَأْسِيسِ رُوحِ البُطُولةِ الحَضاريَّةِ الّتِي جَاءَ بِهَا الإسلامُ مُشَكِّلاً رُؤيةً جَديدةً لِلعَالَمِ بالطُّموحِ و التَّضحياتِ لِبناءِ عَالَمٍ أكثرَ عَدْلاً وَ حُرِّيَّةً.

و أمَّا الفُرسَانُ الّذينَ لم يَسْتَطِيعُوا تَحْويلَ فِكْرَةِ المَوْتِ مِنَ السَّلبيَّةِ إلى الإيجابيَّةِ و الّذينَ أسَرَتْهُم مَشَاعِرُ الجُبْنِ ، فَمنعَتْهُمْ مِنْ إثْبَاتِ القُدرَةِ عَلى مُواجَهةِ المَوتِ و الانْدِفَاعِ إلى تَحقيقِ أَقْصَى مَا يُمكِنُ تَحقيقِهِ مِنْ قُدْرَةٍ بإنجازِ المُواجَهةِ الفَاعِلَةِ لِحقيقَةِ المَوْتِ إنَّ هَؤُلاءِ بَشَرٌ وَ الجِبِلَّةُ الإنسَانيَّةُ تَتجاذَبُها العَواطِفُ و المَشَاعِرُ خُرُوجاً عَنِ المُحيطِ الثَّقَافيِّ الجَاهِليِّ بأنَّ وُجُودَهُمْ مَآلُهُ إلى المَوْتِ ، و غَابَ عَنْهُمْ أنَّ قُوَّةَ المَوتِ ، وَ قُدْرَتَها على إذلالِ الإنْسَانِ بِمَوتِهِ على فِراشِهِ لَنْ تُعوِّضَهُ عَمَّا حُرِمَ مِنْهُ في سَاحاتِ المَعَارِكِ ، و شَتَّانَ مَا بَيْنَ المَوقفَينِ المُتَضَّادَّين.

---

[١] المُفضَليَّات ص262

[٢] ديوان عروة بن الورد ص29 ، ديوانا عُروة و السَّمَوْءَل ص19

المَنُّ عَلى الأَسْرَى:

الأَسْرُ و الإطْلاقُ بَعْدَ المعَارِكِ رُؤْيَتَانِ مُتَناقِضَتانِ في عَالمِ الفُروسيَّةِ و البُطُولةِ . و ظَاهرتانِ تَتَشَكَّلانِ مِنْ جَدليَّةِ وَعيِ الإنسَانِ العَربيّ لأَعرافِ القَبيلةِ ذَاتاً و مَوضُوعاً . لكنَّ الثَّانيَةَ ذَاتُ فَاعِلِيَّةٍ حَقِيقيَّةٍ أَسْمى فَهي مِنْ عُمُدِ الصَّيرورةِ الإنسَانيَّةِ و التَّاريخيَّةِ.

إنَّ المَنَّ على الأَسرَى بالإطلاقِ فِعْلٌ شَهْمٌ تَحرُّرِيٌّ مِنْ إسَارِ القِيَمِ السَّلبيَّةِ ، وَ وليدُ رَغْبَةٍ تُنْجزُ هُويَّةَ الآسرِ ، و تُحقِّقُ انتماءَهُ إلى الذَّاتِ العَربيَّةِ الأَصيلَةِ ، و هُوَ مَوقِفٌ يَكشِفُ جَوْهَرَ الإنسانِ العَربيّ الّذي تَحفِزُ إنْسَانيَّتَهُ بيئَتُهُ و ثَقَافتُهُ عَلى طَريقٍ واضحةِ المَعالمِ إلى عَالمٍ سَامي الإنسانيَّةِ وَ العَدْلِ .

تُسَجِّلُ أَيَّامَ العَرَبِ مَوقِفاً يَفيضُ نُبلاً لِفَارسِ تَغلِبَ عَمرو بنِ كُلثومٍ ، فَفي يَومِ خَوٍّ ((**أغَارَ عَمرو بنُ كُلثُومٍ في جَمْعٍ مِنْ تَغْلِبٍ على بَني فَزَارةٍ ، و نَالَ مِنْهُمْ ، و أَسَرَ حُذَيفَةَ بنَ بَدْرٍ الفَزاريَّ . فَحاوَلَ حُذَيفَةُ أَنْ يَشْتَري نَفْسَهُ بألفِ نَاقَةٍ، فأبى عَمروٌ ، ثُمَّ مَنَّ عَلَيهِ و أطلَقَهُ**))[1] فقالَ في ذَلكَ:

أَلَمْ تَرَ أَنَّني رَجُلٌ صَبُورٌ   إذا مَا المَرءُ لَمْ يَهْمُمْ بِصَبْرِ
وَ أَنِّي بالذَّنائبِ يَومَ خَوٍّ   مَنَنْتُ عَلى حُذَيْفَةَ بَعْدَ أَسْرِ
وَ لَو غَيري يَجيءُ بِهِ أسيراً   لَنَالَ بهِ رَغيبَةَ ذُخرِ دَهْرِ
و لكنَّني مَنَنْتُ وَ كَانَ أَهلاً   لِمَا أَوْلَيْتُ في حَمَلِ بنِ بَدرِ [2]

و يحفَظُ الأَسيرُ المَمنُونُ عَليهِ هَذا الجَميلَ ، و يُطلِقُ صَدَى القِيَمِ الَّتي يَحمِلُهَا وَ يُؤْمِنُ بِهَا امتِنَاناً لعَمروٍ ، فَيَضعُهُ في مَوضِعٍ أَسْمَى مِنَ المُسَاواةِ مَعَهُ:

إنِّي لَمُثْنٍ ، و إنْ كَانَتْ عَشِيرَتُهُ   خُزْرَ العُيُونِ ، على عَمرو بنِ كُلثومِ
المُطْلِقُ الغِلَّ عَنِّي بَعْدَمَا شَنِجَت   كَفِّي و مَا ذَاكَ مِنْ عَمروٍ بِمَكْتُومِ [3]

إنَّهُما مَوقِفَانِ مَنَحتْهُما الصَّحراءُ العربيَّةُ صَفَاءَها و حَرارَتَها وَ انْدِيَاحَها وَ سَعَةَ آفاقِها غَيرَ مَعْزولينَ عَنِ الزَّمانِ و المَكانِ اللّذينِ يَكْتَنِفانِهما وَ يَضَعانِهما في إطَارِهُما المَعْهُودِ ، و تَحوطُهُمَا تِلكَ الصَّحراءُ

---

[1] مُقدمة ديوان عمرو ين كلثوم ص14

[2] ديوانه ص58 ، الذَّنائب : مَوضِعٌ بِنَجْدٍ في دِيارِ ربيعة ، و في دِيارِ تميمٍ كذلكَ

[3] مقدمة ديوان عمرو ين كلثوم ص15 ، و يُنظَر كتاب (الأنوار و محاسنُ الأشعار) لأبي الحسن عليِّ بنِ مُحمد الشِّمشَاطيّ - تحقيق د. السيد محمد يوسف - الكويت 1397 -1977 ، ج1 ص157

بالبيئةِ الّتي تَزيدُهُما عُمْقاً وَ صِدْقاً و شُمُولاً و رُسُوخاً..إنَّها القِيَمُ الرُّوحيَّةُ الّتي وَاكبَتْ مَسيرَةَ الحَيَاةِ الجَاهليَّةِ.

لَقَدْ صَبَّ الشُّعراءُ السَّابِقُونَ كُلَّ ما في أحاسِيسهمُ الفَتيَّةُ مِنْ رِقَّةٍ و رَوْعَةٍ و صَفَاءٍ. و إنَّ مَا نَلْحَظُهُ مِنْ مَدْلولاتٍ أخلاقيَّةٍ رَفيعَةٍ كانَ على الغَالبِ كُلَّ شَيءٍ في حياةِ العَربِ ، و دَرَجُوا عَلَيْهَا ، و حَفِظَهَا لَنا ديوانُهُمْ ، فكانَتِ الكَلمَةُ الشِّعريَّةُ المُعبِّرَةُ مُغلَّفَةً بالحَياةِ و القُوَّةِ و الأَسْرِ و الخِصْبِ و عُمقِ الاتِّسَاعِ.

إنَّنا –كما أرى – لا يُساورُنا طَائِفٌ مِنْ ضَعفٍ حِينما يُسَاوِرُ أَحَدَهُمْ مَا يَتباهى بِهِ مِنْ حُرِّيَّةِ الاختِيَارِ لِقِيمَةٍ مِنْ القِيَمِ الخَالِدَةِ في الحَيَاةِ العَربيَّةِ ، و لا يُخَالِطُ يقينَنا وَهْمٌ في بُعدِ صِدْقِهِمْ.

بُطُولَةُ القُوَّةِ الرَّادِعَةِ:

مِنَ الخِصَالِ الّتي يَعتَزُّ بهَا العَرَبُ الجَاهِليُّونَ ، و يَتغَنَّى بِهَا الشُّعراءُ إرَادَةُ التَّفَوُّقِ في مَيَادِينِ القُوَّةِ ، لأنَّ تِلكَ الإرادَةَ قِوَامُ الحَيَاةِ في بيئَةٍ مُجدِبَةٍ شَحيحَةٍ بخَرهَا ، و كَثيراً مَا كَانَتْ السَّماءُ تَضَنُّ بمَطَرِهَا عَلى البَادِيَةِ ، فَيُهَدِّدُ أَهلَهَا القَحطُ ، و تَنشبُ بَينَهُمُ الحُروبُ و الغَاراتُ الّتي يَدفَعُ إلَيهَا ضِيقُ العَيشِ في هذِهِ البيئَةِ المُقفِرَةِ . و هَذِهِ الحَيَاةُ الوَاجِفَةُ المُضطَرِبَةُ الّتي لا أَمنَ فِيهَا و لا قَرارَ ، و في تِلكَ الظُّروفِ القَاسِيَةِ ، جَعَلَتْ القَبَائلَ تَعتَزُّ بعَصَبيَّتِهَا ، و دفَعَتْ بَعضَهَا إلى التَّحالُفِ معَ غَيرِهَا طَلَباً لِلقُوَّةِ الرَّادِعَةِ تَحسُّباً مِنْ أَنْ تُؤخَذَ على حِينِ غِرَّةٍ . و لَكِنَّ تِلكَ القُوَّةَ كانَتْ تُقيَّدُ دَائماً بخَلَّةٍ تَرقَى بالإنسَانِ العَربيِّ إلى أُفُقٍ سَامٍ مِنْ آفَاقِ الإنسَانيَّةِ ، حِينَ كَانَتِ السُّيُوفُ تَعُودُ إلى أغمادِها . كانَتِ الكَلِمَةُ تُقَالُ فَتُغني عَنِ العُهُودِ و المَواثِيقِ المَكتُوبَةِ ، و الكَلِمَةُ تِلكَ ((**يُبرِمُهَا رَئِيسَا القَبيلَتَينِ فَتَصِيرُ نَافِذَةً على الجَميعِ ، لأَنَّهَا أَقوَى مِنَ القَوَانينِ و الأَنظِمَةِ الّتي يُدَافِعُ بالحِرَابِ في المَدَنيَّةِ الغَبيَّةِ اليومَ**))[1] .

و مَا كَانَتِ تِلكَ المَواقِفُ البُطُوليَّةُ تُسَجَّلُ إلاّ حِينَ يُضطَرُّ أَصحَابُهَا إلَيهَا بدَافِعٍ مِنْ أَزمَةٍ اجتِمَاعيَّةٍ ، فيَتَّخِذُونَ القُوَّةَ الرَّادِعَةَ سَبيلاً للتَّرفُّعِ عَنِ الحَيَاةِ الذَّليلَةِ ، و الارتِقَاءِ عَمَّا يَصِمُ وُجُودَهُمُ الإنسَانيَّ الكَريمَ .

[1] الفُتوَّةُ عِندَ العَربِ ، د. عمر دُسوقي ، دار نهضة مصر للطبع و النشر ، القاهرة ، ط4 ، 1966 ، ص117.

الشَّاعِرُ الأَخنَسُ بنُ شِهَابٍ التَّغلِبِيُّ يَطلُعُ عَلَينَا بعِزَّةِ قَبيلَتِهِ و غَلَبَتِهَا ، فَلا حُدودَ لِسَطوَتِهَا الّتِي لا تُرَدُّ عَنْ مَوطِنِ غَيثٍ ، لا تَرهَبُ غَازِياً ، لأنَّ لَهَا قُوَّةً رَادِعَةً تَرَعَهُ عَنْ جَنَابهَا ، و سِوَاهُمْ لا يَجتَرِئُونَ عَلى النُّقْلَةِ إلى غَيرِ مَوضِعِهِمْ و بعِزَّتِهِمْ يَذهَبُونَ حَيثُ شَاؤُوا ، و لا مَانِعَ لما شَاؤُوا :

و نَحنُ أُنَاسٌ لا حِجَازَ بأَرضِنَا ... معَ الغَيثِ مَا نُلقَى و مَنْ هُوَ غَالِبُ
أَرَى كُلَّ قَومٍ قَارَبُوا قَيدَ فَحلِهِمْ ... و نَحنُ خَلَعْنَا قَيدَهُ فَهُوَ سَارِبُ [١]

و يُؤَكِّدُ الشَّاعِرُ هَذِهِ القُوَّةَ و المَنَعَةَ بِأَنَّ خَيلَهُمْ تَرُودُ حَولَ بُيُوتِهِمْ تَرعَى مِنْ كَثْرَتِهَا و لِعِزَّةِ أصْحَابِهَا ، و لا تَحرُسُهَا الزَّرَائِبُ:

تَرَى رَائِدَاتِ الخَيلِ حَولَ بُيُوتِنَا ... كمِعَزى الحِجَازِ أَعجَزَتْهَا الزَّرائِبُ [٢]

وَ يَرسُمُ الشَّاعِرُ عمرو بن كلثوم فِعلاً بُطُولِيَّاً مِنْ مُنجَزَاتِ قَومِهِ تَغلِبَ ، و يُظهِرُهَا مَا حَلَّ بالخُصُومِ ، إنَّ الفِعلَ البُطُولِيَّ تَمَّ بِقُوَّةِ الشَّكِيمَةِ ، و بَالغِ الإقدَامِ ، فَهُمْ يُحَارِبُونَ أَعدَاءَهُمْ دِفَاعاً عَنْ شَرَفِهِمْ و عِزِّهِمْ حَتَّى يَعلُوَ عَلى النَّاسِ و يَنتَشِرَ ، إِنَّهُمْ يُطَاعِنُونَ خُصُومَهُمْ بِرِمَاحٍ سُمرٍ خَطِّيَّةٍ لَيِّنَةٍ ، أو نَضرِبُهُمْ بِبيضٍ تَعلُو هَامَاتِهِمْ ، ثُمَّ لا يَلبثُونَ أَنْ يَشُقُّوا تِلكَ الهَامَاتِ شَقَّاً ، وَ يَقطَعُوا بِهَا رِقَابَ الفُرسَانِ .

وَرِثْنَا المَجدَ قَدْ عَلِمَتْ مَعَدٌّ ... نُطَاعِنُ دُونَهُ حَتَّى يَبِينَا
بِسُمرٍ مِنْ قَنَا الخَطِّيِّ لُدْنٍ ... ذَوابِلَ أَو بِبيضٍ يَعتَلِينَا
نَشُقُّ بِهَا رُؤُوسَ القَومِ شَقَّاً ... و نُخلِيهَا الرِّقَابَ فَيَختَلِينَا [٣]

تَقُومُ الصُّورَةُ على حَقيقةِ أَسَاسِ المُدرَكَاتِ الحِسِّيَّةِ ، و يَبدُو أنَّ الشَّاعرَ يَزدادُ تَلَذُّذاً بِتَقلِيبِ صُورَةِ الغَلَبَةِ

و القُوَّةِ لِتَأكِيدِهَا ، و يَتَوَضَّحُ التَّأكيدُ فِي البَيتِ الثَالثِ الّذي يُظهِرُ قُدرَةَ الأَعداءِ لِيَكُونَ الفَخرُ أَعلَى ، فَالفِعلُ (نُطاعِنُ) يَدُلُّ على المُشَارَكَةِ و هُوَ يُوحي بِأَنَّ القَومَ الخُصُومَ هُمُ الّذينَ ابتَدَؤُوا بالعُدوانِ شَرَفَ و مَجدَ قَومِ الشَّاعرِ (تَغلِبَ) فَحَامُوا عَنْ مَجدِهِمْ و شَرَفِهِمْ . و البَيتُ الثَّالثُ الصُّورَةُ الّتِي تُوحِي بِمَعنَى قُوَّةِ البُطُولَةِ الرَّادِعَةِ ، و تُؤَكِّدُ استِمراريَّةَ هذا المَعنَى صِيغَةُ الفِعلِ المُضَارِعُ (نَشُقُّ)و المَصدَرُ (شَقَّاً) الّذي يَزيدُ الفِعلَ تَأكيداً.

---

[١] المفضليَّات ، ص206 ، 207 ، الحجاز : الحاجر ، ما نُلقى
[٢] نفسه ص206
[٣] ديوانه ، ص84 ، 85 ، نُخليها الرقاب : نجعل الرقاب لها كالخِلى و الخِلى : الحشيش، أشعار الشعراء الستة الجاهليين ، الأعلم الشنتمري ، ج2 ، ص75 ، معلقة عمرو بن كلثوم بشرح الحسن بن كيسان ، ص 67 ، 68 ، شرح المعلقات العشر للتبريزي ص257 ، منتهى الطلب ص 133، 134

و الشَّاعرُ لَبيدٌ يَجدُ فِي بُطُولَةِ قَومِهِ بَنِي عَامرٍ فِي كَبحِ جِمَاحِ جَورِ خُصُومِهِمْ مَدخَلاً إلى الفَخرِ بِحُضُورِ قَومِهِ البُطُولِيِّ الرَّادِعِ ، فَأَودَعَ أَبيَاتَهُ مَا يُثبِتُ شَجَاعَتَهُمْ ، و قُدرَتَهُمْ على دَحرِ أعدَائِهِمْ . لَقَدْ أَلَحَّ الخُصُومُ على ظُلمِهِمْ و عَدَاوَتِهِمْ للشَّاعرِ و قَومِهِ ، فرَدَّهُمْ عَنْ عُدوانِهِمْ جَمَاعَاتٌ مِنْ فُرسَانِ بَنِي عَامرٍ أولي القُوَّةِ، و الغَلَبَةِ ، و الأَنَفَةِ ، و الشَّرَفِ الَّذي عَلَتْ رَاياتُهُ بَينَ القَبَائلِ ، و هَؤلاءِ الفُرسَانُ الأبطَالُ يُسَارِعُونَ فِي طَلَبِ العِزَّةِ يَنتزِعُونَ الغَلَبَةَ مِنْ خُصُومِهِمْ ، و أمَّا قَائِدُ هؤلاءِ الأبطالِ ، فَتَتَجلَّى بُطُولَتُهُ فِي عَادَةٍ حَميدَةٍ تَعوَّدَهَا هِيَ مُنَازَلَةُ رُؤَسَاءِ الكَتَائبِ ، وَسْطَ بَريقِ السُّيُوفِ عِندَ التِحَامِ الفُرسَانِ .

و إمعَاناً فِي رَدْعِ الظُّلمِ و العُدوانِ تَمضِي هَذِهِ الكَتَائبُ فِي غَايَتِهَا حَتَّى تَنَالَ مِنَ الخُصُومِ مَا تُريدُ ، ثُمَّ تَرتَدُّ بَينَ مَغَانِمَ كَثيرَةٍ ، و أَوسِمَةِ فَخرٍ تَحمِلُهَا جِراحُ الأَبطَالِ مِنهُمْ ، يَقُولُ لَبيدٌ:

إنِّي امرؤٌ مَنَعَتْ أَرُومَةُ عَامِرٍ	ضَيمِي و قَدْ جَنَفَتْ عَلَيَّ خُصُومُ
جَهِدُوا العَدَاوَةَ كُلَّهَا فَأَصَدَّهَا	عَنِّي مَنَاكِبُ عِزُّهَا مَعلُومُ
بِكَتَائِبٍ تَردِي تَعَوَّدَ كَبشُهَا	نَطْحَ الكِبَاشِ ، كَأَنَّهُنَّ نُجُومُ
نَمضي بِهَا حَتَّى تُصيبَ عَدُوَّنَا	وَ تُرَدَّ ، مِنْهَا غَانِمٌ ، و كَليمُ [١]

صُورتَانِ مُتَنَاقِضَتَانِ تُبرُزَانِ جَوهَرُهُمَا: وَاقِعِيَّةُ الوُجُودِ الإنسَانِي حُرَّاً يَأْنَفُ الخُضُوعُ لِلهَوانِ ، فَتَنبَثِقُ فِي ضَميرِهِ ، رُؤيَةٌ وَ وَعْيٍ يَعنيَانِ الاحتِجَاجَ على أيِّ مِقدَارٍ مِنَ الاستِلابِ يُمَارَسُ عَلَيهَا ، إنَّهُ يَرَى فِي ظِلِّ نَمَطٍ حَيَاتِيٍّ كَهذَا لا جَدوى مِنَ الحَيَاةِ الَّتِي يَحيَاهَا ، فإمَّا أَنْ يَعيشَ عَزيزاً أو أنْ يَمُوتَ و هُوَ كَريمٌ ، فَتُضِيءُ حَيَاتُهُ بِبُطُولَةٍ تَتَخَلَّلُهَا قِيَمٌ تُسَجِّلُ شِعراً ، تَبعَثُ على الإعجابِ بِهَذا الخُلُقِ . و ظُلمٌ يَتَخطَّى بِشَريعَتِهِ أعرافَ الحَيَاةِ النَّبيلَةِ يُريدُ أنْ يُطفِئَ نُورَ تِلكَ الأعرافِ و القِيَمِ ، و يَأبَى الحَقُّ و التَّاريخُ إلاّ أَنْ يُتِمَّ نُورَهَا ، و يُبقِيَهُ مُتَوَقِّداً وَهَّاجاً.

الفُتُوَّةُ اللاّهِيَةُ:

حَدَّتْ ظُرُوفُ البيئةِ وَ أَعرافُها مِنْ قُدْرَاتِ الإنسانِ ، و عَمِلَتْ على إخْضَاعِهِ قَسْراً مِمَّا أَدَّى إلى اختِلالٍ عَميقٍ فِي التَوازُنِ الّذي يُفْتَرَضُ قِيَامُهُ بَيْنَ الذَّاتِ و بَيْنَ البيئةِ و أعرافِ المُجتَمَعِ . هَذِهِ الذَّاتُ تَتَجسَّدَ فِي شَاعِرٍ كَانَ لَهُ نَظرتُهُ وَ رأيُهُ فِي الحياةِ .. إنَّهُ طَرَفَةُ بن العَبْدِ الّذي جَرَفَهُ تَيَّارُ الشَّبابِ اللاهي ، فانحَرَفَ عَنِ الطَّريقِ السَّوِيِّ ، لكنَّ طَرَفَةَ الّذي أَفْرَدَهُ قَوْمَهُ لَمْ يَرْغَبْ فِي زِيَادةِ الشَّرخِ بَيْنَهُ و بَيْنَ

[١] ديوانه ، ص132 ، 133 ، 134

قَومِهِ بَلْ نَهَضَ بِوَعيٍ و رَغْبَةٍ فِي استِعَادةِ التَّوازُنِ ، و تحقيقِ الذَّاتِ و الهُويَّةِ ، و مِمَّا لا رَيبَ فيهِ أنَّ ذلكَ يَزيدُ منَ الضُّغوطِ عَليهِ ازدياداً يَدفَعُهُ إلى سُلوكٍ مُعَيَّنٍ باطِّرادِ وَعيِهِ فإذا هُوَ مَعَ لَهْوِهِ وَ طَيْشِهِ يَعْرِفُ أَيْنَ يَضَعُ نَفسَهُ مِنْ مَكَارِمِ الأخلاقِ الّتي أَوَّلُهَا الكَرَمُ و الشَّجاعَةُ و النَّجْدَةُ و بُعْدُ الهِمَّةِ.

فِي أبياتٍ مِنْ مُعلَّقَتِهِ يُصَوِّرُ لَنَا تَفَلُّتَ الذَّاتِ الشَّاعِرَةِ مِنْ قُيودِ الظُّروفِ القَبَلِيَّةِ وَ وُلوجَها مِنْطَقَةَ السِّيرةِ الذَّاتيَةِ ، فكَانَ لِذلكَ كبيرُ الأَثَرِ فِي نَقْلِ النَّصِّ الشِّعريِّ إلى مُسْتَوىً آخَرَ مِنْ مَواقِفِ البُطُولَةِ . إنَّ طَرَفَةَ صَاحِبُ الذَاتِ الشَّاعِرَةِ يَنطَلِقُ فِي مُغامَراتِهِ لِتكشُّفَ عَنْ رُؤىً خَارِجَةً عَلى التَّقاليدِ القَبَليَّةِ ، و النَّصُّ الشِّعريُّ يَنْفَتِحُ عَلى فَضَاءاتٍ مُتَناقِضَةٍ مُتَصَادِمةٍ . فالشَّاعرُ يُصَوِّرُ نَفْسَهُ أَصْدَقَ تَصْويرٍ ، و يَصِفُ مَعيشَتَهُ فِي السِّلمِ و الحَرْبِ ، فَهُوَ مُبذِّرٌ يكرَهُ جَمْعَ المَالِ ، و يُنفِقُهُ فِي وُجُوهِ المُتَعِ ، و لا يَمنَعُهُ فِي سَبيلِ الضِّيفَانِ و المُحتاجينَ ، و إذا حَزَبَ قَومَهُ أَمرٌ تَصَدَّرَ حَلَقَتَهُمْ لِسَدَادِ رَأْيِهِ ، وَ هُوَ يَسْتَشْهِدُ قَوْمُهُ عَلى ما يَقُولُ ، فَهُمْ يَعْرِفُونَ فِيهِ الفَتَى النَّاحِلَ فِي جسمِهِ ، المَتينَ فِي عَزْمِهِ و كَأَنَّهُ رأسُ الأَفْعَى فِي نَشَاطِهِ وَ حِكْمَتِهِ ، وَ قَدْ آلى أَنْ يَلْزَمَ السَّيفُ جَنْبَهُ دَهْرَهُ مُؤاخياً بَيْنَهُ و بَيْنَ مُرهَفِ الحَدَّينِ مِنْ سُيوفِ الهِندِ ، إذا ضَرَبَ بِهِ يَنصُرُ مَنِ استَنْصَرَهُ أَغْنَتْهُ الضَّرْبَةُ الأُولى عَنْ أَنْ يُعيدَها ، على أَنَّ لَهُ سَبيلاً فِي الحَياةِ ، لم يَرْضَ عَنْهَا أَهْلُهُ ، فَما زَالَ شُرْبُهُ للخَمرِ وَ لذَّتُهُ بِهَا وَ بَيعُهُ و إنْفَاقُهُ مَا وَرِثَهُ مِنْ مالٍ هُوَ هَمُّهُ فِي الحَيَاةِ حَتَّى تَجنَّبتهُ عَشيرتُهُ كُلُّها سَخَطاً عَلَيهِ ، و صَارَ مُفْرداً عَنْهُم كما يُبعَدُ الجَملُ الأَجرَبُ عَنِ الإبلِ السَّليمَةِ كَيْلا يُصِيبَها الجَرَبُ:

إذا القَومُ قَالوا : مَنْ فَتىً خِلْتُ أَنَّني	عُنيتُ ، فَلَمْ أَكْسَلْ و لَم أَتبَلَّدِ
وَ لَسْتُ بِحَلاّلِ التِّلاعِ مَخَافَةً	و لكنْ مَتَى يَسْتَرْفِدِ القَوْمُ أَرْفِدِ
فَإنْ تَبْغِني فِي حَلْقَةِ القَومِ تَلْقَني	و إنْ تَلتَمِسْني فِي الحَوانيتِ تَصْطَدِ
وَ إنْ يَلْتَقِ الحَيُّ الجَميعُ تُلاقِني	إلى ذَروَةِ البَيْتِ الشَّريفِ المُصَمَّدِ
وَ إنْ أُدْعَ للجُلَّى أكُنْ مِنْ حُماتِهَا	و إنْ يَأتِكَ الأعداءُ بالجُهدِ أجهَدِ
أَنَا الرَّجُلُ الضَّربُ الّذي تَعرِفُونَهُ	خَشَاشٌ كَرَأْسِ الحَيَّةِ المُتوقِّدِ
فآلَيْتُ لا يَنْفَكُّ كَشْحي بطانَةً	لِعَضْبٍ رَقيقِ الشَّفْرَتينِ مُهَنَّدِ
حُسَامٌ إذا مَا قُمْتُ مُنتَصِراً بِهِ	كَفَى العَوْدَ مِنْهُ البَدْءِ بِمُعْضَدِ
و مَا زالَ تَشْرابِي الخُمُورَ وَ لَذَّتِي	وَ بَيْعي و إنْفَاقي طَريفي وَ مُتْلَدِي

إلى أَنْ تَحامَتْني العَشيرَةُ كُلُّها وَ أُفْرِدْتُ إِفْرَادَ البَعيرِ المُعبَّدِ [1]

إنَّ وُقُوفَ الشَّاعرِ هَذَينِ المَوقِفينِ يَقومُ على وَعيٍ عَميقٍ و مُوازَنةٍ دقيقةٍ بَيْنَ ضُغُوطاتِ الأَنا الفَرديِّ و ما تَحمِلُهُ ، و ضَرورَةِ الالتِزَامِ بِمُتطلَّباتِ الأَنا الجَمْعيِّ ، و إنَّ ((**مِنْ ضِمْنِ الأَسبابِ الّتي جَعلتِ الشَّاعِرَ يَنْطَلقُ مِنَ الذَّاتِ الفَردِيَّةِ ، مَا عُرِفَ بِهِ مِنْ مَيلٍ فِطريٍّ إلى التَّغنِّي بِالذَّاتِ و بِالقِيَمِ الّتي تَتأَجَّجُ في نَفسهِ**))[2]

اسْتَعانَ طَرَفَةُ في عَرضِهِ لِمَوقِفِهِ بِصُوَرٍ خَيَاليَّةٍ قَريبَةٍ إلى النَّفسِ ، بَعيدَةٍ عَنِ التَّعقيدِ كما في قَولِهِ : "خِلْتُ أَنَّنِي عُنيتُ " وَ هَذا القَولُ كِنايةٌ عَنِ اعْتِدَادِهِ بِنَفسِهِ ، و في قَولِهِ : ((و لَسْتُ بِحَلاَّلِ التِّلاعِ)) كِنايةٌ عَنِ التَّهرُّبِ مِنْ مُلاقَاةِ الأَضْيَافِ . و في قَولِهِ ((كَفَى العَوْدَ مِنْهُ البَدْءُ)) كِنايةٌ عَنِ القَطْعِ السَّريعِ.و في قَولِهِ ((تَصْطَدِ)) اسْتِعَارةٌ لَطيفَةٌ فَهِيَ تُصَوِّرُهُ كَالطَّائرِ الّذي يَتَنقَّلُ في خِفَّةٍ .

و في قَولِهِ عَنْ نَفسِهِ إِنَّهُ ((كَرأْسِ الحَيَّةِ)) وَ هُوَ تَشْبيهٌ قَريبٌ للشَّاعِرِ مَأْخُوذٌ مِنْ بيئَتِهِ . وَ نَرى في البَيْتِ الأَخيرِ تَشْبيهاً مُنتَزَعاً مِنْ صَميمِ البَاديَةِ ، فَهُوَ يُشَبِّهُ نَفْسَهُ بَعْدَ أَنِ اعْتَزلَتْهُ عَشِيرتُهُ بالجَملِ الأجرَبِ الّذي أُفرِدَ بَعيداً عَنْ غَيرِهِ مِنَ الإبلِ حَتَّى لا يَنقُلَ إليها عَدْوَاهُ.

و نَرَى في البَيْتِ الأَوَّلِ اسْتِفْهَاماً يُوحي بِشدَّةِ إحسَاسِ الشَّاعرِ بِنَفسِهِ و شَخصِيَّتِهِ ، حتَّى كَأَنَّهُ يَتخيَّلُ أَنَّهُ وَحْدَهُ الفَتَى ، و أَنَّ كُلَّ نِداءٍ في وَقتِ شِدَّةٍ ، إنَّما يُوَجَّهُ إليهِ دُونَ غَيْرِهِ . كما نَرَى البَيْتَ الثَّانِيَ يَبْدَأُ بِنَفْيٍ مُؤَكَّدٍ ، و كَأَنَّهُ يَنْفِي بِشِدَّةٍ أَنْ يَكونَ مِمَّنْ يَستَتِرونَ عَنِ الأَعينِ مَخَافَةَ العَونِ و بَذْلِ العَطَاءِ.

لا شَكَّ في أنَّ القَارئَ يَسْتمرئُ قِرَاءَةَ هَذِهِ الأَبياتِ لأنَّ فيها عَفْويَّةً و سَذَاجةً في الفِكرَةِ وَ صِدْقاً و حَرارةً في العَاطِفَةِ ، و مَعَ أَنَّ المَوضُوعَ مَوضُوعُ فَخرٍ فَهُوَ لا يَبْدُو مُتكلَّفاً ، و لا تَسْتَثْقِلُهُ النَّفْسُ . و السِّرُّ في ذلكَ أنَّ طَرَفَةَ صَوَّرَ لنا دُونَ أن يَدري كَيفَ كَانَتِ الأخلاقُ العَربيَّةُ الأَصيلةُ نَفسُها و الّتي كَوَّنَتْ مَفْهُومَ الفُتُوَّةِ العَربيَّةِ . و السِّرُّ في الصُّورةِ ذَاتِ الوَجْهَينِ الّتي رَسَمَها لِنَفْسِهِ هُوَ أنَّ الشَّاعِرَ

[1] ديوان طرفة بن العبد - شرح الشنتمري - تحقيق درية الخطيب و لطفي الصَّقال - مجمع اللغة العربية - دمشق 1975 -ص30-31-33-32

[2] جَدليَّة القِيَم في الشعر الجاهليّ ص55

غَالِباً مَا يَظَلُّ مُرْتبِطاً بقَومِهِ ارْتِبَاطاً مُبَاشَراً ، وَ يُعبِّرُ عَنْ ذَاتِهِ في ظِلِّ قِيَمٍ اجتِماعيَّةٍ أَصِيلةٍ سَائدَةٍ و أَخلاقٍ لا يَسْتَطيعُ التَّنصُّلَ مِنْها .

شَّاعرٌ غَيرُ طَرفة يَماثِلُهُ و يُقَارِبُهُ في مَعْدنِهِ الإنسانيِّ المُتشوِّقِ إلى مُتَعِ الحَيَاةِ . رَبيعةُ بنُ مَقْرومٍ الضَّبِّيُّ يَتَحدَّثُ عَنْ مَاضِيهِ وَ لكنْ في حَاضِرٍ يُحاصِرُهُ الشَّيبُ و الشَّيخُوخَةُ فَتتسلَّلُ مُعَاناتُهُ الشَّخصيَّةُ إلى شِعرِهِ ، و تَأخذُ حيِّزاً مِنْ تَجْرِبَتِهِ الشِّعريَّةِ ، و هذا ما جَعَلَ مَلامِحُ شَخصِيَّتِهِ تَرْتَسِمُ في شِعرِهِ .

عَرضَ الشَّاعرُ لِصُوَرِ المُتعَةِ المُختلِفَةِ في الحَياةِ الجَاهليَّةِ المرأةِ و الخَمْرِ و الفُروسيَّةِ.

و لأنَّ القُوَّةَ مُتْعَةُ الفَارسِ الجَاهليِّ رَاحَ الشَّاعِرُ يتحدَّثُ عَنْ فُروسيَّتِهِ و أفعالِهِ البُطُوليَّةِ أوَّلاً مُستَحيباً لأَصْداءِ مُتَعِهِ:

فَإمَّا تَرَيْني قَدْ تَرَكْتُ لَجاجَتي ... و أَصْبَحتُ مُبيَضَّ العِذَارَينِ أشْيَبا
فَيَا رُبَّ خَصْمٍ قَدْ كَفَيْتَ دِفَاعَهُ ... وَ قَوَّمْتُ مِنْهُ دَرْأَهُ فَتنكَّبَا
وَ مَولىً على ضَنْكِ المَقَامِ نَصَرْتُهُ ... إذا النِّكْسُ أَكبَى زَنْدَهُ فَتَذَبْذَبَا
وَ فِتْيَانِ صِدْقٍ قَدْ صَبَحْتُ سُلافةً ... إذا الدِّيكُ في جَوشٍ مِنَ اللَّيلِ طَرَّبَا
سُخَاميَّةً صَهْبَاءَ صِرْفاً ، و تَارَةً ... تَعَاوَرُ أَيديهمْ شِواءً مُضَهَّبَا
وَ مَشْجُوجَةً بالماءِ يَنْزُو حَبَابُها ... إذا المُسْمِعُ الغِرِّيدُ مِنْها تَحبَّبا
وَ سِرْبٍ إذا غَضَّ الجَبَانَ بريقِهِ ... حَمَيْتُ إذا الدَّاعي إلى الرَّوْعِ ثَوَّبا [١]

الشَّاعرُ يَعْتَزُّ بِمَا أَنْجزَ في سَاحاتِ بُطولَتِهِ ، فكَمْ مِنْ خَصْمٍ كُفِيَ مُدافعتُهُ بِرَدِّهِ ، و تَقويمِ اعْوجَاجِهِ ، و كَمْ مِنْ وَلِيٍّ نَصَرَهُ عَلى ضِيقٍ مِنَ الأَمرِ وَ شِدَّةٍ وَ حِينَ لم يُقبلِ النِّكسُ عَلى ما أَقْبَلَ عليه البَطَل.

و مَا أَكثرَ جُلاَّسَهُ على الشَّرابِ في آخرِ اللّيلِ على سُلافٍ سَهْلَةٍ لَيِّنَةٍ وَ شِواءٍ لم يَنْضَجْ

ثُمَّ يَعُودُ الشَّاعرُ إلى التَّلَذُذِ بِذِكرِ بُطُولَتِهِ ، فكَمْ مِنْ مَرَّةٍ حَمى نِسَاءَ قَومِهِ مِنَ السَّبي حِينَ مُلِئَ قَلْبُ الفَارسِ الجَبَانِ رُعباً و فَزَعاً و اسْتَغاثَ بِمَنْ يُنْجِدُهُ و يَسْتنقِذُ الظَّعائِنَ.

---

[١] المُفضّليَّات ص375-376 ، و الدَّرءُ : المَيلُ ، تنكَّبَ: عَدَل عَما كانَ فيهِ ، جَوشُ اللّيل: قِطعةٌ مِنْ آخرِهِ، السُّخَاميَّة: اللَّيِّنة السَّلِسَةُ ، المُضَهَّبُ: الذي لم يَنْضَجْ.

في هذا النَّصِّ يُقابلُ الشَّاعِرُ بَيْنَ صُورةِ مَاضِيهِ ؛ صُورةِ الاسْتِجابَةِ لِلَذَّاتِ الشَّبابِ المُنطلقَةِ في سُبُلِ الحَيَاةِ اللَّاهيَةِ مَعَ الحِفَاظِ عَلى قِيَمِ الفُروسيَّةِ و صُوررَةِ الحَاضِرِ المُثقَلِ بالانْطِواءِ و العُزْلَةِ و الاسْتِسْلامِ . صُورتانِ مُتقَابلَتانِ تُظهِرُ إحْدَاهُما الأُخرى بِعُمقٍ وَ وُضُوحٍ ، صُورتَانِ مُتآزرتَانِ لتَوضِيحِ إحْسَاسِ الشَّاعرِ و مَا آلَ إليهِ.

إنَّ الشَّاعِرَ و هُوَ يَحْمِلُهُ جَناحَ الذِّكرَى مِنْ حَاضِرِهِ المُثْقَلِ بالألَمِ إلى مَاضِيهِ المُتْرَعِ بِمَا يُحِبُّ وَ يَهْوَى إنَّما يُحَاوِلُ يَسْتَجْمِعَ ذَاتَهُ مِنْ أَجْلِ مُواجَهةِ الحَاضِرِ .

و المَاضِي جُزْءٌ لا يَنْفَصِمُ عَنِ الذَاتِ . و رَبيعَةُ عِنْدَمَا يَتَذَكَّرُ المَاضي فَإنَّما هُوَ يُحاولُ أنْ يُكَثِّفَ حُضُورَهُ وَ يُؤَكِدَّ عَلى وُجُودِهِ.

أتقَنَ رَبيعةُ اختِيارَهُ للألفَاظِ ذَاتِ الدَّلالةِ ، فَـ(يَا) في البَيْتِ الثَّاني خرَجَتْ عَنْ مَعْنَى النِّداءِ فَأفَادَتِ التَّنبيهَ . وَ لَفْظ (رُبَّ) أَفَادَ التَّكثيرَ في هَذا المَقَامِ الّذي يَسْتَدْعي الاعْتِزازَ . وَ كَذلكَ (الوَاو) الّتي تَقُومُ مَقَامَ (رُبَّ) ، و لا يَفُوتُنا مَا تَحْمِلُهُ صِيغةُ المُبالغَةِ في كَلِمَةِ (غِرِّيد) و في الفِعلِ (ثَوَّب) فَالتَّضعيفُ يُفيدُ المُبالغَةَ أَيْضَاً.

و إلى حُسْنِ اختِيَارِهِ أَلْفَاظَهُ فَلقدْ اتَّكَأَ على التَّصويرِ البَيانيِّ المُوائِمِ لِظَرْفِهِ النَّفْسيِّ للتَّعبيرِ عَنْ حَنينِهِ ، و تَمكُّنُهُ جَعَلَهُ يُمْسِكُ بِزَمامِ صُوَرِهِ يُوجِّهُها تَوجيهاً جَماليَّاً لِيَأْتِيَ بِكُلِّ مَا يُمتِّعُ و يَلذُّ ، فَجَاءَ النَّصُّ عَلى حُسْنِ تركيبٍ و انْسِجَامٍ و وَحْدَةً لا تُتْعِبُ المُتَلَقِّيَ.

إنَّ التَّجرِبَةَ الحَيَاتِيَّةَ لكُلِّ شَاعرٍ وَ خَاصَّةً إذا كَانَتْ غَنيَّةً و عَميقةً تَمُدُّ الشِّعرَ بِنَسْغِ الصِّدْقِ ، و تُضْفِي عَلَيْهِ حَيَوِيَّةً وَ حَرارَةً و بالتَّالي يُصْبِحُ أَكْثَرَ تَأثيراً و فَاعِلِيَّةً.

و المَسْأَلَةُ الشِّعريَّةُ هَاهُنَا لا تَتَعلَّقُ بِمقيَاسِ المِشَاعرِ و الانحِيازِ إلى لَهْوٍ أو مُروءَةٍ ، و إنَّما تَتعلَّقُ بالتَّشَابُكِ الّذي تَتحقَّقُ فِيهِ هذهِ الصِّفَاتُ المُتبَاينةِ الّتي تَصْدُرُ عَنْهَا و القَلقِ الّذي تُسَبِّبُهُ لِرُوحٍ وَاحِدَةٍ و ذَاتٍ واحدةٍ.

جماليَّةُ القُبحِ في صُوَرِ البُطُولَةِ:

الجَمالُ ، أَيْ حُسنُ الخُلُقِ بشُروطِهِ و مَقاييسهِ يُنعِشُ وُجُوهَ الحَيَاةِ عَاطِفَةً ، و عقلاً ، و إرادَةً ، و تنشَأُ عَنهُ لَذَّةُ الجَمَالِ ، و هُوَ مَا تَرغَبُ فِيهِ النَّفسُ الإنسَانيَّةُ السَّوِيَّةُ ، و تَطمَئنُّ إليهِ ، و يَتغَلغلُ فِيهَا مُتعَةً و لَذَّةً.

و القُبحُ هُوَ مَا يَنفِرُ مِنهُ الذَّوقُ السَّليمُ ، و تِندُّ عَنهُ النَّفسُ ، و تَأبَى تَقَبَّلَهُ ، لِمَا يَترُكهُ فِيهَا مِنْ أَثَرٍ لا تَحتَمِلُهُ ، كَغَيرِهِ مِنَ القِيَمِ السَّلبيَّةِ الَّتي تَرَاها الفَلسَفَةُ ((**تتعلَّقُ بالقَبيحِ ، و المُؤلِمِ ، و الفَظِيعِ ، و الرَّهيبِ ، و المُخيفِ ، و التَّافِهِ**))[1]

و لا بُدَّ لِمُبتَغي الجَمالِ مِنَ الرُّؤيَةِ الشَّفَافَةِ ، العَميقَةِ ، خَلفَ مَظَاهِرِ الحَيَاةِ ، و في أعمَاقِهَا مِنْ نَظرةٍ تُعَوَّلُ على التَّوازُنِ ، و الانسِجَامِ ، و التَّناسُقِ ، لِيَبدُوَ الشَّيءُ جَميلاً ، فإذا حُرِمَ الإنسَانُ تِلكَ الرُّؤيَةَ الشَّفِيفَةَ بَدَا ذَلكَ الشَّيءُ قَبيحاً في نَاظِرَيهِ ، و لا يُثِيرُ فِيهِ أيَّ إحسَاسٍ.

و أمَّا الفَنَّانُ الَّذي أُوتِيَ ثَقَافَةً فَنِّيَّةً فَإنَّ ذَائقَتَهُ الفَنِّيَّةُ تُعينُهُ في الكَشْفِ عَنْ مَكَامِنِ الجَمالِ ، حَيثُمَا كانَ ، فَيُثيرُ فِيهِ لَذَّةً جَمَاليَّةً ، أو تَدفَعُهُ إلى التَّأَمُّلِ ، فَالشَّجَرَةُ العَارِيَةُ مِنْ أَغصَانِهَا عَلى سَفْحِ جَبَلٍ أَجرَدَ يَنفُرُ المُزارِعُ مِنهَا ، و لكنَّهَا قَدْ تَكونُ أجمَلَ مَا يُفَاجِئُ الفَنَّانَ ، فَيُخضِعُ القُبحَ لِمَعاييرِ الجَمَالِ ، لأَنَّ الفَنَّ يَرفُضُ التَّمييزَ بَينَ النَّظرَتَينِ.

و قَدْ يَخرُجُ مَجهُودُ الفَنِّ عَنْ مَفهُومِ الفِعلِ الأَخلاقِيِّ ، و لَكِنَّ التَّجربَةَ المُعَبَّرَ عَنهَا تَظَلُّ حَيَّةً جَميلَةً ، فَالشَّاعرُ ابنُ الرُّوميِّ صَوَّرَ الأَحدَبَ صُورَةً فَنِّيَّةً جَميلَةً قَلَّ نَظِيرُهَا في اللَّوحاتِ الشِّعريَّةِ العَربيَّةِ .

النَّفسُ البَشَرِيَّةُ الجَاهليَّةُ كَانَتْ مَسكُونَةً بِقِيَمِ القُبحِ و الجَمَالِ ، و هِيَ انعِكَاسٌ لِطَبَائعٍ وَ صِفَاتٍ تَوفَّرَتْ في كُلِّ رَجُلٍ و امرأَةٍ ، و تَجسَّدَتْ مُثُلاً و مَبَادِئَ تُوَجِّهُ السُّلوكَ الإنسَانيَّ في الجاهِلِيَّةِ ، فَإمَّا أَنْ يَنصَرِفَ إلى الجَمَالِ ، و إمَّا أن يَنصَرِفَ إلى القُبحِ ، لاختِلافِ تَقدِيراتِ الجَمَالِ و القُبحِ حسَبَ الأَذواقِ و المفَاهِيمِ.

---

[1] علمُ الجمال ، بنديتو كروتشه ، ترجمه نزيه الحكيم ، المطبعة الهاشمية ، دمشق ، 1963 ، ص116

و الاهتِمَاماتُ الجَماليَّةُ احتَلَّتْ مَسَاحَةً وَاسِعَةً مِنْ فِكرِ الشَّاعرِ الجَاهليِّ ، و فِي الشِّعرِ الجَاهليِّ الّذي صَوَّرَ البُطُولَةَ مَواقفُ تَتَّخِذُ مِنَ القَبحِ مَادَّةً لإعادَةِ خَلقِهِ و تَصويرِهِ بِمَا يَليقُ بجَلالِ البُطُولَةِ و سُمُوِّها، لتَخرُجَ الصُّورَةُ بَعيدَةً عَنِ النَّقصِ ، مُكَلَّلَةً بِمَا يَهتَزُّ لَهَا المُتَلقِّي ، فَالمُهِمَّةُ الرَّئيسيَّةُ الّتي تَقَعُ على عَاتِقِ الشَّاعرِ ((**أَنْ يَستَحضِرَ مَا يَهُزُّنَا ، و يَمَسُّ جَوارِحَنَا ، أو يَنَالُ بِكُلِّ هُدُوءٍ أمامَ نَظَرِنَا المُتَأَمِّلِ في الأَهواءِ و العَواطِفِ الإنسَانيَّةِ**))[١]

جَمَاليَّةُ البُطُولَةِ مُقتَرِنَةٌ بِقُبحِ الصُّورَةِ الّتي رَسَمَهَا عَنتَرَةُ بنَشْوَةٍ و هُوَ يُجدِّلُ بَطلاً كَمِيَّاً:

وَ حَليلِ غَانِيَةٍ تَرَكْتُ مُجَدَلاً   تَمكُو فَريصتُهُ كَشِدْقِ الأَعلَمِ [٢]

لَمْ يَكتَفِ عَنتَرَةُ بِتَصويرِ الفَارسِ البَطَلِ مُجَدَّلاً ، بَلْ جَعَلَ القُبحَ إطاراً لصُورَتِهِ ، فَجَاءَ بجُزئيَّاتٍ مِنَ القُبحِ تُتَمِّمُ الصُّورَةَ ، فقَدْ هَجَمَتِ العَضَلَةُ الصَّدريَّةُ على قَلبِ الفَارسِ ، و طَغَتْ عَلَيهِ ، و تَدَفَّقَ الدَّمُ كُلُّهُ ، و رَاحَ الجُرحُ يَصْفِرُ بَعدَ فَراغِ القَلبِ مِنَ الدَّمِ بَعدَ مَوتِ الفَارسِ ، و شَبَّهَ شَقَّ الصَّدرِ بشِقِّ شَفَةِ البَعيرِ العُليَا ، و الشَّاعرُ يُصَوِّرُ الوَاقِعَ الّذي انتَشَى بِهِ بحُدُودِهِ المَادِيَّةِ و الحِسِّيَّةِ ، و لعلَ هَذا مِنْ أَسبَابِ قَسوَةِ صُورَةِ الفَارسِ القَتِيلِ و قَبحِهَا لأَنَّها غَيرُ إنسَانيَّةٍ.

و في صُورَةٍ أُخرَى عِندَ عَنتَرَةَ يَتَدَاخَلُ طَرَفَا القُبحِ و الجَمَالِ ، و يَبدُو ذَلكَ في قَولِهِ :

فَتَركتُهُ جَزَرَ السِّبَاعِ يَنُشنَهُ   يَقضُمْنَ حَسْنَ بَنَانِهِ و المِعصَمِ [٣]

شَبَّهَ عَنترَةُ خَصمَهُ القَتيلَ بالشَّاةِ المَذْبُوحَةِ و السِّباعُ تَقضِمُ أَصَابعَهُ و مِعصَمُهُ و قَدْ أَظهَرَهَا الشَّاعرُ على دَرَجَةٍ مِنَ الحُسنِ و الجَمَالِ ، و ذَلكَ هُوَ المُرتَكزُ المَعنَويُّ الّذي انتَشَى بِهِ ، و عَادَ إليهِ ، و جعَلَهُ تَتْويجاً لِمَا سَرَدَ مِنْ حَدَثٍ بَينَهُ و بَينَ البَطَلِ القَتيلِ.

في الشِّعرِ الجَاهليِّ الحَافِلِ بالقِيَمِ و المَواقِفِ المُتَنَاقِضَةِ نَجدُ في مَواطِنَ كَثيرَةٍ مِنهُ عَلاقَةً وَثيقَةً بَينَ مَفهُومِ البُطُولَةِ و مَفهُومِ الغَلَبَةِ و القُوَّةِ و القَهرِ ، فَالشِّراسَةُ و الفَتكُ و البَطشُ عُمقُ القُوَّةِ في الحَيَاةِ الجَاهليَّةِ

---

[١] فنُّ الشعر ، هيغل ، ص23

[٢] ديوانه ، ص149 ، تمكو: تصفر ، الفريصة : عضلة صدرية قُرب القلب في الدَّابة و الإنسان و يَرعُدُ إذا خافَ ، و يَصفِرُ الجُرحُ إذا ذَهبَ الدَّمُ كُلُّهُ ، الأعلم : البعير المَشقوق المِشفرِ الأعلى.

[٣] ديوانه ، ص150

بَلْ إنَّ عُمقَ القُوَّةِ الّتِي تَخرُجُ عَنِ المَألُوفِ هُوَ الغَالِبُ ، لأنَّهُ عَقيدَةُ الغَالبيَّةِ العُظمَى مِنْ العَرَبِ الجَاهليِّينَ . يَعكِسُ هَذا المَنطِقُ عَامرٌ المُحاربيُّ الخَصَفِيُّ ، و هُوَ يَفخَرُ بِيومِ رُجيحٍ حِينَ لَقِيَ قَومُهُ طَيِّئاً ، و نَكَّلُوا بِهِمْ:

وَ يَومَ رُجَيحٍ صَبَّحَتْ جَمعَ طَيِّءٍ … عَنَاجيجُ يَحمِلْنَ الوَشِيجَ المُقَوَّمَا
نُرَاوِحُ بِالصَّخرِ الأَصَمِّ رُؤُوسَهُمْ … إذَا القَلَعُ الرُّومِيُّ عنْهَا تثلَّما
لَنَا العِزَّةُ القَعسَاءِ نَختَطِمُ العِدَى … بِهَا ثُمَّ نَستَعصِي بِهَا أَنْ نُخَطَّمَا
فَمَا يَستَطِيعُ النَّاسُ عَقداً نَشُدُّهُ … و نَنْقُضُهُ مِنهُمْ و إنْ كانَ مُبرَما [١]

يُصَوِّرُ فُرسَانَ قَبيلَتَهُ ذَوي سَطوَةٍ قَاهِرَةٍ ، فَهُمْ صَبَّحُوا بِخُيُولِهِمْ طَيِّئاً ، و مرَّةً تِلْوَ مَرَّةٍ يَرضَخُونَ رُؤُوسَهُمْ بِالصَّخرِ الصَّلدِ بَعدَ أَنْ تَتَثَلَّمَ سُيُوفُهمْ . و قَومُ الشَّاعرِ أصحَابُ العِزَّةِ الثَّابتَةِ يُرغِمُونَ بِهَا الأُنُوفَ ، و يَنقُضُونَ العُهُودَ إنْ شَاؤُوا مِنْ بَعدِ مِيثَاقِهَا.

استَطاعَ الشَّاعرُ أَنْ يُوَفِّقَ بَينَ العَاطِفَةِ و الصُّورَةِ الشِّعريَّةِ ، إنَّهُ يُبرِزُ تَهَكُّمَهُ ، و تَشفِّيهِ مَسْرُوراً . و إنَّ ما أصَابَ طَيِّئاً لَيَروقُ فِي عَينَيهِ ، و كَأَنَّهُ سَادِيٌّ يَتَلَذَّذُ بِمَشهَدِ عَذَابِهِمْ حِينَ ينظُرُ إلى رَضخِ رُؤُوسِهِمْ بِالصَّخرِ الأَصَمِّ ، فَيَجدُ فِي ذَلكَ مُتعَةً لا تَعدِلُهَا مُتعَةٌ .

و حِينَ نَتعمَّقُ المشَاعرَ الّتِي قَدْ تَبدُو سَاديَّةً نَعرِفُ أنَّ هُنَاكَ مَعنَىً آخرَ غَيرَ السَّادِيَّةِ ، هُوَ مَا حَسَّنَ مَنظَرَ الفَجِيعَةِ فِي نَظَرِ الشَّاعرِ ، و هُوَ إدراكُهُ كَونَ ذَاكَ المَنظَرِ القَبيحِ إنَّما هُوَ اسْتِلابٌ و قَهرٌ للآخَرِينَ ، و استِلابٌ لإرادَتِهِمْ ، و نَقضٌ لِمَواثِيقِهِمْ، و هُوَ إنَّما يَبتَهِجُ عَلى التَّحديدِ لِمَا يَرَاهُ جَميلاً.

و يُقَدِّمُ الشَّاعرُ بِشرُ بنُ أبِي خَازِمٍ صُورَةً عَنْ فِعَالِ خَيلٍ و فُرسَانِ قَومِهِ بِبَنِي نُمَيرٍ و كِلابٍ و كَعبٍ ، و مَا لَحِقَ بِهِمْ:

و بَنِي نُمَيرٍ قَدْ لَقِينَا مِنهُمْ … خَيلاً تضِبُّ لِثَاتُهَا لِلمَغنَمِ
فَدَهَمنَهُمْ دَهْماً بِكُلِّ طِمْرَّةٍ … و مُقَطِّعٍ حلقَ الرِّحَالَةِ مِرْجَمِ
و لَقَدْ خَبَطنَ بَنِي كِلابٍ خَبطَةً … أَلصَقْنَهُمْ بِدَعَائِمِ المُتَحَيَّمِ
وَصَلَقْنَ كَعباً قَبلَ ذَلكَ صَلقَةً … بِقَنَاً تَعَاوَرَهُ الأَكفُّ مُقَوَّمِ

---

[١] المفضليَّات ، ص319 ، 320 ، 321 ، العناجيج : طوال الأعناق ، أراد الخيلَ ، القلع: السُّيوفُ المنسوبة إلى مرج القلعة ، و هو موضعٌ بالباديةِ ، القعساء : الثابتة ، نختطم : نضرب الأنوف و نقهر أصحابها

حَتَّى سَقَينَاهُمْ بِكَأسٍ مُرَّةٍ   مَكروهَةٍ حَسَواتُها كَالعلقَمِ [١]

في غَمرَةِ المشَاهِدِ مِنْ سُرعَةِ الخَيلِ ، و حَملَتِهَا على القَومِ ، و الضَّربِ الشَّديدِ على غَيرِ انتِظَامٍ ، و الّتي سَاقَها الشَّاعرُ في تَصويرٍ جَميلٍ مِنْ مَوطِنِ القُبحِ و البَشَاعَةِ . تَبدُو مَشَاعِرُهُ الخَاصَّةُ و هِيَ مَشَاعِرُ قَومِهِ ، إذْ يُستَشفُّ الابتِهَاجُ بِالمَنظَرِ السَّمْجِ ، و إيثارُهُ على الحُسْنِ.

و بَعدُ ، فقَدْ نَعجَبُ لِسُرورِ الشَّاعِرِ بِمنَاظِرَ قَبيحَةٍ ، كَمَنظَرِ الدَّمِ المَسْفُوكِ مِنَ الخُصُومِ ، و الّذي هُوَ أَشَدَّ إرْواءً لِتَعَطُّشِهِ الرُّوحيِّ و المَعنَويِّ لِنُصْرَةِ نَفسِهِ و نُصرَةِ قَومِهِ أو منظَرِ الأبطالِ الّذينَ صُرِعُوا مِنَ الخُصُومِ ، أو الّذينَ لَمْ يَبقَ لَهُمْ مَا يَسكُنُونَ إليهِ ، حِينَ يُبرزُ مَوطِنَ السَّمَاجَةِ و القُبحِ في صُورَتِهِ ، و مَوطِنَ الحَسْنِ و الجَمَالِ ، فَيُفَضِّلُ الصُّورَةَ على الثَّانيَةِ ، و يَرَاها أجمَلَ في نَفسِهِ ، فَنَتَسَاءَلُ : أَينَ سُمُوَّ الشَّاعِرِ ؟ و أينَ نَفسُهُ الرَّقِيقَةُ ، و إنسَانيَّتُهُ الرَّفيعَةِ ؟ و لكِنَّنَا لَو عَلِمنَا أنَّ الشُّعراءَ الآخَرينَ كَانُوا سَيَقِفُونَ مَوقِفَ الشَّاعِرِ نَفسَهُ لَوِ انتَصَرَ أو انتَصَرَ قَومُهُمْ ، و لَفَعَلُوا مَا فَعَلَ هُوَ لَوَجَدنَا أنَّ هَذا المَوقِفَ كانَ سَليماً طَبيعيَّاً ، و لكِنَّ ذَلكَ كُلَّهُ لَيسَ قَاعِدَةً عَامَّةً عِندَ الشُّعراءِ جَميعاً ، فَلَيسَ كُلُّ شَاعِرٍ يَبتَهِجُ بِالمَنظَرِ السَّمِجِ القَبيحِ ، و يُؤثِرُهُ على الحَسَنِ الجَميلِ .

****

[١] المُفضَّليات، ص348 ، تضِبُّ لثاتها : تسيل من الحرص ، دهمنم : حملنَ عليهم ، خبطنَ : ضربنَ بِشدة ، و وطِئنَ وطئاً شديداً ، و الخبط : الضَّرب على غير انتظام ، صلقن: ضربن ضرباً شديداً.

الفَصْلُ الرابع

- البُطُولةُ الوَاقِعيَّةُ في الشِّعرِ الجَاهِليِّ
- شِعرُ البُطُولةِ وَ الانْتِماءِ إلى الوَطَنِ
- العَربُ و الشِّعرُ المَلحَمِيُّ
- المِرْأَةُ العَربيَّةُ و البُطُولَةُ
- الخَيْلُ و السِّلاحُ في بُطولَةِ العَربيِّ
- رمزُ البطولة العربيّة عَنترَةُ
- قِيَمٌ مُغايرةٌ

البُطُولةُ الواقِعيَّةُ في الشِّعرِ الجَاهِليِّ

يُمَثِّلُ مَفْهُومُ البُطُولةِ و البُطُوليِّ مَكانَةً هَامَّةً في الآدابِ العَالَمِيَّةِ لارْتكازِهِ عَلى تَاريخٍ عَريضٍ مُتَشَابِكٍ في الأُمَّةِ.

وَ البُطُولَةُ شَكَّلَها الشِّعرُ الجَاهِليُّ بِمناحِيهَا و مُسْتَوياتِهَا و شُروطِهَا الذَّاتِيَّةِ و المَوضُوعِيَّةِ وَ هِيَ تُمثِّلُ إرادَةَ الكَمالِ و التَّشَوُّقِ إلى الأَعلى ، و لِذَلكَ تُعتَبَرُ النُّصُوصُ الشِّعرِيَّةُ الجَاهِلِيَّةُ شَكلاً وَ مَضْمُوناً و عَلاقَتُهُما بِالنَّموذَجِ البَطَلِ و تَجسُّماتِهِ النَّبيلَةِ الشَّفَّافةِ مِنْ أَدَقِّ مَا قَدَّمَتْهُ الوَاقِعيَّةُ في هَذا الصَّدَدِ .

إنَّ الشَّاعِرَ الجَاهِلِيَّ الفَارِسَ الّذي يُمارِسُ الفِعْلَ البُطُوليَّ بِشَكْلٍ يَومِيٍّ يَدفَعُهُ نَحوَ التَّشَبُّثِ بِذَاتِهِ تَشَبُّثاً يَنْجُمُ عَنْهُ الزَّهْوُ ، إنَّما يُمَارِسُ فِعْلَهُ اليَوميَّ لِواقِعٍ مُعَاشٍ . فَالبُطُولةُ الوَاقِعيَّةُ تَعني الاعترافَ بِحَقيقَةٍ هَامَّةٍ هِيَ أنَّ شَخْصِيَّةَ البَطَلِ لا تَتجاوَزُ الحُدودَ اليَومِيَّةَ العَادِيَّةَ . وَ المَقَامُ الجَوهَرِيُّ في التَّصَوُّرِ الوَاقِعيِّ لِلشِّعْرِ هَوَ تَكْوينُ النَّموذَجِ الّذي يَجْمَعُ في مَجَالِ المَواقِفِ خَصَائِصَ العُنصُرِ الفَرْدِيِّ و الاجتماعيِّ لِمَا يَصُبُّ فِيهِ و يَنْصَهِرُ بِهِ مِنَ اللَّحَظَاتِ المُحدَّدَةِ إنسَانيَّاً و اجتِماعِيَّاً بِطَرِيقَةٍ جَوهَرِيَّةٍ .

و حِينَ نَعُودُ إلى النُّصُوصِ الشِّعريَّةِ الَّتي احْتَفَتْ بالحَماسَةِ و البُطُولَةِ و مَا يَتَّصِلُ بِمَعْنَى القُوَّةِ و الشَّجاعَةِ مِنْ دَعْوَةٍ إلى القِتَالِ ، أو حَديثٍ عَنِ البُطُولةِ في المَعرَكَةِ ، أو الفَخْرِ بالنَّصْرِ نَتَعرَّفُ مَلامحَ هذا الشِّعرِ ، فَالتُّراثُ الشِّعريُّ بِصُورَتِهِ الّتي عَبَرَتِ إلينَا هُوَ المِرآةِ الصَّادِقةُ الّتي تنعَكِسُ على صَفْحَتِها صُورَةُ المُجتَمعِ الجَاهليِّ القَبَليِّ حَتَّى في القَصَائدِ الّتي سَجَّلَتْ ذِيادَ العَرَبِ عَنْ حِيَاضِهِمْ .

وَ مَا دَامَ الشِّعرُ الجَاهِليِّ يَصْدُرُ عَنْ وَعْيٍ فَإنَّ عَظَمَةَ ذَلكَ الشِّعرِ تَكْمُنُ في تَحويلِ الحَياةِ الهَامِشيَّةِ إلى إيحاءاتٍ غَنيَّةٍ بالدَّلالةِ مِنْ خلالِ اللُّغةِ اليَوميَّةِ المُتَداولةِ.و تَنْغَلِقُ تَراكيبُ هَذِهِ اللُّغَةِ عَلى أَسرارِ النَّفسِ الإنسانيَّةِ بِأَبعَادِها كُلِّها و تَجلِّيَاتِها وَ أَحلامِها و طُموحاتِها ، لذلكَ لَمْ يَتَوقَّفِ العَرَبُ عِنْدَ مَفْهُومِ البُطُولةِ المُتَجلِّي في الغَلَبَةِ عَلى الأَقرانِ ، بَلْ تَجاوَزُوا ذَلكَ إلى مَعانٍ تَرْتَفعُ بالبَطَلِ ، فَيَسْمُو في النُّفوسِ و يَمْلَؤُهَا إجلالاً لَهُ ((**فَمعَ أنَّ المَقْصُودَ مِنَ البَطَلِ النَّاحيَةُ الَّتي تَتَّصِلُ بالحَربِ وَ هِيَ القُوَّةُ**

و الشَّجاعَةُ ، فَقدْ وَصَفُوهُ فَوقَ ذَلكَ بِصِفَاتٍ أُخرى لو اجتَمَعَتْ كُلُّهَا لَكَانَ شَخْصَاً كَامِلاً ، في الخُلُقِ و الخَلْقِ و الصِّفَاتِ و العَادَاتِ))[١]

وَ البَطَلُ مَعَ بَسَالتِهِ و تَغلُّبِهِ على أَقْرانِهِ فَهُوَ ابنُ بيئَتِهِ الّتي أَنبتَتْهُ كَأَيِّ فَرْدٍ فِيها ، جَعَلَهُ اللهُ بَشَراً سَوِّياً ، بُطُولَتُهُ وَلِيدَةُ قُدرَتِهِ البَشَرِيَّةِ وَ ((**لَمْ تَكُنْ بُطُولَتُهُ غَيْبِيَّةً كما عَوَّدَتنا الأَساطيرُ اليُونَانيَّةُ و الرُّومانِيَّةُ وَ إنَّما بُطُولَتُهُ نَابِعةٌ مِنْ أَعماقِ أَبْنائِها ، وَ مُتَوَلِّدَةٌ مِنْ أَغْوارِ نُفُوسِهِمْ ، فَهِيَ بُطُولَةٌ إنسَانيَّةٌ وَاضِحَةٌ ، وَ هِيَ صُورَةٌ نَاطِقَةٌ بِكُلِّ المُقَوِّماتِ العَربيَّةِ ، و مِثالٌ حَيٌّ لِخَصَائِصها**))[٢]

في مَظهَرٍ مِنْ مَظَاهِرِ البُطُولَةِ الوَاقِعيَّةِ لأَوسِ بنِ حَجَرٍ يُبيِّنُ مَاذا أَعَدَّ لِلَحَربِ ، و قَدْ كَشَّرَتْ عَنْ نَابِ شَرٍّ مُسْتَطيرٍ :

وَ إنِّي امْرُؤٌ أَعْدَدْتُ لِلْحَربِ بَعْدَما ... رَأَيْتُ لها نَاباً مِنَ الشَّرِّ أَعْصَلا
أَصَمَّ رُدَيْنِيَّاً كَأَنَّ كُعُوبَهُ ... نَوَى العَشْبِ عَرَّاصاً و مَزْجاً مُنَصَّلا
و أَبيَضَ هِنْدِيَّاً كَأَنَّ غِرارَهُ ... تَلأْلُؤُ بَرْقٍ عَنْ حَبِيٍّ مُكَلَّلا
إذَا سُلَّ مِنْ غِمْدٍ تَأَكَّلَ أَثْرُهُ ... على مِثْلِ مِصْحَاةِ اللُّجَينِ تَأَكَّلا ٣

إنَّها صُورةٌ شِعريَّةٌ مِنْ رُوحِ فُروسيَّةِ الأبطالِ الجَاهليّينَ ، إنَّ عُدَّتَهُ رُمحٌ يَميلُ إلى السَّوادِ ، لَيِّنٌ ، صُلبُ الكُعُوبِ ، لَهُ نَصْلٌ بَرَّاقٌ ، وَ سَيْفٌ لَمَعَانُ حَدِّهِ كَلَمَعَانِ البَرْقِ الخَفيفِ ، و يَشْتَدُّ بَريقُهُ إذا مَا اسْتُلَّ مِنْ غِمْدِهِ كَاشْتِدادِ بَريقِ إناءٍ مِنْ لُجَينٍ.

إنَّهُ تَصويرٌ نَقْلِيٌّ مِنْ خِلالِ مَلامِحِ البِيئةِ الجَاهِلِيَّةِ عُنِيَ الشَّاعرُ فِيهِ بِوَصْفِ اللَّونِ و الحَرَكَةِ.

و يُمكِنُ القَولُ بأنَّ هذَا الحُكمَ لا يُقبَلُ تَعميماً و إطلاقاً على الشِّعرِ الجَاهليِّ كُلِّهِ فَحِينَ صَوَّرَ عَمرو بن كُلثومٍ بُطُولَةَ قَومِهِ أَلَمْ يَكُنْ في هَذَا التَّصويرِ جُنُوحٌ للتَّقديمِ الأُسطوريِّ للبَطَلِ ؟

مَوقِفٌ بُطُوليٌّ آخَرُ مُنتَزَعٍ مِنْ الواقِعِ الجَاهليِّ يَصِفُ حَاتِمٌ الطَّائيُّ في وَصْفاً نقليَّاً مُصَوَّراً نَقْليٍّ تَقْريريٍّ فِعْلَهُ الّذي يَتَناسَبُ مَعَ طَاقَتِهِ و اسْتِعْدادِهِ:

---

١ شِعرُ الحَربِ في العَصرِ الجَاهليِّ ص 90.
٢ الفُروسيَّةُ في الشِّعرِ الجَاهليِّ ، نُوري حمودي القَيسي ، عَالم الكُتب - مكتبة نَهضَةُ مصر ، ط2 ، 1404-1984 ، ص124
٣ ديوانُهُ : تحقيق و شرح د. محمد يوسف نجم - الجامعة الأمريكية - بيروت - دار صادر 1380-1960 ص83 ،84 ،85

وَ مُعْتَسِفٍ بالرُّمحِ دُونَ صِحَابِهِ   تَعَسَّفْتُهُ بالسَّيْفِ ، و القَومُ شُهَّدُ
فَخَرَّ على حُرِّ الجَبِينِ وَ ذَادَهُ   إلى المَوْتِ ، مَطْرورُ الوَقِيعَةِ مِذْوَدُ
فَما رُمْتُهُ حَتَّى أَزَحْتُ عَوِيصَهُ   و حَتَّى عَلاهُ حَالِكُ اللَّونِ أَسْوَدُ [1]

إنَّهُ يَرُدُّ على فَارسٍ جَاوزَ أَخلاقَ البُطُولَةِ فَجَارَ حَتَّى عَلاهُ حَاتِمٌ بِالسَّيفِ فَهَوى على جَبِينِهِ يَدْفَعُهُ إلى المَوتِ سَيْفُ حاتمٍ المَسْنُونُ ، وَ مَا كادَ حَاتِمٌ يُيَمِّمُ ذَلكَ الفَارسَ حَتَّى أَذْهَبَ مَا صَعُبَ مِنْ جَلَدِهِ و شِدَّتِهِ ، و عَلا الفَارسَ الصَّرِيعَ غُبارُ المُنَازَلَةِ المُختَلِطُ بدَمِهِ، و في تِلكَ الصُّورَةِ دَلالَةٌ إيحائيَّةٌ تَستَوقِفُ المُتلقِّي و هي اعترافُ البَطَلِ المُنتَصشرِ ببُطُولَةِ الآخرِ و ثَبَاتِهِ دُونَ أنْ يتَقَهقَرَ حتَّى مَصْرَعِهِ.

وَ يَذْكُر الشَّاعرُ عَبدُ يَغُوثَ بنُ وقَّاصٍ الحَارِثيُّ إقْدَامَهُ و اقْتِحَامَهُ هَوْلَ المعركَةِ إذا نَفَرتْ الخَيْلُ بِفُرسَانِها فِراراً مِنَ القِتَالِ وَ وُجِّهَتْ إليهِ رماحُ الثَّابتِينَ في اللِّقَاءِ ، و يَفْتَخِرُ بِبُطُولَتِهِ أَمَامَ امْرأَتِهِ:

وَ قَدْ عَلِمَتْ عِرْسِي مُلَيْكَةُ أَنَّني   أَنَا اللَّيثُ مَعْدُوَّاً عَلَيَّ و عَادِيا
وَ قَدْ كُنْتُ إذا ما الخَيلُ شَمَّصَها   القَنَا   لَبِيقاً بِتَصْرِيفِ القَنَاةِ بَنَانِيَا
وَ عَادِيَةٍ سَوْمَ الجَرادِ وَزَعْتُها   بِكَفِّي وَ قَدْ أَنْحَوْا إليَّا العَوالِيَا [2]

إنَّه مَشْهَدٌ فِيهِ تَعبيرٌ عَنْ إعجابِ الشَّاعِرِ بِنَفْسِهِ ، وَ فِيهِ شُعُورٌ بِعُلوِّ نَفْسِهِ وَ رِفْعَتِهِ يَصْدُرُ عَنْ تَجْرِبَةٍ ذَاقَهَا و حَاولَ أَنْ يَنْقُلَهَا إلى عِرْسِهِ بِمُبالغَةٍ و جُنُوحٍ بِالخَيالِ.

وَ النُّصُوصُ السَّابِقَةُ تَبدُو فِيها الاستِجابَةُ النَّفسيَّةُ مِيزَةً مُضِيئَةً مُنْبَعِثَةً عَنْ عَاطِفَةٍ صَادِقَةٍ . إنَّها تُمثِّلُ تَجاربَ أَصْحابِهَا في مَيَادِينِ البُطُولاتِ بِأَمانَةٍ و إخلاصٍ دُونَ تَنَكُّبٍ عَنْ طَرِيقِ الحَقِّ بادِّعاءِ الأَكاذيبِ و اختِلاقِ الأَباطيلِ كَما هُوَ الحَالُ في الملاحِمِ الّتِي يُحاكُ نَسْجُهَا مِنَ الأَفعالِ الخَارِقَةِ و الأَساطيرِ . فالوقَائعُ تَتَكوَّنُ و تَتَشَكَّلُ لِخُطوَةٍ أُولى في المُخَيِّلَةِ ثُمَّ تَتَحوَّلُ رُويداً رُويداً إلى حَقائقَ وَ وقائعَ مَلْمُوسَةٍ في عَلاقَةٍ تَكَامُليَّةٍ بَيْنَ الوَاقِعِ و الخَيَالِ ، و هَذَا مَا لا نَلْمِسُهُ في الأساطيرِ.

---

[1] ديوانه ص35

[2] المُفضَّليات ص158 - اللَّبيقُ: الحَذِقُ ، شَمَّصَها: نفَّرَها ، العَادية: يُرِيدُ الخَيلَ العَادِيَة ، سَومَ الجَراد : يُرِيدُ أنَّ الخَيلَ كالجَرادِ في كَثْرَتِها . وزَعْتُها : كَفَفْتُها ، أنْحَوا : وَجَّهُوا.

فالخَيالُ رَسَمَ تَصَوُّراتِهِ ، و لكِنَّهُ لم يَسْمَحْ لَهَا بالتَّحوُّلِ إلى واقعٍ .فَوَاضِعُو الأَسَاطيرِ لم يَتحكَّمُوا بخُيوطِ التَّصَوُّراتِ وَ الرُّؤى لِتَتَحوَّلَ إلى حَقَائقَ ، فَسَيطَرَ الخَيالُ عَلى وَقْتِهِمْ وَ تَشَتُّتِهِمْ و تَركِيزِهِمْ وَ تَصَوُّراتِهِمْ حَوْلَ مَا كانَ يَجبُ أَنْ يُخْرَجَ و يَتحوَّلَ إلى واقعٍ مَلمُوسٍ.

وَ مِنْ ثَمَّ فإنَّ الشَّاعِرَ الجَاهليَّ قَدَّمَ للمُتَلَقِّي مَعَالِمَ الثِّقَةِ ، وَ حَظِيَ بهَا مِنْهُ عَلى خِلافِ الشُّعراءِ الآخَرينَ الّذينَ حَجَبُوا تِلْكَ المَعَالِمَ عَنِ المُتلقّي بِسَبَبِ تَراكُمِ التَّصَوُّراتِ المُسْتَغرَبَةِ الّتي لا يَرْضَى عَنْهَا وَعْيُ المُتَلَقِّي و لا ثَقَافَتُهُ ، لأنَّهَا غُلُوٌّ تَأْبَاهُ النَّفسُ ، وَ يَمُجُّهُ الذَّوقُ ، و يَرْفُضُهُ العَقْلُ ، لأنَّ هَذَا الغُلُوَّ يَصِلُ إلى دَرَجَةِ تَزْييفِ الحَقَائقِ و تَزويرِ الوَاقِعِ.

و إضافَةً لِما سَبَقَ فَإنَّ المَواقِفَ و الحَالاتِ البُطُوليَّةَ العَربيَّةَ تَتجلَّى فِيهَا قِيَمُ الجَمالِ ، و تُحرِّكُ في نَفْسِ المُتَلَقِّي العربيِّ المُعَاصِرِ شُعوراً مُريحاً ، و انسِجاماً فِكريّاً ، و اقتراباً مِنْ قِيَمٍ عُليَا تَتْرُكُ في كُلِّ عَصْرٍ آثارَها النَّبيلَةَ ، و تَصْقُلُ رُوحَ العَربيِّ الحُرِّ صَقْلاً يُدرِّبُهَا عَلى الاقترابِ مِنْهَا و التَّعلُّقِ بِهَا.

و لَيسَ مَعنَى الوَاقِعيَّةِ في شِعرِ البُطُولَةِ الجاهليِّ ((**ارْتبَاطُ شاعِرنَا بالواقِعِ ارْتِبَاطاً مُطْلقاً بالواقِعيَّةِ الدَّقيقةِ ، وَ اقْتِصَارَهُ على وَصْفِ الحَقَائِقِ وَصْفاً مَوْضُوعِياً . فَالشِّعْرُ – و هُوَ يَأْبَى أَنْ يعيشَ حَبيسَ التَّعبيرِ المَوضُوعيِّ الجَافِّ ، و لا بُدَّ لَهُ مِنْ نَفحاتٍ وُجْدَانيَّةٍ ذَاتِيَّةٍ ، تَتخَطَّى تِلكَ الدَّائرَةَ الضَّيِّقَةَ إلى مَيْدَانٍ مِنَ العَاطِفَةِ و الخَيالِ رَحيبٍ**[١])).

وَ مِنْ أَجْلِ ذلكَ كانَتِ الصُّورَةُ الشِّعريَّةُ القِوامَ المَعْدُودَ في الفَنِّ الشِّعريِّ ، و هِيَ ((**جُزءٌ مِنَ التَّجربةِ، و يَجِبُ أَنْ تِتآزَرَ معَ الأَجزاءِ الأخرى في نَقلِ التَّجربَةِ نَقلاً صَادِقاً فَنِّياً وَ واقعيّاً**[٢]))

وَ الصُّورةُ الشِّعريَّةُ القِوامُ في الفَنِّ الشِّعريّ ((**تَنْطَوي على هَيئَةٍ سِيَاقِيَّةٍ مُتعدِّدَةُ الإيحاءِ لما تَحمِلُهُ مِنْ دَوافِعَ و نَزْعَاتٍ ذَاتِيَّةٍ و مَوْضُوعِيَّةٍ أيْ أنَّ حَواسَّ الشَّاعِرِ تتلَقَّفُ مَا تَشْعُرُ بِهِ ، و تُعبِّرُ عَنْهُ بِصِيغَةٍ جَمَاليَّةٍ مُوازِيَةٍ للمُحيطِ ، وَ في الوَقْتِ نَفْسِهِ تُعَبِّرُ عَنِ الوَاقِعِ التَّاريخيِّ و الثَّقافيِّ و الاجْتِماعيِّ**))[٣]

[١] سلامةُ بن جَندل - الشَّاعرُ الفارسُ ، دراسة لِشَخصيَّته و فَنِّهِ ، د. فخر الدين قَباوة، دار الفكر - دمشق ط2 1414/ 1994 ، ص236-237

[٢] النَّقدُ الأدبيُّ الحديثُ ، د. محمد غُنيمي هِلال - دار العَودة - بيروت ط1 1982 ، ص442 .

[٣] الرّثاء في الجاهليّة و الإسلام ، د. حسين جمعة ، دار مَعْد للطّباعةِ و النَّشر - دمشق 1991 ، ص205

وَ مَعنَى هَذا أنَّ الشَّاعرَ الجاهليَّ كانَ يَسْتَعينُ بِمَا يُحَمِّلُ عِباراتِهِ في النَّفسِ فيَأتي بالصُّوَرِ البَيَانيَّةِ مِنْ أَقْرَبِ سُبُلِهَا . و إنْ سِيقَتْ بَعضُ صُوَرِ الشِّعرِ الجَاهِلِيِّ في إطارٍ مِنَ المُبَالَغةِ فإنَّها لا تَصِلُ إلى دَرجَةِ الانحرافِ عَنِ الوَاقِعِ و لا يَشْتَطُّ فِيها الكذِبُ إلى غَيْرِ المألوفِ ، لأنَّ الشَّاعرَ كوَّنَها بأداةِ الفَنِّ و أعذَبُ الشِّعرِ أكذبُهُ أي أكثَرُهُ خيالاً ، وَ هُوَ الخَيالُ الّذي تَطمَئِنُّ إليهِ النَّفسُ ،

و قَدْ سَوَّغَ النَّاقِدُ حَازِمٌ القُرطاجَنيُّ ، ذلك الخَيالُ الّذي يَنأَى بِهِ الشَّاعِرُ عَنِ الوَهْمِ ، فقالَ:

((و **إنَّما سَاغَ في الشِّعرِ وُقُوعَ الكَذِبِ في المُمْكِناتِ ، و لَمْ يُسغِ المُستَحيلاتِ ؛ لأنَّ الأَمرَ إذا كانَ مُمكِناً سَكَنَتْ إليهِ النَّفسُ ، و جَازَ تَمْويهُهُ ، و المُحَالُ تَنْفِرُ عَنْهُ النَّفْسُ و لا تَقْبَلُهُ البَتَّةَ**[1])).

و لكنْ قَدْ يَغلُو الخَيالُ في التَّحليقِ فَتَأتي جَمَاليَّةُ الصُّورَةِ مِنَ اختِراقِ المَألوفِ و إثَارَةِ الدَّهشَةِ كما في قَولِ عَمرو بنِ كُلثُوم :

إذا بَلغَ الفِطَامَ لَنَا صَبيٌّ   تَخِرُّ لَهُ الجَبَابِرَةُ سَاجِدِينَا

شِعرُ البُطُولَةِ و الانتِماءُ إلى الوَطَنِ:

مِنْ أسمَى الخِلالِ الّتي تَدْخُلُ في نَسيجِ الشِّعرِ الوَاقِعيِّ الجَاهليِّ التَّشبُّثُ بالأرضِ ، و هيَ سِمَةٌ نَبيلَةٌ مَأْثورةٌ عِنِ العِرَبيّ في الجَاهليَّةِ ، و تَدلُّ على رِقَّةِ القَلبِ ، و هِيَ مِنْ عَلاماتِ الرَّشَدِ لِمَا فِيهِ مِنَ الدَّلائلِ على كَرَمِ الأَصْلِ ، و تَمامِ العَقْلِ ، و تَعنِي بالتَّشَبُّثِ بالأَرضِ التَّشَبُّثَ بالمَكَانِ الأفضَلِ ، و مَا هُوَ أفضَلُ اليَومَ قَدْ لا يَكونُ كَذلكَ غَداً ، لأنَّ العَربيَّ يَعيشُ بِبيئَةٍ لا تَعرفُ أرضاً مُستَقِرَّةً.

و حينَ تَرْتَبطُ مَشَاعِرُ الإنسانِ بالأرضِ الّتي أَنْبَتَتْهُ تَنْتُجُ عَنْ ذلكَ دَلالَةٌ عميقَةٌ على صَيْرورةِ الحَياةِ الإنسانيَّةِ مظْهَرَ صِدْقٍ ، و هَذِهِ الدَّلالةُ تَقْتَرِنُ بِنُشُوءِ الوَطَنِ ، فالارتباطُ بالقَبيلَةِ الّتي تَحُلُّ في حَيِّزٍ مَكَانِيٍّ تَعْنِي الوَطَنَ، و لا تُعادِلُهُ بُقعَةٌ خَارجَ حُدُودِ تِلكَ الصَّحراءِ الشَّاسِعَةِ.

---

[1] مَناهِجُ البُلَغاءِ و سِراجُ الأُدباءِ ، حازم القرطاجَنيّ ، تحقيق محمد الحبيب بن الخوجة ، دار الكُتب الشَّرقيَّةِ - تونس ، 1966- ص294

و قَدْ تَفاعَلَ الإنسانُ العَربيُّ الجاهليُّ مع المَكانِ تَفاعُلاً عَميقاً ، و قد بَيَّنَ القُرآنُ الكَريمُ فَضْلَ الوَطَنِ ، و أَثْنَى على كَلَفِ النُّفُوسِ بِهِ إذْ جَعَلَ خُروجَ الإنسانِ العَربيِّ مِنْ دِيَارِهِ مُعادِلاً لِقَتْلِ نَفْسِهِ في قَولِهِ تعالى :{**وَ لَو أنَّ كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أو اخْرُجُوا مِنْ دِيارِكُمْ مَا فَعلُوهُ إلاّ قَليلٌ مِنهُمْ**}[1]

وَ لَيسَ كالاغْتِرابِ شَيءٌ يَزيدُ مِنْ حَنينِ الشَّاعِرِ إلى وَطَنِهِ و تَعلُّقِهِ بِهِ ، فَكانَ كُلَّما نَأَى ، و اشتَدَّتْ وَطْأَةُ الاغترابِ و التَّرَحُّلِ ، و نَالَتْ مِنْ نَفْسِهِ فَزِعَ إلى الشِّعرِ يَبُثُّ تَوْقَهُ إلى دِيَارٍ تَرَكَها و حَنينَهُ المَشْبُوب إلى سَاكنيها مِنْ أَهلِهِ و أَحبابِهِ، و كُلَّما عَاجَ على بَقَايا الدِّيارِ وَقَفَ يُنَاجيها بِحسْرَةٍ، و يَسْتَرْجِعُ ذِكرياتِهِ فِيها .

و انطلاقاً مِنْ هذِهِ العَلاقةِ الحَميمَةِ فإنَّ ((**العَربيَّ شاعراً أَو غَيْرَ شَاعِرٍ مَا كانَ لِيَحْملَ نَفْسَهُ على مَا تَكرَهُ مِنْ ضَرْبٍ في الآفاقِ خَارجَ الجَزيرَةِ العَربيَّةِ، فَسرُّ الصَّحراءِ و الفِطْرَةُ الإنسَانيَّةُ السَّليمَةُ دَفَعَتْ بِالعَربيِّ إلى التَّشَبُّثِ بالرِّمالِ القَاحِلَةِ و القِفَارِ الجَرْداءِ في نَفسِهِ، و قد قوَّتْ بيئةُ العربيّ في نفسِهِ مَعنَى التَّشَبُّثِ بالوَطَنِ الأوَّلِ ، و جَعَلتْهُ عَظيمَ الحِرصِ على اللُّصُوقِ بِهِ وَ إنْ أُكرِهَ على مُفَارَقَتِهِ طلَبَ أَقرَبَ الأَمكِنَةِ مِنْهُ و أَشْبَهَهَا بِهِ**[2]))

و لَعَلَّ شِدَّةَ تَعَلُّقِ العَربيِّ الجَاهِليِّ بِوَطَنِهِ يَعُودُ إلى ارتِبَاطِهِ بِمفُهومِ الوَطَنِ الّذي تُمثِّلُهُ القَبيلَةُ و البُقْعَةُ الجَغرافيَّةُ الأَثيرَةُ لَدَيْهِ فَهِيَ مَلاذُهُ ، و دِرْعُهُ الحَصِينُ ، و لِهذا تَجَسَّدَتْ في سُلوكِ العَربيِّ وَ أَخلاقِهِ عَاطِفَةُ التَّعلُّقِ بِمَوطِنِهِ بدَرجَةٍ لَمْ تُلْمَسْ عِنْدَ شَعبٍ مِنَ الشُّعوبِ ، و حَتَّى يَأْخُذَ الوَطَنُ أَبعَادَهُ الحَقيقيَّةَ ، و يَصدُقَ التَّعلُّقَ بِهِ ، فقَدْ كَانَتْ العَرَبُ ((**إذا غَزَتْ أَو سَافَرَتْ حَمَلَتْ مَعَهَا مِنْ تُربَةِ بَلَدِها رَملاً وَ عَفَراً تِسْتَنْشِقُهُ عِنْدَ نَزلَةٍ أو زُكامٍ أو صُداعٍ**[3]))

وَ مَعَ أنَّ مَفْهُومَ الوَطَنِ لم يَكُنْ جَلِيًّا نَاضِجاً في ذِهنِ العَربيِّ إلاّ أنَّ إحساساً فِطرِياً لَمْ يُفارِقْهُ بأنَّ ثَمَّةَ حُدوداً طبيعيَّةً تَفْصِلُ بِلادَهُ عَنِ القَومِ الآخرينَ.

---

[1] سورة النساء ، الآية 66

[2] شِعرُ الطبيعة في الأدب العربيّ ، د. سيّد نَوفل ، دار المعارف ، القاهرة ط2 ، د.ت ، ص32

[3] رسالة الحنين إلى الأوطان : مِنْ ((رسائل الجاحظ)) تحقيق عبدالسلام محمد هارون - مكتبة الخانجي - القاهرة - د.ت ، ج1 ص392

لَقَدْ صَوَّرَ امرؤُ القَيسِ حَالَةَ الاغترابِ و الاقترابِ النَّفْسِيِّ الحَميمِ حِينَ بلغَ معَ رَفيقِ سَفَرِهِ إلى بِلادِ الرُّومِ حُدودَ بِلادِهِمْ مُتَجاوزينَ حُدودَ الأرضِ العَربيَّةِ:

تذَكَّرْتُ أَهلي الصَّالحِينَ وَ قَدْ أَتَتْ   عَلى خَمَلَى خُوصُ الرِّكابِ و أَوجَرَا
فَلَمَّا بَدَتْ حَورانُ و الآلُ دُونَها   نَظَرْتَ فَلَمْ تَنْظُرْ بعَينيكَ مَنْظَرا
بَكَى صَاحِبي لَمَّا رَأى الدَّربَ دُونَهُ   و أَيْقَنَ أَنَّا لاحِقَانِ بِقَيصَرا [١]

إنَّ الرُّؤيَةَ المُتأَنِّيةَ الّتي تَسْبُرُ أَغْوارَ النَّصِّ الشِّعريِّ تَفْتَحُ إيحاءاتِهِ ،و آفاقَهُ الجماليَّةَ ، و تَتَّضِحُ في إطارِ المُؤثِّراتِ المُختلِفَةِ المُحيطَةِ بِهِ لأنَّ هذهِ المُؤثِّراتِ هِيَ المُحرِّكُ الحقيقيُّ للتَّجربةِ الشُّعوريَّةِ التي هِيَ نِتَاجُ كُلِّ إبْداعٍ ، مِمَّا يُفْضِي بالنَّصِّ الشِّعريِّ إلى خَلْقِ حَالَةٍ مِنَ التَّعاطُفِ الوُدِّي بَينَ الشَّاعِرِ و المُتَلقِّي لأنَّ أَلفَاظَ الشَّاعرِ انتَقَلَتْ مِنْ ظَاهرِ المَعنَى إلى المَعْنَى العَميقِ و إنْ بَدَتِ المأسَاةُ خَاصَّةً بِهِ بِسَببِ ضَياعِ المُلكِ مِنْ بَينِ يَدَيهِ و هُوَ صِدْقُ المُعاناةِ وَ عُمْقُها في مَكْرُمَةِ الحنينِ إلى الوَطَنِ خِلالَ قَسْوَةِ الاغترابِ المَكانيِّ و النَّفسيِّ .

لقَدْ نَجحَ الشَّاعرُ امرؤُ القَيسِ في صَهْرِ مُعَاناتِهِ في ثُنائيَّةِ الحُزنِ و القَلقِ جَاعلاً مِنَ الذَّاتِ مَوضوعاً يَختزِلُ مَأْسَاةَ الإنسانِ العَربيِّ في تَغرُّبِهِ المَريرِ ، و إنْ بَدَتِ المَأسَاةُ خَاصَّةً بِهِ بِسَبَبِ ضَياعِ المُلكِ مِنْ بَينِ يَدَيهِ، إنَّ صَوتَهُ لَيسَ صَوتاً فَرْدِيَّاً مُنْكَفِئاً على الذَّاتِ ، بَلْ إنَّهُ صَوتٌ جَماعِيٌّ و تَجربَةٌ وُجْدانيَّةٌ جَماعيَّةٌ ، فَلَو صَاحَبَهُ في سَفَرِهِ أكثرُ مِنْ رَفيقٍ لَكَانَ الشُّعورُ بالغُربَةِ وَجْهاً و يداً و لِسَاناً يَصْهَرُ وُجْدانَ الصُّحبَةِ جميعاً لأنَّ الأرضَ العَربيَّةَ الّتي أنبَتَتهُمْ وَحَّدَتْ مِشاعِرَهُمْ و عَواطِفَهُمْ نَحْوَها. و هذا الشُّعورِ يَنبَثِقُ في حُدودِ البُقعَةِ الضَّيِّقَةِ في أرضِ الإنْسانِ العربيَّةِ ، فَكَيفَ إذا كانَ المَحَلُّ شَطيراً ؟! إنَّها ذِروَةُ المَأسَاةِ .

و لَقَد اختارَ الشَّاعِرُ مُعجَمَهُ الشِّعريَّ مِنَ اللُّغَةِ تُنَاسِبُ المَقَامَ و تَتلاءَمُ بِمُعطَياتِها و مَوقِفَهُ النَّفسيِّ ، فَلفظَةُ ((بَكى)) مَعَ بُعْدِهَا الحِسِّيِّ لَها أَبعادُها النَّفسيَّةُ فَهِيَ تُوحي بِمَغْزَىً عَميقٍ ، و تَدُلُّ دَلالَةً كَثيفةً على مُعاناةِ الشَّاعرِ نَفسِهِ ، و كأنَّهُ يُواري دُمُوعَهُ هُوَ وراءَ دُموعِ صَاحِبِهِ في السَّفَرِ. كما تُوحي لَفظَةُ ((الدَّربِ)) و هُوَ مِن سِلسِلَةِ جِبَالٍ بَينَ بلادِ العَربِ و الرُّومِ بِمَعنَى الغُربَةِ

[١] ديوانُهُ - تحقيق . محمد أبو الفضل غبراهيم ، دار المعارف - مصر 1969 ، ص62

المَريرةِ ، كما أنَّ الفِعلَ ((أيقَنَ)) يَنْهَضُ بِمَغزَىً دلاليٍّ في تأكيدِ حُدُوثِ الغُربَةِ و جاءَ بَعْدَهُ حَرفُ التَّوكيدِ معَ الخَبَرِ ((أنَّا لاحقانِ بِقَيصَرا)) دَلالَةً على تَحقُّقِ الغُربَةِ المَقيتَةِ.

إنَّ الشَّاعرَ عَمرو بنَ قَميئة كان صَاحبَ امرئِ القَيسِ في رِحلَةِ الخَيبَةِ و المَوتِ ، فقَدْ غَالَتِ المَنِيَّةُ الصَّاحِبَيْنِ في غُربَتِهِمَا ، و كانتِ العَرَبُ تُسَمِّي الرَّجُلَ ضَائِعاً إنْ مَاتَ في غَيرِ أهلِهِ وَ وَطنِهِ و مِنْ دُونِ سَبَبٍ نَبيلٍ أو بُطولَةٍ نبيلَةٍ ، فكَيفَ و خُروجُ امرئِ القَيسِ كانَ لاسْتِعداءِ الأعرابِ على بَني قَومِهِ طَلَباً لِثأْرِهِ ؟!

وأمَّا الآصِرَةُ الأقوى الّتي تَشُدُّ قَلبَ الشَّاعرِ ، و تَسْطَعُ شَاهداً على ذَوبَانِ الفَردِيَّةِ في ذاتِ الجَماعَةِ فَهيَ الوُقُوفُ على آثارٍ مِنَ الحِجَارةِ لأنَّ لَهُ صِلَةً وثيقةً بالشَّعورِ الجَمْعيِّ لِلقَبيلَةِ ، فَاللَّحظَةُ الطَّلَليَّةُ تَخرُجُ مِنْ إطارِ الذَّاتيَّةِ لِتُمسيَ تَعبيراً عَنْ تَجربَةٍ وُجدانيَّةٍ جَماعيَّةٍ ((**أمْلاهَا على الشَّاعرِ شُعورُ الجَماعَةِ الّتي يَنْتَمي إليهَا بالحِرمانِ مِنَ الوَطَنِ المَكَانِيِّ ، و الحَنينِ إلى الاستقرارِ ، و المُقامِ الثَّابتِ الّذي يَستَطيعُ أنْ يُقيمَ فِيهِ بَيْتاً** [١]))

العربُ و الشِّعرُ المَلحميُّ:

هَذا التَّمسُّكَ بِمَفْهُومِ الوَطَنِ المَحصورِ في بيئةٍ صَحراويَّةٍ ضَنينَةٍ أَفْقَدَ بُنيانَ المَلْحَمَةِ الشِّعريَّةِ عُنصُراً مُهِمَّاً و بذلكَ : ((**لم يَتَهيَّأْ للشُّعراءِ الجَاهليِّينَ مِنْ ظُروفِ البيئةِ و المَعيشَةِ مَا يُسَاعِدُهُمْ على أن يُوجَدَ فِيهِمْ الخَيَالُ الّذي يُمكِنُ بِهِ أنْ يَقُولُوا شِعرَ المَلاحِمِ ، و المَعيشَةُ بدائيَّةُ و الحَياةُ سَهلَةٌ بَسيطَةٌ لَيسَ فيها تَعقيدٌ و اضطرابٌ ، فَلَمْ تَتَوافَرْ الأَسبابُ القَويَّةُ الّتي تَبْعثُ على الإغراقِ في الخَيالِ العَميقِ** [٢])).

ثُمَّ إنَّ الصَّحراءَ بِصَراحتِها وَ وُضُوحِهَا ، و بُعْدِهَا عَنِ الزُّخرُفِ ، جَعَلَتِ العَربيَّ صَريحاً وَاضِحاً، لا يَعرِفُ التَّكلُّفَ ، و لا الرِّياءَ.

و ثَمَّةَ سَببٌ أَهَمُّ في صَرفِ العَربِ عَنِ المَلاحمِ ، فقَدْ بَلغَ الشَّاعرُ الجَاهليُّ بِجَوهرِ فِكرِهِ دَرَجَةً سَامِيَةً وَصَلَ بِهَا إلى إدراكِ أَعلى القِيَمِ في حَياتِهِ ، و هذا الإدراكُ هُوَ الرُّوحُ التي تَسْري في قَصَائِدِ الشُّعراءِ

---

[١] نفسه ص260 ،261
[٢] شِعرُ الحرب في العصر الجاهلي ، د. علي الجُندي ، نَشر مكتبة الجامعة العربيّة - بيروت ، ط3 196 -ص41

بِدَرجاتٍ لا تَتَبايَنُ ، تَجري لُغَةً تُضْمِرُ مَسَاراتٍ فِكريَّةً تَنْبَثِقُ عَنْ تَلاحُمِ وَعيِ الشَّاعرِ بالمؤثِّراتِ الخارجيَّةِ.

و هَذا الفِكرُ القَيِّمُ هُوَ الاعتِقَادُ اليَقينيِّ بإلهٍ واحدٍ معَ اتِّخاذِهمْ أَصْناماً آلهةً تُقَرِّبُهُمْ إلى اللهِ زُلفَى ، و قَدْ بَيَّنَ القُرآنُ الكريمُ هذا الفِكرُ عَلى لِسَانِ الجاهليِّينَ ((**و ما نَعبُدُهُمْ إلاّ لِيُقرِّبونا إلى اللهِ زُلفَى** [1])). و في قَولِهِمْ نَفْيٌ و حَصْرٌ زِيادة في التَّوكيدِ و هُمْ بالتَّالي انْصَرفُوا عَنْ ذِكرِ آلهتهم و لَمْ يُقِيمُوا لَها وَزْناً في شِعرِهم ، فَكَيفَ تُوجِّهُهُمْ إلى أَعمالٍ مُختلِفَةٍ خَارِقَةٍ وَ هِيَ لا تَسْمَعُ و لا تَعقِلُ ؟

و هذا مألوفُ الشُعراءِ عِندَ غَيرِهِمْ مِنَ الأُمَمِ إذْ كانَ ((**للآلِهَةِ دَخْلٌ كبيرٌ في الملاحِمِ ، فَلَها الدَّورُ الأساسيُّ في المَلحمةِ ، فَفِيها يَتحدَّثُ الشَّاعرُ عَنْ آلهةٍ مُتعدِّدَةٍ ، و يَنْسبُ إليها أَعمالاً مُختَلِفَةً ، و يَخلَعُ عَلَيها كثيراً مِنَ الصِّفَاتِ و أَنواعِ السُّلوكِ الإنسانيِّ ، حتَّى كأَنَّهُ يَعيشُ بَيْنَهُمْ و يَعرفُهمْ مَعرِفَةً تَامَّةً ، و مَا كانَ الشُّعراءُ الجَاهليُّونَ لِيَصِلُوا إلى مِثْلِ هذا النَّوعِ مِنَ الخَيالِ ، و إذا كانَ الشُّعراءُ الجَاهليُّونَ قَدْ عَبَدُوا أصناماً مُتَعَدِّدَةً و اعتبروها آلِهَةً لَهُمْ ، فَما كَانُوا يَتحدَّثُون عَنْ صِفَاتِها و أَعمالِها و تَضارُبِ آرائها ، و تَعارُضِ مَصَالِحِها عَلى النَّحْوِ الّذي نَراهُ في شِعرِ المَلاحِمِ**[2]))

و شِعرُ المَلاحِمِ قَصَصِيٌّ يَروي حِكايَةَ أَحداثٍ يَحُوطُها إطارٌ مِنَ التَّهويلِ و تَحْمِلُ قَارِئها أَجْنِحَةٌ مِنْ الخَيالِ غَيرِ المألوفِ إلى آفاقٍ بَعيدَةٍ معَ المُبالَغَةِ في السَّردِ الشِّعريِّ القَصَصِيِّ . فَمَلحَمةُ الإليادَةِ الَّتي أَرَّخَتْ لِحربِ اليُونانِ معَ أهلِ طراودةُ و تَصِفُ مغامراتِ بَعضِ الأَبطالِ اليُونانيِّينَ و مَا يتَّصِلُ بتِلكَ المُغامراتِ مِنْ أَحداثِ الحُروبِ و مِنَ الأساطيرِ ، هذهِ المَلحمَةُ اسْتَغرَقَتْ ما يَقْرُبُ مِنْ خَمسَةَ عَشَرَ أَلفاً مِنَ الأبيَاتِ .و هذا ما لَمْ يَأْلَفْهُ الشِّعرُ العَربيُّ ((**و لعلَّ حُبَّ العَرَبِ لِلقَافِيَةِ الوَاحدَةِ يَجري عَلَيها رَويُّ القَصِيدَةِ زَهَّدَهُمْ في المَلْحَمَةِ ، إذْ كانَتْ تَقتَضي آلافَ الأَبياتِ ، و مِنْ أَيْنَ لَهُمْ بِرَوِيٍّ**

---

[1] سورة الزُمر ، الآية 3
[2] شعر الحرب في العصر الجاهلي ص411 ،413

واحِدٍ يَجري بِهِ الكَلامُ إلفاً ؟ زِدْ على ذلكَ مَيْلَ العَرَبِ الفِطريِّ إلى الإيجازِ ، فَضْلاً عَنْ كَونِهِمْ أَهْلَ بَديهَةٍ و ارتِجالٍ ، لا يَحفَلُونَ بالتَّحليلِ و التَّطويلِ [1])).

و ما حقيقةُ الأمر في انصِرافِهِمْ عَنْ شِعرِ المَلاحمِ إلاّ نَقَاءُ عَقيدَتِهِمْ مِنْ تَعدُّدِ الآلِهَةِ ، فالشِّعرُ في حَياتِهِمْ لَهُ مَا لَيسَ في حَياةِ قَومٍ آخرينَ ، أو أُمَّةٍ مِنَ الأُمَمِ ، فَهُمْ أَجدَرُ النَّاسِ تَسمِيَةً بِشُعراءِ المَلاحِمِ لأنَّ في مَوروثِهِمُ الشِّعريِّ الحَربيِّ أنفَاساً مَلحَمِيَّةً تُسرَدُ فيها اخبارُ البُطُولَةِ ، و تُروَى مُلاحَمَاتُ الجِلادِ دُونَ تَعَدِّي ذَلكَ إلى الأُمورِ الخَارِقةِ ، و لَمْ تُزَهِّدُهمْ القَافيَةُ بالملاحِمِ و هُمْ أُمَّةُ الشِّعرِ و هُمْ على قُدرَةٍ فَنِّيَّةٍ لا تُضاهَى بَتَنويعِ القَافِيَةِ لاتِّسَاعِ لُغَتِهِمْ و غِناهَا بمُفردَاتِهَا المُؤهَّلَةِ لِلَونٍ كهذا مِنَ الشِّعرِ ، بدليلِ تَحلُّلِ الكَثيرينَ مِنَ الشُّعراءِ فيما بَعَدُ ، و خُروجِهِمْ على وَحْدَةِ القَافِيَةِ في مَنظُوماتِهِمْ في العَصرِ العَبَّاسيِّ خَاصَّةً كَمَنظُومَةِ ((أَبَانٍ اللاَّحِقيِّ)) لِكِتابِ ((كليلة و دمنة)) في عشرينَ ألفِ بَيتٍ.

و غَزَارَةُ النُّصُوصِ الشِّعريِّةِ الحَماسِيَّةِ الَّتي تَفتَخِرُ بالرَّصيدِ البُطُوليِّ والمُتَّصِلِ بحَياةِ الفُرسَانِ وقَبائِلِهِمْ عُنوانٌ واضِحٌ للملاحِمِ، وبِتِلْكَ النُّصُوصِ يُتَوَصَّلُ إلى التَّعبيرِ عَنْ ذَوقٍ جَماليٍّ بِصُوَرٍ فَنِّيَّةٍ مُتعدِّدَةٍ،تَنتَظِمُ في نَسَقٍ تَعبيريٍّ مَتَكامِلٍ ، يأخذُ بَعضُها برقَابِ بَعضٍ لِتَتِمَّ لَوحاتٍ بُطُوليَّةً تَجمَعُ دِقَّةَ المُلاحَظَةِ إلى بَلاغَةِ القَولِ ، و شَفافيَّةَ الوُجْدَانِ إلى نَصَاعَةِ البَيَانِ.

بَيدَ أَنَّ مَوضُوعَ الصِّراعِ بَينَ الأُمَمِ لَمْ يَكُنْ يَحتَلُّ حَيِّزاً في الشِّعرِ الجَاهليِّ على النَّحوِ الّذي بَدَتْ مَلامِحُهُ تَتَّضِحُ في شِعرِ العَبَّاسِيِّينَ ، فَمَنْ ذَا الّذي لا يَرى في بَائِيَّةِ أبي تمامٍ في الفُتُوحِ في عَموريَّةَ مَلامِحَ مَلحَمِيَّةً ثَرَّةً ، فمعَ أنَّ مَوضُوعَ القَصيدَةِ الأَساسيَّ هُوَ المَديحِ ، لكنَّها في الحَقيقَةِ — لا تَقتَصِرُ على هذا المَوضُوعِ ، فَهيَ تَصِفُ المَعَارِكَ ، و تَكادُ تَكونُ مَلحَمَةً لِما حَفِلَتْ بِهِ مِنَ الفِكَرِ و الأَحداثِ ، و لِمَا تعرَّضَتْ لِذِكرهِ مِنْ وَقائِعَ ، و أَشَارَتْ إليهِ مِنْ أَلوانِ الثَّقافَةِ و المُعتَقدَاتِ . و كَذَا تُلمَحُ في مِيميَّةِ المُتَنَبِّي في مَعرَكَةِ ((الحَدَثِ الحَمراء)) فَهِيَ قَصِيدَةٌ طَويلَةٌ تُعَدُّ آيَةً في الرَّوعَةِ لأَنَّها عَالَمٌ تَضطَرِبُ فيهِ المَشَاعِرُ و الأَخيلَةِ و تَتعانقُ الأَخيلَةُ ، و تَتَالى الفِكَرُ تَرسُمُ صُورَةَ البُطُولَةِ العَربيَّةِ ، و تَأتي معَ رَوعَةِ البِنَاءِ و قوَّةِ السَّبكِ مُوسيقَا البَحرِ الطَّويلِ لِيَقُومَ عالَمٌ يَضِجُّ بالأَصواتِ تُثيرُها المَعرَكَةُ ، و تَتلوَّنُ المُبالغَاتُ في إطارٍ مِنَ الفَنِّ الخَالصِ ، و الذَّوقِ الرَّفيعِ ، و الحسِّ المُرهَفِ.

[1] شعر الفتوح الإسلامية ، النعمان عبدالمتعال القاضي - الدار القومية للطباعة و النشر ، القاهرة ، 1385 -1965 ص321

صَحيحٌ أنَّ بَائيَّةَ أبي تَمَّامٍ ، و مِيميَّةِ المُتنبِّي لم تَبلُغَا مَا بَلَغَتْهُ المَلحماتُ مِنْ حيثُ الطُّولِ و لكنَّ نَفَساً مَلحميَّاً واضحٌ فِيهما.

و الشِّعرُ المَلحميُّ عندَ الأُمَمِ جَميعاً تُؤلِّفُ بَينَ أجزائهِ مَلامحُ مُشتركةٌ وَاضِحةٌ ، فَالأُسطورَةُ و الخُرافَةُ بُنيَتانِ أسَاسِيَّتانِ في العَملِ الشِّعريِّ المَلْحَميِّ القَائمِ على السَّردِ و منَ الملاحِمِ المَعروفَةِ في تَاريخِ الآدابِ العَالميَّةِ الشَّرْقِيَّةِ و الغَربيَّةِ مَلحَمَةُ ((جَلْجَامِش)) البَابليَّةُ ، و تُعَدُّ هذِهِ المَلْحَمَةُ ((**أرْوَعَ مِنَ الإلياذَةِ ، و ذلكَ لِغِنَى مَلْحَمَةِ ((جلجامِش)) بالصُّوَرِ الخَيَاليَّةِ الّتي تَفُوقُ حَدَّ الوَهْمِ** [١])).و لَهُ في ذَلكَ رأيُهُ و تَذوُّقُهُ ، و لكن على أيِّ أسَاسٍ عَقَدَ مُفَاضَلَتَهُ ؟ و كَيفَ أَغفَلَ غِنَى الإلياذَةِ بِسَردِ الأحداثِ في إطارٍ مِنَ المُبالغَةِ و التَّهويلِ و الإغراقِ في الخَيالِ؟

و تِلكَ المَلْحَمَةُ تَدُورُ أحدَاثُها ((**في العَصْرِ الألفيِّ الثَّالثِ قَبْلَ الميلادِ المَسيحِ عَلَيهِ السَّلامُ ، و شِعرُ المَلحَمةِ يَروي أنَّ مَلِكاً عَظيماً اسْمُهُ "جَلجامِش" عاشَ في "أَرش " أو " أُوروك" في بِلادِ مَابَينَ النّهرينِ و تَربَّعَ على عَرْشِهَا. و هذا المَلكُ لَيسَ كَما نَعرِفُ مِنَ المُلوكِ .. فَثُلُثَاهُ مِنْ صُلبِ الآلِهةِ و ثُلُثُهُ البَاقي مِنْ ظَهرِ إنسانٍ .. أُمُّهُ كَانَتْ إلهةً ، وَرِثَ عَنْهَا جَلْجَامش جَمالاً مُفرِطاً و قُوَّةً، وَ وَرِثَ عَنْ أبيهِ الآدَميِّ أنَّهُ كَائِنٌ غَيْرُ مُخلَّدٍ يَجُوزُ عَلَيهِ المَوتُ .**

وَ مَأسَاةُ المَلحَمَةِ هِيَ الصِّراعُ بينَ رَغَباتِ الآلِهةِ ، و قَضاءِ الإنسانِ و قَدَرِهِ [٢]))

وَ تُوغِلُ المَلْحَمَةُ في مَدَى استِثْمارِها الأسَاطيرَ و مَا خَرَجَ عَنِ المَأْلُوفِ مِنْ قُدرَةِ الإنسانِ تَجسيداً لِلبُطُولَةِ الفَرديَّةِ . و يَسْتأْثِرُ الزَّمنُ بِمَعْنَاهُ الفِكريِّ و الحَضاريِّ ، و دَلالةُ الصِّراعِ فِيهِ بِحَيِّزٍ مُهِمٍّ في أحداثِ الأُسْطورَةِ.

الفِكرَةُ الأُسْطُوريَّةُ في مَلْحَمَةِ جَلْجَامِش هيَ فِكْرَةُ (النَّباتِ السِّحريِّ المُجدِّدِ للشَّبابِ) أو (زَهرَةُ الخُلودِ) وَ مِنْ خِلالِ الصِّراعاتِ الأسطوريَّةِ تُجسِّدُ المَلحَمَةُ سَعيَ جَلجامِش وَراءَ الخُلودِ و الشَّبابِ الدَّائمِ ، أي مُحاولَةَ فِرارِهِ مِنَ الحَتْمِ المَقْضِيِّ و العَدَمِيَّةِ إلى البَقَاءِ و الدَّيمُومةِ.

---

[١] الزمن في مَلحمة جَلجامش ، بحثٌ أُلقي في النَّدوة العلميَّة في كُلية الاداب ، جامعة بغداد 1990-1991 د. عناد غزوان ، و البحث ضمن دراسات ادبيّة و نقديّة بعنوان أصداء - ص63 ، اتحاد الكتاب العرب ، دمشق.

[٢] (مجلة العربيّ) من مقالة بعنوان ((جلجامش .. طوفانُ ما قبل الطُّوفان)) جمال الكناني . ع 287 ، ربيع الأول

و يَمْتَطي جَلجامِش مَوْجَ المُغَامَرةِ المَأساويَّةِ لِيَقْتَطِفَ ((زَهرةَ الخُلودِ)) الّذي يَتحدَّى الفَنَاءِ مِنْ أَعماقِ اليَمِّ ، و يَفلِحُ فِي سَعيِهِ ، و يَقْفُلُ عَائداً إلى وَطَنِهِ مَزْهُواً بِظَفْرِهِ بما سَعَى إليه ، و لكنْ سُرْعانَ مَا بَدأَ أَمَلَهُ يَذوي و يَتلاشى حينَ فَقَدَ سِرَّ الخُلودِ فَكَيفَ فَقَدَهُ ، و مَا مَوقِفُهُ عِندَئذٍ ؟:

و أَبصَرَ جَلجامش بِئراً باردةَ الماءِ
فَوَرَدَ فيها لِيَغتَسِلَ فِي مَائِها
فشَمَّتِ الحَيَّةُ شَذَى النَّباتِ
فَتسَلَّلَتْ و اختَطَفَتِ النَّباتَ
ثُمَّ نَزَعَتْ عَنْهَا جِلْدَها
و عِندَ ذَاكَ جَلسَ جَلجامش و أَخَذَ يَبكي
حتَّى جَرَتْ دُمُوعُهُ على وَجنَتَيهِ [1]

و ثَمَّةَ رَأيٌ فِي إحدَى الدِّراساتِ يَقُولُ بأنَّ الحَيَّةَ فِي مَلحمَةِ جَلجامش ((**لَمْ تَكُن سِوى أحَدَ الآلهةِ ، تَقَمَّصَ شَكلَ الحَيَّةِ ، و خرجَ مِنْ تَحتِ الماءِ ، و انتزَعَ النَّبْتَةَ السِّحريَّةَ مِنْ يَدي جَلجامش ، حيثُ لَمْ يَكُن ذلكَ الإلهُ رَاغِباً فِي أنْ يَحصَلَ الإنْسَانُ على الخُلودِ ،و يَصيرَ كالآلهةِ**[2])).

و يُصَوِّرُ الشَّاعِرُ هُوميروس في الإلياذة ((**بَطَلَها** ((**أوليس**)) **بَطَلاً نُموذجيَّاً عَبقريَّاً و حَاذِقاً و صَاحبَ دَهاءٍ ، نفَذَ بِدَهائِهِ إلى مَدينَةِ طِروادَةَ و مَنَعَ خُيولَ** ((**ويزوس**)) **أنْ تَرِدَ ماءَ** ((**سكاماندر**)) **و لو شَرِبَتْ مِنْهُ لاكتَسَبَتْ قُوَّةَ خارِقَةً تَضمَنُ النَّصْرَ للطَّرواديينَ ، كما اسْتَغلَّ صَمْتَ المَلكةِ** ((**هيكوب**)) **و تَسَلَّلَ إلى القَصْرِ المَلكيِّ مُغرياً** ((**هيلين**)) **بأن تخونَ الطرواديين**[3])).

وَ يُظْهِرُهُ ذَا قُدرَةٍ خارِقَةٍ على تَخَطِّي الأَخطارِ كُلِّهَا بِشَجاعَتِهِ و حِكمَتِهِ ، و هوَ خَيرُ مَنْ رَوَّضَ جِماحَ البِحَارِ الثَّائرةِ ، فَفي ((الأوديسّة)) يَقُصُّ هُوميروس أَحداثَ عَودَةِ ((أوليس)) إلى مَوطِنِهِ ، و ما لَقِيَهُ مِنَ الأَخطارِ فِي هذه العَودةِ .

[1] مَلحمة جَلجامش - اللوح الحادي عشر ، نقلاً عن ((الزّمن في ملحمة جلجامش)) ص76.

[2] أساطير التوراة الكبرى ، و تراث الشرق القديم ، د. محمود كارم عبدالعزيز، دار الحصاد للنشر و التوزيع - دمشق ، ط1 1999 ، ص154

[3] معجم الأساطير اليونانية و الرّومانية ، إعداد سهيل عثمان و عبدالرزاق الأصفر ، مطبوعات وزارة الثقافة و الإرشاد القومي - دمشق 1982 ، ص117

((إذ كانت العواصِفُ و الرِّيَاحُ تَتقاذَفُ أُسطُولَهُ . وَ وَجَدَ عَناءً في انتِزاعِ رِفَاقِهِ مِنْ هذهِ المضيَعَةِ ، و ابْتُلوا بالسّيكلوب بُوليفيم ذي العَينِ الوَاحِدَةِ الّذي التَهَمَ نِصْفَ رِفَاقِ أُوليس إلى أن أفلَحَ هذا بِقَلعِ عَينِهِ الوَحيدةَ و إنقاذِ بَقيَّةِ رِفاقِهِ ، و يُبحِرُ أوليس إلى وَطَنِهِ بَعدَ غيابٍ دامَ عِشرينَ عاماً ، و يُفلِحُ في قَتلِ الطَّامعينَ بِزَوجَتِهِ الّتي تنتظِرُهُ بإخلاصٍ و وَفاءٍ ، و تَطهيرِ قَصْرِهِ مِنْهُمْ و قَدْ عَاثُوا فيهِ فَسَاداً[1]))

إنَّ الشِّعرَ القَصَصيَّ اليُونانيَّ القَديمَ جَاءَ صُورَةً عنِ الّذي كانَ يَقُومُ على مُغامراتِ بَعضِ الأبطالِ اليُونانيِّينَ ، و مَا يَتَّصِلُ بتلكَ المُغامراتِ مِنْ أحداثِ الحُروبِ و مِنَ الأساطيرِ المنسُوجَةِ المُغْرِقَةِ في الخَيالِ غَيرَ مُفرِّقَةٍ بَيْنَ أَبطالِ المُغامراتِ و الآلِهَةِ في صُوَرِ الحَياةِ و الأحداثِ.

ثَمَّةَ فُروقٍ سَاطِعَةٌ قَاطِعَةٌ كَحَدِّ السَّيفِ بَيْنَ مَا أُثِرَ عَنْ شُعراءِ عَصْرِ الجَاهليَّةِ في سُوحِ البُطولاتِ وَ واقعيَّتِها ، و مَا نُقِلَ عَنِ أَسَاطيرِ الأُمَمِ الأُخرى.

فَالشِّعرُ الصَّدقُ الأصيلُ يَتَّجِهُ بِصَاحِبِهِ نَحوَ القِيَمِ العُلْيَا ، و لا يُمكِنُ للعربيِّ أَنْ يَحيَا بِمعزلٍ عَنْهَا مُتَجسِّدةً في حَياتِهِ الحَيَّةِ، و بعدَ أن سَعَى إلى البَحثِ عَنِ الخُلُودِ ، و جَسَّدَ تِلكَ الرَّغبَةَ بِالوُقُوفِ على الطَّلَلِ باحثاً عَن أَثَرِ الحَياةِ حَولَهُ ، و خَابَ سَعْيُهُ.

فالبُطولةُ في شِعرُ الجاهليّينَ العَرَبِ مُحاطَةٌ بالجَلالِ ، و هيَ أنموذَجٌ رُجُوليٌّ مُتَميِّزٌ عَنْ نَماذجِ البُطُولةِ في أساطيرِ الأُمَمِ ، فَمَوقِفُ الشَّاعرِ البُطُوليُّ يَنبَثِقُ عَنْ شُعُورِهِ بِحَتْمِيَّةِ المَوتِ لِذلكَ آثرَ أنْ يَختارَ المَوقِفَ الجميلَ في اختبارِ المَوتِ الكَريمِ و أقبَلَ عَليهِ طَواعِيَةً.

و في مَلحَمَةِ جَلجامش نَجِدُ أنَّ بَطَلَهَا يُبَاشِرُ صِيَاغَةَ هُويَّتِهِ في السَّعي وراءَ أنْ يُديرَ ظَهرَهُ للمَصيرِ الإنسانيِّ المَحتُومِ خِلافاً للفَارسِ العربيِّ.

و الفَاصِلُ بَينَ المَوقفينِ هيَ حُرِّيَّةُ الاختِيارِ ، فَالمَوتُ في أُفُقِ تِلْكَ الحُرِّيَّةِ تَعني البُطُولةَ ، و المَوتُ خَارجَ ذلكَ الأُفُقِ النَّبيلِ يَعني المَهانَةَ و الوَضَاعَةَ .

[1] نفسه ، ص117 -118-119

لَقَدْ يَئِسَ جَلجامش مِنَ الخُلودِ بعدَ رِحلَةٍ طَويلةٍ مَحفُوفَةٍ بالعذاب المُهين، و قَهَرَتِ الآلهةُ جلجامش و سَلَبَتهُ زَهرَةَ الخُلودِ ، فتَقبَّلَ فِكرَةَ المَوتِ الّذي كَتَبَتْهُ عَلَيهِ كُرْهاً، و لكنَّهُ فَارسٌ لا تُفَارِقُهُ صِفَةُ البُطُولَةِ ، فمِنَ البُطُولَةِ بِمَكانٍ الضَربُ في آفاقِ المَخاطِرِ سَعياً وراءَ الخُلودِ.

و لَمْ تَصِلِ المَرأَةُ في الأساطيرِ إلى ما وَصَلَتْ إليهِ المَرأةُ العربيَّةُ ابنةُ الصَّحراءِ الصَّافِيَةِ النَّقِيَّةِ مِنْ صِدقِ العَاطفَةِ الّتي مَلأَتِ الدُّنيا جَلالاً و رُواءً ، فَمَلْحَمةُ جلجامش تُصَوِّرُ المرأَةَ وَسيلةً للغَوَايَةِ ((**فَعِنَدما أرادَ جلجامش أن يَتصَيَّدَ الرَّجُلَ الوَحشِيَّ "إنكيدو" أَرسَلَ لَهُ بَغِيَّاً لِتروِّضَهُ**[1]))

و زَوجةُ "أوليس " معَ وَفائها لَمْ تَخرُجْ مَعَهُ إلى القِتالِ لتُتَمِّمَ صُورَةَ الوَفاءِ الأَكمَل . كما أنَّ صُورَةً غَيْرَ مَحمودةٍ في المرأةِ في تِلكَ المَلحمَةِ تَعْكِسُ حَقيقَةَ الخُلُقِ النِّسَائيِّ في الملحمَةِ فالملكةُ " هيكوب" صَمَتَتْ رَاضِيَةً بِغزوِ وَطنِها طروادة ، و خانَتْ قَومَها ، و شارَكَتها في الخِيانةِ "هيلين". و الخِيانَةُ خلُقٌ مَذْمُومٌ في حَيَاةِ العَربِ.

كما أنَّ خَتْلَ "أوليس" و دَهاؤُهُ هَيَّأَ لَهُ التَّسَلُّلَ إلى مَدينة طروادة ، و أينَ الخَتْلُ و الدَّهاءُ مِنَ الخُلُقِ العَربِيِّ في الحُروبِ؟ لقَد جرَى العَربُ على أنبلِ العَاداتِ قَبْلَ القِتَالِ ((**وَ مِنْ عَاداتِ العَربِ في الحُروبِ إنذارُ مَنْ يُريدونَ مُحاربتَهُمْ ، و هُمْ يَفتَخِرونَ بذلكَ إذ يَرونَ أنَّ الإنذارَ بالحَربِ مِنْ سِيمَاءِ القُوَّةِ و الشَّجاعَةِ ، و منْ علاماتِ عَدَمِ المُبالاةِ بالعَدوِّ ، و أنَّ المُباغَتَةَ مِنْ عَلاماتِ الجُبْنِ و الضَّعفِ**[2])).

مَا أعظَمَ الشِّعرَ أَنْ يُكرِّسَ العُمرَ لِمَعَنى الحَياةِ بصُورَتِها المُضيئةِ و أن يُعطِيَ فيهِ الشَّاعرُ شَبابَهُ و رُجُولتَهُ و دُنيَاهُ لِلْوُصُولِ إلى الدُّنيا المُخَلَّدةِ ، و يَحْمِلَ التَّفاصيلَ الكَاملةَ للطَّريقَةِ الّتي يَهتَدي بهَا شُعراءُ الأُمَمِ إلى تَجسيدِ العَلاقَةِ بَينَ المَوتِ و بَينَ الشَّاعرِ إلى أَمَدِ التَّلاشي و التَّوحُّدِ و التَّداخُلِ ، و إلى اقْتِبَاسِ الشَّواهِدِ الغَنِيَّةِ الّتي تَأخُذُ بأقلامِهِمْ إلى المَعَنى الإنسانيِّ للجَمعِ بينَ المَرأَةِ و مَفْهُومِ الوَطَنِ الّذي تُمليهِ القَبيلَةُ ، فالوطَنُ و المرأةُ كَيَانٌ واحدٌ في شِعرِ الجَاهليِّ و شُعُورِهِ..

---

[1] أساطير التوراة الكبرى ص154 -155

[2] المُفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، د. جواد علي ، دار العلم للملايين - بيروت ط2 1978 ، ج5 ، ص402

المرأةُ العربيَّةُ و البُطولةُ:

و الوَاقِعِيَّةُ في البُطُولَةِ تَعني مِنْ جَانبِ آخَرَ الاعترافَ بِحَقيقةٍ ذَاتِ أَهمِّيَّةٍ و هِيَ أنَّ شِعرَ البُطولَةِ و الإقدامِ على الَموتِ يَدْخُلُ فِيهِ عُنصُرٌ جَوهَريٌّ يتمثَّلُ في المرأَةِ . فالواقعيَّةُ في التَّاريخِ الجَاهليِّ كوَّنَتْ نُموذَجاً خاصَّاً مِنَ النِّسَاءِ لَهُ مَقَامٌ أسَاسيٌّ رَكِينٌ ، لأنَّ هذا النُّموذَجَ مَوصُولٌ في جَوهَرِ شَخصِيَّتِهِ بالعَوامِلِ الَموضُوعِيَّةِ الّتي تَخْدُمُ بعضَ الَملامِحِ الأسَاسيَّةِ في الُمجتَمَعِ الجَاهليِّ.

سَجَّلَ التَّأْريخُ لِلجاهليَّةِ مَواقِفَ ذَاتَ قِيمَةٍ عَاليَةٍ تَنْبُعُ مِنْ حَقيقَةٍ مَوضُوعيَّةٍ في أعماقٍ أَصيلَةٍ لِشَخصيَّةِ المرأةِ . وَ في كَشْفِ الرَّابطَةِ بَيْنَ الفَارسِ و المرأةِ مَا يُعينُ على فَهْمِ آليَّةِ البُطُولةِ التي نتخيَّلُهَا ، و الَّتي تُسهِمُ في دَفْعِ الفُرسَانِ إلى خَوضِ البُطُولاتِ ، و تشكيلِها بالكلمةِ الشِّعريَّةِ و الصُّورَةِ ، و مِثْلُ تِلكَ المَواقفِ تُمثِّلُ وَجْهَ المرأةِ العَربيِّ الُمضيءَ ، و عُمقَها الُمشرقَ في مُحيطَها ، إذْ كانَتِ النِّسَاءُ دَائباتٍ على إيقاظِ حَفيظَةِ الفُرسَانِ للقِتالِ ، و كُنَّ لايَنينَ في تَذكيرِ الأبطالِ بهِ ، و حَضِّهِمْ عَلَيهِ بوسائلِ شَتَّى ، فكانَ تَحريضُهُنَّ يُلاقي هَوىً في نفُوسِ الأبطالِ ، فَالظَّعائنُ ((**كُنَّ يُهجْنَ حَماسَةَ الرِّجالِ ، و يَحفِزْنَهُمْ إلى الُمخاطَرَةِ و الاستبسَالِ ، فَيُقَاتِلُ الرَّجُلُ حَتّى الَموتِ حِمايَةً لِنسَائِهِ اللاّئي كَنَّ يُصَاحِبْنَ القَبيلةَ في الحُروبِ العَظيمةِ ، و يُقِمنَ خَلفَ صُفوفِ القِتَالِ.** [1])).

و هذا المشهَدُ يَرسُمُ بِرَمزيَّةٍ عَاليَةٍ العلاقَةَ بَينَ مَشهَدِ الظَّعنِ و مَشهَدِ البُطُولَةِ ، فَثَمَّةَ عَلاقَةٌ قَوِيَّةٌ بَينَ الَمشهَدينِ ، فَلا تَتَحَقَّقُ بُطُولةُ الأبطالِ على الصُّورَةِ الحَميدَةِ إلاَّ بِصُحبَةِ الظَّعنِ.

و لم تكنِ المرأةُ العربيَّةُ لِتَكْتَفي بِبَثِّ الحَمِيَّةِ بالأَهازيجِ في نُفُوسِ الفُرسَانِ، لتَشُقَّ لَهُمُ السَّبيلَ الُموصِلَةَ إلى تَحقيقِ الُمثُلِ العُليَا في البُطُولةِ ، فتُضِيفَ إلى سِفرِ المكارمِ مَكْرُمَةً وَضَّاءَةً ، فقَدْ كَانَتْ : ((**إذا التَحَمَ القَومُ بالقَومِ، تَسْقِي العِطَاشَ ، و تُضَمِّدُ الجِراحَ مِمَّا يُعَدُّ لَدى العَربِ سَابِقَةً مِنْ سَوابقِهِمْ في الحَربِ ، و قَدْ مَشَى على غِرارِهم بَعْضُ أُمَمِ الغَربِ في عَصْرِنا هَذا** [2])) بَلْ إنَّ المرأَةَ العربيَّةَ تَذْهَبُ أَبعَدَ مِنْ هذا الَمذهَبِ ، فَتَقُودُ الرِّجَالَ في الحَربِ بِعَزيمَةِ الفُرسَانِ الأبطالِ ، وَ مِنْ هَؤلاءِ النِّسْوَةِ "رَقَاشِ" ((**و كانتْ في طَيِّءٍ ، و كانت تَغْزُو بِقَومِها ، و يَتَيَّمَنُونَ برَأيِهَا ، و كَانَتْ كَاهِنَةً لها حَزْمٌ**

---

[1] المرأة في الشعر الجاهلي ، د. أحمد محمد الحوفي - دار الفكر العربي - القاهرة د.ت ، ص452

[2] شعر الحرب في أدب العربِ في العصرين الأمويّ و العباسيّ إلى عهد سيف الدَّولة. د.زكي المحاسني - دار الفكر العربي - القاهرة ، د.ت ، ص28

و عَزْمٌ ، و قَدْ أَغَارَتْ طَيٍّءٌ بزَعامَتِها و قِيادَتِها على إيادِ بنِ نزارٍ يَوْمَ رَحَى جَابرٍ ، فَظَفَرَتْ بِهِمْ ، و غَنِمَتْ وَ سَبَتْ[1])).

و الفَارِسُ العَربيُّ يَتَّخِذُ مِنَ المَرأةِ انتِماءً مُشَرِّفاً لَهُ ، كانتِمائهِ إلى القَبيلَةِ ، و يَجعَلُهَا قَضِيَّتهُ و مِحْوَرَ سُلُوكِهِ البُطُولِيِّ ، فَمِنْ أينَ يَتَسَرَّبُ الخِذْلانُ إلى نَفسِ بَطَلٍ يَحمِلُ في نَسِيجِ ذَاتِهِ قَضِيَّةً تُلهِمُهُ مَعَاني الفُروسيَّةِ النَّبيلَةَ ، فَتَنفتِحُ شَاعِرِيَّتهُ على قَصَائِدِ البُطُولَةِ و الإقْدامِ ؟! فَالعَلاقَةُ بَيْنَ المَرأَةِ و فِعْلِ الفَارسِ البُطوليِّ في الجَاهليَّةِ تَنْدَرِجُ في إطارِ الانتِماءِ ، و لا يَنفَصِمُ أَحَدُ المَفْهُومَيْنِ عَنِ الآخرِ.

الشَّاعرُ الفَارسُ بَشَامةُ بنُ حَزْنٍ النَّهشَليُّ يَعرِفُ مَكَانَةَ المَرأةِ حَقَّ المَعرِفَةِ ، و يَكرِمُهَا أَيَّما إكرامٍ ، و هَا هُوَ ذَا يُحيِّي فَتَاةَ القَبيلَةِ تَحيَّةَ الرُّجُولَةِ ، و يَلْتَمِسُ مِنْهَا أَنْ تَعُدَّهُ مِنْ خيَارِ النَّاسِ عِنْدَ المَكرُمَاتِ و عَظَائِمِ الأُمورِ الَّتي يَتَنافَسُونَ في بُلوغِهَا و خَوَضِهَا :

إنَّا مُحَيُّوكِ يَا سَلمَى فَحَيِّينا — و إن سَقَيْتِ كِرَامَ النَّاسِ فَاسْقِينا
و إنْ دَعَوتِ إلى جُلَّى و مَكْرُمَةٍ — يَوماً سَرَاةَ كِرَامِ النَّاسِ فَادْعِينَا [2]

إنَّ هَاجِسَ الشَّاعرِ الفَارِسِ – كغَيْرِهِ مِنَ الشُّعراءِ نَتَبيَّنُهُ في تَأكيدِ دَورِ المرأةِ في مَواقِفِ البُطولةِ ، و مِنْ مُفْتَتَحِ القَصِيدَةِ ، فَتوجيهُ التَّحيَّةِ إلى فَتَاةٍ اسْمُهَا سَلمَى تَعْني تَوجيهَ التَّحيَّةِ إلى كُلِّ فَتَاةٍ و امرأَةٍ في القَبيلَةِ ، و التَّحيَّةُ لا تَعنِي السَّلامَ المُجرَّدَ ، بَلْ لَهَا خُصُوصيَّةٌ وَاضِحَةٌ ، فَالمُفرَدَةُ "مُحَيُّوكِ" تَتَجاوزُ دَلالَتَها المُعجَميَّةَ إلى دَلالةٍ إيحائيَّةٍ ، فَهِيَ تُوحي بِوجْهٍ مِنْ وُجُوهِ الحَيَاةِ الحَقيقيَّةِ الجَاهِليَّةِ ، فَتَحيَّةُ المرأةِ تَجْعَلُنَا نَنْفُذُ إلى مَكانَتِها في القَبيلَةِ و عُلُوِّ مَنْزِلَتِها ، و مَوضِعِ تَقْديرِهَا و إعْزَازِهَا.

كَما أنَّ النِّداءَ يَشِيعُ بِالمَخزونِ النَّفسيِّ في أعماقِ الشَّاعِرِ ، و يُسْفِرُ عَنْ دَورِ المَرأةِ في السِّلمِ و كَريمِ مَكَانَتِها فِيهِ . فَهِيَ الَّتي تَسْقي كِرَامَ النَّاسِ و في البَيتِ الثَّاني يَجعَلُ الشَّاعِرُ المَرأَةَ مَنَاطَ الأَمرِ في الشَّدائِدِ و المكارِمِ ، و في هَذا خَيرُ شَاهِدٍ على أنَّ مَقَاليدَ الأُمورِ لَها نَصيبٌ في تَوجيهِها.

---

[1] المرأة في الشِّعر الجاهليِّ ص435.
[2] شرح الحماسة للمرزوقي ، مج 1 ، ص108

و رُؤيَةُ الشَّاعرِ الفَرْدِ هُنَا إنَّما هيَ رُؤيَةُ الجَماعَةِ ، و وَعْيُهُ الشِّعريُّ يَنْسَجِمُ مَعَ وَعيِ القَبيلَةِ الّذي لا يَخرُجُ عَنْ أعرافِ القَبيلَةِ .

إنَّ تكريمَ المَرأةِ في مَواقِفَ البُطُولَةِ في الشِّعرِ الجَاهليِّ شُعاعٌ مِنْ شَمسِ الأخلاقِ الإيجابيَّةِ العَربيَّةِ الَّتي أَضَاءَتِ الدُّنيا ، فأَشرَقَتْ على القُلوبِ عَاطِفَةً نَبيلَةً ، و جمالاً إنسانيَّاً آسِراً.

في مَفخَرَةٍ مِنْ تِلكَ الّتي كَانَتْ تَسْري في نُفُوسِ الأَبطالِ مِنَ الظَعائِنِ مَوقِفُ عَمرو بنُ كُلثوم و مَوقِفُ قَومِهِ ، فَالفَخرُ الّذي يَنبُعُ مِنْ إعجابِ الشَّاعرِ بِنَفسِهِ ، يَصُبُّ في مَجرى الفَخْرِ القَبَليِّ الوَاسِعِ ، و هُوَ يَرَى أنَّ إثبَاتَ بُطُولةِ الرَّجُلِ أمَامَ المَرأةِ عَامِلٌ عَميقُ الفِعْلِ في ذَاتِ الفَارسِ:

عَلى آثارِنَا بِيضٌ حِسَانٌ ... نُحَاذِرُ أنْ تُقَسَّمَ أو تَهُونَا
أَخَذْنَ على بُعُولَتِهِنَّ عَهداً ... إذا لاقَوا كَتَائبَ مُعلَمينا
لَيَستَلِبُنَّ أَبدَاناً و بَيضاً ... و أَسرَى في الحَديدِ مُقَرَّنينَا
يَقُدْنَ جِيادَنَا و يَقُلْنَ لَسْتُمْ ... بُعولَتَنَا إذا لم تَمْنَعُونَا
و مَا مَنَعَ الظَّعائِنَ غَيرُ ضَربٍ ... تُرَى مِنْهُ السَّواعِدُ كالقُلِينَا [١]

و في العلاقَةِ بَينَ البُطُولَةِ و المَرأةِ ضِمْنَ إطارِ انتِمائِها القَبَليِّ يَسْتَوحِي سَلامةُ بنَ جَندَل مَوقِفَ المَرأةِ ، فَكِلاهُما مَفْهُومانِ مُترابِطَانِ لا يُمكِنُ الوُقُوفُ على أَحَدِهما دُونَ الآخرِ ، يَقُولُ سَلامَةُ بنَ جَندَلٍ :

ألا هَلْ أَتَى أَنباؤُها أَهلَ مَأربٍ ... كَما قَدْ أَتَتْ أَهلَ الدَّنا و الخَوَرْنَقِ
بَأَنَّا مَنَعْنا بِالفَرُوقِ نِسَاءَنَا ... و نَحنُ قَتَلْنَا مَنْ أَتَانَا بِمُلْزَقِ [٢]

إنَّ مِثْلَ تِلكَ المَواقِفِ البُطُوليَّةِ تَغْذُوهَا إنسَانيَّةُ العَاطِفَةِ و صِدْقُهَا لأنَّ مَيْلَ الرَّجُلِ إلى المَرأةِ و غَيرَتَهُ عَلَيْهَا مِنْ أَقوَى العَواطِفِ بَيْنَ العَرَبِ ، و أوسَعِها شُمُولاً ، و أَعلَقِها بالنُّفُوسِ لأنَّها لَم يُؤَدِّها الشَّاعرُ عَلى نَحوٍ فاترٍ ، و لَمْ يَصُغْهَا نَافِلَةً مِنَ القَولِ ، و إنَّما صَاغَها صِيَاغةً مُعبِّرَةً عَنْ بيئَةٍ أخلاقيَّةٍ و أخلاقٍ فَعَلَتْ فِعْلَهَا في الشُّعراءِ ، فَكانَ لهذا الفِعْلِ مَظهَرٌ اجتِماعيٌّ أخلاقيٌّ عَامٌّ نَلْقَاهُ في مَنْهَجِ الشُّعراءِ الفُرسَانِ وَاحِداً و في مَعَانِيهِمْ مُتَشَابِهَةً.

---

[١] ديوانه ص99، القِلين: القُلُ . عُود صغير يُرمَى على الأرض ،ثُمَّ يُهمَزُ قليلاً فَيُضرَبُ بالمِقْلى ضَربَةً قَويَّةً .أيّ ما منَعَ النِّسَاءَ من سَبي الأعداءِ مِثْلُ ضَربٍ تَنِدُّ و تطيرُ مِنهُ سَواعِدُ المَضروبينَ كما تطيرُ القُلةُ إذا ضُرِبَتْ بِالمِقلى.
[٢] ديوانه ص160-161 ، الفَروق: يوم من أيام العرب ، مُلزَق: أرض

و البُعدُ الرُّوحيُّ إنَّما هُوَ الّذي يَحُوطُ المرأَةَ بهَالَةٍ منَ التَّقديرِ و الإجلالِ و في كُلِّ مَيدَانٍ و في مَيدانٍ و في كُلِّ سَبيلٍ كريمٍ ، و البُطُولَةُ مِنْ سُبُلِ الحَياةِ الكَريمةِ في العَصرِ الجَاهليِّ ، فإذا كانَ الفَارسُ العربيُّ في عُنفُوانِ فُتُوَّتِهِ إعصَاراً تُطَوِّحُ بِهِ الغَاراتِ إلى المَجدِ أوِ المَوتِ ، فإنَّ للمَرأَةِ أثَراً بَعيداً في بُطُولَتِهِ ، فهِيَ أُمَّاً أو أختاً ، أو زَوجاً ، تُلقِّنُهُ مَفَاخِرَ القَبيلَةِ ، و تَدفَعُهُ إلى أَتُونِ المَعاركِ ، و تُحبِّبُ إليهِ المَوتَ إنْ لَمْ يكُنْ مِنَ الموتِ بُدٌّ .

إنَّ الحِسَّ الإنسَانيَّ العَميقَ مِنْ وَراءِ الفِكرِ السَّاميَّةِ يَصنَعُ المَواقِفَ الإنسَانيَّةَ النَّبيلَةَ ، و تَبدُو جُمهُوريَّةُ أفلاطُونَ مُلتَقَى القِيَمِ الإنسَانيَّةِ السَّاميةِ ، و يَبدُو فيها تحقُّقُ مَا كانَ يَحلُمُ بهِ ((**لقَدْ حَقَّقَتْ بعضُ النِّسَاءِ العَربيَّاتِ باشتِراكِهِنَّ في الحَربِ مَا كَانَ يَتَخيَّلُهُ أفلاطُونَ في جُمهوريَّتِهِ و ما كانَ يُريدُهُ ، فقَدْ فرَضَ الجُنديَّةَ على المرأةِ ، و أَشرَكَها معَ الرَّجُلِ في حِمَايَةِ الوَطَنِ و القِتَالِ دُونَهُ ، و ذَلكَ في رأيهِ خَيرٌ مِنْ أن تَعيشَ كَلاًّ على الرِّجَالِ المُقَاتِلينَ يَحمُونَها مِنَ السَّبي**))[1]

الخَيلُ و السِّلاحُ في شِعرِ البُطُولَةِ:

لَمْ يَتَّخِذِ العَرَبيُّ الخَيْلَ زينَةً وَ تَفَاخُراً ، وَ لا وَسيلَةً إلى بُلُوغِ غَايَاتِهِ فَحَسْبُ ، وَ وَلَمْ تَكُنْ مؤْنِسَهُ في سَفَرِهِ القَاصِدِ وَ بُعْدِ مَشَقَّتِهِ و كَفَى ، بَلْ كَانَتِ الخَيْلُ رَمْزاً لِلبُطُولَةِ العَرَبيَّةِ ، وَ عُنْواناً لا يَتَبَدَّلُ لِحيّاةِ الفَارِسِ العَرَبيِّ ، فَلا عَجَبَ أَنَّ العَرَبَ كَانُوا يُهَنِّئونَ وَ يُهَنَّؤون بِفَرسٍ تُنْتِجُ .

إنَّ العَرَبيَّ لَمَسَ دَوْرَ الفَرَسِ الكَبيرِ في حَيَاتِهِ وَ مَصيرِهِ ، حَتَّى غَدَا جُزْءاً مِنْ وُجُودِهِ الإِنْسَانيِّ الكَريمِ ، وَ صِنْواً لِقُوَّتِهِ البَشَريَّةِ ، وَ هِيَ عُدَّتُهُ في الملمَّاتِ ، يُصَاوِلُ بِهَا الأَخْطَارَ ، وَ يَدْفَعُ عَنْ نَفْسهِ غَوَائِلَهَا ، وَ هِيَ وَسِيلَتُهُ إلى العِزَّةِ وَ النَّصْرِ . وَ الفَارِسُ العَرَبيُّ حِين يَمْتَلِكُ فَرَسَاً أَصِيلَةً سَابِقَةً فَإِنَّ مَعْنَى ذَلِكَ مِنْ بَشَائِرِ الفَوْزِ وَ الغَلَبَةِ .

فَلا عَجَبَ بَعْدَئِذٍ أَنْ يُفْسَحَ لِلْحَديثِ عَنْهَا مَكَانٌ و أيُّ مكانٍ في شِعْرِ الفُرْسَانِ! وَ أَنْ يُقِيمَ الشَّاعِرُ بَيْتَهُ وَ بَيْنَ الخَيْلِ أَصفَى أَنْوَاعِ الصِّلاتِ ، يَمْتَزِجُ فِيهَا شُعُورُ المَحَبَّةِ وَ الإِعْجَابِ بِشُعُورِ المَصِيرِ الوَاحِدِ ، فَإِنْ كُتِبَتِ الغَلَبَةُ لأَحَدْهِما كُتِبَتِ النَّجَاةُ لِلآخَرِ ، وَ خِذْلانُ أَحَدِهِما يَعْنِي النِّهايَةَ المَحْتُومَةَ لِرَفيقِ حَيَاتِهِ .

[1] المرأة في الشعر الجاهلي ص443

و مِمَّا لا رَيبَ فِيهِ أنَّ تِلكَ الصِّلَةَ جَعَلَتِ الشَّاعرَ الفَارسَ يُوفِّرُ الحظَّ الأَوفى مِنْ وَصْفِهِ لِلخَيلِ إذ انْصَرفَ إلى العِنَايةِ بوَصْفِهَا عِنَايَةٌ لا تَعْدِلُهَا عِنَايتُهُ بأَيِّ مَوصُوفٍ آخرَ لَهُ عَلاقَتُهُ بالجَاهليِّ ، فَصَوَّرَهَا تَصْويرَ مَنْ يُعَايشُهَا بشَغَفٍ و إعجَابٍ لأنَّهُ فُتِنَ بخُيَلائهَا ، و خِفَّتِها و حَرَكاتِهَا ،
و قُوَّتِها و سُرْعَةِ إغارتِها ، فَوَصَفَ كمالَ خَلْقِها و جَلدَها وَ وَصَفَ إقبَالَها و إدْبَارَها ،
و تحسَّسَ مَافِي صُدورِهَا مِنْ حَمْحَمَةٍ ، فَجَاءَ الوَصْفُ جُمَاعَ فَنِّ الشَّاعرِ لأَنَّهُ وَليدُ صِلَةٍ لا تَضْعُفُ بَيْنَ الفَارسِ و فَرَسِهِ.

شَهِدَتْ ظُهُورُ الخَيلِ بُطولاتُ الشُّعراءِ الفُرسَانِ، فكانَتْ دُروعاً حَصِينةً لَهُمْ تَزيدُ بَسالتَهُمْ مَضَاءً و عَزيمَةً ، و تُقوِّي مِنْ رَهَافَةِ السَّيفِ ، و تُضْفي عَلى الشَّاعِرِيَّةِ مَا فِيهَا مِنَ الخِصَالِ وَ السَّجَايَا لتُتَمِّمَ سَجَايَاهُمْ وَ أَخْلاقَهُمْ .

وَكَانَ الصَّبْرُ عُنْواناً لِتِلْكَ السَّجايَا ، وَ كانَتِ المَواقِفُ الحاسِمَةُ الَّتِي خَاضَتِ الخَيْلُ غِمارَها ، وَ كَانَتِ العَاملَ الأسْمَى في بَلاءِ الفُرْسَانِ البَلاءَ الحَسَنَ ، وَفي تَسْجيلِ البُطُولاتِ النَّادِرَةِ وَ الإنْسَانيَّةِ الَّتِي رَوَتْها الأَجْيَالُ العَرَبيَّةُ قَصَائِدَ وَ مُقَطَّعَاتٍ لِتَغْدُوَ تِلكَ البُطُولاتِ مَثَلاً أَعْلَى يُحْتَذَى في شِعْرِ المُواجَهَةِ عَلَى اَلْسِنَةِ الشُّعَراءِ العَرَبِ فِيمَا بَعْدُ .

يَصِفُ الشَّاعِرُ لبيد حَالةَ قَوْمِهِ فِي جَمَاعَةِ خَيْلِهِمْ ، فَلَقَدْ أَبَوْا قَبُولَ الخَسْفِ ، فالخَيْلُ تَتْبَعُ فَحْلَها الَّذي لا يَعْلُوهُ إلاّ فَارِسُهُ ، وَمَا زَالَ القَائِمونَ عَلى الخَيْلِ عَلى أُهبَةٍ مِنَ الأمْرِ ، فَقَوْمُ لَبيدٍ قومُ حربٍ ، وَقَدْ هَيَّؤوا أربعينَ فَارساً على خَيْلِهِمُ المُعَدَّةُ للإغارَةِ :

أبى خَسْفَنَا أَنْ لا تَزَالُ رُواتُنا ... وَأفرَاسُنَا يَتْبَعْنَ غَوْجاً مُحرَّما

وَ إنَّا أُنَاسٌ لا تَزَالُ جيادُنَا ... تَخُبُّ بأعضَادِ المَطِيِّ مُخَدَّما
لَنَا مَنْسَرٌ صَعْبُ المَقَادَةِ فَاتِكٌ ... شُجَاعٌ إذَا ما آنسَ السَّرْبَ أُلْجِمَا [1]

[1] ديوانه ص 197 ، الرُّواة : القائمونَ عَلى الخَيْل ، الغَوَجُ : اللّينُ الأعْطَافِ، المُنسَرُ : جَمَاعَةُ الخَيْل أو الفرسان مِنْ ثلاثين إلى أربعينَ .

و يَفخَرُ عَمرو بنُ كُلثُوم بصَولةِ قَومِهِ بخَيلِهمْ إذْ جَلبُوهَا عَلى مَنْ يُغيرونَ عَليْهِمْ، فَهِيَ كَالعِقْبَانِ إذا أَرخَى لها الفارس العِنانَ و لَمْ يَرْفَعْ يَدَهُ بَعْدَ خَفْضِهَا حَتَّى لا تُكْبَحَ ، فَفَرَّقَ حَثُّهُمْ خُيولَهُم القَومَ المُجتَمِعينَ، و أفنَوا جموعهم ، و عَادتِ الخَيلُ غَانِمَةً .

و مَا أكثَرَ الفُرسَانَ الكِرامَ الّذين مُرِّغَتْ وُجوهُهمْ بالتُّرابِ الّذي تَغيَّرَ لما سَالَ مِنْ دِمائِهمْ فَوقَهُ !

جَلَبنا الخَيلَ مِنْ كَنَفَيْ أَرِيكٍ عَوابسَ يَطَّلِعنَ مِنَ النِّقابِ
كَأَنَّ إناثَها عِقبانُ دَجْنٍ إذا طُوطِئْنَ في بَلَدٍ يَبَابِ
صَبْحناهُنَّ عَنْ عُرضٍ تَميماً و أَتْلَفَ رَكْضُنَا جَمْعَ الرِّبَابِ
فأفْنَيْنَا جُمُوعَهُمُ بِثَأجٍ وَ كَرَّتْ بالغَنَائمِ و النِّهابِ
فَكَمْ عَفَّرْنَ مِنْ وَجْهٍ كريمٍ غَدَاةَ لَقِيتُهُمْ و النَّقعُ كَابِ [1]

إنَّها حَقَّاً لَصُورةٌ أَجَادَها الشَّاعرُ فَخْراً بالخَيلِ و هُوَ يَعرِضُ لِنَمَطٍ مِنْ أَنماطِ البُطُولَةِ ، فَالخَيلُ مُتَجهِّمةٌ تَجَهُّمَ فُرسَانِها ، و هيَ تُشرِفُ عَلى المُغارِ عَلَيْهِمْ . و هذا اعتِرافٌ مِنَ الشَّاعرِ باسْتِجابَةِ الخَيْلِ لما دَرَّبَها عليه فُرسَانُها و يَتَخيَّلُ الخَيلَ عِقْبَاناً في شِدَّةِ الإغارَةِ بسُرْعَةِ انقِضَاضِها.

هَذا و للألفَاظِ وَظيفَتُها و إيحَاءاتُها ؛ فالفِعلُ المَاضي "أَتْلَفَ " تُوحي صِيغَتُهُ بِتَحقُّقِ الهَلاكِ ، و الفِعلِ المُضَعَّفُ " عَفَّرنَ " يُوحي بالمُبالَغةِ ، و " كَمْ" الخَبَرِيَّةُ تُوحي بَكثرَةِ كِرَامِ القَومِ الّذينَ كُتِبَتْ عَليهِمُ الذِّلَةُ في تِلكَ المَوقِعَةِ .

و في مَشْهَدٍ آخَرَ بَعيدِ الدَّلالَةِ ، و مِحوَرُهُ الخَيْلُ يَعتَزُّ زَبَّانُ بنُ سَيَّارِ بنِ عَمرٍو المُرِّيُّ بفَرَسِهِ الّتي اسْتَحالَتْ إلى عُقَابٍ لتمكِّنَ فَارِسَها بِسُرعَتِها مِنْ نَجْدَةِ مَنِ اسْتَغَاثَ بِهَا ، و هُوَ يُرْسِلُ لِتُسْرِعَ و كأنَّها تَقْطَعُ السَّيرَ لِسُرعَتِها:

فإذا فَزِعْتُ عَدَتْ ببَزِّي نَهدَةٌ جَرداءُ مُشْرِقَةُ القَذَالِ دَؤولُ
شَوهَاءُ مِرْكَضَةٌ إذا طَأطَأْتُها مَرَطَى إذا ابتَلَّ الحِزَامُ نَسُولُ [2]

---

[1] ديوانه ص40 . أريك : اسمُ جبلٍ بالبادية ، النِّقابُ : الطَّريق ، طَأطأَ بِعَنانِ الفَرس: إذا خفض يَدَه و لم يرفعها للكبح ، الرِّبابُ: القَومُ المجتمعونَ ، ثأج : عَينٌ مِنَ البَحرينِ على لَيالٍ.
[2] الأصمعيات ص352 ، فَزِعتُ : أغَثْتُ - البَزُّ: السِّلاحُ - مُشرقةُ القَذال: يُريدُ عُنُقَها ، و ذلكَ مَدحٌ في الخَيلِ ، الدَّؤولُ: التي تمشي مَشْيَ المُثْقَلِ بِحَملٍ أثقلَهُ - الشَّوهاء : الحَسَنَةُ الخَلقِ الكَاملةُ حُسناً ، و هي من الأضدادِ ، المِركَضَةُ: التي تركضُ الأرضَ بِقَوائمِها إذا عَدَتْ ، النَّسُول: المُسرعةُ في سَيرِها

و في مَوقِفِ اعْتِدادٍ بالنَّفسِ لا يُحَدُّ يُعبِّرُ الشَّاعرُ دُريدُ بن الصِّمَةِ عَنْ بُطُولَتِهِ و شَجَاعَتِهِ ، فقَدْ مَنَعَ خَيلاً ، و حَبَسَ فُرسَانَها لأَوَّلَهُمْ على آخِرِهِمْ عَنِ الإغارَةِ على قَومِهِ ، و هُوَ يَمتَطي حِصَاناً ضَخماً عَبلاً ، حَسَنَ الجِسْمِ، مُرتَفِعَهُ ، جَسيمَ اليَدَيْنِ و الرِّجلَينِ ، و قَدْ عُوِّدَ أَنْ يَمْضِيَ على وَجهِهِ وَ يُسْرِعَ و أوائلُ الخَيلِ الْمُغيرَةِ تَخْرُجُ و العَرَقُ يَجْري مِنْها خُروجَ الجَبَلِ الصَّغيرِ بَعْدَ المَطَرِ ، و لَهَا ارتِفَاعٌ في عَدْوِهَا كالنَّارِ ، و لَهَا جَرْيٌ حَسَنٌ بَعْدَ جَرْيٍ ، و هذا الجَريُ إنَّما هُوَ كاجتِماعِ مَاءِ البِئرِ بَعْدَ شِدَّةِ الحَرِّ في يَومِ الوُرودِ.

و حتَّى يَرسُمَ الشَّاعِرُ الفَارسَ شِدَّةَ مُجابَهَتِهِ الخَيلَ الْمُغيرَةَ ، و انتزاعِ نَصْرِهِ، وَسَّعَ مِسَاحةَ صُورَتِهِ ، و عَدَّدَ جُزئيَّاتِها ، فأعانَتْهُ مَعَ قُدْرَتِهِ على الصِّيَاغَةِ اللُّغويَّةِ الْمُعَبِّرَةِ و القُدرَةِ على الانطِلاقِ في أفقٍ لا مُبَالَغَةَ فِيهِ على الظَّفرِ بخاصِيَّةِ البُطُولَةِ الوَاقِعيَّةِ:

وَ خَيلٍ كَأَسْرابِ القَطَا قَدْ وَزَعْتُها	عَلى هَيْكَلٍ نَهْدِ الجُزارةِ مُرمَدِ
سَوابِقُهَا يَخْرُجْنَ مِنْ مُتَنَصَّفٍ	خُروجَ القَواري الخُضْرِ مِنْ سَبَلِ الرَّعْدِ
لَهَا حُضرٌ. كيفَ الحَريقُ و عَقْبُهَا	كَجَمِّ الخَسِيفِ بَعْدَ مَعْمَعَةِ الورْدِ [1]

ففي البَيْتِ الأوَّلِ شَبَّهَ إغارَةَ الخَيلِ مُجتَمِعَةً ، مُنقَضَّةً ، مُسْرِعَةً بِسَربِ القَطَا في تَجمُّعِها و سُرْعَتِها.

و في البَيتِ الثَّاني صُورةٌ هيَ ((**غَايةٌ في الجَمَالِ حَيثُ شَبَّهَ الشَّاعِرُ الخَيلَ و هيَ تَخرُجُ مُسرِعَةً مِنَ الْمُنتَصَفِ و العَرَقُ يَجري مِنْهَا .هذهِ الصُّورةُ شَبَّهَهَا بِصُورةِ الجَبَلِ الصَّغيرِ بَعدَ المَطرِ الخَفيفِ ، و هَذا الجَبَلُ أخضرُ ، و وَجْهُ الشَّبَهِ اللَّمَعَانُ**))[2].

و في قَولِهِ في البَيتِ الثَّالث شَبَّهَ جَرْيَ الفَرَسِ و ارتفاعَهُ في عَدوِهِ بِالنَّارِ في سُرْعَةِ امتِدَادِهَا و انتِشَارِها ، و ذلكَ في قَولِهِ : لَهَا حُضرٌ . كَيفَ الحَريقُ.

و جَاءَ الاسْتِفهامُ في مَعنَى التَّعجُّبِ يُسْتَشَفُّ مِنْهُ قُوَّةُ إغارةِ الخَيلِ و شِدَّتُها.

[1] ديوانه ص 79-80 الجزارة : غِلظُ اليدين و الرِّجلين في الفَرسِ ، مُرمَدٌ - أرمدَ : إذا مَضَى على وَجهِهِ و أسرَعَ ، القَواري : جمع قارة: و هي الجبلُ الصَّغيرُ - الحُضْرُ - الإحضار: ارتفاع الفرسِ في عَدْوِهِ
[2] ديوان المعاني الكبير ، ابن قُتيبة ، حيدر آباد 1949 ، ج1 ، ص8-14

و لا يَخفَى أنَّ عَناصِرَ التَّشبيهِ : الفرسَ ، و المطَرَ ، و الرَّعدَ ، و النَّارَ ، لَمْ تَجتَمِعْ في تَشبيهاتِ الشَّاعِرِ عَبثاً لأنَّ عَلاقَةً وَثيقَةً تَجمَعُ ؛ فَهِيَ مِنْ عَناصِرِ الطَّبيعَةِ ، و مِنَ المُسَلَّمِ بِهِ أنَّ الشَّاعرَ يَستَمِدُّ فِكرَهُ ، فَالمَطَرُ و هُوَ العُنصُرُ الفعَّالُ في إعادَةِ الحَيَاةِ إلى الأرضِ يَرمزُ هُنَا لِتَجَدُّدِ صُورةَ البُطُولَةِ ، فالمَطَرُ يَحمِلُ الخَيرَ ، فيَغسِلُ الأرضَ و يُطَهِّرُهَا مِنْ مَظَاهِرِ القُبحِ و اليَبَابِ ، و انطِلاقَةُ الخُيولِ بِفُرسَانِها تُطهِّرُ نفُوسَهَمُ مِنْ مَظاهِرِ الجُبنِ . و التَّعمُّقِ بالصُّورَةِ يُوحي بِوَمَضَاتِ نَفسٍ مِنْ لا شُعُورِ هذا الإنسانِ ، صُورَةٌ فيها نَصيبٌ لِحَاسَّةِ البَصَرِ كما فيها نَصيبٌ لِحَاسَّةِ السَّمعِ ، و لا يُمكِن للمُدَقِّقِ هُنَا أن يُغفِلَ الرَّبطَ المُحكَمِ بَينَ صَوتِ الفَرَسِ ، و صَوتِ الرَّعدِ ، فصَوتُ الرَّعدِ أوَّلُ بَشَائرِ المَطَرِ الّتي تُزَفُّ إلى الأرضِ ، و صَوتُ الأفراسِ و حَمحمَتها مِنْ بشَائرِ الإقدامِ و الانتِصَارِ.

و إذا اسْتَجابَتِ الفَرَسُ لِفَارِسِها و تَهيَّأَتْ للمَعركَةِ رَجَّحَتْ لَهُ كَفَّةَ النَّصرِ ، و الشَّاعرُ عَامرُ بن الطُّفَيلِ فَارِسُ قَومِهِ بني عامرٍ أعدَّ فَرَسَهُ للقِتَالِ ، و يَحثُّهُ على مَا أَعَدَّهُ لَهُ مِنْ إقدامٍ و اندفاعٍ إلى جُمُوعِ العَدُوِّ دُونَ خَوفٍ ، و لِذا فَهُوَ يَزْجُرُهُ إذا ازْوَرَّ مِنْ وَقْعِ القَنَا مُدْبِراً حَتَّى لا تَسِمَهُ مَعَرَّةَ النُّكوصِ و الهَزيمَةِ:

لَقدْ عَلِمَ المَزنُوقُ أَنِّي أُكِرُّهُ — عَلى جَمعِهِمْ كَرَّ المَنيحُ المُشَهَّرِ
إذا ازْوَرَّ مِنْ وَقْعِ القَنَا زَجَرْتُهُ — و قُلْتُ لَهُ : ارْجِعْ مُقْبِلاً غَيرَ مُدبرِ
و أَنبَأْتُهُ أَنَّ الفِرارَ خَزَايَةٌ — عَلى المَرْءِ مَا لَمْ يُبْدِ عُذراً فَيُعذَرِ [1]

إنَّ الشَّاعرَ الفَارسَ هَا هُنا مِنْ خِلالِ خِطَابِهِ لِلفَرَسِ أَبْدَى مَا في وَليجَةِ نَفْسِهِ مِنْ خَصَائصِ البُطُولَةِ و الإقدامِ ، و إنَّما أَرادَ أنْ يَتَحلَّى بِهَا فَرَسُهُ لأَنَّ رُوحَ هَذا الفَارسِ العَربِيِّ كَغَيْرِهِ مِنَ الفُرسَانِ امْتَزَجَتْ بِرُوحِ حِصَانِهِ ، و كأَنَّهُما مَخْلُوقٌ وَاحدٌ إذْ لا يُذكَرُ أَحدُهُما إلاّ مَقروناً بِذِكرِ الآخَرِ.

نَرى الشَّاعرَ يَسْتَعِينُ بالصُّورَةِ لِجَلاءِ فِكَرِهِ ، فَجاءَتْ مُعبِّرَةً بِلا كِلْفَةٍ ، اسْتَوحَاهَا مِنْ بيئَتِهِ ، و أَعرافِهَا السَّائدَةِ ، فَقَدِ اسْتَعَارَ القِداحَ للتَّعبيرِ عَنْ رَدَّةِ فِعلِ القَومِ لَحظَةَ إغارَتِهِ عَلَيْهِمْ فَهُمْ يَصِيحُونَ بَيْنَ مُسْتَبْشِرٍ و يَائسٍ.

---

[1] ديوان عامر بن الطُّفيل ، رواية أبي بكرٍ محمد بن القاسم الأنباري عن العباي أحمد بن يحيى ثعلب ، دار صادر ، بيروت 1379-1959 ، ص61-64 . و المزنوقُ : اسمث فرسِهِ . المَنيحُ : قِداحٌ في المَيسرِ سَريعُ الفَوز يصيحونَ حَولَهُ لِيَخْرُجَ.

الفِرارَ خِزايَةٌ : تَشبيهُ بَليغٌ جعَلَ فيهِ الفِرارَ مِنَ المَعركَةِ الهَوَانَ و الذّلِّ نَفْسَهُ ، و الفَضِيحةَ ذَاتَها. مُبَالَغةً في تَوضيحِ أَثَرِ التَّقَهْقُرِ عَنِ اللِّقَاءِ . و لِذَلِكَ نَرى الشَّاعِرَ نَفسَهُ و في مَوقِفٍ بُطُوليٍّ آخَرَ مُعتَزّاً بِفَرسٍ ثَانٍ لَهُ اسمُهُ " دَعلج" يَستَجيبُ لَهُ إذا أَكَرَّهُ و لا يَشْتَكي وَقْعَ الرِّماحِ في صَدْرِهِ إلاّ صَهيلاً مَكْتُوماً فِيهِ ، فيَقُولُ مُخاطِباً امرأتَهُ :

وَ طُلِّقْتِ إنْ لم تَسْألي أَيُّ فَارسٍ	حَليلُكِ إذْ لاقى صُدَاءً و خَثْعَما
أُكِرُّ عَليْهِمْ "دَعْلَجاً" وَ لِبَانُهُ	إذا ما اشْتَكَى وَقْعَ الرِّماحِ تَحَمْحَمَا [١]

لَقَدْ نَقَشَ الشُّعراءُ الجَاهليُّونَ على صَفْحَةِ الصِّدقِ و الوَفَاءِ عَواطفَهُمُ الّتي ابْتَعَثَها حُبُّ الخَيْلِ في نُفُوسِهِمْ ، و حِرصُهُمْ على اقْتِنائِهَا و المُحَافَظَةِ عَلَيْها ، و هَذِهِ المَحبَّةُ التي أوقَفَها الفُرْسَانُ على الخُيولِ أَدَّتْ إلى نَمَطٍ مِنَ الفُتُورِ بَينَهُمْ و بَينَ زَوجَاتِهِمَّ اللَّواتي لم يُلْقُوا إليهِنَّ سَمْعاً.

الشَّاعرُ المُقعَدُ بنَ شَماس يَقِفُ مِنْ زَوجَتِهِ مَوقِفاً تُدرِكُ فِيهِ حَاسِمَ رأيِهِ:

أَتَأْمُرُني بِكَنْزَةَ أُمُّ قَشْعٍ	لأَشريهَا فَقُلْتُ لَها : دَعيني
فَلَوْ في عَيرِ كَنْزَةَ آمَرَتني	وَ لكِنِّي بكَنْزَةَ كَالضَّنينِ
فَلا وَ أَبيكِ لا أَحبُو خَليلاً	بِكَنـــزَةَ ما حَييتُ فَلا تُهُوني [٢]

فَفي البَيتِ الأَوَّلِ تَدْفَعُ الغَيْرَةُ الزَّوجَةَ إلى صِيغَةِ الأمرِ لِيبيعَ فَرَسَهُ ، لكنَّ صِيغَةَ الاستِفهامِ الّتي ردَّ بهَا الفَارسُ على زَوجَتِهِ تَحمِلُ مَعنَى الإنكارِ ، و كَانَ الحَسْمُ الشَّديدُ في أَمرِهِ على وَجهِ الاسْتِعلاءِ : ((دَعيني)).

و تَخِفُّ غَيرَةُ الزَّوجَةِ في البَيتِ الثَّاني ، فهي تُشاوِرُهُ ، لكنَّ الحَرفَ ((لَوْ)) سَدَّ عَلَيْها سَبيلَ أُمنيَّتِها ، و مَا يَتمنَّاهُ الشَّاعِرُ أَنْ تكُفَّ الزّوجَةُ عَنْ مُحاورَتِهِ .

---

[١] ديوانه ص134 ، و ينظر شرح حماسة أبي تمام . د. علي المُفضَّل حمُّودان - مج 1 ص356

[٢] أسماءُ خيلِ العربِ و أنسابُها و ذِكرُ فُرسَانِها، الغُنداجانيُّ - حققه و قدَّم له محمد علي سُلطاني ، مؤسسة الرسالة - بيروت -د.ت ، ص17 ، آمَرتني : شاروتني

و فِي البَيتِ الثَّالثِ يُؤَكِّدُ بأُسلوبِ القَسَمِ مَا يُريدُهُ هُوَ ، إِنَّهُ لَنْ يَبيعَها و لَنْ يَخُصَّ بهَا صَاحِباً صَافِيَ المَودَّةَ مُدَّةَ حَياتِهِ ، ثُمَّ يَلْتَمِسُ مِنْهَا ألاّ تُعرِّضَ نَفسَها لِمَذَلَّةِ رَغبَتِها المَرفُوضَةِ . و تُلْمِحُ شَفَافِيَةُ الشَّاعِرِ و إنسَانِيَّتُهُ فِي مُخاطَبَةِ زَوجَتِهِ و تَقْدِيرِها و إعلاءِ شَأنِها ، و هَذَا مِنْ تَمَامِ خُلُقِ الفُروسِيَّةِ و البُطُولَةِ .

و مِنْ أَشْهَرِ شُعراءِ الجَاهليَّةِ و أَبرزَهم مَقَاماً فِي نَعْتِ الخَيلِ طُفَيلٌ الغَنَويُّ . و قَدْ آمَنَ النُّقَّادُ القُدامى بأنَّ طُفَيلاً يَأتِي فِي طَليعَةِ الشُّعراءِ الوَصَّافِينَ للخَيلِ ، فقَدْ قالَ ابنُ قُتَيبَةَ فِيهِ ((**و كَانَ مِنْ أَوصَفِ النَّاسِ للخَيْلِ** [1])) و كأنَّ هذا الشَّاعِرَ نَسيجُ وَحْدِهِ فِي وَصْفِهَا .

يَصِفُ طُفَيلٌ خَيلاً لِقَوْمِهِ تُغيرُ مُجْتَمِعَةً ، فَهِيَ سَرِيعَةُ الإغَارةِ كَالذِّئاب ، وَهِيَ ذَخِيرَةُ قَوْمِهِ لِوَقْتِ حَاجتِهِمْ إليها ، طَوِيلَةُ الأَعْنَاقِ ، قَوِيَّةُ المُتُونِ ، ، كَثيرَةُ الكَرِّ على الأعْدَاءِ ، تعَوَّدَتِ الإغارةَ عَليْهم مَرَّةً تِلْوَ مَرَّةٍ ، وَ قَدْ مَرَنَتْ على القِتَالِ وَ الطِّعَانِ ، فما تكادُ تَؤُوبُ مِنْ مَيْدَانٍ حَتَّى تُعَادَ إلى غَيْرِهِ ، إِنَّها أَلِفَتْ سُوحَ المَعارِكِ كما تَأْلفُ الطَّيرُ أماكِنَها فِي السَّمَاءِ تَعْكِفُ فيها لَا تَبْرَحُها :

دِقَاق كَأمْثَالِ السَّرَاحِينِ ضُمَّرٌ ... ذَخَائِرُ مَا أَبْقَى الغُرَابُ وَ مَذْهَبُ
طِوَالُ الهَوَادِي وَ المُتُونُ صَلِيبَةٌ ... مَغَاوِيرُ فيها للأَرِيبِ مُعَقَّبٌ
إذا خرَجَتْ يَوْمَاً أُعِيدَتْ كَأَنَّها ... عَواكِفُ طَيْرٍ فِي السَّمَاءِ تُقَلَّبُ [2]

و يَمضِي الشَّاعرُ فِي حَديثِهِ عَنِ الخَيْلِ مُختَاراً جَوَاداً سَابِقاً مِنْها ، جَامعاً لَهُ مِنَ الصِّفَاتِ الكَرِيمَةِ فِي الخَيلِ ، فشَعْرُ عُنُقِهِ المُتَطايرُ مَعَ الرِّيحِ ذَكَّرَ الشَّاعرَ بسَنَا اللَّهَبِ المُنبَعَثِ مِنْ النّباتِ المُتَّقِدِ ،
و يُشَبِّهُ عَدْوَهُ تَارَةً أُخرى بعَدْوِ ذِئبٍ أَضَلَّ صِغَارَهُ لِشِدَّةِ عَدْوِهِ حَتَّى عَلا شَرَفَاً يُطِلُّ مِنْهُ عَلى مَا حَولَهُ لا يَأْبَهُ بِالرِّيحِ الّتِي تَحُولُ بَيْنَهُ و بَيْنَ مَا يُريدُ:

كَأَنَّ على أَعرافِهِ وَ لِجَامِهِ ... سَنا ضَرَمٍ مِنْ عَرْفَجٍ يَتَلهَّبُ
كَسِيدِ الغَضَا الغَادي أَضَلَّ جِرَاءَهُ ... عَلا شَرَفاً مُسْتَقبِلَ الرِّيحِ يَلْحَبُ

إنَّ طُفَيلاً عَبَّرَ بالصُّورَةِ أَكثَرَ مِنْ تَعبيرِهِ بالفِكْرَةِ ، و تُلْمَحُ فِي صُوَرِهِ مَلامِحُ بيئَةِ البَادِيَةِ ، و فيها دِقَّةٌ و بَراعَةُ خَيالٍ ، فَصُورَةُ الخَيلِ المُغيرَةِ مُجتَمِعَةً فِيها اسْتِقْصَاءٌ اسْتَكْمَلَ جَوانِبَها بِاسْتِحضَارِ صُورَةِ الطَّيْرِ

---

[1] الشِّعرُ و الشُّعَراءُ ، دَارُ إحْياءِ العُلُوم - بيروت ، ط3 ، 1407 - 1987 ، ص 300 .
[2] ديوانُهُ ، تحقيق د.محمَّد عبد القادر أحمد ، دارُ الكتاب الجديد ، بيروت ط1-1968 ، ص 43 - 44 ، الغُرابُ و مَذْهَبُ : فرسَان لقَوْم الشَّاعِرِ .

الّتي أَلِفَتْ عُلُوَّ السَّماءِ ، و في ذلكَ أَيضَاً ذَوقٌ عَالٍ في اختيارِ التَّشبيهِ ، و تَمَّمَ رَسْمَ الصُّورةِ في اختيارِ صُورَةِ ضُمورِ الخَيْلِ و في ذَلكَ تَأْكيدٌ على خِفَّتِها و سُرعَةِ جَريهَا .

و الصُّورَةُ الّتي رَسَمَها الغَنَويُّ لِحَركَةِ الحِصَانِ الُمفْرَدِ لَها جَمَالُها و أَثَرُها في النَّفسِ ، فَهِيَ تَزيدُ في إظهارِ سُرعَةِ الفَرسِ في العَينِ و تُثَبِّتُهَا .

و صُوَرُ الشَّاعِرِ لا تُثْقِلُ على الُمتَذَوِّقِ في شَيءٍ بِفَضْلِ العَفويَّةِ و الصِّدقِ الشُّعوريِّ ، و هُوَ كَما كانَ يُقَالُ لَهُ في الجَاهِليَّة: ((**الُمحَبِّرُ لحُسْنِ شِعرِهِ**))[1] .

و لأَنَّ وَصْفَ الخَيلِ اقْتَرَنَ بمواقِفِ البُطُولَةِ الّتي تُفَجِّرُ مَشَاعرَ الافْتِخَارِ في أعماقِ نَفْسِ الفَارسِ ، كَانَتْ قَصَائِدُ الشُّعراءِ الفُرسَانِ في خُيولهم قَادِرَةً على تَحقيقِ الأَثرِ الفَنِّيِّ الجماليِّ في الُمتَلقِّي.

ظَلَّتْ قَصَائِدُ وَصْفِ الخَيلِ و خَوضِها غَمَراتِ البُطُولَةِ حَاضِرَةً لَمْ يَكْبُ فِيها تَأَلُّقٌ ، و لَمْ يَخْبُ حِسٌّ إذِ البَاعِثُ على قَولِها صِدقُ عَاطِفَةٍ ، فَهيَ معَ تَشكيلِها فَضَاءً واسعاً للتَّفَاعُلِ بَيْنَ الجَانبَيْنِ: الفَارسِ و جَوادِهِ تُشَكِّلُ فَضاءً آخرَ رَحيباً للتَّفاعُلِ بينَ الفَارسِ و الُمتلقِّي لأنَّها تَعبيرٌ عَنْ فِكرٍ يُسَاوِرُ ذِهنَ الُمتَلقِّي لاتِّصَالِهِ العَاطِفيِّ العَميقِ عَبْرَ العُصُورِ بتَاريخِهِ الُمتلأْلِئِ بالقِيَمِ البُطُوليَّةِ الإيجابيَّةِ. و كما تعلَّقَ الفَارسُ البَطَلُ بفَرسِهِ الّتي تَعني عُنوانَ السِّيادَةِ ، فقَدْ تعلَّقَ بسَيفِهِ و رُمحِهِ تعلُّقاً بلغَ حدَّ التَّلازُمِ ، لأنَّ في ذلكَ دَلالةً على خِصَالِ البُطُولَةِ و الشَّجاعَةِ ، فَبِهِمَا يُطاعِنُ عَدُوَّهُ ، و بِهِما يَصْنَعُ نَصْرَهُ و فَوزَهُ ، و فَوقَ هذا و ذَاكَ فإنَّ مُلازَمَتَهُما مِنْ سِماتِ السُّؤْددِ أيضاً في العَصرِ الجاهِليِّ.

و مَنْ يُرسِلْ بَصرَ النَّاقِدِ الُمدَقِّقِ في المشَاهِدِ الّتي رسَمَها الجاهِليُّونَ في مَعاركِهِمْ يُدرِكُ أنَّ مِنْ أَبْهَى صُوَرِ الَمجدِ و البُطُولَةِ مَا روَتْهُ السُّيوفُ و ما قَامَتْ بهِ القَنَا و النُّصُولُ . لَقَدْ أَفَاضَتْ قَرائحُهُمْ على صَفَحاتِ الشِّعرِ صُوراً تُمتِعُ و تُقنِعُ ، و تُدْهِشُ الُمتذَوِّقَ ، و تَسْتَقِرُّ في عَقْلِهِ لأنَّ شَاعريَّةَ كُلِّ فَارسٍ بَطَلٍ شَاعرٍ صَنَّاعٍ استَطاعَ أَنْ يُوفِّي صُوَرَهُ حَقَّها مِنْ عُمقِ الفِكرَةِ ، و صِدقِ الإحساسِ ، و وجَمالِ التَّصويرِ.

[1] الشِّعرُ و الشُّعراءُ ص300

و أحبُّ آلاتِ الفُروسيَّةِ عِندَ العَربِ السُّيوفُ لأنَّها ((**أحسنُ آلاتِهِم و أشهَرِها ذِكراً فَلِذَلكَ كَثُرَتْ أَسْمَاؤُها عِنْدَهُمْ و لَهَجُوا بِها في أشعارِهِمْ و كانَ مِنْ أحسَنِ السُّيوفِ عِندَ العَرَبِ السُّيوفُ المَشرفِيَّةُ ، و كَانوا أكثرَ مَا يَتحمَّسونَ بِها**[1]))

و الفَارِسُ البَطَلُ لا يُمكنُ أَنْ يُزَايلَهُ سَيْفُهُ أَوْ أَنْ يكونَ أَعزَلَ مِنْ رُمحٍ أَو قَوسٍ ، و قَدْ يكونُ كَامِلَ السِّلاحِ بِهَا جَميعاً ، فَكَيفَ لا يَتَغَنَّى الشُّعراءُ الفُرسَانُ بِعمَادِ حَيَاتِهِمْ ، أو بِمَبْلَغِ حَظِّهِمْ مِنَ الدُّنيَا ، و أَسْمَى مَا يَدْخَرونَ دُونَ مَالِهِمْ .

قَالَ حَاتِمٌ الطَّائيُّ يَرسُمُ صُورَتَهُ فَارِساً كَامِلَ السِّلاحِ بَعْدَ أَنْ أَهْلَكَ مَالَهُ فِي المَكرُماتِ ، و اكْتَفَى بالدِّرعِ اللَّيِّنَةِ ، و الفَرَسِ السَّريعِ ، و الرُّمحِ الخَطِّيِّ ، و السَّيفِ المُهنَّدِ:

يَقُولونَ لِي : أَهلَكْتَ مَالَكَ فَاقْتَصِدْ و ما كنتُ لَولا مَا تَقُولونَ سَيِّدا
سَأَدْخُرُ مِنْ مَالي دِلاصاً و سَابِحاً و أَسمَرَ خَطِّيًّاً ، و عَضْباً مُهنَّدا
و ذلكَ يَكفيني مِنَ المَالِ كُلِّه مَصُوناً ، إذا مَا كانَ عِندي مُتْلِدَا [2]

و مِثلُ هَذا الفَخْرِ يَجْري على لِسَانِ عَمرو بنِ براقةَ ، فَهُوَ يَعتزُّ بسَيْفٍ قَاطِعٍ ، شَديدِ البَيَاضِ هُوَ أعزُّ ما يَقتَنيهِ فَارسٌ ، و هُوَ طَوعُ يَمينهِ قَاطِعٌ إذا ما مسَّ أَجسَادَ خُصُومِهِ الفُرسَانِ، و يُلبِّي رَغَائِبَ صَاحِبِهِ البَطَلِ:

و كَيفَ يَنامُ اللَّيلُ مَنْ جُلُّ مَالِهِ حُسَامٌ كَلَونِ المِلحِ أَبيضُ صَارِمُ
جُزازٌ إذا مَسَّ الضّريبَةَ لم يَدَعْ لَهُ طَمَعاً طَوْعُ اليَمينِ مُلازِمُ [3]

وَ اللَّونُ الأبيضُ كَغَيرِهِ مِنَ الألوانِ مظهَرٌ مِنْ مَظَاهِرِ الوَاقِعيَّةِ في الصُّوَرِ الشِّعريَّةِ ، و ذُو دَلالةٍ عَميقَةٍ ، فَسَيفُ الشَّاعرِ البَطَلِ نَقِيٌّ مِمَّا يَعِيبُهُ إلاَّ مِنَ البُطُولاتِ الَّتي لا تَشينُ صَاحِبَها.

و يَقرِنُ جَبْرُ بنُ الأسوَدِ نَفسَهُ بِجَوادِهِ ، و بِسَيْفِهِ ، و رُمحِهِ ، و دِرْعِهِ ، و يَقْرِنُ جَوادَهُ بِصِفَةٍ مُحبَّبَةٍ هِيَ غِلَظُ القَوائِمِ ، و كَثرَةُ الجَري ، و هَذا مَبْعَثُهُ الفَخْرُ ، ثُمَّ يَقْرِنُ سِلاحَهُ بِمَفْخَرَةٍ جَليلَةٍ فِي أعرافِ

[1] بُلوغُ الأرب ، ج2 ، ص62
[2] ديوانه ص41
[3] ديوانه ص107 ، 108 ، جَزازٌ : قاطعٌ ، الضَّريبة: المَضروبُ ، و إنَّما دخلتهُ الهاء و إن كانَ بمعنى مَفعول -لأنَّهُ صَارَ في عِدادِ الأسْماءِ . و يُنظرُ ((قصائدُ جَاهليَّةٌ نَادرةٌ)) د. يحيى الجبوري مُؤسسة الرسالة - بيروت - ط1 1402-1982 - ص100

البُطُولَةِ و الفُروسيَّةِ : فَسَيْفُهُ غَدَا مُثَلَّمَ المَتْنَيْنِ لِكَثْرَةِ إعمالِهِ في مُعتَرَكِ الوَغَى ، و أمَّا رُمحُهُ فَخَطِّيٌّ مِنْ أَجوَدِ رِمَاحِ العَرَبِ ، و دِرعُهُ فَضْفَاضَةٌ أَشبَهَتْ في اتِّسَاعِهَا و بَرِقِها غَديراً مَرَتْهُ رِيحٌ عَاصِفَةٌ :

مَعِي مَشْرِفِيٌّ كالعَقيقَةِ صَارِمٌ	بِهِ أَثَرٌ بالمَتْنَيْنِ مُدَرَّجُ
و أَسْمَرُ خَطِّيٌّ كَأَنَّ اهْتِزازَهُ	مِقَاطُ قَليبٍ مَسَّهُ الماءُ مُذْحَجُ
و أبيضُ فَضْفَاضٌ كَنِهْيٍ تَنَسَّمَتْ	لَهُ تَحتَ ذَيلِ الصُّبحِ في القَاعِ نَيرَجُ
فَيالَكَ مِنْ بَزٍّ امْرِئٍ ذِي حَفيظَةٍ	يَخُبُّ بِهِ عَبْلُ المَعَاقِمِ مِهرِجُ [١]

و حَتَّى يَنتَهي الشَّاعرُ إلى إظهارِ عَجَبِهِ مِنْ سِلاحِهِ و افتِخَارِهِ بِهِ سَاقَ تَشْبيهاتِهِ المَعْهُودةَ المألوفَةَ ، فَشَبَّهَ لَمَعانَ السَّيفِ بِشُعاعِ البَرقِ ، وسَطَ السَّحابِ، فَأضافَ إلى بَريقِ السَّيفِ سُرعَةَ الإضَاءَةِ ، و قُوَّةَ الافْتِضَاضِ ، و شَبَّهَ الرُّمحَ بِحَبلِ البِئرِ في شِدَّةِ فَتْلِهِ و إحكامِهِ ، و شَبَّهَ دِرعَهُ الفَضْفَاضَةَ في الاتِّسَاعِ و البَريقِ بِغَديرٍ مَرَتهُ رِيحٌ عَاصِفَةٌ تحتَ ذَيلِ الصُّبحِ .

و ثَمَّةَ علاقَةٌ مَعنَويَّةٌ مُستَتِرَةٌ خَلفَ العَلاقَةِ الحِسِّيَّةِ في التَّشبيهاتِ ، فَلَمَعانُ السَّيفِ القَاطِعِ وَسْطَ السَّحابِ مَا هُوَ إلاَّ بَريقُ نَفسيَّةِ الشَّاعرِ و رَهَافَتِها بُطُولَةً و إقداماً وَسطَ غُبَارِ المَعارِكِ ، و صَلابَةُ الرُّمحِ ، و شِدَّةُ فَتلِهِ و إحكَامِهِ إيحاءٌ بِصَلابَةِ مَوقفِهِ ، و شِدَّةِ ثَبَاتِهِ.

و يُفاخِرُ الشَّنفَرى بِمَا يَمتلِكُهُ مِنْ سِلاحٍ ، فَيَصِفُ بَيَاض سَيفِهِ ، و مَضَاءَهُ الّذي يُمزِّقُ سَواعِدَ الخُصُومِ ، و يَصِفُ قَوسَهُ الشَّديدةَ و إرنانَ سِهامِها كأنَّهُ صَوتُ حَزينٍ و هِيَ تَنطلقُ إلى مَرْمَاها.

و أَبيضُ مِنْ مَاءِ الحَديدِ مُهَنَّدٌ	مُجذٌّ لأَطرافِ السَّواعِدِ مِقْطَفُ
و حَمراءُ مِنْ نَبعٍ أبِيٍّ ظَهيرَةٌ	تَرِنُّ كَإرنَانِ الشَّجِيِّ و تَهتِفُ [٢]

و لَمَّا كَانَتْ نَشأَةُ الشَّاعرِ الجاهليِّ مُحصِّلَةَ مُؤَثِّراتٍ بيئيَّةٍ و قَبَليَّةٍ مَا كانَ طُغيانُ النُّزوعِ الذَّاتيِّ لِيُنسِيَ الشَّاعرَ التَّغنِّي بِمَا يَقتَنيهِ فُرسَانُ قَومِهِ مِنْ ضُروبِ السِّلاحِ يُحقِّقُونَ بِهِ أعَزَّ الانتِصَاراتِ . و هذا الشَّاعِرُ تَميمُ بن أبي مُقبلٍ يَصِفُ صَلابَةَ قَومِهِ و اسْتِعصَاءَهُم على سِواهُمْ ، و يَصِفُ بُطولاتِهِمْ ،

---

[١] شُعراء مُذحِجٍ - أخبارُهُم في الجاهليَّة و الإسلام، صَنعةُ مُقبلِ التَّامِّ الأحمديِّ - من إصدارات وزارة الثَّقافة و السِّياحةِ - صنعاء 1425-2004 . يُنظر ديوان المعاني ، القصيدة 138 . و المِقاطُ: الحَبلُ - مُذْحِج : مُحكم الفَتلِ - مِهرج النهي : البئر - النَّرج : الرِّيح العاصفة.

[٢] ديوانه ص51

فَفيهِمْ مَكرُمَةُ الاسْتِعدادِ لِلعَودَةِ إثْرَ العَودَةِ إلى حَوْمَاتِ القِتَالِ تَحفَظُ لهمْ عِزَّهُمْ الثَّابتَ ، بيدِهُمُ الأَمرُ حِينَ القِتَالِ ، دُروعُهمْ مِنْ خَالصِ الحَديدِ وَجَيِّدِهِ ، و مَسَاميرُها حَامِيَةٌ شَديدَةٌ، ثُمَّ يَصِفُ كَثْرَةَ السِّلاحِ في كَتيبَةِ قَومِهِ الزَّاحِفَةِ و الّتي تُعيي النِّبَالَ اخْتِراقَها أو إصابَتَها . و فُرسَانُهَا يُسَدِّدُونَ الرِّماحَ الرُّدَينيَّةَ تَنتظِرُ ثَأْراً أو تَتَعجلُّهُ ، و لِكَثرَةِ ما في الكَتيبَةِ مِنْ بَياضِ السِّلاحِ و الحَديدِ تَبدُو خَالصَةَ البَيَاضِ:

فَإنَّ أُناسٌ عُودُنا عُودُ نَبْعَةٍ	بِهِ أَودٌ لَمْ يَستَطِعْهُ المُثَقِّفُ
لَنا عَسْكَرٌ حَوْمٌ ، و عِزٌّ عَرَنْدَسٌ	فَنَمضِي إذا شِئنَا ، و نَأْبى فَنَزْحَفُ
و بيضٌ مِنَ المَاذيِّ حَامٍ قَتيرُهَا	حَرابِيُّها كَالقَطرِ أَو هِيَ أَلطَفُ
و شَهْبَاءُ تَنْبُو النَّبْلُ عَنْهَا كَأَنَّها	صَفاً زَلَّ عَنْ أَركَانِهِ المُتَزَحلِفُ
و قَومٌ بِأيدِيهِمْ رِماحٌ رُدَينِيَّةٌ	شَوارِعُ تَسْتَأنِي دَماً أو تَسَلَّفُ [١]

في الأبياتِ عَاطِفَةُ إعجابٍ بِفُرسَانِ قَومِهِ الأبطالِ ، و كَأَنَّهُ يَرَى فيهمُ المثلَ الأعلى الّذي يُحقِّقُ البُطُولَةِ . و إنْ بَالغَ فإنَّ مُبَالغَاتِهِ في إطارٍ مِنَ الفَنِّ الخَالصِ و الذَّوقِ الرَّفيعِ و الحِسِّ المُرهَفِ ، فَهُمْ لا تُلوَى لَهُمْ هِمَّةٌ ، و لا تُنَالُ شِدَّتُهم بِهَزيمَةٍ ، و نِبَالُ أعدائِهمْ تَنْبُو عَنْهُمْ ، و يَخيبُ مَرمَاها . و الصُّورَةُ المُشرِقَةُ السَّاطِعَةُ الّتي تُقابلُ الصُّورةَ صُورةُ رِمَاحِهِمُ المُسَدَّدَةِ إلى صُدورِ أَعدائِهِمْ تَنتَظِرُ الثَّأرَ المُحتَّمَ أَو تَتعجَّلُهُ .

و اهتِمَامُ الشَّاعرُ بالصُّورَةِ و الأخيلَةِ جَعَلَهُ يُقَلِّلُ مِنَ اهتِمامِهِ بالصَّنعَةِ البَديعيَّةِ ، لكِنَّنا نَستَطيعُ أن نَلَمسَ بَعضَهَا ، كالمُطابَقَةِ بَيْنَ (شِئنَا و نَأبَى) و (تَسْتَأْنِي و تُسَلِّفُ).

و نَلتَقي في الأبياتِ جَزالَةُ الألفَاظِ مَعَ مُوسِيقَا البَحرِ الطَّويلِ و الّتي لَها بَيِّنُ الأَثرِ في تَلوينِ النَّصِّ بِرُوحٍ مِنَ الرُّجُولَةِ و البُطُولَةِ .

و مَا فَاضَ بِهِ خَاطِرُ الشَّاعرِ ابنِ مُقبلٍ مُتَأثِّرٌ – قَبلَ أنْ يَكونَ مُؤثِّراً – ببيئتِهِ الثَّقافيَّةِ الّتي كانتْ مَورداً للشُّعراءِ جَميعاً. و ائتِلافِ النَّشْأَةِ جَعَلَ شُعراءَ الجَاهليَّةِ يَغترِفُونَ مِنْ مَنْهَلٍ وَاحدٍ تَشَابَهَتْ بِهِ سُبُلُ التَّناوُلِ الشِّعريِّ معَ تَعدُّدِ الأَهواءِ ، و تَنَوُّعِ المَنازِعِ الّذي تفرِضُهُ الحَياةُ القَبَليَّةُ ، فَمِنْ قَصِيدَةٍ في الحَربِ

---

[١] ديوانُ ابن مُقبلٍ . جمع و تحقيق د. عِزَّة حَسن ، وزارة الثقافة و الإرشاد القومي - مديرية إحياء التراث القديم -دمشق 1381-1962-ص193-194

و الفُروسيَّةِ و البُطُولَةِ يُخصِّصُ الشَّاعرُ الفَارسُ مَالكُ بن زَرَعَةَ أبياتاً لِلحَديثِ عَنْ غَارَةِ قَومِهِ ، فقَدْ كَثُرَ الحَديدُ في الكَتيبَةِ حتَّى غَدَتْ بَيْضَاءَ لِمَا بَرَقَ فِيها مِنَ الأَسِنَّةِ و السُّيوفِ و هذه الكَتيبَةُ بقُوَّتِهَا و مَهَابَتِها تُزَحْزِحُ أركانَ الجِبالِ ، و تُزيلُ صُخُورَهَا ، سِلاحُها الرِّماحُ الرُّدَينيَّةُ الحَادَّةُ و السُّيوفُ المَشرفِيَّةُ الّتي لا تَنْحَسرُ بكَلالٍ . و إذا تَبَاعَدَ القَومُ الخُصُومُ عَنْ وَقْعِ رِمَاحِ قَومِ الشَّاعرِ لم يَدروا مِنْ أيِّ اتِّجَاهٍ أَتَتْهُمْ تَطيرُ إليهِمْ بكَثْرَةِ الجَرادِ، يبدَأُ الشَّاعرُ قَصِدَتَهُ بتَصويرِ مَوقِفِ وَداعِ مَحبُوبَتِهِ و التَّشوُّقِ إليها ، فَيُجَرِّدُ مِنْ نَفسهِ رَجُلاً يُخاطِبُهُ لِيُهَوِّنَ مِنْ أَلَمِ الفِرَاقِ على نَفسهِ ، ثُمَّ يَنصَرِفُ عَنْ هذا المَوقفِ لِيُصَوِّرَ أُمنيَّتَهُ و هِيَ أَنْ تَعلَمَ المَحبُوبَةَ أَخبارَ وَقَائعهِ و بُطُولَتِهِ :

نَأتكَ سُلَيمَى دَارَها لا تَزُورُهَا — وَ شَطَّ بهَا عَنكَ النَّوى و أَميرُهَا
و مَا خِفْتُ مِنهَا البَينَ حتَّى رأيتُها — مُيمِّمَةً نَحوَ القُرَيَّةِ عِيرُها
فَدَعْ ذَا و لكن هَلْ أَتَاها مَغَارُنَا — بذَاتِ العَرَاقي إذْ أَتَاها نَذيرُها؟!
بمَلمُومَةٍ شَهبَاءَ لَوْ نَطَحُوا بهَا — عَمَايَةَ أَو دَمْخاً لزَالَتْ صُخُورُها
فَدَارَتْ رَحَانا سَاعَةً و رَحَاهُمُ — نُثَلِّمُ مِنْ أَركَانِهَا و نُديرُها
إذا انْتَسَؤُوا فَوتَ المَعالي أَتَتْهُمُ — غَوائِرُ نَبلٍ كالجَرادِ نُطِيرُها [١]

و يَجعَلُ المُزَرَّدُ بن ضِرارٍ الشَّيبانيُّ دِرعَهُ مَوضِعَ تَباهيهِ لأنَّها ضَافيَةٌ واسِعَةٌ زَادَتِ المَسَاميرُ في شِدَّتِها ، و تَنبُو عَنْها السِّهَامُ الطِّوالُ ، العِراضُ النِّصَالِ . و هِيَ دِرعٌ سَهلَةٌ مَلساءُ لَيِّنَةُ ، لا يَستَطيعُها رُمحٌ و لا سَهمٌ صَغيرٌ لُملوستِها ، و هيَ مَشْهُورَةٌ بَينَ الفُرسَانِ، يَشَارُ إليها لِجُودَتِها:

و مَسْفُوحَةٌ فَضْفَاضَةٌ تَبَعيَّةٌ — و آهَا القَتيرُ تَجتَويهَا المَعَابلُ
دِلاصٌ كَظَهرِ النُّونِ لا يَستَطيعُها — سِنَانٌ و لا تِلكَ الخِطاءُ الدّواخِلُ
مُوشَّحَةٌ بَيضَاءُ دَانٍ حَبيكُها — لَهَا حَلَقٌ بَعدَ الأَنامِلِ فَاضِلُ
مُشَهَّرَةٌ تُحنَى الأَصَابعُ نَحوَهَا — إذا جُمِعَتْ يَومَ الحِفَاظِ القَبائِلُ [٢]

إنَّ شِعرَ وَصْفِ الخَيلِ و السِّلاحِ ذَاتِيٌّ يُعبِّرُ عَمَّ يُحِسُّهُ الشَّاعرُ الفَارسُ ، و عَمَّا يَجيشُ في صَدرِهِ مِنْ عَاطِفَةٍ نابعَةٍ مِنْ تَجربتِهِ الذَّاتيَّةِ أو عَنْ تَجَاربِ فُرسَانِ قَبيلَتِهِ . و لِصِلَةِ مِثلِ هذا الضَّربِ مِنَ الشِّعرِ

---

[١] منتهى الطلب من أشعار العرب، جمع محمد بن المبارك بن محمد بن ميمون. تحقيق و شرح د. محمد نبيل طريفي - دار صادر - بيروت ط1 199- مج 8 ، ص395 -396 ، و يُنظر كتاب ((قصائد جاهلية نادرة ، د.يحيى الجبوري - مؤسسة الرسالة - بيروت ط1 ، 1402-1982 ، ص162- 163-164-165

[٢] المفضَّليات ، ص98 / المَسْفُوحةُ : الدِّرعُ المَصبُوبةُ و كأنَّه يُريد الواسعة ، القتير، المسامير ، الدِّلاص : اللَّينة ، الخِطاءُ : السهام الصغيرة لا نِصَالَ لها ، مُوشَّحةٌ: فيها طَرائق صُفرٌ أي نُحاسٌ.

بحَياةِ الجَاهليِّينَ ، فقَدْ كانَ يَلقَى صَدَىً واسِعاً في نُفوسِهِم ، كما كانَ يَلقَى الصَّدَى الأَوسَعَ بينَ المُتذَوِّقينَ مِمَّنْ يُعَدُّونَ في مرتبةِ النُقَّادِ ، فيَنطلِقُ تذوُّقَهُمْ لِلحُكمِ على القَصيدةِ ، أو الأبياتِ ، أو البَيتِ ، فيَأتِي الحُكمُ ذَاتيًّاً ، مُتأثِّراً بذَوقِ النَّاقِدِ ، و مِزَاجِهِ ، و وُجهَةِ نَظَرِهِ ، لأنَّ مَلَكَةَ النَّقْدِ عِندَ الجَاهليِّين ((**كَانتْ مَبنِيَّةً على الذَّوقِ الفِطريِّ لا الفِكرِ التَّحليليِّ ، فالنَّاقِدُ إذا ما اسْتَسَاغَ بذَوقِهِ الفِطريُّ القَصيدَةَ أو جُزءاً مِنْ قَصيدَةٍ ، أو بيتاً ، أو حتَّى نِصْفَ بَيْتٍ مِنْهَا فَما أَسرعَ ما يتَأَثَّرُ ، و يَندَفِعُ إلى التَّعميمِ في الحُكمِ**))[1] .

و كانتِ العَربُ جميعاً يُجِلُّونَ مَنْ يُحسِنُ وَصْفَ الخَيلِ ، و مِمَّا وَرَد في ذلك قَولُ الأصمعيُ في الشُّعراءِ نُعَّاتِ الخَيلِ ((**هُم ثلاثةٌ : أو دُؤاد ، و طُفيلٌ ، و النَّابغةُ** [2])).

و قد قِيلَ ما قِيلَ في وَصفِ السُّيوفِ، و مِن ذلكَ :

((مِنْ أبلَغِ مَا قِيلَ في مَضاءِ السَّيفِ قَولُ النَّمرِ بن تَولِبٍ:

أَبقى الحَوادِثُ و الأَيَّامُ مِنْ نَمرٍ ... أَسبَادَ سَيفٍ قَديمٍ أثرُهُ بَادي
تَظَلُّ تَحفِرُ عَنْهُ إنْ ضَرَبْتَ بِهِ ... بُعْدَ الذِّراعَينِ و السَّاقَينِ و الهَادِي [3]

و قَد قَالوا في إيثارِ الرِّماحِ: و مِن أحسَنِ ما قِيلَ في الرِّماحِ قَولُ سَلامَةَ بنِ جَندلٍ: [4]

بالَمشرفِيِّ و مَصْقُولٍ عَوارِضُها ... صُمِّ العَوامِلِ صَدْقَاتِ الأَنابيبِ
سَوَّى الثِّقَافُ قَنَاهَا فَهِيَ مُحكَمَةٌ ... قَليلَةُ الزَّيغِ مِنْ سَنٍّ و تَركيبِ
زُرقاً أَسِنَّتُها حُمراً مُثَقَّفَةً ... أطرافُهُنَّ مَقيلٌ لليَّعاسيبِ
كَأَنَّها بِأَكُفِّ القَومِ إذْ لَحِقُوا ... مَواتِحُ البِئرِ أَو أَشْطانُ مَطْلوبِ

إنَّ الأحكامَ النَّقديَّةَ الفِطريَّةَ عَلى مَا قِيلَ مِنْ شِعرٍ في البُطُولَةِ و آلاتِها و الَّتِي كَانَتْ تُسَاقُ دُونَ تَرَوٍّ و دُونَ مَنْهجٍ أو تَعليلٍ ، و عَلى صُوَرٍ تَعَدَّدَتْ وُجُوهُهَا و اختَلَفَتْ دَوافِعُها و غَاياتُها .

---

[1] تاريخ النقد الأدبي عند العرب -د. عبدالعزيز عتيق - دار النهضة العربية ، بيروت ، ط2 1391-1972 ص34
[2] الشعر و الشعراء ص145
[3] ديوان المعاني ، ج2 ص51 ، أسباد: ج سِبد أي الدَّاهية ، الأثر: الوَشيُ ، حفرَ : كسَرَ ، الهادي : نَصْلُ السَّهمِ .
[4] كتاب الأنوار و محاسن الأشعار: ص48 ،49 -الثِّقاف: خشبةٌ تقوَّم بها الرِّماح إذا اعوَجَّتْ ، جعلَ أسنَّتها زُرقاً لِشِدَّةِ صَفائها ، و حُمراً لأنَّه إذا اشتَدَّ الصَّفاءُ خَالطَتهُ حُمرَةٌ

مِثْلَ هذا التذوُّقِ الفِطريِّ ، يترُكُ البَيتَ الشِّعريَّ أو الأبياتَ عُرضَةً لِلخلافِ ؛ فَالجَميلُ عِندَ نَاقِدٍ قَدْ لا يَسْتَحسِنُهُ نَاقِدٌ غَيرُهُ ، لأنَّ الحِسَّ الّذي تَذَوَّقَ بِهِ البَيتَ بَعيدٌ عَن حِسِّ النَّاقِدِ المُستَحسِنِ و تَذَوُّقِهِ.

التَّذوُّقُ مَلكَةٌ فَرديَّةٌ ذَاتيَّةٌ لا تُضبَطُ بِضَابطٍ مُعَيَّنٍ ، و لِهَذا يَظَلُّ بَابُ التَّذوُّقِ مَفْتُوحاً ، و لا ضَيرَ في أن يَتَدَبَّرَ المُتلقِّي في عَصْرِنا هذا أسرارَ الجَمالِ في هذا الفَنِّ العَريقِ في حَياتِنَا نَحنُ العَربَ ،
و تُعينُ ذَائقَتَهُ الخَاصَّةَ إحاطَتُهُ بِتَاريخِ النَّصِّ الشِّعريِّ ، و بيئَةِ قَائلهِ ، و بِهذا تُلتَمَسُ اسْتِمراريَّةُ الحَياةِ في النَّصِّ الشِّعريِّ . و قِراءَةُ النّصِّ مَعزولاً عَن ذلكَ تَحجُبُ عَنْهُ في جَوهَرِ النَّصِّ ، و لا تُضيءُ الطَّريقَ أمَامَهُ ، و يُمسي تَأويلُهُ رَجْماً بالغَيبِ.

إنَّ شِعرَ البُطُولَةِ وَ وَصْفِ آلاتِها صُوَرٌ صَادِقَةُ التَّعبيرِ عَنْ سَيرِ الشُّعراءِ أنفُسِهِمْ بِما تَنطَوي عَليهِ مِنْ مَشَاعرَ في سَاحَاتِ المَعَارِكِ ، و إمسَاكُ المُتلقِّي بِمَفَاتِيحِ النُّصُوصِ تُؤتيهِ حَظّاً عَظيماً مِنَ التَذوُّقِ و رَهافَةَ الحِسِّ ، و تُهيِّئُهُ للنُّزوعِ إلى الكَمالِ و الانقِيادِ إلى إدراكِ مَا في حَياةِ العَربِ الجَاهليِّينَ مِنْ وُجوهِ كَمالٍ يُستَراحُ إليها.

****

رمزُ البُطولةِ العربيَّةِ عَنترةُ::

ثَمَّةَ عَامِلانِ بَارِزَانِ لا ثَالِثَ لَهُمَا : عَاملُ البيئةِ ، و عَامِلُ الإنسانيَّةِ حَدَّدَا مَوقِفَ الإنسانِ مِنْ بيئتِهِ ، و مَوقِفَهُ مِنَ الآخَرينَ ، و دَفَعا بالشَّاعرِ إلى أنْ يَنسُجَ التَّغنِّي بِقِيَمِهِ نَسيجَ الجَمالِ البَاذِخِ ، و لأنَّ طَبْعَهُ أَلِفَها جَاءَ الشِّعرُ تَمثيلاً حَقيقيًّا لِلحَياةِ الجَاهليَّةِ المَبنيَّةِ على القِيَمِ المُتداخِلَةِ المُتبايِنَةِ ، و احتَلَفَ تَأثُّرُ الشُّعراءِ بتلكَ القِيَمِ، فانعَكسَ مَعَها المَعنى النَّفسيُّ في الآفاقِ الَّذي يَعتَري الشَّاعرَ ، و إذا اتَّفَقَ الشُّعراءُ على مَنهَجٍ واحدٍ و عَلى سُبُلٍ مُتَعدِّدَةٍ ، فَإنَّهُ لا تَتكَافَأُ هِمَمُهُمْ نُهوضاً و عَطاءً بِمَا يُلبِّي استمراريَّةَ تِلكَ القِيَمِ ، و لِكُلِّ شَاعرٍ لِواءٌ مَرفُوعٌ في سَماءِ قِيمَةٍ مِنَ القِيَمِ .

الضَّميرُ الجَماعيُّ الجَاهليُّ حَضَّ على الكَرَمِ ، فتحوَّلَ هذا المَفْهُومُ إلى وَاجبٍ إنسانيٍّ نَبيلٍ ، و إلى قِيمَةٍ اجتماعيَّةٍ سَاميَةٍ عِندَ حَاتمٍ الطَّائيِّ الَّذي لبَّى نِدَاءَ هذا الضَّميرِ ، فَارتَقَى في أُفُقِ هذهِ القِمَةِ إلى مَقَامِ المَثَلِ الأعلى ، و احْتَلَّ المسَاحَةَ الأوسَعَ في الذَّاكِرَةِ العَربيَّةِ.

و الشِّعرُ الذَّاتيُّ الجَاهليُّ حَافِلٌ بالمَوضُوعاتِ الَّتي تَلْفِتُ الأَلبابَ ، و لا تَبرَحُ ذَاكِرَةَ التَّاريخِ العَربيِّ كمَفاخِرِ الشُّعراءِ الفُرسَانِ الَّذينَ أُوتوا الصِّدقَ في القَولِ ، و القُدرَةَ على التَّأثيرِ، و الاستِحواذِ على الإعجابِ و التَّعاطُفِ مِنْ أَمثالِ عَمرو بنِ كُلثُومٍ فَارسِ تَغلِبَ و سَيِّدِهَا ، و أوَّلِ شُعراءِ الفُرسَانِ دُريدِ ابنِ الصِّمَّةِ ، و سَلامَةَ بنِ جَنْدَلِ بنِ عَمروٍ . أَحَدِ فُرسَانِ العَرَبِ المَعدُودينَ ، و أَشِدَّائِهِمُ المَذْكورينَ . و هَل تُنسَى مَواقِفُ الشُّعراءِ الصَّعاليكِ الَّذينَ حَمَلُوا هَمَّ الفُقراءِ المُسْتَضْعَفِينَ، و وَقَفُوا بِكُلِّ نُبلٍ في صَفِّ المَحرومينَ ، و أَوَّلُهُمْ أَميرُهُمْ عُروةُ بنُ الوَردِ.

و الحَقيقَةُ أنَّ الإنسانَ العَربيَّ مُلهَمٌ بِفِطرَتِهِ أُصُولَ الحَياةِ بِقِيَمِها الكَريمَةِ ، و لا يَعدُو الشِّعرُ أنْ يَكُونَ أَحَدَ أدَواتِهَا الَّتي يَجْني بِهَا الشَّاعِرُ لِنَفسِهِ أو لِنَفسِهِ و قَبيلَتِهِ طَيِّبَ الذِّكرِ ، و حُسْنَ الأُحْدوثَةِ ، و قَدْ تَحوي سِيرَةُ الشَّاعرِ و تَقطِفُ هِمَّتُهُ مَجموعَةَ المَكارِمِ .

و بَعدُ .. هَذا نَمَطٌ مُتَميِّزٌ مِنْ أنماطِ البُطُولَةِ الفَرديَّةِ في الشِّعرِ الجَاهليِّ ، و طِرازٌ فَريدٌ مثَّلَ البُطُولةَ ، و عبَّرَ عَنْ تَجليَّاتِهَا الإنسانيَّةِ بِقِيَمِهِ و أخلاقِهِ و تَضحِياتِهِ ، و بِمَا يُؤرِّقُ وُجدانَهُ و مَشَاعِرَهُ ، فَكَانَ بِحَقٍّ بَطَلَ الفُروسيَّةِ و الحَربِ و الحُبِّ مِمَّا أَحَلَّهُ مَكاناً عَليًّا في عَصْرِهِ و مَا تَلاهُ.

كانَ شَاعراً تَجسَّدَتْ فِيهِ الأخلاقُ العَربيَّةُ الأصِيلَةُ ، و كانَ عَبداً سَمَا بعُبُوديَّتِهِ إلى مَقامِ السَّادَةِ، و مُحِبًّاً مَهَرَ حُبَّهُ بالبُطُولاتِ و الأَمجادِ، فأمسَى بذلكَ رَمزاً أيْ علامةً تدُلُّ سِوَاهُ مِنَ الشُّعراءِ على مَا يَنبَغي سُلُوكُهُ و تَصويرُهُ شِعراً ، كَما ظَلَّ في الذَّاكرةِ العربيَّةِ رَمزاً للبُطُولَةِ الّتي تُجَسِّدُ مَكَارمَ الأخلاقِ.

وَجَدَ عَنترةُ نَفسَهُ أَسيرَ عَائقٍ اجتِماعيٍّ مَقيتٍ ، فَحزَّ في نَفسِهِ أَنْ يَنشَأَ عَبداً يَرعى إبلَ أَبيهِ إذ كانتِ العَربُ تَنبذُ ابنَ الأَمَةِ حِرصاً مِنهَا على نَقاوَةِ الأنسَابِ.

و حرَّكَ هذا النَّبذُ في نَفسِهِ الّتي أَبَتْ العُبُوديَّةَ طُمُوحاً يتَطَلَّعُ إلى الحُرِّيَّةِ ، فَصَبَّ عُبُوديَّتَهُ و مَنشَأَهُ الطّبقيَّ في مَفْهُومِ البُطُولَةِ ، و لكنْ بسُلوكٍ يَنأى عن سُلوكِ الصَّعاليكِ في تَمرُّدِهِمْ و خُروجِهِمْ على قَبَائِلهِمْ ، فقَدْ آثَرَتْ أَخلاقَهُ أنْ يَنْتَزِعَ حُرِّيَّتَهُ و هُوَ في قَومِهِ انتِزاعاً يَليقُ بإنسانيَّتِهِ ، و أنْ يَستَردَّ نسَبَهُ إليهِمْ مِنْ غَيرِ أَنْ يَقتَلِعَ جُذُورَهُ مِنهُمْ . هَذا مَا دَفَعَهُ إلى أَنْ يَفرِضَ على نَفسِهِ قَسْوَةَ المِرانِ على الفُروسِيَّةِ و السِّلاحِ إلى أنْ حَذِقَ في الأولى و مَهَرَ في الثَّانيةِ و كَلَّلَ ذَلكَ بشَجاعَةٍ نَادرَةٍ ، و لكنَّ أَعرافَ الجَاهليَّةِ حَرَمَتْهُ مِنْ كُلِّ فاعليَّةٍ في مَيدَانِ البُطُولَةِ إلى أَنِ اهْتَبَلَ استِغاثَةَ أَبيهِ بهِ ، و اسْتِنْصَارَهُ إيَّاهُ على قَومٍ غزَوا عَبساً في عُقرِ دَارِهِمْ فَأَصَابُوا مِنْهُمْ ، فقَالَ لَهُ أَبُوهُ : ((**كُرَّ يا عَنترةُ . فقَالَ :العَبدُ لا يُحسنُ الكَرَّ ، إنَّما يُحسنُ الحِلابَ و الصَّرَّ . فقَالَ كُرَّ و أنتَ حُرٌّ ، فَكَرَّ ، و قَاتَلَ يومَئذٍ فَأَبلَى و اسْتَنقَذَ مَا كانَ بأيدي عَدُوِّهِمْ مِنَ الغَنيمَةِ فادَّعاهُ أَبُوهُ بَعدَ ذَلكَ و أَلحَقَهُ بِنَسَبِهِ** [1]))، و غَدَا بَعْدَهَا الفَارِسَ المُعتَرفَ بِهِ ، و غَسَلَ مَا لَحِقَ بِهِ مِنْ أَوضَارِ وِلادَتِهِ على العُبُوديَّةِ.

و هَذِهِ الأخلاقُ الّتي تَفرَّدَ بهَا عَنتَرَةُ جَعَلَها بُعداً إنسانيًّاً أَكرَمَ مَعْدِناً مِن نَوازِعِ النَّفسِ ، و أَوسَعَ مَدَىً مِنْ حُدودِ الحِسِّ ، فقَدْ كَانَ يَشْتَمِلُ بصِفَاتٍ مِنَ البُطُولَةِ لا تَكادُ تَجتَمِعُ في فَارسٍ آخرَ ، و المُتلقِّي حِينَ يَسْمُو إلى تِلكَ الرِّفْعَةِ و النَّبالَةِ يراوِدُهُ إحساسٌ بأَنَّهُ نَضَا عَنْ نَفسِهِ بُرُودَ القِيَمِ السَّلبيَّةِ التّي يَمَسُّهَا مِنْ حَولِهِ ، و يَكْتَسي بُرودَ المَنعَةِ نَسيجُها المُثُلُ العُليَا.

عَائقٌ اجتِماعيٌّ آخرُ قَلَّلَ مِنْ شَأْنِ إنسانيَّتِهِ هُوَ إعراضُ ابنَةِ عَمِّهِ عَبلَةَ عَنْهُ ، و مَوقِفُ والِدهَا الرَّافِضُ تَزويجَ ابنَتِهِ عبداً أَسْوَدَ . و في هذا المَوقفِ مَثَّلَ عَنترةُ مُروءَةً مُتفَرِّدَةً في أخلاقِ الفُروسيَّةِ ، مُروءَةُ الحُبِّ العَفيفِ فَمِنْ شِعرِهِ في الغَزَلِ مَمزوجاً بالفُروسيَّةِ مَا خرَجَ بِهِ إلى غَيرِ المَألوفِ ،

[1] الشِّعرُ و الشُّعراء ص153

و هذا الغَزَلُ العُذريُّ الّذي لم يُتبعْ فِيهِ نَفسَهُ هَواهَا ((**شَاعَ في بَوادي نَجدٍ في أثناءِ العَصرِ الأُمَويِّ بِسَبَبِ المَعَاني الرُّوحيَّةِ الّتي بَثَّها الإسلامُ في نُفُوسِ العَربِ ، و هُوَ لَمْ يَشِعْ في الجَاهليَّةِ ، إنَّما ظَهَرَ عِنْدَ بَعضِ الأَفرادِ مِنَ الفُرسَانِ مِثلِ عَنتَرَةَ**[1]))

و ذَاتيَّةُ عَنترَةَ تَطْغَى على كُلِّ نَصٍّ شِعريٍّ ، و تَرْتَفِعُ فِيهِ ذَاتُهُ الشَّاعرَةُ إلى دَرَجَةٍ عَاليَةٍ مِنْ تَفعيلِ الحِسِّ المأسَاويِّ بالذَّاتِ المَحرومَةِ تَبريراً لها تُجاهَ المَحبوبَةِ ، يُؤكِّدُ سَجايَاهُ الحَقيقيَّةَ الّتي لَيسَ فِيها ادِّعَاءٌ ، و يَسْتَشْرِفُ في كُلِّ نَصٍّ القِيَمَ العُليَا ، و المُثُلَ الحَميدَةَ ، و المَعانيَ السَّاميَّةَ الّتي تُعطي هذهِ الذَّاتَ النَّبيلَةَ حَقَّها .

جُبِلَ قَلبُ عَنترَةَ الفَارِسَ على التَّغَنِّي بالشَّجاعَةِ و البُطُولَةِ و الفُروسيَّةِ ، و الفَخرِ بِخَوضِ أهوالِ المَعَارِكِ ، مُعبِّراً عَنْ واقِعِهِ أَصْدَقَ تَعبيرٍ.

في مَوقِفٍ مِنَ المَواقِفِ الشَّريفَةِ يُتقِنُ عَنترَةُ عَرضَ ما تَرسَّخَ في وَعيِهِ ، و تَفَاعَلَ مَعَهُ ، مُشِيداً بِفضَائلهِ العَاليةِ ، مُفتَخِراً بِمَا أَبلى ، و بِما أوقَعَ في فُرسانِ أعَاديهِ:

لا يَحمِلُ الحِقْدَ مَنْ تَعلُو بهِ الرُّتَبُ ... و لا يَنالُ العُلا مَنْ طَبعُهُ الغَضَبُ
لَئنْ يَعيبُوا سَوادِي فَهْوَ لي نَسَبٌ ... يَومَ النِّزالِ إذَا مَا فَاتَني النَّسَبُ
فَتىً يَخُوضُ غِمَارَ الحَربِ مُبتَسِماً ... و يَنثَني وَ سِنَانُ الرُّمحِ مُختَضَبُ
إنْ سَلَّ صَارِمَهُ سَالَتْ مَضارِبُهُ ... و أشْرَقَ الجَوُّ و انشَقَّتْ لَهُ الحُجُبُ
و الخَيلُ تَشْهَدُ لي أنّي أُكَفْكِفُها ... و الطَّعنُ مِثلَ شَرارِ النَّارِ يَلتَهِبُ
إذا التَقَيْتُ الأَعَادي يَومَ مَعرَكَةٍ ... تَركْتُ جَمعَهُمُ المَغرورَ يُنتَهَبُ
لِيَ النُّفُوسُ و للطَّيرِ اللُّحومُ و لِلوَحْـــ ... ـــش العِظَامُ و للخَيَّالَةِ السَّلَبُ
مَا زِلْتُ أَلْقَى صُدورَ الخَيلِ مُندَفِقاً ... بالطَّعنِ حتَّى يَضِجَّ السَّرجُ و اللَّبَبُ
و النَّقعُ يَومَ طِرادِ الخَيلِ تَشهَدُ لي ... و الضَّربُ و الطَّعنُ و الأقلامُ و الكُتُبُ [2]

جَسَّدَ عَنترَةُ في الأبياتِ مَوقِفاً بُطُوليَّاً مِثاليَّاً لِبُطُولَةِ الفَارسِ الّتي تَتجلَّى بأَشكالٍ مُتنوِّعةٍ مألوفَةٍ و هذهِ الأبياتُ تَشِي للمُتَلَقّي بِغَايَةِ الأَلَقِ و الرَّوعَةِ البُطُوليَّةِ . فِيها صُوَرٌ تُمثِّلُ وَاحِدَةً مِنْ أَعمَقِ

---
[1] تاريخ الأدب العربي ، العصر الجاهليُّ ، ص373
[2] شرح ديوان عنترة بن شداد ، عبدالمنعم عبدالرؤوف شلبي - المكتبة التّجاريَّة الكُبرى- القاهرة - د.ت ، ص 10 ، 11 ،12

التَّجاربِ الّتِي تُلِحُّ عَلَيهِ ، و بِقُدْرَةٍ لا يُدركُها الكَلالُ إذِ اخْتَارَ مِنْ جِيَادِ الشِّعرِ جَواداً عَتيقاً هُوَ البَحرُ البَسيطُ الّذي بَسَطَ فِيهِ المَعانِيَ النَّبيلَةَ الكَريمَةَ الّتِي تَشِفُّ عَنْ مُعَانَاةٍ شَريفَةٍ ، فتَدفَّقَتْ الأَبياتُ بِحسٍّ غِنائيٍّ مُرهَفٍ رَهوَةً سَهْلَةً ، و بِقُدرةٍ شِعريَّةٍ واضِحَةٍ في مُفردَاتِها و صُوَرِها ،

و قَدْ أَخرَجَ أَلفَاظَهُ مِنْ ثَوبِهَا الجَامِدِ ، و أسْقَطَ عليها زَخَمَ مَشَاعِرِهِ و أحَاسيسِهِ لِتَحمِلَ قَضِيَّةً إنسَانيَّةً ، فثَمَّةَ تَغيُّرٌ في لُغَةِ المُعجَماتِ إذْ ((**لا شَيءَ يَبقَى في الشِّعرِ على مَا كانَ عَليهِ قَبْلَ أَنْ يَكونَ شِعراً . كُلُّ شَيءٍ يَكُونُ مَادَّةً غُفْلاً فإذا مَسَّتهُ رُوحُ الشِّعرِ و الإبداعِ أَصبَحَ شَيئاً آخَرَ ، و بَدَا تَحتَ الضَّوءِ المُنهَمِرِ مِنْ رُوحِ الشَّاعرِ خَلقاً جَديداً لم يَكُنْهُ مِنْ قَبلُ ، فَلا الأَلفاظُ الّتِي في المُعجَمِ تَبْقَى كَما هِيَ ، و لا المِرآةُ الّتِي في الواقِعِ تَبقَى كَما هِيَ** [1]))

لَقَدْ سَاءَ عنترَة أن يُعيَّرَ بالسَّوادِ وَ بجَعلِهِ قِيمةً إنسانيَّةً تَحُطُّ مِنْ شَأنِ المَرءِ الّذي خَلَقَهُ اللهُ أَسودَ اللَّونِ، و لكنَّ عَنترةَ جَعَلَهُ مُنطَلِقاً لِفخْرِهِ و رَمزاً لِسَوادِ طَوِيَّةِ مُعَيِّرِيهِ ، و نَقَصِ سَريرَتِهِمْ مِنْ كُلِّ صَفَاءٍ لأَنَّها لم تَبْرَأْ مِنْ عَيبٍ خُلُقيٍّ يَمَسُّ إنسانيَّتَهُمْ و يَسْتَاءُ و يَحْزَنُ على الطَّبيعَةِ البَشَريَّةِ في نُفُوسِهِمْ ، و يُوطِّئُ أَكنَافَهُ لِلمَعالي ، و يُخالِقُ شَانِئيهِ بِخُلُقٍ حَسَنٍ ، فَيَترفَّعُ عنِ الحِقْدِ ،

و يَحلُمُ عَنْهُمْ حِلماً لم تَصِلْ إليهِ رُتَبُهُمْ ، فَلا فَضْلَ لأَبيضَ على أَسوَدَ في مَوازينِ العَدْلِ إلاّ بنَقَاءِ جَوهَرِهِ ، و صَفَاءِ سَريرَتِهِ ، و يَكفِيهِ سَوَادُهُ شَرَفاً عَنْ كَرَمِ الأَرومَةِ . فَهُوَ الفَارسُ المُجَلِّي في المَعارِكِ ، يُلقي بِنَفسِهِ في غَمَراتِ المَعارِكِ و المَنِيَّةُ تَبسُطُ أَجنحَتَها ، و هُوَ مُشْرِقُ الوَجهِ يَتَحدَّى المَوتَ ، و بَيْنَ كرِّهِ و فَرِّهِ يَرتَوي رُمحُهُ مِنْ كُلومِ الفُرسَانِ ، و كذلكَ عُوِّدَ سَيفُهُ على الارتِواءِ مِنْ دِماءِ الأعداءِ ،

و إنَّ ما في نَفسِ هذا الفارسِ البَطَلِ مِنَ المَعَالي يَشُقُّ لَهُ جُمُوعَ الفُرسَانِ و هُوَ يُعمِلُ فيهِمْ سَيفَهُ و رُمحَهُ و إقْدَامَهُ . و الخَيلُ بِفُرسَانِهَا تَشْهَدُ لِحُسنِ بَلائِهِ و هُوَ يَصْرِفُهَا عمَّا قَدِمَتْ لِتَحقيقِهِ في لُجَّةٍ مِنْ شَرارِ الطَّعنِ المُلتَهِبِ.

و يُؤكِّدُ يَقينَهُ بِكَسْرِ شَوكَةِ الفُرسَانِ الّذين جَرَّهُمْ غُرورُهُمْ إلى أَنْ يُمسُوا نُهبَةً لِقَومِهِ . و جَعَلَ نَصيبَهُ مِنَ المعركةِ نُفُوسَ الفُرسَانِ الأبطالِ الّذينَ يُنازِلُهمْ ثُمَّ يَتركُ لُحومَهُمْ مَأْدُبَةً لِلطَّيرِ
و عِظامَهُمْ للوُحُوشِ و يَترُكُ مَا يُسْلَبُ لِمَنْ يُغيرُ مَعَهُ كَرَماً مِنْ عِندِ نَفسِهِ.

[1] مِنْ مَقَالةٍ بعُنوان ((تَوظيف الأسطورة في الشعر الجاهلي)) د. وَهَب روميَّة - مجلة التُراث العربي - اتحاد الكُتَّاب العرب بدمشق - العددان 93-94/ المحرّم و ربيع الثاني 1425 - آذار و حزيران 2004/ص39

و يُلِحُّ على إظهارِ الجَانبِ البُطُوليِّ ، فَهُوَ يَندَفِعُ إلى مُواجَهَةِ الخَيلِ المُغيرَةِ بِفرسَانِهَا حَتَّى تَفقِدَ الخَيلُ صَبْرَها مِنْ مَشَقَّةٍ أَو جَزَعٍ.

و حِينَ يَحمِلُ فُرسَانُ الطِّرادِ بَعضُهمْ على بَعضٍ فَإنَّ الغُبَارَ المُنعَقِدَ في فَوقَ رُؤوسِهِمْ يَشْهَدُ لِثَباتِهِ و بُطُولَتِهِ شَهادَةَ حَقٍّ و إقرارٍ .

لا تَبدُو عَثَرَةٌ في الأبيَاتِ أو الأَلفاظِ ، و لا في الانسيابِ اللُّغَويِّ ، و هذا دَليلٌ على غِنَى حَالَةِ التّدفُّقِ الشُّعوريِّ ، فالعَاطِفَةُ هِيَ الّتي تَمنَحُ الشِّعرَ حَيَويَّتَهُ و تَأثيرَهُ في النُّفُوسِ ، و هُوَ تَأثيرٌ مِنْ صِدْق الشَّاعرِ ، و قُوَّةِ انفِعالاتِهِ ، و قُدرَتِهِ على نَقلِ هذهِ الانفِعالاتِ مِنْ نَفسِهِ إلى نُفُوسِ الآخرينَ ، و حَملِهِمْ على مُشَارَكتِهِ فِيما يُحِبُّ أو يَكْرَهُ ، أو فيما يُريدُ أَو مَا لا يُريدُ لأنَّ الكَلامَ إذا خَرجَ مِنَ القَلبِ وقَعَ في القَلبِ . و قَلبُ عَنترَةَ هُوَ لِسَانُهُ في آنٍ معاً يُريكَ المَكارِمَ شَجَرَةً وَارفَةَ الظِّلالِ ، طَيِّبَةَ الجَنَى .
و يُلحَظُ التَّكرارُ في البُنيَّةِ الشِّعريَّةِ على صَعيدِ الفِكرِ ، و التَّشَابُهُ على صَعيدِ الصُّوَرِ ، و هذا لا يُقلِّلُ مِنَ القِيمَةِ الفَنيَّةِ لِلنَّصِّ ، بَلْ هُوَ الحِرصُ مِنَ الشَّاعرِ الفَارسِ على تَأكيدِ صِفَاتِهِ بَطلاً مِقْدَاماً ، فَالإحسَاسُ بِجَمالِ القِيَمِ البُطوليَّةِ يُسَاعِدُ على غِنَى نَسيجِ الصُّوَرِ الجَماليَّةِ.

في البَيتَينِ الأوَّلِ و الثَّاني و مِنْ خِلالِ المَعاني الإنسَانيَّةِ الّتي يَزْخَرُ بهَا قَلبُهُ يُقيمُ مُقابلَةً تَدُلُّ على مَوقِفٍ بُطُوليٍّ ، فَهُوَ يُوازِنُ بَيْنَ أَخلاقِهِ السَّمحَةِ و أخلاقِ ذَوي القُربَى الّذين كانَ ظُلمُهُمْ لَهُ أَشَدَّ مَضَاضَةً مِنْ وَقعِ الحُسَامِ المُهنَّدِ ، فإذا بِهِ يَربَأُ بِنَفْسِهِ عَنِ الغَضَبِ مَعَ مُسَبِّبَاتِهِ الشَّديدَةِ . هذهِ البُطُولَةُ العَاليَةُ جَسَّدَتْها الأخلاقُ الإسلاميَّةُ في حَديثِ رَسُولِ الله ﷺ فعَنْ أبي هُريرَةَ رضيَ اللهُ عَنهُ : **أنَّ رسول الله ﷺ قال :** ((**لَيسَ الشَّديدُ بالصُّرَعَةِ ، إنَّما الشَّديدُ الَّذي يَملكُ نَفسَهُ عِندَ الغَضَبِ** [1])).

و في البَيتِ الثَّالثِ جَاءَ اللَّفظُ ((فَتىً)) بصِيغَةِ التَّنكيرِ لِيَكونَ أَبعَدَ دَلالَةً على مَعنى التَّعظيمِ لِبُطُولَتِهِ ، و في البَيتِ السَّابعِ فَنٌّ مِنْ فُنُونِ البَديعِ المَعنويِّ هُوَ التَّقسيمُ ،و يَتمَثَّلُ في ذِكرِ أحوالِ الشَّيءِ مُضَافاً إلى كُلِّ حَالَةٍ مَا يُلائمُها ، فقَدْ أضَافَ الظَّفرَ بنُفُوسِ الأبطالِ إليهِ،و أضَافَ لُحُومَ الأعداءِ إلى الطَّيرِ وأضَافَ عِظامَهُمْ إلى الوَحشِ و أضَافَ إلى فُرسَانِ قَومِهِ الغَنائِمَ الّتي تَنزَّهَ عَنْهَا.إنَّ التَّقسيمَ يُضْفي على

[1] صَحيحُ البُخاريّ - الإمام أبو عبدالله مُحمَّد بنُ إسماعيل البُخاري ، خرَّج أحاديثهُ د. مصطفى البُغا ، دار العلوم الإنسانيَّة - دمشق ط2 -1413/1993/ رقم الحديث5763

البَيتِ جَمَالاً وَ وَقعاً مُوسيقيَّاً ، و المُمعِنُ في قِراءَةِ البَيتِ الأوَّلِ يُفضي بهِ تَأمُّلُهُ إلى غَمْزِ عَنترَةَ بِهمَّةِ قَومِهِ الّتي تَعجَزُ عَنِ النُّهوضِ إلى مَا هُوَ سَهْلٌ عَليهِ و يَعتَدُّ بِهِ .

في كُلِّ مَوقِفٍ يُسقِطُ عَنترَةُ زَخَمَ مَشَاعِرِهِ و أحاسيسِهِ يُحاوِلُ أَنْ يَفتحَ القُلوبَ ، فَيُؤثِّرَ فيها ، و يَحظَى عِنْدَها بأَسْمَى رَغَبَاتِهِ . و تُلحُّ على رُؤيَةِ عَنترةَ الشِّعريَّةِ ثُنائيَّةِ السَّوادِ و البَيَاضِ بُعدَينِ مُتَضادَّينِ يُشَكِّلُ مِنْ خِلالِهما ذَاتَهُ ، و يَتَّخِذُهُمَا وَسيلَةً يَتِيهُ بها و يثْبِتُ فاعليَّتَهُ:

يَعِيبُونَ لَوْني بالسَّوَادِ جَهَالَةً	وَ لَولا سَوَادُ اللَّيلِ مَا طَلَعَ الفَجْرُ
وَ إنْ كَانَ لَوْني أَسْوَداً فَخصَائِلي	بَيَاضٌ وَ مِنْ كَفَّيَّ يُسْتَنْزَلُ القَطْرُ

يَتَّخِذُ مِنْ بَيَاضِ فِعْلِهِ حُجَّةً دَاحِضَةً ، يَقْذِفُ بِهَا في وَجْهِ مَنْ يَعِيبُونَ سَوَادَ لَوْنِهِ ، وَ هُوَ يَنْعَى عَلَيْهِمُ جَهْلَهُمْ. وَ الأَلْفَاظُ تَتَفَتَّحُ عَنْ مَعَانٍ لا تُرَدُّ ، فَيُنيطُ بِهَا الشَّاعِرُ مَهَمَّةَ الإِفْصَاحِ عَنْ قِيَمِهِ الشُّعوريَّةِ الَّتي يُؤْمِنُ بِهَا ، وَ تَشَبُّثُهُ بِتِلْكَ القِيَمِ مِنْ أَصْدَقِ المَوَاقِفِ الْبُطُولِيَّةِ ، فَكَلِمَةُ ((جَهَالَة)) تَشِي بِسَخَطِ عَنْتَرةَ المُتَبرِّمِ بِقَوْمِهِ لأَنَّ عَلى قُلوبِهِمْ أَقْفَالُهَا ، لم تَنْفَتِحْ لِلْجَانبِ الإِنْسانيِّ في رَغْبَةِ الإِنْسَانِ الأَسْوَدِ . فَالسَّوَادُ جَعَلَهُ اللهُ آيَةً مِنْ آياتِهِ لِقَوْمٍ يَتَفكَّرُونَ ، وَ هِيَ تَسْبِقُ ، و تُبَشِّرُ بالآيَةِ المُقَابلَةِ : النَّهارِ الَّتي تَمْحُو آيةَ اللَّيْلِ . وَ في هَذَا التَّقَابُلِ لُغَةٌ إيْحائِيَّةٌ خَلَّاقَةٌ ؛ فَالسَّوَادُ هُنَا يُمثِّلُ انْزيَاحَاً عَنْ مِضْمَارِهِ المُعْجَمِيِّ لِيُؤَكِّدَ خاصِّيَّةً جَمَالِيَّةً تَخْتَزِنُ مَشَاعِرَ عَنْتَرةَ وَ فِكْرَهُ ، يَعْرِضُها بِشَكْلٍ مَجَازيٍّ و بِتَشبيهٍ ضِمنيٍّ، فَمَعْنى السَّوَادِ يَتَّسِعُ ، وَ يَتَحوَّلُ إلى دَلالةٍ إِنْسانيَّةٍ تُوحي بِجُرْحٍ مَعْنَويٍّ ، فَالشَّاعِرُ يُريدُ سَوَادَهُ هُوَ المُضَوَّأَ بالقِيَمِ . و اللَّيلُ في عُرفِ العَربِ مَحكُّ الرِّجالِ ، فَالعُشَّاقُ يَبُثُّونَهُ نَجاوَاهُمْ ، و هُوَ مَلاذُ الفُتَّاكِ يُقَاتِلونَ أَهوالَ السُّرَى فِيهِ، و هُوَ يَسبُرُ حِلْمَ غُرَمائِهِ كَامرِئِ القَيسِ و النَّابغَةِ ، و يَختَبرُ مَدَى احتِمالِهِمْ بِبُطءِ نُجُومِهِ و الشَّاعِرُ هُنَا يَصبِرُ على لَيلِهِ المَعنَويِّ ، و لَيلِ قَومِهِ المُتَمَكِّنِ مِنْ نُفُوسِهِمْ لِيَقينِهِ و هُوَ العَاشِقُ الّذي تَيَّمَتْهُ الحُرِّيَّةُ لِيَقينِهِ بِأَنَّ إصْبَاحَهُ أَمثَلُ مِنْ لَيلِهِ ، و أنَّ فَعَالَهُ البِيضَ سَتَمحُو كُلَّ أثَرٍ في نُفُوسِ قَومِهِ لِكُرهٍ أو ضَغِينَةٍ أو كِبْرٍ . وَ لَيسَ لَفْظُ آكَدُ مِنْ لَفْظِ "بَيَاض" على كَرِيمِ أخلاقِهِ الّتي تَنتَشِرُ انتِشَارَ ضَوءِ النَّهارِ.استَخدَمَ الشَّاعرُ صِيَغاً فِعليَّةً تَدْفَعُ بالمُتلقِّي إلى رِحابِ الاستِيحَاءِ ، فَالفِعلُ ((يَعيبُونَ)) يُقرِّرُ عَيباً خُلُقيَّاً في قَومِهِ يُجَرِّدُهُمْ مِنْ شِيَمِ البُطُولَةِ . و البِنَاءُ لِلمجهولِ في الفِعلِ ((يُستَنــزَلُ)) يُوحي بِتَحلِّي عَنتَرَةَ بِمَعنَى بُطُوليٍّ خُلُقيٍّ ، فَيَدُهُ هِيَ التي تُستَندَى فَهِيَ العُليا لا تَرُدُّ عَافِياً قَصَدَ جُودَهَا، إنَّ الشَّاعرَ الفَارِسَ جَعلَ نَفسَهُ المَركَزَ ، و أزَاحَ الآخَرَ ، أي المُجتَمَعَ كُلَّهُ.

إنَّ أُسلوبَ عَنترَةَ يُعَمِّقُ الأَثَرَ العَاطِفِيَّ في المُتَلقِّي ، فيَجدُهَا قَريبَةً مِنْ ذَوقِهِ، سَريعَةَ الوُصُولِ إلى حِسِّهِ ، فَصُورَةُ اللَّيلِ الّتي تُقَابِلُ الجَانبَ القَائمَ في نُزُوعِ عَنترَةَ العَاطِفيِّ إلى ما يَملأُ قَلبَهُ تُلاقي هَوَىً و تَمَكُّناً في قَلبِ كُلِّ عَاشِقٍ للحُرِّيَّةِ.

كانَ عَنترَةَ يُوجِّهُ النُّصُوصَ وُجْهَةً واحِدَةً لا يَبغي سِوَاهَا ، و هِيَ الاعتِدَادُ بالنَّفسِ ، فجَاءَتْ تَتمتَّعُ بالأَلَقِ و التَّوهُّجِ ، صَدىً لآمالِهِ و أحزانِهِ ، و استِجابَةً لِحياتِهِ الّتي بَرِمَ بِهَا ، وَ هَاجَ مِنْ شَاعريَّتِهِ حِرمانُهُ مِنَ الحُبِّ و الحُرِّيَّةِ في آنٍ معاً ، فَصَارَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا رَمزاً للآخَرِ ، و كَانَ كِلاهُمَا حَافِزاً لِمُروءَةِ الفَارسِ النَّبيلِ إلى مَزِيدٍ مِنَ البُطُولَةِ و الإقدامِ.

إنَّ المُعضِلَةَ الحَقيقيَّةَ الَّتي كَبَّلَتْ أحلامَ الفَارسِ البَطَلِ ، و حَرَّكَتْ شَاعِرِيَّتَهُ بِعُمقٍ و صِدقٍ هيَ الحُرِّيَّةُ الَّتي كانَ شَديدَ التَّعلُّقِ بِها ،شَديدَ الحَنينِ إلى بُلوغِهَا . و مَا ارتباطُ قَلبِهِ بِحُبِّ عَبلَةَ إلاَّ إطارٌ نَفسِيٌّ انطَلَقَ مِنهُ لِتَحدِّي العُبُوديَّةِ ، و التَّغَنِّي بِرَغبَتِهِ بِفَكِّ رَقَبَتِهِ مِنْ مَعَرَّةِ الرِّقِّ ، و لأنَّ نَفسَهُ تَنطَوي على قَدَرٍ بالغٍ مِنَ العِزَّةِ و الإبَاءِ ، فقَدْ أَنِفَتْ خُلُقَ الخُضُوعِ لِلهَوى و الاسْتِكانَةَ لِمَقَاديرِهِ و تِلكَ الأخلاقُ بُطُولَةٌ سَامِيَةٌ ، و في ذَلكَ يَقُولُ مُخاطِباً عَبْلَةَ عَارِضَاً تَبَاينَ مَوقِفَيهِمَا و شَتَانَ مَا بَيْنَ المَوقِفَيْنِ:

يَا نَازِلينَ على الحِمَى و دِيَارِهِ! ... هَلاّ رَأَيتُمْ في الدِّيارِ تَقَلقُلي
قَدْ طَالَ عِزُّكُمُ و ذُلِّي في الهَوَى ... وَ مِنَ العَجائِبِ عِزُّكُمْ و تَذَلُّلي
لا تَسْقِني مَاءَ الحَيَاةِ بِذِلَّةٍ ... بَلْ فَاسْقِني بِالعِزِّ كَأْسَ الحَنْظَلِ [١]

وَ حُضُورُ عَبلَةَ فَاعليَّةٌ فَاعلَةٌ في بُطُولَةِ عَنتَرَةَ فَهيَ بَطَلَةٌ بِمَوقِفِها السَّلبيِّ تُمَثِّلُ شَخصِيَّةً مُحَرِّضَةً على القَصيدَةِ ، مُحرِّكَةً لأحداثِها تَستَقطِبُ اهْتِمامَ الشَّاعرِ بَطَلاً و عَاشِقاً:

إنْ تُغْدِ في دُوني القِناعَ فَإنَّني ... طَبٌّ بِأخذِ الفَارسِ المُستَلِئِمِ
أَثني عَلَيَّ بِمَا عَلِمتِ فَإنَّني ... سَمْحٌ مُخالَقَتي إذا لَمْ أُظلَمِ
فَإذا ظُلِمْتُ فَإنَّ ظُلمِيَ بَاسِلٌ ... مُرٌّ مَذَاقَتُهُ كَطَعمِ العَلقَمِ [٢]

---

[١] ديوانه ص134، 135

[٢] ديوانه ص148

يَخرُجُ مَعْنَى إسْدَالِ القِنَاعِ في البَيْتِ الأوَّلِ إلى دَلالَةٍ رَمزيَّةٍ تُشَكِّلُ رُؤيَةً و خِطَاباً إلى عَبلَةَ ، فَإسْدَالُها القِنَاعَ هُوَ إعراضُها الّذي يُذَكِّرُهُ بلَونِ العُبُوديَّةِ ، فَيُفَجِّرُ رَدَّةَ الفِعلِ السَّريعَةَ بإظهارِ شُعورِهِ بالنَّقصِ فَكانَ ذَلكَ دَافِعاً إلى إظهارِ بُطُولَتِهِ بحِذْقِهِ على قَهْرِ الفَارسِ الّذي يتَّخِذُ لأُمَتَهُ قِنَاعاً يَحميهِ مِنْ وَقْعِ السِّلاحِ ، و نَفسُهُ المُفعَمَةُ بالإباءِ البُطُوليِّ لا يُعجزُهَا قَهْرُ كِبرياءِ عَبلَةَ

و إعراضِهَا ، و قَدْ جَعَلَتْ بَيْنَهُ و بَيْنَها حِجَاباً مَعنَويَّاً تَتَوارى خَلفَهُ ، و تَصُدُّهُ عَنْ مُواصَلَتِها ، و مِنْ أَجلِ هَذا يَتَعالى على إعراضِها عَنْ حُبِّهِ ، و على تَنَكُّرِها لِقِيَمِهِ ، و يُنذرُها بِجُحُودٍ أَشَدَّ وَ قَطيعَةٍ أَمَرَّ .

وَ لَيسَ لَها أَنْ تَتَعالَى عَلَيهِ وَ هيَ في لِينِ مَخْدَعِهَا تُبْذَلُ لها مَطَارِفُ الخزِّ و الدِّيباجِ، و مَفرِشُهُ فَوقَ صَهْوَةِ حِصَانٍ مُعَدٍّ لِلقِتَالِ:

تُمسي وَ تُصبحُ فَوقَ ظَهرِ حَشِيَّةٍ ... وَ أَبيتُ فَوقَ سَرَاةِ أَدْهَمَ مُلجَمِ
وَ حَشِيَّتِي سَرْجٌ على عَبَلِ الشَّوَى ... نَهدٍ مَرَاكِلُهُ نَبيلِ المَحزِمِ [١]

إنَّ فَارساً هَذِهِ صِفَاتُهُ ، و هَذَا شَأنُهُ في حَيَاتِهِ لَهُ أَنْ يُطِلَ مِنْ قِمَّةِ نَشوَتِهِ بحُبِّ الفُروسِيَّةِ و البُطُولَةِ و الفِدَاءِ ، و الاعتِدادِ بِتِلكَ الإطلالةِ ، و شَتَّانَ مَا بَينَ المَوقِفَينِ: مَوقِفِ التَّنَعُّمِ و الإخْلادِ إلى طِيبِ العَيشِ ، و مَوقِفِ البُطُولَةِ و الدِّفَاعِ عَنهَا و عَنْ حُرُمِ القَبيلَةِ . و معَ هذا الاعتِدادِ الّذي يُفْعِمُ نَفسَ عَنترَةَ فَإنَّ الحُبَّ العُذريَّ و الكِبرياءَ الجَريح يَتَدَاخَلانِ في غَزَلِهِ في اعترافٍ لم تَتَزيَّفْ فِيهِ عَاطِفَةُ العَاشِقِ ، و لم تُهَنْ كَرامَتُهُ ، فعَبلَةُ في مَوقفِهِ البُطُوليِّ تَسْتَقطِبُ المَعنَى النَّبيلَ العَميقَ ، فهِيَ أَمَلُهُ ، و مَبعَثُ بُطولتِهِ ، و صُورتُها الحَاضِرَةُ خَلفِيَّةٌ ثَابِتَةٌ لِلمُشَاهِدِ البُطُوليَّةِ كُلِّها ، و هِيَ الّتي تُحرِّكُ عَواطِفَهُ الدَّاخليَّةُ و في سَبيلهَا تَستَمِرُّ الأَحداثُ البُطُوليَّةُ:

و لَقَدْ ذكرتُكِ و الرِّماحُ نَواهِلٌ ... مِنِّي و بيضُ الهِنْدِ تَقْطُرُ مِنْ دَمي
فَوَدَدْتُ تَقبيلَ السَّيوفِ لأنَّها ... لَمَعَتْ كَبَارِقِ ثَغرِكِ المُتَبَسِّمِ [٢]

اسْتَطاعَ عَنتَرَةُ أنْ يَرسُمَ صُورةَ السُّيوفِ ، ببراعَةِ الفَنَّانِ ، و حِذْقِ الرَّسَّامِ ، و بَلاغَةِ الشَّاعِرِ و رَهَافَةِ حِسِّهِ في هَذَينِ البَيتَينِ السَّابِقينِ ، و خَاصَّةً في التَّشبيهِ الزَّاهي((لَمعتْ كَبَارِقِ ثَغرِكِ

[١] دِيوانه ص 145 ، 146 ، العَبْلُ : الغَلِيظُ ، الشَّوَى : الأَطْرَافُ وَ القوائِمُ ، المَرَاكِلُ : جَمْعُ المِرْكَلُ وَ هُوَ مَوْضِعُ الضَّرْبِ بالرِّجْلِ ، المِحْزَمُ : مَوْضِعُ الحِزَامِ مِنَ الدَّابَةِ
[٢] ديوانه ص147

المُتَبَسِّمِ))، فَهُوَ تَشبيهٌ مُبتَكَرٌ اكتسَى لَوناً مِنَ البَراعَةِ و الحَيَويَّةِ في إطارٍ مِنَ الوُجْدانيَّةِ البَريئَةِ . و هذهِ اللَّفتَةُ الجَماليَّةُ تُخَفِّفُ جَفافَ الطَّبيعَةِ الصَّحراويَّةِ.

مُقَارَنَةٌ أخرى تَشيعُ بالجانبِ الإنسانيِّ المُهِمِّ مِنْ نَفسيَّةِ عَنترَةَ ، و يُشعِرُ فِيها قَومَهُ بِخِذْلانِهمْ عَلَى كَثْرَتِهمْ ، وَ بِعزَّتِهِ بِبُطُولِتِهِ الفَرْدِيَّةِ ، وَ هَذَا مَا يُعَوِّضُهُ النَّقْصَ الَّذي يُعَاني مِنْهُ ، فَشَجَاعَتُهُ ، وَ بُطُولَتُهُ في المعركَةِ هِيَ الَّتي تَحُلُّ بِفُرْسَانِ قَبيلَتِهِ الأَحْرَار ذُلَّ الهَزيمَةِ وَ الانْكِسَارِ وَ هُمُ المُتَفَاخِرُونَ بِحَسَبِهِمْ وَ نِسَبِهِمْ :

إنِّي امْرُؤٌ مِنْ خَيْرِ عَبْسٍ مَنْصِباً	شَطْرِي ، وَ أَحْمِي سَائِرِي بالمُنْصِلِ
إنْ يُلْحَقُوا أَكْرُرْ ، وَ إنْ يَسْتَلحِمُوا	أَشْدُدْ ، وَ إنْ يُلْفَوْا بِضَنْكٍ أَنْزِلِ
وَ إذَا الكَتيبَةُ أَحجَمَتْ وَ تَلاحَظَتْ	أُلْفِيْتُ خَيْرَاً مِنْ مُعِمٍّ مُخْوِلِ [١]

إنَّ في اسْمِ التَّفْضيلِ (خَيْر) بَعْدَ ضَميرِ المُفْرَدِ المُتَكَلِّمِ يُوحِي بِمَا يَتَأَجَّجُ بِمَا في نَفْسِ البَطَلِ مِنْ أَسَىً يَعْتَرِيهِ حَتَّى في سَاحَةِ القِتَالِ ، وَ يُخَفِّفُ عَنْهُ شُعُورَهُ الحَادَّ بالمُسْتَحِيلِ ، وَ هُوَ مُسَاوَاتُهُ بالمُفَضَّلِ عَلَيْهِ كَرِيمِ النَّسَبَيْنِ .

أَحَاطَ عَنْتَرَةُ بِبُطُولَةٍ فَائِقَةٍ بالمَكَارِمِ الجَاهِلِيَّةِ وَ القِيَمِ الأَخْلاقِيَّةِ النَّبيلَةِ مِنْ أَطْرَافِهَا ، فَانسَابَ شِعرُهُ غِنَائيَّاً وُجدَانيَّاً ، بَسَطَتِ الذَّاتيَّةُ هَيمنَتَها عَلى كُلِّ نَصٍّ ، و على كُلِّ صُورَةٍ وَوَصفٍ و إحساسٍ بُغيَةَ تأكيدِ ذَاتِهِ و حُضُورِهُ في كُلِّ ما يتَّصِلُ بِهِ .

و في نصٍّ ملحَمِيٍّ يَمضِي الشَّاعرُ الفَارِسُ في تَناغُمٍ غِنَائيٍّ حَماسِيٍّ نَحْوَ غَايَةٍ مُزدَوَجَةِ الوَسيلةِ ، فَمِنْ جِهَةٍ يَبْتَغي مُجابَهَةَ المُستَهينينَ بِبَأسِهِ و سَوادِ لَونِهِ ، و يَتَوخَّى مِنْ جِهَةٍ ثَانيَةٍ تَعظيمَ نَفسهِ في عَينِ مَحبُوبَتِهِ.

و إذا كانَ دَأبَ الشُّعراءِ الجَاهليِّينَ الفَخرُ الفَرديُّ و القَبَليُّ ، ثُمَّ الالتِفاتُ إلى الخَصمِ لِهجائِهِ و هِجاءِ قَبيلَتِهِ و مَنْ يُواليها فقَدْ دَأَبَ عَنتَرَةُ على الافتِخارِ بِمَزاياهُ و فَضَائلِهِ الذَّاتيَّةِ ، و إنْ ذَكَرَ مَنْ بَارَزَهُ لم يَحُطَّ هِجاؤهُ مِنْ شَأْنِهِ ، بَلْ يُمَجِّدُ فِيهِ بُطُولَتَهُ و قُدرَتَهُ على المُواجَهَةِ ، لِيُبرزَ في ذلكَ عَظيمَ بُطولَتِهِ و انتِصَارِهِ على الفُرسَانِ الأَشِدَّاءِ:

[١] ديوانه ص 119 ، تَلاحَظَتْ : مِنَ اللَّحْظِ وَ هُوَ النَّظرُ حَالَ المَتَرَدِّدِ .

هَلاَّ سَأَلتِ الخَيلَ يابْنَةَ مَالكٍ إنْ كُنتِ جَاهِلَةً بِمَا لَمْ تَعلَمي
يُخبركِ مَنْ شَهِدَ الوَقيعَةَ أَنَّني أَغشَى الوَغَى و أَعِفُّ عِندَ المَغنَمِ
وَ مُدَجَّجٍ كَرِهَ الكُمَاةُ نِزَالَهُ لا مُمْعِنٍ هَرَباً و لا مُسْتَسْلِمِ
جَادَتْ لَهُ كَفِّي بِعَاجِلِ طَعنَةٍ بِمُثَقَّفٍ صَدْقِ الكُعوبِ مُقَوَّمِ
فَشَكَكْتُ بالرُّمحِ الأَصَمِّ ثِيَابَهُ لَيسَ الكَريمُ على القَنَا بِمُحرَّمِ
فتَرَكتُهُ جَزَرَ السِّباعِ يَنُشْنَهُ يَقْضُمْنَ حُسْنَ بَنَانِهِ و المِعْصَمِ [١]

إنَّ استِكْنَاهَ ما يَنطَوي عَليهِ الحَرفُ ((هَلاَّ)) يَكْشِفُ عَنْ مَقْصُودِ عَنترَةَ مِنْ هَذا الخِطَابِ ، فَلأنَّ ((هَلاَّ) بَاشَرَتْ فِعلاً مَاضِياً ، فَهِيَ تَحمِلُ مَعنَى التَّعنيفِ و اللَّومِ الشَّديدِ على إعراضِها و إهمالِهَا الحَقيقَةَ عَنْ بُطُولَتِهِ ، و هذا اللَّومُ يُقصَدُ مِنْهُ التَّوكيدُ ، فَهِيَ تَعلَمُ مَا تَعلَمُ عَنْ شَجَاعتِهِ و بُطُولَتِهِ في الحَربِ.

و خَرجَتْ لَفظَةُ ((الخَيلِ)) عَنْ دَلالَتِها الحقيقيَّةِ إلى دَلالَةٍ مُجازيَّةٍ ، فَالخَيلُ لا تُسأَلُ و إنَّما أَرادَ فُرسَانَها على سَبيلِ المَجازِ المُرسَلِ حَيثُ أَطلَقَ المحلَّ و أرادَ الحَالَ ، و الخَيلُ مَكانٌ يَحلُّ فيهِ الفُرسَانُ ، فالعلاقَةُ مَحليَّةٌ.

و في البَيتِ الثَّاني ارتَبَطَ اسمُ الفَارسِ البَطلِ بِصُورَةٍ شِعريَّةٍ بُطُوليَّةٍ إنسانيَّةٍ مُتجلِّيَةٍ أَبداً:

يُخبِركِ مَنْ شَهِدَ الوَقيعَةَ أَنَّني أَغشَى الوَغَى و أَعِفُّ عِندَ المَغنَمِ

يَقُومُ البَيتُ على بُنيَةٍ بَلاغِيَّةٍ ضِدِّيَّةٍ تَمنَحُ البَيتَ عُمقاً هِيَ: غِشْيَانُ الوَغَى و العِفَّةُ عِنْدَ اقْتِسَامِ الغَنائِمِ ، و هذا العُمقُ أَثبَتَهُ الإسلامُ على لِسَانِ النَّبيِّ ﷺ حِينَ أَثْنَى على الأنصارِ بِذَلكَ الخُلُقِ ، فقَالَ : ((**إنَّكم مَا عَلِمْتُ تَكثُرونَ عِندَ الفَزَعِ ، و تَقِلُّونَ عِندَ الطَّمَعِ** [٢])) قِياسٌ عَجيبٌ و مُقابلَةٌ بَديعَةٌ، عِندَ الطَّمَعِ : عِندَ العَطاءِ و عِنْدَ وُجودِ الخَيرِ حِينَ يَتطَلَّعُ كُلُّ إنسانٍ لِيَحصُلَ على أكثَرَ مَا يَكونُ ، و يَقِلُّونَ ، و لا ظُهورَ لَهُمْ تَعفُّفَاً و اسْتِغناءً.

---

[١] ديوانهُ ص150، 151
[٢] كنز العمال في سُنَنِ الأقوالِ و الأفعال ، عليُّ بنُ حُسَام الدِّين المُتَّقي الهندي ، مُؤسسة الرِّسالة - بيروت ،1989 ، رقم الحديث 37951

و بعدَ أن يُشيرَ عَنترَةُ إلى المَأْتَى الّذي يُتَوِّجُهُ خُلُقاً كريماً ، يَنتَقِلُ إلى الحَديثِ عَنْ بُطُولَتِهِ بِصُوَرٍ حِسِّيَّةٍ و جُزئيَّاتٍ وَصْفِيَّةٍ مُكَثَّفَةٌ: ((و مُدَجَّجٍ كَرِهَ الكُمَاةُ نِزَالَهُ)) جادَتْ لَهُ كَفِّي بِعَاجلِ طَعنَةٍ)) ((فَتَركْتُهُ جَزَرَ السِّباعِ)). و يُحسِنُ في إظهارِ البُطولَةِ الحَقيقيَّةِ الّتِي يَختَالُ في أثوابِها ؛ فَهُوَ يَأْبَى إلاّ يُنازِلَ فَارِسَاً مَشْهُوداً لَهُ بِشَجاعَتِهِ تَهابُ مُنازَلَتَهُ الأبطالُ ، و معَ ذَلكَ نَازَلَهُ و جَندَلَهُ بِطَعنَةٍ نَافِذَةٍ مِنْ رُمحِهِ سَلَكَتْ دِرعَهُ و ثِيابَهُ ، فَتَهاوَى صَرِيعاً عَلى الأرضِ ، و خَلَّفَهُ البَطَلُ المُنتَصِرُ طُعمَةً للسِّباعِ تَقضِمُ عُدَّتَهُ الأولى في الحَربِ أَصَابِعَهُ و مِعصَمَهُ.

و قَدْ خَرَجَ اللَّفظُ ((ثِيَابَهُ)) مِنْ دَلالَتِهِ الحَقيقيَّةِ إلى دَلالَتِهِ المَجازِيَّة لِيُقَدِّمَ خِلالَ ذَلكَ صُورةً فَنِّيَّةً مُوازِيَةً للوَاقِعِ ، و العلاقَةُ المَجازيَّةُ عَلاقَةُ مُجاوَرَةٍ ، و ذلكَ إذا ذُكِرَ الشَّيءُ ، و أُريدَ مُجاوِرُهُ أي : شَكَكْتُ قَلبَهُ أَو أيِّ مَكانٍ آخرَ في جِسمِ الفَارسِ يُصيبُ الرُّمحُ مِنهُ مَقتلاً .

و لِعِزَّةِ نَفسِ البَطَلِ الفَارسِ عَنتَرَةَ و نُبلِهَا ، فَإِنَّهُ لا يُنكِرُ على أَحَدٍ بُطُولَتَهُ ، فَكَما امْتَدحَ البُطُولَةَ في نَفسِهِ ، فقَدْ تَخطَّى النَّرجِسيَّةَ ، و تَجَاوزَ عُقْدَةَ الإصرارِ على الفَرديَّةِ ، فَلَمْ يُنكرِ الفِعلَ البُطُوليَّ الّذي يُنجزُهُ الآخرُ مُقْبلاً على تَرسيخِ القِيَمِ النَّبيلَةِ في البَسَالَةِ و الإقدامِ على المَخاطِرِ ، و الثَّباتِ عِندَ البَأسِ ، و الإقبالِ عَلى الرَّدى . و وَجَدَ هذهِ المَحامِدَ مُجتَمِعَةً في خَصمِهِ لأنَّ الانتِصَارَ عَلى هَذهِ الفِئَةِ مِنَ الأبطالِ هُوَ البُطُولةُ الحَقيقيَّةُ، و هُوَ لَمْ يَسبِغْ تِلكَ المَحامِدَ على الفَارسِ المَقتُولِ إلّا لِيَستَشرِفَ فَوقَها ، و هُوَ الّذي يَتمتَّعُ بِفُروسيَّةٍ تَفُوقُهَا و تَسمُوَ عَليها.

و تَغشَى مِشَاعرَ عَنترَةَ مَسْحَةٌ مِنَ الأَسَى ، و هُوَ يُنبِئُ بِمَآلِ الفَارسِ إلى السِّباعِ تَنُوشُهُ فَإذا القَسْوَةُ غَيرُ الإنسانيَّةِ يُقابِلُها الإحساسُ الإنسانِيُّ بِالحُزنِ و المَرارَةِ في قَولِهِ :

((يَقضِمْنَ حُسْنَ بَنَانِهِ و المِعصَمِ)) فَكلِمَةُ ((حُسْن)) تُوحي بِمَا يَغْمُرُ نَفسَ عَنترَةَ مِنَ الكآبَةِ و الأسَى و هذهِ صُورَةُ مُضِيئَةٌ أخرى للبُطُولَةِ ، لإيمانِهِ بِأَنَّ الأَبطالَ وَحْدَهُمْ أَكثَرُ تَعَرُّضَاً لِلمَوتِ، و لأَنَّهُمْ أَشَدُّ إقبالاً عَلَيهِ.

و مِنْ مَظاهِرِ الغِنائيَّةِ في مَوقِفٍ آخَرَ انعِكاسُ وَاقِعِ المَعرَكَةِ على الذَّاتِ ، و اتِّخاذُهُ وَسيلَةً إلى الفَخرِ بِمِثَاليَّةِ شَخصيَّةِ البُطُولَةِ الإنسانيَّةِ ، فإذا الوَاقِعُ إقدامٌ وَ كَرٌّ و اقتِحَامٌ و فُروسيَّةٌ يَستَسْلِمُ لَها الشُّجعانُ ، و تَجلُو جَوهَرَ شَخصِيَّةِ عنترَةَ أمامَ قَومِهِ و أمامَ القَومِ الآخرينَ ، و تَجلو مَوقِفَهُ مِنْ فَرَسِهِ:

-أَقبَلَ على القَومِ القِتَالِ يَحضُّ بَعضَهُمْ بعضاً على الإقدامِ ، و تِلكَ هِمَمُ الفُرسَانِ في حَالِ القِتَالِ ، و كانَتْ هِمَّةُ عَنترَةَ هِيَ الأعلى إذ حَملَ على الفُرسَانِ مَحمُودَ البُطُولَةِ لم تَخذُلْهُ شَجاعَتُهُ .

-يُتابِعُ عَنترةُ رَسمَ مَشْهَدِ البُطُولَةِ ، فقَدْ كَانَ في قَلبِ المَعركةِ قَبلَ حَضِّ القَومِ لَهُ ، و رِمَاحُ الأعداءِ تَتتالى على حِصَانِ جَوادِهِ كَحِبالِ البِئرِ.

-و غَطَّى الدَّمُ جِسمَ الجَوادِ كالثَّوبِ الواسِعِ و فارسُهُ يُهاجِمُ فُرسَانَ الأعداءِ.

-و كانَ الحِصَانُ يُحاولُ الانحِرافَ بِصَدرِهِ عَن مَطَاعِنِ الرِّماحِ ، و يَبكي ، و يَصْهَلُ صَهيلاً مَكتُوماً كأنَّهُ يَشْكُو إلى فَارسِهِ مِمَّا أَصَابَهُ مِنْ جِرَاحٍ.

-و لَو أُوتِيَ الحِصَانُ القُدرةَ على الكَلامِ و المُحاورَةِ لأَفصَحَ عَمَّا نَالَهُ ، و لكنَّهُ أَعجَمُ .. يُحِسُّ فَيَتَأَلَّمُ.

-و أَذْهَبَ مَا في نَفسِ الفَارسِ البَطَلِ ، و أَبرَأَ سُقْمَهَا نِداءُ قَومِهِ مُستَنْجِدينَ بِهِ.

لَمْ تَتَّخِذِ الألفاظُ مَسَاراً غَيرَ المَسَارِ الّذي جَاءَ في سِيَاقِ الأَبياتِ ، فالقارئُ الّذي يُقبِلُ على قِراءَةِ النَّصِّ لا يَجِدُ مَسَافَةً تَفصِلُهُ عَنْهُ ، و يُقَدِّرُ مَا فِيهِ مِنْ قِيَمٍ.

-و النَّصُّ قَامَ على التَّضَادِّ بَينَ المَفرداتِ ، و امتَدَّ إلى الجُمَلِ الإسميَّةِ و الفِعليَّةِ ، و تَغَلُّبُ الجُمَلِ الفِعليَّةِ يَعني تَغلُّبُ الحَرَكَةِ على السُّكونِ ، و هذا مَا يُناسِبُ نَفسيَّةَ الشَّاعرِ .

كَذلكَ تَقَاسَمَتِ الجُمَلُ الفِعليَّةُ و الجُمَلُ الاسميَّةُ اللَّوحَةِ المَلحميَّةِ ، فَالأفعالُ و المَواقِفُ و الأحوالُ الوُجدانيَّةُ تَوالَتْ مُتَلاحِقَةً في عَددٍ مِنَ الجُمَلِ البَسيطَةِ ، و قَدِ اكتَنَزَتْ في رُكنَيْهَا المُسْنَدِ و المُسنَدِ إليهِ دَلالاتٌ غَنيَّةٌ بإيحاءاتِها:

-و شَكا إليَّ : تعبيرٌ فيهِ تَشخيصٌ لِلجَوادِ الأَصِيلِ و هذا دَليلٌ على إنسانيَّةِ عَنترَةَ، و التَّشخيصُ قُدرةُ الشَّاعرِ على التَّجسيدِ و الإيحاءِ ، لقدْ شَخَّصَ الجَوادَ مُتأثِّراً بجراحهِ و بشَكواهُ ، و أَسقَطَ في هذا المَوقفِ مَشَاعرهُ هُوَ ، فتلوَّنَ المَشهدُ بلَونِ عَاطِفَتِهِ ، كانَتْ رُوحُهُ تَنفذُ إلى مَا وراءِ الظَّواهِرِ لِتَجدَ فيها مَعَانيَ إنسَانيَّةً هي أصداءُ مَا يَجُولُ في خَاطِرِهِ ، و تَختَلِجُ في شُعُورِهِ ، فالجَوادُ يَشكُو مُتقمِّصاً عَواطِفَ الشَّاعرِ و رُوحَهُ الشَّاكِيَةَ مِنَ العُبُودِيَّةِ .

-يدعُونَ عنتَرَ ، وَيْكَ عنتَرَ أَقْدِمِ تَركيبَانِ يُوحِيَانِ بِشعُورِ الفَارِسِ بالتَّفوُّقِ عَلى فُرسَانِ قَومِهِ .

-شَفَى نَفسِي و أَبرَأَ سُقمَها : تَركيبَانِ يُوحِيَانِ بتَحرُّرِ الشَّاعرِ البَطَلِ مِنْ عُقدَةِ النَّقصِ ، و المُعاناةِ النَّفسيَّةِ الحَادَّةِ الّتِي كَانَتْ تَعصِفُ بهِ.

-في الفِعلِ ((يَدْعُون)) قَدْ يَعُودُ الضَّميرُ إلى الأعداءِ ، و في ذلكَ مَا يُوحي بتَحدِّيهِمْ لِبُطُولَةِ عَنترَةَ الّتِي مَعَانيَها أَمَامَهُمْ ، أَو لِقَومِهِ لِما عَهِدُوهُ فيهِ مِنَ الرُّجولَةِ و الحَزمِ و الإقدامِ.

إنَّ العفويَّةَ في الأبياتِ تَجاوَزَتِ اهتِمامَ الشَّاعرِ بالصَّنعَةِ الفَنِّيَّةِ ، لاهتِمامِهِ بالمَعنى قَبلَ المَبْنى ، على أَنَّ ذَلكَ لا يَحُولُ دُونَ وُرودِ صُوَرٍ بَيَانِيَّةٍ تَمثَّلَتْ بِشَكلٍ بَارزٍ في التَّشبيهِ التَمثيليِّ في البيت الثَّاني ، و في الكِنايَةِ عَنِ الإقدامِ و الالتِحامِ بالأَعداءِ في البَيتِ الثَّالثِ .

و الصُّورَةُ الشِّعريَّةُ تأتِي مِنْ رؤيةِ الواقِعِ رُؤيةً شِعريَّةً يَرى فيها الأشياءَ مِنْ خِلالِ رُوحِهِ في علاقاتٍ تُؤلِّفُ لَوحَةً مُتحرِّكَةً تَنبضُ بالحَيَاةِ و العَواطِفِ.

إنَّ إنسَانيَّةَ عَنترَةَ الَّتي تَجلَّتْ في شَفَقَتِهِ فَارِساً على فَرَسِهِ في وَقتٍ يُشغَلُ فيهِ ذُو البأْسِ بِأَمرِ نَفسِهِ، و هُوَ الشُّعورُ الّذي يَنطَوي على الرَّحمَةِ و العِرفَانِ بالجَميلِ ، هَذهِ الإنسانيَّةُ تَتجلَّى في وَقتِ السِّلمِ عِنايَةً مَحفُوفَةً بالإيثارِ و في أَكثَرِ مِنْ مَوقِفٍ ، و هَا هُوَ ذَا يُخاطِبُ امرأةً لَهُ مِنْ بَجيلَة تَلومُهُ في إيثَارِ فَرسِهِ بِشَرابِ العَشِيِّ ، فَيُنذِرُها بِالقَطيعَةِ فَلتَتَأَوَّهْ مُتوجِّعةً و لَتَحْذَرْ مَغَبَّةَ وُقُوعِها في إثمِ تَثْريبِهِ:

لا تَذْكُري مُهْرِي ، و مَا أَطعَمْتُهُ	فَيكونَ جِلْدُكِ مِثلَ جلدِ الأَجرَبِ
إنَّ الغَبُوقَ لَهُ ، و أَنتِ مَسُوءَةٌ	فَتَأَوَّهِي مَا شِئتِ ثُمَّ تَحوَّبِي [1]

وَ كما أقنَعَنَا الشُّعراءُ الجَاهليُّونَ بِقيمَةِ المَوتِ الرَّائعةِ في سَاحاتِ المعاركِ فَفي شِعرِ هَذا البَطَلِ ما يَدُلُّ على مَوقِفِهِ مِنْ حَيثُ هُوَ قِيمةٌ جَماليَّةٌ بُطُوليَّةٌ يَسْعَى إلى تَحقيقِها ، و لإيمانِهِ بالعلاقَةِ الوَثيقَةِ بَينَ المَوتِ و مَفْهُومِ البُطُولَةِ فقَدْ آثَرَ أَنْ يَختارَ المَوتَ بَطَلاً في دائرةِ المَوتِ الحَتْمِيِّ الّذي لا بُدَّ أنْ يَتجرَّعَ كَأسَهُ ، و مَا هُوَ مِنَ الحُتُوفِ بِمَنجاةٍ:

بَكَرتْ تُخَوِّفُني الحُتُوفَ كَأَنَّني	أَصبَحْتُ عَنْ غَرَضِ الحُتُوفِ بِمَعزِلِ

---

[1] ديوانه ص20

فأجَبْتُها : إنَّ المَنيَّةَ مَنْهلٌ	لا بُدَّ أَنْ أُسْقَى بِكأسِ المَنهَلِ
فَاقَنِيْ حياءَكِ ، لا أَبالَكِ وَ اعلمي	أَنّي امْرُؤٌ سَأَموتُ إن لَمْ أُقتَلِ [١]

الفَارسُ البَطلُ يَجعلُ فِكرَةَ المَوتِ إيجابيَّةً باستِمراريَّةِ وُجُودِهِ بَعْدَ مَوتِهِ بِتَجريدِ ذاتٍ تَتَواصَلُ معَ وَعيِها لِلواقِعِ ، و تستَمِرُّ بالتَّفاعُلِ مَعَهُ.

و مِنْ صُوَرِ البُطولَةِ الّتي جَسَّدَها عَنتَرَةُ و تَغنَّى الجَاهليُّونَ بِتَقاليدِها الأَصيلَةِ المُروءَةُ و العِفَّةُ و قَدْ حَمَلَهَا عنترَةُ بِروحٍ إنسانيَّةٍ نَبيلةٍ سُلوكاً و خُلُقاً في حَياتِهِ:

أَغشَى فَتاةَ الحَيِّ عِندَ حَليلِها	و إذا غَزَا في الجَيشِ لا أغشَاها
وَ أغُضُّ طَرفي إن بَدَتْ لي جارَتي	حتَّى يُواري جارَتي مَأْواها
إنِّي امرؤٌ سَمحُ الخَليقَةِ مَاجِدٌ	لا أُتبِعُ النَّفسَ اللَّجُوجَ هَوَاهَا [٢]

و يَفخَرُ عنترةُ بِفُروسيَّةٍ خُلُقِيَّةٍ تَمَثَّلَ فِيها النُّبلُ و الفَضْلُ ، و تمثَّلَتْ هِيَ في الإفلاتِ مِنَ الشُّحِّ و الأَثَرَةِ، فنَفسُهُ السَّمحاءُ بَسَطَ عَلَيهَا الإيثارُ ظِلَّهُ ، و ذَلكَ إزاءَ مَنحىً و مَوقِفٍ اجتِماعيٍّ لَمْ يَمسَسْهُ طَائفٌ مِنْ نُبلٍ أَوْ وَمْضَةٌ مِنْ حِكْمَةٍ أَو خُلُقٌ حِسَنٌ ، نَحَاهُ وَ وقَفَهُ قَيسُ بنُ زُهَيرٍ سَيِّدُ بَني تَميمٍ تُجاهَ بُطُولَةِ عَنتَرَةَ بَعدَ دَاحِسَ و الغَبراءِ ، و قَدْ ساءَ قَيسَ بنَ زُهيرٍ ما صَنَعَ عَنترَةُ يَومَئِذٍ ، فقالَ حِينَ رَجعَ : ((**و اللهِ مَا حَمَى النَّاسَ إلاَّ ابنَ السَّوداءِ**))[٣].

و بَلَغَتْ مَقُولَةُ قَيسٍ عَنترَةَ ، فَأسَرَّها الفَارسُ البَطلُ في نَفسِهِ و لَمْ يُبدِها لَهُ ، ثُمَّ فَتَحتْ مَقُولَةُ سَيِّدِ تَميمٍ لِعَنترَةَ الإحساسَ بِمَا هُوَ جَماليٌّ إيجابيٌّ ، و مَنَحتْهُ لَذَّةً عَظيمَةٍ في جَوهَرِهَا هِيَ تَجسيدٌ لِقيمَةٍ إنسانيَّةٍ و اجتِماعيَّةٍ ، و كانَ حَفِيَّاً بِهَا ، و قَيِّمَاً عَلَيهَا ، و يَندُبُ نَفسَهُ ، لَهَا ، فَبَدا عَنترَةُ أَكثَرَ جَمالاً و نُبلاً . و كانَ قَيسٌ أَكُولاً ، فبَلَغَ عَنترَةُ ، فقالَ يُعرِّضُ بِهِ :[٤]

و لَقَدْ أَبيتُ عَلى الطَّوى و أَظلُّهُ	حَتَّى أَنَالَ بِهِ كَريمَ المَأكَلِ

---

[١] ديوانه ص120
[٢] ديوانه ص185-186
[٣] مُختار الأغاني ، وزارة الثقافة و الإرشاد القوميِّ – دمشق ، ط1 1383-1964 ج5 ،ص7
[٤] نَفسُهُ و ذاتُها.

نَجِدُ في عَنترَةَ شُعوراً بالعِزَّةِ و القُوَّةِ ، و سُمُوّاً و رِفعَةً في التَّعامُلِ مَعَ نَفسِهِ الإنسانيَّةِ أوَّلاً ؛ فَهُوَ لا يَجعَلُ مُنتَهى هضمِّهِ في طَعامِهِ ، يَزِينُها بالتَّعفُّفِ حتَّى لا تَأكُلَ إلاَّ طَعاماً طَيِّباً ، و يَبدو مِنْ خِلالِ هذا المَفهُومِ البُطُولِيِّ أَنَّهُ يُحِبُّ الإيثارَ . و في المُقابلِ فَإنَّ شِيمَةَ النَّهَمِ و الشَّرَهِ طَبَعَتْ قَيساً بطابَعِها ، فلَمْ يَسْتَطِعْ كَسْرَ شِرَّتِها حتَّى استَحكَمَتْ حَولَ خُلُقِهِ سِمَةُ البُخلِ.

جَانبٌ إيجابيٌّ آخَرُ يُضيءُ مِنْ مَوقِفِ عنترَةَ حَافَظَ عَلى حَالةٍ طَيِّبَةٍ أَخَذَ نَفسَهُ بِهَا ، فلَمْ يَبْدُ لَهُ غَضَبٌ ، و كانَ عَالِيَ الهِمَّةِ و الخُلُقِ و الاتِّزانِ ، فلَمْ يُسَمِّ الرَّجُلَ باسْمِهِ ، و لَمْ يَعِبْهُ جَهْرَةً ، بَلْ أَلْمَحَ مِنْ غَيرِ أَنْ يُفصِحَ .

إنَّهُمَا مَوقِفَانِ ضِدَّانِ مُتغَالِبانِ : مَوقِفٌ بُطُولِيٌّ مَطبُوعٌ بالعِزَّةِ و المُغالَبَةِ ، و رُجُولَةٌ مُكتَمِلَةٌ تَستَعلي بِالبُطُولَةِ على الأَعرافِ الجَاهليَّةِ . و مَوقِفٌ لم يُتِحْ فِيهِ صَاحِبُهُ قَيسٌ لِعَقْلِهِ أنْ يَتَفَتَّحَ عَنْ إحقَاقِ الحَقِّ بِصُورَةٍ إنسَانيَّةٍ ، إنَّهُ مَوقِفٌ يُصَوِّرُ العَزَّةَ أَيضَاً ، و لكِنَّها عِزَّةُ الجَاهليَّةِ الجَهلاءِ تَأْخُذُ قَيسَاً بالإثمِ ، و شَتَّانَ مَا بَينَ العِزَّتَينِ . و في هذا المَوقفِ و أشبَاهِهِ تَتجلَّى جَماليَّةُ القُبحِ.

قِيَمٌ مُغَايِرةٌ:

إنَّ عَنترَةَ الَّذي شَاعَتْ في شِعرِهِ رُوحُ البُطُولةِ و القِيَمِ الإيجابيَّةِ ، و تغَنَّى بخِصَالِها ، و رَسَمَ سُبُلَهَا ، و سَلَكَهَا بِطُمُوحٍ بَعيدٍ مِنْ غَيرِ غُرورٍ مَمقُوتٍ ، و جَعَلَها فنَّاً رَفيعاً ، إنَّهُ بِهَذِهِ الصِّفَاتِ لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يُحَرِّرَ نَفسَهُ مِنْ شَرَكِ القِيَمِ السَّلبيَّةِ .

قيمَةُ الفُروسيَّةِ التي تَفَاعَلَتْ في نَفسيَّةِ عَنترَةَ ، و تمثَّلَتْ تَكامُلاً ، كَانَتْ تَحيَا حَالَةَ تَجادُلٍ مَعَ القِيمةِ السَّلبيَّةِ الَّتي تُناقِضُها وَ هيَ الجُبنُ و الإحجامُ ، و سُلوكُ عَنترةَ هُوَ الَّذي يُحَدِّدُ السَّبيلَ إلى تِلكَ القِيمَةِ . و بِذَلكَ تَبدو أمامَنا صُورَةٌ إطارُهَا حُبُّ البَقَاءِ و التَّعلُّقُ بالحَيَاةِ ، فقَدْ أَبدَى خَبيئَةَ نَفسِهِ حِينَ سُئِلَ عَنِ الحَرْبِ ، فقالَ: ((**أَوَّلُهَا شَكوَى ،و أَوسَطُهَا نَجْوَى ،و آخِرُها بَلْوَى**))[1]

[1] العِقدُ الفريدُ- ابن عبدربِّهِ ، لجنة التَّأليفِ و التَّرجمة و النَّشر – القاهرة- ط3 – 1384 -1965 – ج1 ،ص94 ، و النجوى : القومُ المُتَناجُونَ

فَفي صَدرِ جَوابِهِ جَعَلَ مَجَالَ الحَربِ إظهاراً لِلهَمِّ و التَّوَجُّعِ ، و حينَ تَشُبُّ نَارُهَا ، و يَسْتَعِرُ أُوارُها ، يَتَحوَّلُ الفُرسَانُ المُقَاتِلونَ إلى نَجوى يُفضي أَحدُهمْ إلى الآخرِ بِمَا يَجِدُ مِنْ لَفْحِ الحَربِ ، و تكونُ عَاقِبَتُها هَلاكاً و مَصَائِبَ.

و لَقَدْ كانَتْ صِفَةُ الجُبْنِ تُلابِسُ مَشَاعِرَ عنترَةَ في مَواقِفَ كَثيرَةٍ ، و إذا مَا حُلِّلَتْ هَذِهِ الصِّفَةُ المَذمُومَةُ فَلَنْ تُرى إلاّ مُحَاولَةَ نُكُوصٍ و تَراجُعٍ و إحجَامٍ عَنِ القِيَامِ بِفِعلٍ بُطُوليٍّ مَمدُوحٍ ، و قَدْ أَقَامَتِ العَربُ مِيزاناً لِمِثْلِ تِلكَ الحَالَةِ فقَالَتْ : ((**إنَّ الشَّجاعَةَ وِقَايَةٌ ، و الجُبنُ مَقْتَلَةٌ ، و اعتُبرَ مِنْ ذَلكَ أنَّ مَنْ يُقتَلُ مَدْبِراً أكثَرُ مِمَّنْ يُقتَلُ مُقبِلاً**))[1] .

و قَدْ ظَهَرَتْ دَلائلُ مَذَمَّةِ الجُبنِ في شِعرِهِ ، و قَدْ قَالُوا : ((أربعةٌ مِنَ الشُّجعانِ تَتَبيَّنُ دَلائلُ الجُبنِ في شِعرِ ثَلاثَةٍ مِنهُمْ فَمِنَ الثَّلاثَةِ عنترَةُ في قَولِهِ:

إذْ يَتَّقُونَ بِيَ الأَسِنَّةِ لَمْ أَخِمْ   عَنْهَا و لكِنْ تَضَايَقَ مُقْدَمي

قَالوا : **فَدَلَّ على أَنَّهُ وَقَفَ و لَمْ يَقْدِمْ ، و اعتَذَرَ بِتضَايُقِ المُقدَمِ** [2]

لَقَد بَنى عنترَةُ صُوَرَ البُطولَةِ الإيجابيَّة على قُوَّةِ الجَهرِ بهَا و التَّغني بالإقدامِ و البَسَالَةِ ، و أَمَّا صُورَةُ الجُبنِ فقَدْ تَوارى عَنترَةُ خَلفَهَا يُودِعُها خِفيَةً مَا يَرغَبُ في التَّعبيرِ عَنهُ مُستَفيداً مِنْ سِتَارِها.

و قَد يَعني تَردُّدُهُ بَينَ الإقدامِ و الإحجامِ مُبَالغَتَهُ في تَصويرِ شَجاعَتِهِ بِسَببِ عُقدَتِهِ النَّسيَّةِ ، فشَخصيَّتُهُ و شِعرُهُ لا يُفهَمانِ إلاَّ مِنْ هذا التَّضَادِّ.

و هَذا الفَارسُ البَطَلُ الّذي دَلَّلَ على شَجاعَتِهِ في الحَربِ ، و أفاضَ في الفَخرِ بِأَحداثٍ و مَعاركَ بَرزَ فِيها و فازَ على فُرسَانٍ أَقرانٍ ، لَمْ يكُنْ مُحرَّماً على الهَزيمَةِ ، فقَدْ فَرَّ مِنْ مُواجهَةِ فَارسٍ قَرينٍ لَهُ ، فَبَدَتْ صُورَةُ عَنترةَ على خِلافِ النَّموذجِ المَرسُومِ في الأذهانِ ،و هَذا الّذي أَلحَقَ الهَزيمَةَ بعَنترَةَ هُوَ ((عُوَيْمِرُ بنُ أبي عَديٍّ بنِ رَبيعَةَ ، شَاعِرٌ فَارسٌ هَرَبَ مِنْهُ عنترَةُ بن شَدَّادٍ العبسيُّ فَأَخذَ مَالَهُ ، و قال:

---

[1] نفسه ص100

[2] ديوان المعاني أبو هلالِ العسكريُّ ، عن نسخة الإمامين الشَّيخين محمد عبده و محمد محمود الشَّنقيطي – مكتبة المَقدسي – القاهرة – 1352 ، ص111، لم أَخِمْ: لم أجبُنْ. و البيت في كتاب الحيوان للدجاحظ ، تحقيق و شرح عبدالسلام محمد هارون ، مطبعة البابيّ الحلبيّ ط1 1363-1944- القاهرة- ج6 ص426.

تَرَكتُ بَني زَبيبَةَ غَيرَ فَخْرٍ   يَجُبُّوا الماءَ لَيسَ لَهُمْ بَعيرُ [1]

و في قَولِ عُوَيمرٍ : ((لَيسَ لَهُمْ بَعيرُ)) إشارةٌ إلى أنَّهُ غَنِمَ إبلَهُمْ و خيلَهُمْ ، و لم يَترُكْ لَهُمْ مَا يَقطَعُونَ سَنَامَهُ . و لا يَخفَى ما في قولهِ ((بَني زبيبةَ)) مِنْ تَحقيرٍ لعَنترَةَ و إخوَتِهِ و مِنْ تَعريضٍ بالنَّسَبِ الوَضيعِ إلى أُمِّهِ.

و قَدْ عَرَّضَ المُتَنَكِّبُ السُّلَمِيُّ بِفِرارِ عَنترَةَ ، و عَابَ عَلَيهِ أَنَّهُ لم يَكُنْ مِنْ أَهلِ الأنَفَةِ و الدِّفَاعِ عَنْ مَحَارِمِ قَومِهِ ، و فقَدَ الصَّبرَ ، و لم يَحتَمِلِ المَكروه:

أَعَنترَ مَا صَبَرْتَ لَنَا و لكِنْ   جَزِعْتَ و مَا المُحافِظُ كَالجَزُوعِ

و قَدْ تكونُ عِبَارَةُ ((وَيكَ عَنتَرَ أَقْدِمِ)) في قَولِهِ:[2]

و لَقَدْ شَفَى نَفسي و أَبْرَأَ سُقمَهَا   قِيلُ الفَوارسِ : وَيكَ عَنتَرَ أَقدمِ

عِبَارَةُ تَأنيبٍ و لَومٍ لإحجامِهِ و جُبْنِهِ و فَكَلِمَةُ ((وَيكَ)) تُقَالُ للتَّعَجُّبِ و الذَّمِّ ، و تُقَالُ لِلحَضِّ و الاسْتِحثَاثِ على عَمَلٍ ما . و لَرُبَّما هَمَّ بِالفِرارِ كَما فَرَّ أمامَ الفَارسِ ((عوَيمِرٍ)) فاسْتَحثُّوهُ ، و أَثَاروا فِيهِ الحَمِيَّةَ.و في هذا المَوقفِ يَنبغي أن نُفرِّقَ بَينَ عَنترَةَ الإنسانِ و عنترَةَ الشَّاعرِ ، أو عنترَةَ في الواقعِ و عنترَةَ في الشِّعرِ ، و هذا دليلٌ على الشِّعرِ لَيسَ بواقِعِيٍّ.

و إنَّهُ لَمِنَ الإغراقِ في الوَهمِ أَنْ يُتَخيَّلَ عَنترَةُ مُتَفرِّداً بِصِفَةِ الفُروسيَّةِ و الشَّجاعَةِ فقَدْ ((**كانَ بَنُو فِراسِ بن غَنمِ بنِ كِنانةَ أَنجَدَ العَرَبِ ، كانَ الرَّجُلُ مِنهُمْ يُعدُلُ بعشَرَةٍ مِنْ غَيرِهِمْ**))[3]

كَما عُدَّ مِنْ فُرسَانِ العَربِ في الجَاهليَّةِ مَشهُورونَ سِوَى عَنترَةَ ، فقَدْ ورَدَ قَولُهُمْ:

---

[1] المُؤتَلفُ و المُختَلفُ ، الآمديُّ ، تهذيب المُستشرق الأستاذ الدكتور سالم الكرنوكي – نشر مكتبة المقدسي ، القاهرة ، 1354 ، ص 246 ، و هكذا مَدَدَ البَيتُ.

[2] نفسه و ذاتها

[3] العقد الفريد ج1 ، ص116

((وَ مِنْ فُرسَانِ العَرَبِ فِي الجَاهليَّةِ : عنترةُ الفَوارسِ ، و عُتَيبَةُ بنُ الحَارثِ بنُ شِهاب ، و أبو بَراءٍ عَامرُ بنُ مَالكٍ مُلاعِبُ الأَسِنَّةِ ، و زَيدُ الخَيلِ ، و بِسْطَامُ بنُ قَيسٍ ، و الأُحَيْمِرُ السَّعدِيُّ ،و عَامرُ بنُ الطُّفَيلِ ، و عَمرو بنُ عبدِ وُدٍّ ، و عَمرو بنُ مَعْدِيكرب))[1] .

و إنْ لُقِّبَ بعنترَةَ الفَوارسِ فَلا يَعيبُهُ أَنْ يُخالِجَ قَلبَهُ خَوفٌ ، لأنَّ الشُّجاعَ إنسانٌ تَنْتَابُهُ في المعركةِ مَشاعِرُ مُتَبايِنَةٌ ، و القَلبُ الّذي لا يُراعُ عِنْدَ التِحامِ الصُّفُوفِ لا فَضْلَ لِصَاحِبِهِ في شَجاعَةٍ ، فَهُوَ يُقدِمُ و يُحجِمُ و لَوْ كانَ معَهُ ألفُ فَارسٍ حَازمٍ . سَأَلَ الخَليفَةُ عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ ﷺ الحُطَيئةَ : ((**كَيفَ كُنتُمْ في حَربِكُمْ ؟ قال كُنَّا ألفَ فارسٍ حازمٍ ، قالَ: و كيفَ يكونُ ذلكَ ؟ قَالَ : كانَ فَارِسُنا عَنترَةُ ، فكُنَا نَحمِلُ إذا حَمَلَ ، و نُحجِمُ إذا أحجَمَ))**[2] و هَا هُنا ينبغي ألاّ يَغيبَ عنِ الأذهانِ أنَّ بُطُولاتِ هذا الفَارسِ لَمْ تَكُنْ وليدَةَ إقدامٍ في نَفسه وَحدَها ، بل كانَ لِفُرسَانِ قَومِهِ نَصيبٌ فيها.

و ذَهبَ الجَاحِظُ إلى أنَّ حَظَّ عنترَةَ كانَ أَوفَى بَينَ الفُرسَانِ و فيهِمْ مَنْ بِفُروسيَّتِهِ و بُطُولَتِهِ لكنَّ الحَظَّ لم يُسْعِفهُمْ فَيَنَالوا مَا نَالَهُ عَنترَةُ ((**و كذلكَ حُظوظُ الفُرسَانِ . و قَدْ عُرِفَتْ شُهرَةُ عنترَةَ في العَامَّةِ، و نَبَاهَةُ عَمرة بنِ معدِيكرب، وَ هُمْ لا يَعرِفُونَ ، بَلْ لَمْ يَسمَعُوا قَطُّ بعُتَيبَةَ بنِ الحارثِ بنِ شِهابٍ ، و لا بِبَسْطامِ بنِ قَيسٍ، و كانَ عامرُ بنُ الطُّفَيلِ أَذْكَرَ مِنْهُمَا نَسَباً . و عُتَيبَةُ كانَ فَارسَ بَني تَميمٍ ، و بَسْطَامُ بنُ قَيسِ بنِ مَسْعُودِ الشَّيبانِيَّ سَيِّدُ شيبانَ ، و مِنْ أَشهَرِ فُرسَانِ العَربِ في الجَاهليَّةِ ، أَدْرَكَ الإسلامَ و لَمْ يُسْلِمْ))**[3]

و لَعلَّ المُتلقِّي يَحقُّ لَهُ أن يَتوقَّفَ مُتروِّياً و مُدَقِّقاً و مُقَارِناً بَينَ المَواقِفِ المُتبايِنَةِ في شَخصِيَّةِ هذا البَطَلِ؛ فقَدْ كانَ عَنترَةُ في مَوقِفٍ هُوَ القِمَّةُ مِنَ الإنسانيَّةِ و الجَلالِ و الرُّموزِ الجَماليَّةِ الخُلقيَّةِ حِينَ عَرَضَ صُورَةَ مَصْرَعِ فَارسٍ شَديدِ المِراسِ على يَدَيهِ ثُمَّ بُطُولَتَهُ بِقَولِهِ : ((لَيسَ الكَريمُ على القَنَا بِمُحرَّمِ)) . و لكِنْ أَلا نَلمَحُ خِلالَ هَذا الشُّعورِ الإنسانِيِّ أنَّ القِتَالَ كانَ كُرهاً لَهُ ، و لكِنَّ أعرَافَ الجَاهِليَّةِ كَتَبَتْهُ

---

[1] نفسه ص117

[2] مُختارُ الأغاني ج8 ص8

[3] كتاب الحيوان ، تحقيق و شرح عبدالسلام محمد هارون ، دار الجيل ، بيروت 1416-1996 ج2 ص103 و 104 . و النَّباهة: الحَظُّ.

عَلَيهِ إذْ ((**كانَ مِنْ عَادَةِ العَرَبِ في الجَاهليَّةِ إذا اسْتَولَدُوا الإماءَ أَنْ يَسْتَرِقُّوا أبناءَهُمْ و لا يُلحِقُوهُمْ بأنسَابِهِمْ إلاّ إذا أَظْهَرُوا نَجابَةً و شَجاعَةً**))[١].

و قَدْ أَظهَرَ عنترَةُ نَجابَةً في الشِّعرِ ، و أَظهَرَ شَجاعَةً في المَعارِكِ ، فَلَمْ يَتَرَدَّدْ في القَتْلِ حَتّى يَحظَى بِحُرِّيَّتِهِ ، و الحُرِّيَّةُ أُمنيَّةُ الأَرِقَّاءِ عَبْرَ التَّاريخِ ، و في كُلِّ مَكانٍ. و هُنا تَظهرُ جَماليَّةَ القُبحِ أيضاً لأنَّ البُطُولَةَ كانَتْ في سَبيلِ الحَقِّ ، و البُطُولَةُ لَيسَتْ جَميلَةً دائماً.

و مَوقِفٌ شَاهِدٌ على السَّلبيَّةِ بَعيدٌ عَنْ مَعنَى البُطُولَةِ المُجَلَّلَةِ بالكمالِ نَجَمَ عَنِ الإعجابِ المُفرطِ بِالنَّفسِ ، و عَنِ انقِيَادِ عنترَةَ إلى التَّخَيُّلِ المُتراوِحِ بَينَ فِعلِهِ البُطُوليِّ و الأنانيَّةِ الفَرْدِيَّةِ وَ واقِعِهِ المُنطَوي على الهَجْرِ و الحِرمَانِ ، و عَدَمِ الاكتِراثِ بِمَا يَخلَعُ على نَفسِهِ مِنْ صِفَاتٍ لا عَلاقَةَ لَها بِمَعاني المَعَارِكِ ، فَهُوَ أَهلٌ للوِصَالِ مِمَّنْ هيَ أَملَحُ دلالاً مِنْ عَبلَةَ الّتي لَمْ تُرسِلْ فِطنَتَها و تَأَمُّلَها فِيما هُوَ فِيهِ مِن خَصَائص:

فَعَجِبْتُ مِنْهَا حِينَ زَلَّتْ عَينُها ... عَنْ مَاجدٍ طَلقِ اليَدَينِ شَمَرْدَلِ
لا تَصْرِميني يَا عُبَيْلُ و أَرجعي ... فِيَّ البَصِيرَةَ نظرَةَ المُتأَمِّلِ
فَلَرُبَّ أَمْلَحَ مِنْكِ دَلاًّ فَاعلَمي ... و أَقَرَّ في الدُّنيا لِعَينِ المُجتَلي
وَصَلَتْ حِبَالي بِالّذي أَنَا أَهلُهُ ... مِنْ وُدِّهَا و أَنَا رَخِيُّ المِطْوَلِ [٢]

إنَّ عنترَةَ مَهْمَا حَاوَلَ أنْ يُخفِيَ خُلُقاً فِيهِ فإنَّ المَوقِفَ و زَلاَّتِ اللِّسَانِ كَفيلَةٌ بِكَشْفِهِ و إظهَارِهِ ، فقَدْ تَجاوَزَ المأْلوفَ ، فأنزَلَ نَفسَهُ مَكانَةً أرادَ أنْ يَكُونَ فِيها مَعشُوقاً ، وَ عَجِبَ لِعَبلَةَ كَيفَ لَمْ تَلْتَفِتْ إلَيْهِ و هُوَ بِهَذِهِ الصِّفَاتِ.

و قَدْ ثَبَتَ أنَّ جَمَالَ المَرأَةِ الحِسِّيَّ فَتَنَ الإنسانَ العَربيَّ ، فسَمَا بِأَحاسيسِهِ ، و مَشَاعِرِهِ ، وَ فِكرِهِ فَوقَ ضَعَةِ الغَريزَةِ الجِنسيَّةِ ، فَكانَتِ المُحافِظَةُ على العِفَّةِ بِغَضِّ البَصَرِ عِنْدَ المرأَةِ إطاراً نَظَرِيًّا لِتَجارِبِ الشُّعراءِ الجَاهِلِيِّينَ ، و كَانَتْ هَذِهِ القِيمَةُ الإيجابيَّةُ مُوَجَّهَةً ضِمنيًّا لسُلوكِ عَنترَةَ كَما سَبقَ، و تَشَكَّلَتْ تِلكَ القِيمَةُ الجَميلَةُ عَلاقَةً جَميلَةً ، و مَوقِفاً نَبيلاً معَ المَرأَةِ يَنُمُّ على أَهميَّةِ البُعْدِ الرُّوحيِّ النَّبيلِ في عَنترَةَ

[١] العصر الجاهليُّ ، شوقي ضَيف ، ص369.
[٢] ديوانه ص121، و الشمردلِ : الطَويلُ و العربُ تتَمادحُ بِهِ ، رَخيُّ المِطْوَلِ : طَويلُ رَسَنِ الدَّابَّةِ : ضُرِبَ هَذا مثلاً لِمَنْ كانَ فيهِ من الصِّبَا.

. و لكنَّ هَذا الفَارسَ البَطَلَ الّذي جَسَّدَ المَثَلَ الأعلى الجَاهليَّ في ظاهرِ عَلاقَاتِهِ و سُلُوكِهِ مُهتَدياً بِهَدْي السُّلوكِ الاجتِماعيِّ بِصُورَةٍ لا لَبْسَ فِيهَا نَلتَقِيهِ في صُورَةٍ أُخرَى ضِدِّيَّةٍ ، فإنَّ حُكمَ تِلكَ القِيمةِ الجَماليَّةِ عَارضَ واقِعَهُ . و تِلكَ الصُّورةُ النَّقيضَةُ هِيَ الانفِصَالُ عَنْ صِفَاتِ الفُروسيَّةِ السُّمُوِّ في النُّبلِ الأخلاقيِّ و عُلُوِّ الهِمَّة في مَوقِفٍ لم يَتَفاعَلْ فِيهِ معَ الجَمالِ بِجَلالِ البُطُولَةِ ، و هُوَ الّذي تَرَاءَى لَنَا في مَوقِفِ غَضِّ البَصَرِ حَياءً و حِفَاظاً على حَليلَةِ جَارِهِ ، إنَّهُ في لَحظَةِ ضَعفٍ بَشَريٍّ يَتَّشِحُ بِمَذَمَّةٍ تُنَفِّرُ ، إذْ أَثَارَ جَمَالَ زَوجِ أبيهِ الشَّهوَةَ فيهِ، فَتَحرَّشَ بِهَا بغَريزةِ الإنسانِ الجِنسيَّةِ فِيهِ ، و رَاودَها عَنْ نَفسِها ، فقَدْ وَرَدَفي الأغاني : ((كانَ عنترَةُ قَبلَ أَنْ يَدِّعِيَهُ أَبُوهُ ، حَرَّشَتْ عَليهِ امرأَةُ أَبيهِ ، و قالتْ: إنَّهُ يُراوِدُني عَنْ نَفسي ، فَغضِبَ مِنْ ذَلكَ شَدَّادٌ ، و ضَرَبَهُ ضِرباً مُبَرّحاً ، فَوَقَعَتْ عَلَيهِ امرأةُ أبيهِ ، و كَفَّتْهُ عَنهُ ، فَلمَّا رَأَتْ مَا بِهِ مِنْ الجِراحِ بَكَتْ ، و كانَ اسْمُهَا سُمَيَّةُ ، و قِيلَ سُهيَّةُ ، فقالَ عنترَةُ:

أَمِنْ سُمَيَّةَ دَمْعُ العَينِ مَذْروفُ	لَو أنَّ ذَا مِنْكِ قَبْلَ اليَومِ مَعروفُ
كأَنَّها يومَ صَدَّتْ مَا تُكلِّمُني	ظَبيٌ بِعُسْفَانَ سَاجي العَينِ مَطرُوفُ
تَجلَّلَتني إذْ أَهوَى العَصَا قِبَلي	كأَنَّها صَنَمٌ يُعْتَادُ مَعْكُوفُ
العَبدُ عَبدُكُمْ و المَالُ مَالُكُمُ	فَهَلْ عَذَابُكِ عَنكِ اليَومَ مَصروفُ؟ [١]

إنَّ عَنترَةَ في مُراودتِهِ زَوجَةَ أَبيهِ عَنْ نَفسِها تَخلَّى عَنِ الحِكمَةِ و البَصِيرَةِ النَّفَّاذَةِ ، و التَّعَّقُلِ الّذي يَحميهِ مِنَ الطَّيشِ ، و لَمْ يَسْتَنِدْ إلى رَكِيزةٍ خُلُقِيَّةٍ عَربيَّةٍ لأنَّ الحَسَنَ و القَبيحَ في هذا السُّلوكِ شَيءٌ نِسبيٌّ إذا مَا وُزِنَ بِميزانِ الأخلاقِ .

و إذا كانَ خُلُقُ المُحافَظَةِ على كَرامَةِ المَرأَةِ بُطُولَةً ، فلا غرابَةَ في أنْ يَفقِدَ فَارسٌ مِثلُ عنترَةَ الشَّجاعَةَ في المُحافَظَةِ على ذَلكَ المَفهُومِ ، لأنَّ البُطُولَةَ ((**وَ إنْ كَانَتْ بِمَعنَى الشَّجاعَةِ فإنَّها مُختَصَّةٌ بِمَا يُظهرُ العِزَّ ، و لا تُستَعمَلُ في قَهرِ الإنسانِ شَهواتِ نَفسِهِ**))[٢]

الاستفهامُ في صَدرِ البَيتِ الأوَّلِ يَكشفُ عَنِ استغرابِ عنترَةَ دُمُوعَ زَوجةِ أَبيهِ و في عَجُزِ البَيتِ عَن تَمنٍّ هُوَ لَو بَكَتْ مِن قَبلُ شَوقاً إليهِ ، و استِفهامُهُ و تضمِينُهُ يَشِيَانِ بِرغبَتِهِ في استِجابَتِها لِمَا يُريدُ . و نَراهُ يَتَخلَّى عَنْ حَقِّهِ الّذي كان يُمنِّي نَفسَهُ بِتَحقيقِهِ ؛فَشَخصِيَّتُهُ الّتي ظَهرت في شِعرِهِ لا تَحتَملُ

[١] الأغاني ، دار الكتب المِصريَّة ، 1347/1929 ، ج8 ص237 ، و الأبياتُ في ديوانهِ ص109
[٢] الهوامل و الشوامل ، أبو حيَّان التوحيدي ، نشره أحمد أمين ، السيد أحمد صقر ، القاهرة 1951 ص98

الخُضُوعَ لِحَياةِ العُبوديَّةِ ، و الذُّلَّ لأَعرافِ المُجتَمَعِ الجَاهليِّ الطَّبَقيِّ تُدرِكُ الأمرَ الوَاقِعَ المَريرَ ، فَتَنْقَادُ إلى الإحساسِ بالفَارقِ الطَّبقيِّ الّذي يُذكِّرُها بِمَكانِها ، فَتَخضَعُ لِلشُّعورِ بالدُّونيَّةِ و العُبُوديَّةِ ، و يُؤَكِّدُ هذا الشُّعورَ بالتِّكرارِ ((العَبدُ عَبدُكُمْ)).

و رُبَّما كانَ الشُّعورُ بالعُبوديَّةِ حَالَةً نَفسيَّةً عَارِضَةً تَتَبدَّلُ ، و تَتَنَوَّعُ مِنْ حِينٍ إلى حِينٍ تَبعاً لِلظُّروفِ الخَارجيَّةِ أو الذَّاتيَّةِ الّتي تَتبدَّلُ و تَتَنوَّعُ هِيَ الأخرى.

لَقَدْ قَدَّمَ عَنترَةُ البُطُولَةَ بالمُستَوى العَميقِ لِمَعناها ، و لامَسَ حُدودَها الإنسانيَّةَ فَكَانَ نُموذَجَ البَطلِ العالي . فَحينَ أَخفَقَ إخفاقاً واضِحاً في أن يُحِسَّ إحساساً صَادِقاً بضَميرِ جَماعَةٍ لم تَمْنَحْهُ شَرَفَ الانتِماءِ إليهَا لارتِبَاطِ ذَلكَ بالمُلابَسَاتِ الاجتماعيَّةِ الحَادَّةِ تَميَّزَ صَوتُهُ الفَردِيُّ بِخَصيصَةٍ دَالَّةٍ ، فإذا تَجاوزْنَا الدَّلالاتِ الشِّعريَّةَ وَ اخْتَرقْنَاها إلى العُمقِ فَتَحَتْ لنَا أَبوابَ المَعاني الإنسانيَّةِ الشَّامِلةِ للمُستَعبدينَ جَميعاً ، و إلحَاحُهُ على ضَميرِ المُفرَدِ بِصُوَرٍ مُتَعدِّدَةٍ تَأكيدٌ على حُضُورِ الذَّاتِ الإنسانيَّةِ ، بَلْ إنَّها تَنطَلِقُ مِنْ نَفسِ عَنترَةَ ، و تَتخطَّى نِدَاءاتُهُ الشِّعريَّةُ الإنسَانيَّةُ حُدودَ الأَزمانِ لِتَطرَحَ قَضيَّةً كانَتْ و مَا تَزالُ تَشْغُلُ الضَّميرَ الإنسانيَّ و يُنَادي بِهَا الإنسَانُ مِنْ كُلِّ جِنسٍ و لَونٍ ، و هذَا مَا يَرفَعُ مِنْ قِيمَةِ كُلِّ نَصٍّ يَخرُجُ بِهِ الشَّاعِرُ عَنْ حُدودِ العَصْرِ الجَاهليِّ.

لقَدْ شَدَّني عنترَةَ بمآثِرِهِ النَّبيلَةِ العَاليَّةِ الّتي جَسَّدَتْ حَيَوِيَّةَ الذَّاتِ الكَريمَةِ ، و استِمرارَ نُهُوضِهَا و مَسْعَاها إلى تَحقيقِ قِيَمِهَا الخَاصَّةِ ، و عَلَى وَجهِ الخُصُوصِ تِلكَ الّتي عبَّرَتْ عَنْ صَوتٍ جَماعيٍّ يُعَبِّرُ عَنْ طُموحِ طَائِفَةِ العَبيدِ في صِرَاعِهِمْ معَ القِيمِ الجَائرةِ لإخضَاعِهَا لِمعاييرَ لا تَغمِطُ الإنسانَ حَقَّهُ في الحُرِّيَّةِ و الحَيَاةِ.

مِنَ النَصَفَةِ أَنْ نَقولَ: إنَّ هَذا البَطَلَ النُّموذَّجَ الّذي مهَرَ بُطُولَتَهُ بالأخلاقِ العربيَّةِ الأصيلةِ ، و لامَسَ برُوحِهِ و شِعرِهِ كثيراً مِنَ المَعاني الإسلاميَّةِ حتَّى قَرَّظَهُ النَّبيُّ ﷺ بِقَولِهِ ((**مَا سَمِعْتُ بأعرابيٍّ فاشتَهَيتُ أَنْ أراهُ إلاَّ عنترَةَ**))[1] . و إنَّما قرَّظَهُ رسول الله ﷺ على نَحوِ مَا سَمِعَ عَنهُ ، و لَو بَلَغَهُ مَا أُدينَ بِهِ هذَا الفارسُ لما قَضَى لَهُ بالتَّقريظِ.

---

[1] ديوان المعاني – أبو هلال العسكري عن نُسخة الإمامَين مُحمَّد عبده و محمد محمود الشنقيطي ، مكتبة المقدسي – القاهرة ، 1352 ، ص11

إنَّ هذا الفَارسَ البَطَلَ لَهُ مَالَهُ ، و عَليهِ مَا عليهِ ، و قَدْ غَلَبَ خَيرُهُ شَرَّهُ ، و لِهَذا جَعلتُ شَخصيَّتَهُ مَدخلاً إلى الحَديثِ عَنِ البُطُولاتِ في شِعرِ صَدرِ الإسلام.

****

البابُ الثّاني

البُطولة في شِعر صَدرِ الإسلام

- مدخل
- مَفهومُ البُطُولةِ في الإسلامِ .
- بطولات مكارم الأخلاق.
- بُطولاتُ الجِهادِ القِتاليِّ و صُورُها في الشِّعر.
- بُطُولاتُ مَعركةِ بَدْرٍ.
- بُطولاتُ مَعركَةِ أُحُدٍ.
- بُطولاتُ مَعركةِ الخَندَقِ.
- بُطولاتُ فَتحِ مكَّةَ.

مَدْخَلٌ　الإِسْلامُ و الإِنْسَانُ العَرَبِيُّ

هَلَّتْ عَلَى أُمِّ القُرَى أَنْوَارُ هِدَايَةٍ ، فَعَسْعَسَ لَيْلُهَا الطَّوِيلُ ، وَ تَنَفَّسَ صُبْحُهَا الْمُتَشَوِّقُ لِتَتَضَوَّعَ أَنْفَاسُهُ فِي أَرْجَاءِ ذَلِكَ الوَادِي تَمْلَؤُهُ بالبشَائِرِ . وَ أَشْرَقَتْ تِلْكَ البَشَائِرُ عَلى القُلُوبِ رَحْمَةً وَ عَاطِفَةً وَ جَلالاً، وَ عَلى العُقُولِ كَمَالاً وَ جَمَالاً .

و آمَنَتِ الدَّعْوَةُ السَّامِيَةُ بالإِنْسَانيَّةِ الشَّامِلَةِ ، وَ قَدَّسَتْ مَعْنَى حُبِّ الخَيْرِ لِلإِنْسَانِ لِذَلِكَ كَانَتْ قَرِيبَةً مِنْ قُلُوبِ الفُقَرَاءِ وَ المَسَاكِينِ وَ الْمُسْتَضعفينَ الْمُسْتَعْبَدِينَ الَّذينَ لَجَّ بِأَرْوَاحِهِمْ الظَّمَأُ إِلى الحَقِّ وَ الخَيْرِ وَ الهُدَى ، بَعِيدَةً عَنْ قُلُوبِ الْمُسْتَكْبِرينَ الَّتِي مُلِئَتْ بِعِزَّةِ الجَاهِلِيَّةِ ، وَ مَعَ هَذَا الاسْتِكْبَارِ فَقَدْ وَسِعَتْ مَعَانِي الدَّعْوَةِ العُتُلَّ الجَافِيَ ، وَ البَاطِشَ الشَّقِيَّ ، وَ الغَيُورَ الحَسُودَ ، لِتُحَرِّرَهُمْ مِنْ قَسْوَةِ قُيُودِهِمْ ، وَ تَعْمَلَ عَلَى مُسَاعَدَتِهِمْ لِتَطْهِيرِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ أَدْرَانِ الجَاهِلِيَّةِ الأُولى .

إِنَّ كُبَرَاءَ قُرَيْشٍ أَعْرَضُوا وَ نَأَوْا بِجَانِبِهِمْ عَنِ الدَّعْوَةِ الإِسْلامِيَّةِ الَّتِي اسْتَيْقَنَتْهَا نُفُوسُهُمْ ، وَ مَا كَانَ إِعْرَاضُهُمْ عَنْ فِكْرَةٍ يُحَاجُّونَ بِهَا ، وَ إِنَّمَا عَنْ تَشَبُّثٍ بِسِيَادَةٍ مَوْرُوثَةٍ ، نَافَسَتْهُمْ فِيهَا الدَّعْوَةُ الكَرِيمَةُ الَّتِي سَاوَتْ بَيْنَ النَّاسِ جَميعاً .

وَ امْتِثَالاً لأَمْرِ اللهِ عَزَّ وَ جَلَّ ، فَقَدْ سَلَكَ رَسُولُ اللهِ سَبِيلَ السِّلْمِ فِي دَعْوَتِهِ : ((**اُدْعُ إِلى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالحِكْمَةِ وَ المَوْعِظَةِ الحَسَنَةِ**)) .[١] وَ صَبَرَ النَّبِيُّ -ﷺ- وَ صَحْبُهُ صَبْرًا جَميلاً عَلى أَذَى عُتَاةِ قُرَيشٍ ، وَ الرَّسُولُ -ﷺ- يَعْفُو وَ يَصْفَحُ الصَّفْحَ الجَمِيلَ بِأَمْرِ رَبِّهِ ((**فَاعْفُ عَنْهُمْ وَ اصْفَحْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ**))[٢] . وَ لَمْ يُقَابِلِ الْمُسْتَكْبِرُونَ الإِحْسَانَ بالإِحْسَانِ ، بَلِ ازْدَادُوا عُتُوًّا ، وَ غُرُوراً ، وَ تَمرُّداً ، وَ نُكْرَاناً ، وَ تَوَجَّسُوا خِيفَةً مِنْ صَبْرِ النَّبِيِّ - ﷺ-و امتِدَادِ أَثرِ دَعْوَتِهِ إِلى الرَّعِيلِ الأَوَّلِ مِمَّنْ تَوَسَّمُوا فِيهِمُ الحَقَّ وَ الخَيْرَ ، وَ عَرَفُوا فِيهِ الصِّدْقَ وَ الأَمَانَةَ وَ الصَّلاحَ .

[١] النَّحلُ / من الآية 125
[٢] المَائِدة / مِنَ الآية 13

وَ لَمْ تَسْتَطِعْ قُريشُ أَنْ تَتَحمَّلَ جَهْرَ النَّبيِّ – ﷺ- بالدَّعْوَةِ يُسَفِّهُ أَحْلامَهُمْ بِعِبَادتِهمُ الأَصْنَامَ ، وَ يَدْعُوهُمْ إلى مَا لا يَبْقَى لَهُمْ مِنْ سِيَادَةٍ أَو كِبْرِياءٍ عَلَى العَرَبِ ، و إلى تَرْكِ عِبادَةَ الأَوْثَان ، وَ قَدْ لَمَسُوا فِي ذَلِكَ سُبَّةً قَبِيحَةً لآلِهَتِهمْ وَ تَضْلِيلاً لآبائِهمُ الَّذينَ أَوْرَثُوهُمْ هَذَا الاعْتِقَادَ الضَّالَ المُضِلَّ .

وَتَخبَّطَ كُبَراءُ الطُّغَاةِ فِي حَيْرَةٍ عَمْيَاءَ أَمَامَ الرَّجُلِ الصَّادقِ ، الأَمِينِ ، الَّذي عَرَفُوهُ مَثَلاً أَعْلَى بَيْنَهُمْ للقِيَمِ البَشَرِيَّةِ ، وَ مَكَارِمِ الأَخْلاقِ .

وَاسْتَطَاعَ رَسُولُ اللهِ أَنْ يُنَشِّئَ رِجَالاً كَالجِبَالِ فِي ثَبَاتِهِمْ عَلَى الحَقِّ ، وَقَفُوا مَعَهُ صَفّاً كَالبُنْيَانِ المَرْصُوصِ ، يَشُدُّونَ أَزْرَهُ ، وَ يَصْدَعُونَ بالحَقِّ مُتَحمِّلِينَ صُنُوفَ الأَذَى ، وَ أَلْوَانَ العَذَابِ ، ضَارِبينَ أَرْوَعَ أَمْثِلَةِ البُطُولَةِ الَّتِي غَاظَتِ المُشْرِكِينَ ، وَ بَرزَتْ هَذِهِ البُطُولاتِ بِمَفْهُومٍ جَدِيدٍ شَرَعَهُ الإِسْلامِ مُنْذُ فَجْرِ الدَّعْوَةِ فِي مَكَّةَ المُكَرَّمَةِ ، وَ هُوَ مَفْهُومُ الجِهَادِ ، وَقَدْ كَانَ هَذَا المَفْهُومُ الإِنْسَانِيُّ النَّبيلُ باللِّسَانِ أَوَّلاً ثَمَّ بالسَّيْفِ وَ السِّنَانِ ، فَلَمَّا عَجزَتْ قُرَيشٌ أَنْ تَجدَ مَنْفَذاً تَلِجُ مِنْهُ لِلْمَسَاسِ بِكَمَالِ نَفْسِ النَّبِيِّ – ﷺ– وَ شَمائِلِهِ النَّبيلَةِ وَ ذِرْوَةِ مَكَارِمِ أَخْلاَقِهِ ، تَمَيَّزتْ مِنَ الغَيْظِ ، وَ خَرَجَتْ عَنِ السَّبِيلِ السَّوِيِّ للشَّمائِلِ الكَرِيمَةِ ، فَسَلَّطَتْ سَفَاهَةَ شُعَرائِها تَخْتَلِقُ الزُّورَ وَ البُهتَانَ تَهْجُو مَقَامَ النُّبُوَّةِ ، و اشتَدَّ هِجَاءُ الشُّعَرَاءِ المُشْرِكِينَ لِلنَّبِيِّ وَ أَصْحَابِهِ بَعْدَ أَنَّ ردَّ كَيْدَ قُرَيشٍ إلى نُحُورِهِمْ وَقَدْ بَثُّوا عُيُونَهُمْ فِي كُلِّ سَبِيلٍ وَ شِعْبٍ لِتَرُدَّ النَّبيَّ –ﷺ– عَنْ هِجْرَتِهِ إلى قُرَيْشٍ ، فَعَادُوا إِلَيْها بالإِيَاسِ ، وَ فِي دَارِ الهِجْرَةِ قَالَ عَلَيْهِ السَّلامُ لأَصْحَابِهِ ((**مَا يمنع القَومَ الَّذينَ نَصَرُوا رَسَولَ اللهِ بِسلاحِهِمْ أَنْ يَنْصُرُوهُ بأَلسِنَتِهِمْ ، إنَّ المؤْمِنَ يُجاهِدَ بِسَيْفِهِ وَلِسَانِهِ**))[1]، وَ ظَاهِرُ لَفظِ الحَدِيثِ الشَّرِيفِ جِهادُ اللِّسَانِ بِهَجْوِ الكُفْرِ وَ أَهْلِهِ ، وَصِيغَتُهُ أَقْرَبُ إلى الإِخْبَارِ ، وَ مَقْصُودُ الحَديثِ الشَّرِيفِ أَنَّ شَأْنَ المُؤْمِنِ هكَذَا ، يَنْبَغِي أَلاَّ يَقْتَصِرَ جِهَادُهُ لأَعْدَاءِ اللهِ وَ الرَّسُولِ بالسِّنانِ فَقَطْ ، بَلْ يَضُمَّ إِليهِ الجِهَادَ باللِّسَانِ إِنِ اسْتَطَاعَ إلى ذَلِكَ سَبِيلاً ، وَ أَطْلَقَ اللهُ لِسَانَهُ بالشِّعْرِ . وَ اسْتَجَابَ أُولُو اللَّسَنِ مِنَ الشُّعَرَاءِ لِدَعْوَةِ رَسُولِ اللهِ – ﷺ- إِذْ كَانَ لابُدَّ لِلمُسلِمين مِنْ أَنْ يُقَابِلُوا العُدْوانَ بِمِثْلِهِ ، وَ يَرُدُّوا عَلَى هِجَاءِ قُرَيشٍ لِلنَّبِيِّ وَ صَحَابَتِهِ وَ النَّيْلِ مِنْ دَعْوَتِهِ الكَرِيمَةِ ، وَ كَانَ حَسَّانُ بنُ ثَابتٍ الأَنْصَارِيُّ أَقْوَاهُمْ وَ أَرْسَخَهُمْ قَدَماً فِي ذَلِكَ ، وَ قَدِ اسْتَأْذَنَ النَّبِيَّ –ﷺ- فِي هِجَاءِ المُشْرِكِينَ ، فَعَنْ عَائِشَةَ –رَضِيَ اللهُ عَنْهَا– قَالَتْ : ((اسْتَأْذَنَ حَسَّانُ بْنُ ثَابتٍ

[1] فَيْضُ القَدِيرِ عَلَى شَرْحِ الجَامِعِ الصَّغِيرِ ، العَلاَّمَةُ المنَادِيُّ ، دَارُ إِحْيَاءِ السُّنَّةِ المُحمَّدِيَّةِ ، القَاهِرَةُ ، و.ت ، ج 2 ، رقم الحديث 2104 .

رَسُولَ اللهِ –ﷺ– في هِجَاءِ الْمُشْرِكينَ ، فَقالَ رَسُولُ اللهِ –ﷺ– ((**فَكَيفَ بِنَسَبِي**))؟ **فَقَالَ حَسَّانُ : لأَسُلَنَّكَ مِنْهُمْ كَماَ تُسَلُّ الشَّعْرَةُ مِنَ العَجِينِ**))[1]

وَ أَذِنَ لَهُ رَسُولُ اللهِ –ﷺ– بالرَّدِّ ، فَعَنْ عَدِيِّ بْنِ ثَابتٍ ، عَنِ البَرَاءِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ – ﷺ– قَالَ لِحسَّانَ : ((**أَهْجُهُمْ – أَوْ قَالَ :– هَاجِهِمْ وَ جِبْرِيلُ مَعَكَ**)) [2]

وَ مِنْ قَصِيدَةٍ فِي هِجَاءِ قُرَيشٍ ، وَ الرَّدِّ عَلَى شَاعِرِهَا أَبِي سُفْيَانَ الحَارِثِ بن عَبْدِالْمُطَّلِب الَّذي هَجَا رَسُولَ اللهِ –ﷺ– يَقُولُ حَسَّانُ بْنُ ثَابتٍ :

هَجَوْتَ مُحَمَّداً فَأجَبْتُ عَنْهُ وَ عِنْدَ اللهِ فِي ذَاكَ الجَزَاءُ
أَتهْجُوهُ وَ لَسْتَ لَهُ بكُفْءٍ فَشَرُّكُمَا لِخَيْرِكُمَا الفِدَاءُ
هَجَوْتَ مُبَارَكَاً بَرّاً حَنِيفاً أَمِينُ اللهِ شِيمَتُهُ الوَفَاءُ
فَمَنْ يَهْجُو رَسُولَ اللهِ مِنْكُمْ وَ يَمْدَحُهُ وَ يَنْصُرُهُ سَوَاءُ
فَإِنَّ أَبِي وَ وَالِدُهُ وَ عِرْضِي لِعِرْضِ مُحُمَّدٍ مِنْكُمْ وِقَاءُ [3]

كَانَ هِجَاءُ حَسَّانِ بْنِ ثَابتٍ عَلَى مَرَارَتِهِ صَادِقَاً لا تَكَلُّفَ فِيهِ ، فَلَمْ يَنْدَفِعْ إِليهِ حُبَّاً للتَّكَسُّبِ و الاسْتِجْدَاءِ ، بَلْ ذَوْدَاً عَنْ دِينٍ يُؤْمِنُ بِهِ وَ بِرَسُولِهِ ، وَ يَتَجَلَّى فِي الأَبْيَاتِ الارْتِياحُ إِلى الجِهَادِ وَ الاطْمِئْنَانُ إِلى حُسْنِ الْمَصِيرِ ، وَ إِلى ثَوَابٍ فِي الحَيَاةِ البَاقِيَةِ .

كَانَ هِجَاءُ أَبِي سُفيَانَ للنَّبِيِّ –ﷺ– تَشْوِيهاً لِلْمَفَاهِيمِ الخُلُقِيَّةِ القَبَلِيَّةِ ، وَ مَبْعَثَ رَفْضٍ وَ تَحدٍّ عَلَى لِسَانِ حَسَّانَ ، تَجَلَّى انْفِعَالاً وُجْدَانِيَّاً فِي أُسْلُوبٍ اسْتِفْهَامِيٍّ مَصْحُوبٍ بِإِخْبَارٍ وَ تَأْكِيدٍ وَ إِثْبَاتٍ يُظْهِرُ أَلَمَهُ وَ تَعَجُّبَهُ وَ خَيْبَةَ أَمَلِهِ ، فَيَغْمِزُ بِقَنَاةِ أَبِي سُفيانَ القُرَشِيِّ الَّذي مَا كَانَ لَهُ أَنْ يَهْجُوَ مُحُمَّداً القُرَشِيَّ ، وَ كَانَ شَرَفُ الدِّفَاعِ عَنِ النَّبِيِّ مِنْ نَصِيبِ حَسَّانَ وَ هُوَ اليَمَنِيُّ الخَزْرَجِيُّ .

وَ قَدْ قَيَّضَ اللهُ –ﷻ– شَاعِرَينِ آخرَيْنِ مِنَ الأَنْصَارِ لَلرَّدِّ عَلى قُرَيش ، فَقَدْ كَانَ مَعَ الشَّاعِرِ حَسَّان بْنِ ثَابتٍ الشَّاعِرَانِ كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ وَ عَبْدُاللهِ بْنُ رُوَاحَةَ ، ((**فَكَانَ حَسَّانُ بْنُ ثَابتٍ و كَعْبٌ يُعَارِضَانِهِمْ بِمِثْلِ قَوْلِهِمْ فِي الوَقَائِعِ و الأَيَّامِ ، وَ كَانَ عَبْدُاللهِ بْنُ رُوَاحَةَ يُعَيِّرُهُمْ بِالكُفْرِ . فَكَانَ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ**

---

[1] صَحِيحُ البُخَارِيِّ ، ضَبَطَهُ ، وَ خَرَّجَ أَحادِيثَهُ في صَحِيحِ مُسلم د.مُصطَفى البُغَا –دار العلوم الإنْسَانِيَّة - دِمَشْقُ ط2 1993/1413 ، ج4 ص2147 ، رَقَمُ الحَديثِ 5798.

[2] نَفْسُهُ ص 2156 ، رقم الحديث 5830 .

[3] شَرْحُ دِيوان حَسَّان بن ثَابتٍ الأَنْصَارِيِّ –عَبْدُالرَّحمن البَرْقُوقِيُّ- دَارُ الأَنْدَلُس – بيروت 1966/1386 ص64 ، 65 .

أَشَدَّ القَوْلِ عَلَيْهِمْ ، قَوْلُ حَسَّانٍ وَ كَعْبٍ ، وَ أَهْوَنُ القَوْلِ عَلَيْهِمْ قَوْلُ ابْنُ رُوَاحَةَ ، فَلَمَّا أَسْلَمُوا وَ فَقِهُوا الإِسْلامَ ، كَانَ أَشَدَّ القَوْلِ عَلَيْهِم قَوْلُ ابنِ رُوَاحَةَ)) [1] .

وَ ظَلَّ هَذَا الهِجَاءُ عَلَى مَنْحَاهُ الجَدِيدِ ، وَ هُوَ ذَمُّ مَا عَلَيْهِ أَعْدَاءُ الإِسْلامِ مِنْ طَبَائِعَ تُنَافِي الدِّينِ و الأَخْلاقِ و الإِنْسَانِيَّةِ ، مُرْتَكِزاً إِلَى المَعَانِي الإِسْلامِيَّةِ . وَ كَانَ بَيْتٌ وَاحِدٌ مِنَ الشِّعْرِ يَحُطُّ شَأْناً و يَرفَعُ شَأْناً ، و لِذَلكَ اسْتَطَاعَتْ قُرَيشٌ أَنْ تَسْتَغِلَّ هَذِهِ الصِّفَةَ ، فَرَاحَتْ تُحرِّضُ الشُّعراءَ عَلى هِجَاءِ النَّبيِّ – عَليهِ السَّلامُ – و النَّيلِ مِنَ الإِسْلامِ لِيَتهَيَّبَ وُجُوهُ القَومِ الإِقْبَالَ عَلى الإِيمانِ بالدِّينِ الجَديدِ خَشيَةَ أَنْ يَمسَّهُمُ الهِجاءُ . و مِنْ هُنَا جَاءَ هِجَاءُ حَسَّانَ – رَضيَ اللهُ عَنهُ – عَلى دِرَايَةٍ وَوَعيٍ ، وَ وَقْعاً شَديداً على المُشرِكينَ ، و قَدْ رَضِيَ النَّبيُّ عَنْ حَسَّانَ في هَذَا الهِجَاءِ حِينَ قَالَ لَهُ : ((**شُنَّ الغَطَاريفَ عَلى بَني عَبدِ مُنَافٍ ، فوَ اللَّهِ لَشِعرُكَ أَشَدُّ عَليهِمْ مِنْ وَقْعِ السِّهامِ في غَلَسِ الظَّلامِ ، و تَحَفَّظْ بِبَيْتِيَ فِيهِمْ**)) [2]

وَ التَّشبيهُ يُظهِرُ قُوَّةَ وَقْعِ القَصَائِدِ عَلى المُشرِكينَ ، فَهِيَ كَالغَطَاريفِ المُنقَضَّةِ على الصَّيدِ . وَ كُفَّارُ قُرَيشٍ هُمُ الصَّيدُ الّذي تَنقَضُّ عَلَيهِ الغَطَاريفُ في ظُلْمَةِ آخرِ اللَّيلِ لِتَتْركَهُمْ أشَدَّ تَحيُّراً .

في المَرحَلَةِ الأُولى لِلدَّعْوَةِ انْصَرَفَ النَّبيُّ –ﷺ– إلى إعدادِ النُّفُوسِ في مَيدَانِ الصَّبرِ عَلى البَلاءِ و التَّجلُّدِ، و قَدْ صَبَّتْ قُريشٌ أَقسَى صُنُوفِ العَذَابِ و الاضطِهَادِ عَلى الطَّليعَةِ الأُولى مِنَ المُؤمنينَ المُسْتَضْعَفِينَ فَضَرَبَتْ تِلْكَ الفِئَةُ المُؤْمِنَةُ مَا ضُرِبَ بِهِ المَثَلُ في قُوَّةِ الصَّبْرِ وَ شِدَّةِ الاحْتِمَالِ الَّذِي زَادَ قُلُوبَ الفِئَةِ الكَافِرَةِ غَيْظَاً وَحِقْداً ، وَ أَفْقَدَتْهُمْ أَحْلامَهُمْ ، فَأَيُّ سِرٍّ ارْتَقَى بالمُؤْمِنينَ إلى تِلْكَ الغَايَةِ القُصْوى مِنَ الثَّبَاتِ المُعْجِزِ ؟ إنَّهُ الإِيمَانُ المُطْلَقُ الَّذي بَلَغَ بِهِم إلى مَعْرِفَةِ اللهِ حقَّ المَعْرِفَةِ ، فَرَأَوْا تَفَاقُمَ الشَّدائِدِ زَبَداً يَذْهَبُ جُفَاءً ، وَ مَعَ حَلاوةِ الإِيمانِ الَّذي يَزِنُ الجِبَالَ تَبْرُزُ القِيَادَةُ المُثْلَى الَّتِي تَجَسَّدَتْ في الرَّسُولِ الكَرِيمِ لِتُقَوِّيَ الثَّبَاتَ وَ المُصَابَرَةَ في النُّفُوسِ ، فتَتحوَّلُ إلى قِلاعٍ حَصِينَةٍ .

إنَّ النَّبيَّ –ﷺ– مُنْذُ أَنْ هَبَطَ عَلَيْهِ النِّداءُ العُلْوِيُّ الجَليلُ : ((**يا أَيُّها المدَّثِرْ ، قُمْ فأَنذِرْ**)) [3] نَدَبَ نَفْسَهُ لِلأَمْرِ العَظِيمِ الَّذي يَنْتَظِرُهُ ، وَ نَهَضَ لِيَحْمِلَ العِبْءَ الثَّقِيلَ هُيِّئَ لَهُ ، عِبْءَ العَقِيدَةِ وَ الأَمَانَةِ الكُبْرَى ، وَظَلَّ قَائماً مَايَنُوفُ عَلَى عِشْرِينَ عَامَاً عَلى الدَّعْوَةِ إلى كَلِمَةِ التَّوحيدِ في خَضَمٍّ منَ الزَّعَازِعِ وَ الأَنْوَاءِ

---

[1] مُخْتَارُ الأَغَاني ج3 ص113 .

[2] العقد الفريد ، ج5 ص277 ، 278 ، و الغطاريفُ ج غِطْرِيف وَ هُوَ فَرْخُ البَازي ، مِنْ جَوَارِح الطَّيرِ ، يُستَخْدَمُ في الصَّيْدِ.

[3] سُورةُ المُدَّثر 1-2 .

فِي وَاقِعِ الحَيَاةِ وَ بَيْنَ الشَّدِّ وَ الجَذْبِ فِي ضَمَائِرِ النَّاسِ ، فَلَمْ يَنُؤْ ، وَ لَمْ يَصْرِفْهُ شَأْنٌ وَ لَا هَوْلٌ عَنْ شَأْنِهِ خِلالَ هَذَا الأَمَدِ مِنَ السِّنِينَ ، وَ لَقِيَ مِنْ سُفَهَاءِ قُرَيشٍ وَ غَيْرِهِمْ مَا لَقِيَ ، وَلكِنَّهُ كَانَ مُطْمَئِنّاً إلى كَنَفِ اللهِ وَرِعَايَتِهِ ، فَنَاجَى رَبَّهُ : ((**يَا أرْحَمَ الرَّاحِمِينَ ! أَنْتَ رَبُّ المُسْتَضْعَفِينَ و رَبِّي ، إنْ لم يَكُنْ بِكَ غَضَبٌ عَليَّ فَلا أُبَالي**))[1] لِذَلِكَ سَارَعَ المُسْتَضْعَفُونَ يَلُوذُونَ بِهِ ، و يَهْرَعُونَ إلى لِواءِ صَبْرِهِ وَ دَعْوَتِهِ يَسْتَمِدُّونَ مِنْهُ و يَنْصُرونَهُ ، و تَزْدَادُ سُيُوفُ إيمانِهِمْ مَضَاءً ، و عَزائمُهُمْ شِدَّةً و نَفَاذاً لأَنَّهُمْ كَانُوا يَعلَمُونَ عِلْمَ اليَقِينِ أَنَّ الدُّنيَا بِنَعِيمِهَا و عَذابِها لا تَعْدِلُ عِندَ اللهِ جَناحَ بَعُوضَةٍ ، يَتُوقُونَ إلى النَّعيمِ المُقيمِ في الآخرةِ.

وَ مِنْ تِلكَ التَّضْحِيَاتِ النَّبيلَةِ الهَائلَةِ انْبَثَقَتْ بُطُولاتٌ عَزَّ نَظِيرُها في التَّاريخِ ، و لَمْ يَكُنْ ثَمَّةَ بُدٌّ لِبِنَاءِ هَذَا التَّاريخِ مِنْ أَبْطَالٍ أَفْذَاذٍ وَ ضَحَايا كَرِيمَةٍ . وَ لَقَدْ أَضَاءَتْ آياتُ البَيَانِ السَّماويِّ النُّفُوسَ بِهَذا المَعنَى النَّبيلَ في أَكثَرَ مِنْ مَوضِعٍ ، قالَ اللهُ تَعالى ((**أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الجَنَّةَ ، و لَمَّا يَعلَمِ اللهُ الّذينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ ،**

و يَعلَمَ الصَّابِرينَ))[2] . و قَالَ جَلَّ شَأْنُهُ : ((**و لَقَدْ فَتَنَّا الّذينَ مِنْ قَبلِهِمْ ، فَلَيَعلَمَنَّ اللهُ الّذينَ صَدَقُوا ، و لَيَعلَمَنَّ الكَاذِبينَ**))[3]. و قالَ عَزَّ و جَلَّ ((**أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا ، و لَمَّا يَعلَمِ اللهُ الّذينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ**))[4]

أَيَّةُ بُطُولَةٍ ، و أَيَّةُ عَظَمَةٍ يَحْمِلُها اسمُ ((بلال بن رباح)) عَبْرَ الزَّمانِ ؟! لَقَدْ خَيَّبَ ظُنُونَ طَواغِيتِ قُرَيشٍ ، فَتَبَوَّأَ بِصِدْقِهِ و تَفَانيهِ مَكَاناً عَلِيًّا عَجزَتْ قَوافِلُ مِنْ أَبْطَالِ التَّاريخِ عَنِ السُّمُوِّ إليهِ.

و كَانَ ((آلُ يَاسر)) في قَافِلَةِ الأَبرارِ المُبكِّرينَ الّذينَ نَالُوا نَصِيبَهُم الأَوفَى مِنْ أَهوالِ قُرَيشٍ و عَذابِهَا ، لكنَّ القُرآنَ أَلْقَى في رُوعِ هَذِهِ الثُّلَةِ المُبَارَكَةِ ، أَنَّ الصَّبرَ و الثَّباتَ أَبْهَى فَضَائِلِ الإيمانِ ، و أَنَّ التَّضحِيَةَ جَوْهَرُ الإيمانِ الّذي يَفُلُّ طُغْيَانَ التَّحدِّي ، و يَقْمَعُ مَا يُمْلي عَلَيهِ الشَّيطانُ مِنْ أَلوانِ البَغيِ وَ التَّعذِيبِ.

---

[2] السِّيرَةُ النَّبَوِيَّة لابن هشام ، حَقَّقَها وَ ضَبَطَهَا وَ شَرَحَهَا : مُصْطَفى السَّقَّا ، إبْراهيم الأَبِيَاريّ ، عَبْدالحفيظ شلبيّ ، مكتبة ابن حجر - دمشق- ط1 1446 - 2005-ج1 ص475

[2] آل عمران 142

[3] العنكبوت 3

[4] التوبة من الآية 16

و كانَ الرَّسُولُ –ﷺ–يَمُرُّ عَلى آلِ يَاسرٍ حَيثُ يُعَذَّبُونَ و لَمْ يكُنْ يومَئِذٍ مِنْ حِيلَةٍ في دَفْعِ الأَذَى عَنْهُمْ ، فَيَذُوبُ قَلبُهُ الكَبيرُ رَحمَةً و حَناناً وَ هُمْ يَتَحمَّلونَ مِنَ العَذّابِ مَا لا طَاقَةَ لَهُمْ بِهِ ، و يُبَشِّرُهُمْ مُكْبِراً بُطُولَتَهُمْ و ثَبَاتَهُمْ : ((**صَبراً آلَ يَاسِرٍ ..فإِنَّ مَوْعِدَكُمُ الجَنَّةُ**)).

وَ ضَرَبَ ((آلُ ياسر)) بِبَيعتِهِمْ لِلهِ و لِرَسُولِهِ و بِإيمانٍ كَاملٍ غَيرِ مَنقُوصٍ مَثَلاً في العَظَمةِ و البُطُولةِ لِلبَشَرِيَّةِ.

وَ يُضِيفُ الصَّحابيُّ الجَليلُ حَبيبُ بنُ زَيدٍ إلى المَواقِفِ العَظيمَةِ مَوقِفاً مُضِيئاً مِنْ هُدَى الحَقِّ و الخَيرِ ، و هُوَ رَسُولُ رَسُولِ اللهِ إلى (مُسَيلَمَةَ الكَذَابِ) الّذي ادَّعَى النُّبُوَّةَ باليَمامَةِ لَعَلَّهُ يَهتَدِيَ إلى الحَقِّ ، و لكِنَّ قَلبَ مُسَيلَمَةَ خَلا مِنَ المُروءَةِ و العُروبَةِ و الرُّجُولَةِ ، فَلَمْ يُقَدِّسْ مَا تَعَارَفَ عَلَيهِ العَرَبُ ، و لَمْ يَرتَدِعْ عَنْ سَفْكِ دَمِ رَسُولِ سَلامٍ بَعْدَ تَعذِيبٍ شَديدٍ أَنزَلَهُ بِحَبيبٍ حَتَّى يَشْهَدَ البَطَلُ المُعذَبُ أَنَّ مُسَيلَمةَ رَسُولُ اللهِ ، فَلَمْ يَتَخاذَلْ ذَلِكَ البَطَلُ ، و لَمْ تَنْحَنِ شَجَاعةُ رُوحِهِ وَ جَسَدُهُ يُقَطَّعُ إِرْباً إِرْباً ، و شَفَتَاهُ نَدِيَّتَانِ بتَرْديدِ مَبْدَئِهِ القُدْسِيِّ الخَالدِ(لا إلهَ إلاَّ اللهُ ، مُحمَّدٌ رَسُولُ اللهِ) ، و خُتِمَ ثَبَاتُهُ المَيمُونُ بِأَعظَمِ مَوَاقِفِ الرُّجُولَةِ و البُطُولَةِ و التَّضْحِيَةِ و الاسْتِشْهَادِ في سَبيلِ كَلِمَةٍ هُوَ قَائلُها ، وَ مَلأَتْ قَلْبَهُ وَ وُجْدَانَهُ ، فكَانَ اسْتِشْهَادُهُ أَروَعَ مِنْ كُلِّ ظَفَرٍ.

و تَتَابَعَتْ مَواكِبُ البُطُولَةِ و التَّضْحِيَةِ و الصَّبْرِ في المُسْتَضْعَفينَ المُلتَفِّينَ حَولَ رَايَةِ النُّورِ و الهُدَى بِطَبيعَةٍ إيمَانيَّةٍ فَريدَةٍ فَتَحَتْ بَصائِرَ أَبْطَالِهَا عَلى حَقِيقَةِ المَآلِ المَيْمُونِ ، و أَدارَ هَؤُلاءِ العُظَمَاءُ نُورَ البَصَائرِ في كُلِّ مَوقفٍ وَ فِتْنَةٍ في العُقُولِ و القُلوبِ ، فَاتَّسَمَتْ عَظَمَةُ المَواقِفِ بالقُدْرَةِ الخَارِقَةِ على التَّحدِّي لأَنَّها عَانَقَتْ دِيناً رَاسِخاً رُسُوخَ الرَّواسي ، يَحتَقِرُ الجُبْنَ و التَّخاذُلَ ، و النِّفَاقَ، فَزادَها عِزَّةً و إبَاءً ، و أَزْهَرَ في كُلِّ قَلبٍ مَضاءُ المَوقِفِ سِرَاجاً وَهَّاجاً ، لا تَنْطَفِئُ فِيهِ لأْلأَةُ الهُدَى و الإيمانِ حتَّى كانَ التَّهجيرُ عَنِ البَلَدِ الحَرامِ و العَودَةِ إليهِ بِالفَتْحِ المُبينِ الّذي بَشَّرَ اللهُ بِهِ نَبِيَّهُ وَ وَعَدَ بِهِ عِبَادَهُ المُؤمِنينَ.

مَفهومُ البُطُولةِ في الإسلامِ

برزَ مَفْهُومُ البُطُولةِ في الإسلامِ في مَكَّةَ المُكَرَّمةِ بتَسميَةٍ جَديدَةٍ هيَ الجِهادُ و بموازينَ فِكريَّةٍ و فِقهيَّةٍ ، و ضَوابطَ تَهدِي إلى الحَقِّ و الخَيرِ . قالَ عَلَيهِ الصَّلاةُ و السَّلامَ : ((**أُمِرْتُ أَنْ أُقاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يقُولُوا لا إلهَ إلاَّ اللهُ فإذا قَالُوها مَنَعُوا مِنِّي دِماءَهُمْ و أَموالَهُمْ إلاَّ بِحَقِّهَا ،و حِسَابُهُمْ على اللهِ** [1])).

و النَّصُّ القُرآنيُّ نَصٌّ سِلميٌّ ، لَمْ يَرِدْ فِيهِ لَفظُ السَّيفِ أو الرُّمحِ ، أو أَميرٍ أو قائدٍ ، و كذلكَ فإنَّ المُعجَمَ العَسكرِيَّ ضَعيفٌ جِدّاً مَعَ أَنَّهُ نَزَلَ في مُجتَمعٍ قِوامُ أَغلَبِهِ القَتْلُ و القِتَالُ .

إنَّ الإسلامَ لم يُشهِرِ السَّيفَ في وُجُوهِ النَّاسِ لِيُكرِهَهُمْ على الدُّخُولِ فِيهِ ، يَقُولُ اللهُ – عزَّ و جَلَّ : ((**لا إكراهَ في الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشدُ مِنَ الغَيِّ** [2])).

و إنَّما شُهِرَ السَّيفُ في وُجُوهِ الطَّواغيتِ و الحُكَّامِ المُتَأَلِّهينَ الّذينَ حَالُوا دُونَ وُصُولِ الدَّعوَةِ الإسلاميَّةِ إلى شُعُوبِهِمْ وَ هِيَ دَعوَةُ الحَقِّ و الخَيرِ و العَدْلِ و المُساواةِ و تَخليصِ البَشَرِيَّةِ مِنَ الإلحادِ و الوَثَنِيَّةِ و الخَرافاتِ ، قالَ اللهُ تعالى : ((**وَ قَاتِلُوا أَئِمَّةَ الكُفرِ إنَّهُمْ لا أَيْمَانَ لَهُمْ**[3]))

جاءَ الإسلامُ يُؤثِرُ السِّلمَ ، بَلْ يَدعو إليهِ دَعوةً حَارَّةً . قالَ اللهُ تعالى ((**و إنْ جَنحُوا لِلسَّلمِ فَاجْنَحْ لَهَا و تَوكَّلْ على اللهِ** [4]))غَيْرَ أنَّ الإسلامَ – و إنْ كَانَ لا يَبْغي على أَحَدٍ و يُحرِّمُ الظُّلْمَ و العُدوانَ – يَأْبَى أَنْ يَكُونَ مَظلُوماً و لا يَرضَى أَنْ يَكُونَ مُعتَدىً عَلَيْهِ . لأَنَّ ذَلكَ لا يَتَّفِقُ مَعَ المَنطِقِ و العَقلِ ، و لا مَعَ مبدأ العِزَّةِ الّتِي هِيَ أَخصِّ خَصَائصِ هَذا الدِّينِ.

فَالسَّلمُ الّذي يَجنَحُ إليهِ الإسلامُ هُوَ السَّلمُ العَزيزُ القَائمُ عَلى الحَقِّ و القُوَّةِ الرَّادِعَةِ لا الاستِسْلامِ ، فَمَا دَامَ هُناكَ في كُلِّ عَصْرٍ فِئاتٌ مُنحرِفَةٌ تَستَخْدِمُ قُوَّتَها غَالِباً في العُدوانِ عَلى القِيَمِ الإنسانيَّةِ و عَلى حُقُوقِ النَّاسِ . حُبَّاً في العُلُوِّ في الأَرضِ و الفَسَادِ فِيها ، و السَّيطَرةِ و التَّسلُّطِ فَإنَّ الإسْلامَ لَمْ يَرَ بُدَّاً مِنْ جَعْلِ الجِهَادِ فَرِيضَةً لازِمَةً لِمُجَابَهَةِ العُدْوانِ وَ للدِّفَاعِ عَنِ الحَقِّ وَ حِفْظِ الذَّاتِ .

[1] جَامعُ التِّرمذيِّ ، مكتبةُ ابن حجر ، دمشق ط1 2004/1424 ، رقم الحديث 2606 ، سُنن أبي داود ، مكتبة ابن حجر ، دمشق ، ط2004/11424 ، رقم الحديث 2640

[2] البقرة ، مِنَ الآية 256

[3] التَّوبة مِنَ الآية 12

[4] الأنفال مِنَ الآية 61

وَ تَفَرَّعَ عَنْ هَذَا المَفْهُومِ لِلْجِهَادِ أَلْوَانٌ أُخَرُ تُتَمِّمُ مَعْنَاهُ وَ تُكَمِّلُهُ ، وَ تَرْفُدُ جَوْهَرَهُ المُتَأَلِّقُ . و مِنْ أَضْوَأ تِلْكَ المَعَانِي الجِهَادُ بِالكَلِمَةِ ، قَالَ عَلَيهِ الصَّلاةُ و السَّلامُ - ((**أَفْضَلُ الجِهَادِ كَلِمَةُ حَقٍّ عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ**)) [1]

وَ هَذَا الحَدِيثُ لا يَنْصَرِفُ مَعْنَاهُ إلى الجِهَادِ بالسَّيْفِ فَكَلِمةُ الحقِّ هُنَا ، و في هَذا الحَدِيثِ بِالذَّاتِ لا تَحْمِلُ شَيْئاً مِنْ هَذِهِ الدَّلالَةِ . بَلِ الحَديثُ بِمُجْمَلِهِ يُبرِزُ أَهَمِّيَّةَ الصُّمُودِ بالكَلمةِ اللَّيِّنَةِ أَمَامَ جَوْرِ السُّلْطَانِ وَ زَجْرِهِ ((**فظَاهِرُةُ الزَّجْرِ في هَذا الحَدِيثِ تَنْبَعِثُ احْتِمَالاتُها مِنْ طَرَفِ السُّلْطَانِ وَ بَطْشِهِ ، لا مِنْ جِهَةِ القَائِمِ بحَقِّ اللهِ في الصَّدْعِ بِكَلِمَةِ الحَقِّ لَيِّنَةً صافِيَةً عَنْ سَائِرِ الأَحْقَادِ و الشَّوَائِب**)) [2]. وَ قَدْ تَكُونُ الكَلِمَةُ أَشَدُّ وَ أَقْوَى مِنَ السَّيْفِ .

وَ قَدْ ضَرَبَتِ الثُّلَّةُ المُؤْمِنَةُ الطَّيِّبَةُ حَوْلَ الرَّسُولِ المَثَلَ الأَعْلَى في قَذْفِ كَلِمَةِ الحَقِّ مُضِيئَةً كَفَلَقِ الصُّبْحِ في وَجْهِ جَوْرِ السُّلْطَانِ ، حَتَّى جَعَلَ الصَّدْعُ بِهَا عَظِيمَةً شَاهِقَةً زَعِيمَ قُرَيْشٍ أَبا سُفْيَانَ ، وَ كَانَ بَعْدُ لَم يُسْلِمْ ((**يَضْرِبُ كَفَّاً بِكَفٍّ وَ يَقُولُ مَشْدُوهاً : و اللهِ مَا رَأَيْتُ أَحَداً يُحِبُّ أَحَداً كما يُحِبُّ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ مُحَمَّداً**)) [3]

وَ مِنَ الأَنْوَاعِ الَّتِي تُعَدُّ أُسَّ الجِهَادِ وَ جَوْهَرَهُ ، وَ لا تَرْتَبِطُ بِمَعْنَاهُ القِتَاليِّ ، هُو السَّعْيُ عَلى الأَرْمَلَةِ و المِسْكِينِ ، وَ هَذا مَا بَيَّنَهُ رَسُولُ اللهِ -ﷺ- حِينَ قَالَ : ((**السَّاعِي عَلى الأَرْمَلَةِ و المِسْكِينِ كَالمُجَاهِدِ في سَبِيلِ اللهِ**)) [4]. فَالمُجَاهِدُ في سَبِيلِ اللهِ يَخْدُمُ دِيْنَهُ بِنَفْسِهِ وَ مَالِهِ ، وَ كَذَلِكَ السَّاعِي عَلَى الأَرْمَلَةِ وَ المِسْكِينِ ، يَكِدُّ وَ يَتْعَبُ وَ يَنْصَبُ يُعَدُّ مُجَاهِداً في سَبيلِ اللهِ .

بُطُولاتُ مَكَارِمِ الأَخلاقِ

بُعِثَ النَّبِيُّ -ﷺ- في وَاقِعٍ بَشَرِيٍّ يَحُوطُهُ سِيَاجٌ مِنَ المُواصَفَاتِ الاجْتِماعِيَّةِ و السِّيَاسِيَّةِ و الاقتِصَادِيَّةِ ، فَكَانَ -عَلَيهِ السَّلامُ- ذَا حَسَاسِيَةٍ بَالِغَةِ الرَّهَافَةِ حِيَالَ كُلِّ مَوقِفٍ مِنْ هَذا الوَاقِعِ .

---

[1] سُنَنُ أَبي داود ، مكتبةُ ابن حجر ، دمشق ، ط1 ، 1424 - 2004 ، رقم الحديث 4344 ، وَ يُنْظرُ سُنَنُ ابن ماجَه ، مَكْتبةُ ابن حجر دمشق ، ط1 ، 1424 - 2004 ، رقم الحديث 4011 .

[2] الجِهادُ في الإسْلام ، كَيْفَ نَفْهَمُهُ؟ وَ كَيْفَ نُمارسُهُ ، د. مُحمَّد سعيد رمضان البُوطيُّ ، دار الفِكر ، دمشق ، ط2 / 1414 - 1993 ، ص22 .

[3] رِجَالٌ حَوْلَ الرَّسُول ، ص356

[4] صحيح البُخاريّ ، رقم الحديث 5038 .

كَانَتِ الأَخلاقُ الكَريمَةُ السَّامِيَةُ عِصْمَةً لِعَرَبِ الجَاهليَّةِ ، تَحميهِمْ مِنْ كُلِّ زَيغٍ ، و تَهدِيهِمْ إلى سَواءِ السَّبيلِ ، فَهِيَ الّتي عَصَمَتْ أَبَا جَهلٍ حِينَ حَاصَرَ بَيتَ النَّبيِّ –لَيلَةَ هِجرَتِهِ – إذْ سُئِلَ : لِمَ لَمْ تَقْتَحِمْ عَلى مُحمَّدٍ بَيْتَهُ ؟ فَأَجَابَ:

و تَقُولُ العَربُ : كَسَرَ عَمرو بنُ هِشَامٍ عَلى مُحمَّدٍ بَيْتَهُ ! خَافَ أَنْ يُعَيَّرَ بِأَنَهُ لَمْ يَعتَصِمْ بِالخُلُقِ العَربيِّ.

لَقَدْ أُمِرَ النَّبيُّ – عليهِ السَّلامُ – بإذْكَاءِ كُلِّ خُلُقٍ شَريفٍ ، و تَأْييدِ كُلِّ مَنْهَجٍ سَديدٍ ، و الإبقَاءِ عَلى كُلِّ عَادَةٍ طَيِّبَةٍ لِتكُونَ أُمَّةُ العَرَبِ أوَّلَ المُؤمِنينَ بِرِسَالةِ الهُدَى و الحَقِّ ، وَ لِيكُونُوا خَيرَ أُمَّةٍ أُخرِجَتْ لِلنَّاسِ ، وَ لِيكُونُوا أوَّلَ أُمَّةٍ تَحْمِلُ نُورَ الهِدَايَةِ الوَهَّاجِ رِسَالَةً إلى أَصْقَاعِ الدُّنيَا في تَواضُعٍ و مَرْحَمَةٍ و في أمَدٍ وَجيزٍ لِتَسَعَ كُلَّ إنسانٍ كانَ يَئِنُّ تَحتَ وَطْأَةِ الظُّلْمِ و العُدْوانِ ، و كَانَ على لَهفَةِ الانتِظارِ إلى مَنْ يَأْسُو جِراحَهُ ، و يَنتَشِلُهُ مِنْ وَهْدَةِ المَظالِمِ ، و يَأْخُذُ بِيَدِهِ إلى سُبُلِ السَّلامِ و العَدْلِ و المُسَاواةِ

كَانَ لِهَؤُلاءِ العِظَامِ في رَسُولِ اللهِ أُسوةٌ حَسَنَةٌ ، لأَنَّ العِنَايَةَ الإلهِيَّةَ تَكَفَّلَتْهُ بالرِّعَايةِ ، قَالَ اللهُ تَعالى : ((**و إنَّكَ بِأَعيُنِنَا**))[1] و قَالَ عليهِ السَّلامُ مُشيراً إلى هَذِهِ النِّعمَةِ العُظمَى : (**أدَّبَني رَبِّي فَأَحسَنَ تَأْديبي**))[2]

كانَ مِحورُ الرِّسالةِ الإسلاميَّةِ و البِعثَةِ الشَّريفَةِ تَتْميمَ مَكَارِمِ الأخلاقِ الّتي لم تَكُنْ قَدْ تَمَّتْ ، قَالَ ﷺ : ((**بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ مَكارِمَ الأَخْلاَقِ**))[3] وَ مَنْ تَتِمُّ بِهِ مَكَارِمُ الأَخْلاقِ لاَ بُدَّ أَنْ يَكُونَ كَامِلاً لا تَعْتَريهِ شَائِبَةٌ مِنْ شَوائبِ البَشَرِيَّةِ النَّاقِصَةِ ، كَما يَظُنُّ أُولئِكَ الَّذينَ يَنْظُرونَ إلَيْهِ في جِنْسِهِ ، فَيَفُوتُهمُ النَّظَرُ إلى كَمالِ نَفْسِهِ ، لَقَدْ تَمَّمَهَا بِرسَالِتِهِ وَ سُلُوكِهِ : ((**وَ مِنَ الحَقَائِقِ المَعْرُوفَةِ جَيِّدَاً في تَاريخِ نَبيِّ العَرَبِ أَنَّهُ قَبْلَ دَعْوَتِهِ إلى الرِّسَالةِ كَانَ كَثِيرَ الهُدُوءِ وَ المُسَالَمَةِ مَحلاًّ لِلثِّقَةِ ، وَ كَانَ أَهْلُ مَكَّةَ يُسمُّونَهُ مُحَمَّدَاً الأَمِينَ**))[4]

---

[1] سُورةِ الطُّور ، مِنَ الآية 48

[2] المجازاتُ النَّبويَّةُ الشَّريفَةُ ، الشَّريفُ الرَّضِيُّ ، حَقَّقَهُ و عَلَّقَ عَلَيهِ . مَروان العَطِيَّة ، د. مُحمَّد رضوان الدَّاية ، مَنشُوراتُ المُستَشَاريَّةُ الثَّقَافيَّةِ للجُمهوريَّةِ الإسلاميَّةِ الإيرانيَّةِ بدمشق ، 1408 ، 1987 ، ص31

[3] مُسْنَدُ الإِمَامِ أَحْمَدَ ، دَارُ إِحياءِ التُّرَاثِ العَرَبيِّ ، بيروت ، ط1-1412- 1992 ، ص381 ، ج1ص80 .

[4] مُحَمَّدٌ في الكِتَابِ المُقَدَّسِ ، البروفسور عبدالأحد داود ، تَرَجْمَةُ فهمي شَمَّا ، رِئِاسةُ المحكمةِ الشَّرْعيَّةِ وَ الشُّؤونِ الدِّينيَّةِ ، قطر ، ط1 1405-1985 ، ص82 .

لَقَدْ أَثْنَى اللهُ –عَجَلّ– عَلَى نَبِيِّهِ بِمَا مَنَحَهُ مِنْ هِبَاتِهِ ، وَهَدَاهُ إِلَيْهِ ، وَ أَكَّدَ ذَلِكَ –تَتْميماً لِلتَّمجيدِ– بِحَرْفَي التَّأْكِيدِ ، فَقَالَ تَعَالى : ((**وَ إِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظيمٍ**))[١] . تَنَاسَبَ جَمَالُ مَا أَرَادَهُ اللهُ تَعَالى مَعَ مَا أَرَادَهُ النَّبيُّ –ﷺ– وَ تِلْكَ هِيَ العَظَمَةُ الحَقَّةُ .

وَ لأَنَّ العَرَبَ قَوْمٌ تُحَرِّكُهُم المُثُلُ وَ تُلازِمُهُمُ القِيَمُ العَالِيَةُ فَقَدِ اسْتَطَاعَ النَّبيُّ –ﷺ– أَنْ يَصْنَعَ عَلى عَيْنَيهِ جِيلاً عَظِيمَاً ، فَوَجَّهَ القُوى المَعْنَوِيَّةَ الكَامِنَةَ في السَّجَايا الحَميدَةِ الَّتِي كَانَتِ الفُتُوَّةُ العَرَبِيَّةُ تَرَاهَا وَاجِباً وَ لاَزِماً ، وَجَّهَهَا تَوْجيهاً عَلى عَقْلٍ وَ تَدَبُّرٍ وَ تَفَكُّرٍ .

أَبْدَعَ الإِسْلامُ أَبْجَدِيَّةً خَاصَّةً لِمَفْهُومِ البُطُولَةِ و الفُرُوسِيَّةِ وَ مَا تَشْمَلُهُ مِنْ مُثُلٍ عُلْيا ؛ فَلَيْسَتِ البُطُولَةُ أَنْ يَكُونَ هُنَاكَ بَاطِلٌ يُوَاجَهُ وَ حَسْبُ وَ لكِنَّ البُطُولَةَ مُوَاجَهَةُ أَهْوَاءِ النَّفْسِ ، البُطُولَةُ أَنْ يَأْتِيَ المُؤمِنُ رَبَّهُ قَبْلَ أَنْ تَأْتِيْهِ الشَّدَائِدُ ، وَ البُطُولَةُ أَنْ يَتَّجِهَ إِلَى اللهِ وَ هُوَ صَحِيحٌ مُعَافَى قَبْلَ مَرَضِهِ ، وَ البُطُولَةُ أَنْ يَتَّجِهِ إِلى اللهِ وَ هُوَ غَنِيٌّ قَبْلَ أَنْ يَفْتَقِرَ ، وَ البُطُولَةُ أَنْ يَأْتِيَ رَبَّهُ وَ هُوَ لا يَشْكُو إِلَيْهِ . وَ مِنْ أَعْلَى دَرَجَاتِ البُطُولَةِ الاخْتِيَارُ بالعَقْلِ لِلصَّبْرِ عَلى الشَّدَائِدِ خُضُوعَاً لِلتَّأْدِيبِ الاسْتِدْرَاجِيِّ الإِلهِيِّ الَّذي يُفْضِي إِلى ثَوَابٍ عَظِيمٍ بِغَيْرِ حِسَابٍ . وَ مِنْ أَعْلَى دَرَجَاتِ البُطُولَةِ إِنْفَاقُ المَالِ وَ الدُّنْيا بِيَدَيهِ إِظْهَاراً لِلطَّاعَةِ وَ الشُّكْرِ عَلى النِّعْمَةِ. فِي لَحْظَةِ صِدْقٍ حَاسِمَةٍ جَاءَ أَبُو بَكْرٍ بِمَالِهِ كُلِّهِ بَيْنَ يَدَي رَسُولِ اللهِ ، وَ جَاءَ عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ بِنِصْفِ مَالِهِ وَ ذَلِكَ انْتِظَاراً لِلرَّصِيدِ البَاقِي عِنْدَ اللهِ . وَ كَانَ عَليٌّ بنُ أبي طالبٍ –رضي الله عنه– يَقُولُ لِطَالِبِ الحَاجَةِ قَبْلَ أَنْ يَسْأَلَهُ : أُكْتُبْ حَاجَتَكَ عَلى التُّرَابِ حَتَّى لاَ يُنْطِقَهُ الذُّلُّ بِحَاجَتِهِ ، احْتِرَامَاً لِمَشَاعِرِهِ ، وَ كَانَتْ عَائِشَةُ –رَضِيَ اللهُ عَنْهَا– تَجْعَلُ يَدَها وَ فِيهَا الصَّدَقَةُ مُعَطَّرَةً أَدْنَى مِنْ يَدِ السَّائِلِ حَتَّى تَكُونَ هِيَ العُلْيَا . وَ إِنَّ البُطُولَةَ الأَكْمَلَ أَنَّ يَظَلَّ هَذَا الإِنْسَانُ الَّذِي حَرَّرَ نَفْسَهُ مِنْ أَهْوَائِهَا يَرْقَى فِي أُفُقِ الخُلُقِ القُرَآنِيِّ ، يَعِي بِقَلْبِهِ، فَيُطَبِّقُ بعَقْلِهِ ، وَ لَمْ يَقِفِ الخُلُقُ القُرآنيُّ عِنْدَ حَدٍّ ، بَلْ تَدَرَّجَ بِالنَّفْسِ الإِنْسانِيَّةِ المُؤمِنَةِ مِنْ كَرِيمٍ إِلى أَكْرَمٍ ، وَ مِنْ سَامٍ إِلى أَسْمَى ، فَقَدْ رَسَمَ الخُلُقَ الكَرِيمَ العَادِلَ بِقَوْلِهِ تَعَالى : ((**وَ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا**))[٢]وَ مَعَ بَيَانِ هَذِهِ العَدَالَةِ ذَكَرَ دَرَجَةً أَعْلَى مِنَ الخُلُقِ الكَرِيمِ ، وَ تِلْكَ هِيَ دَرَجَةُ كَظْمِ الغَيْظِ ، وَ سَمَا إِلَى دَرَجَةٍ ثَالِثَةٍ مِنْ ذَلِكَ الخُلُقِ ، فَتَجَاوزَ مُقَابَلَةَ السَّيِّئَةِ بِالسَّيِّئَةِ ، وَ كَظْمِ الغَيْظِ إِلى العَفْوِ مَعَ المَقْدِرَةِ ، ثُمَّ رَغَّبَ بِالارْتِقَاءِ إِلى الدَّرَجَةِ العُلْيَا ،

[١] القلم / الآية 4
[٢] الشورى / من الآية 40

دَرَجَةِ المُقَرَّبينَ ، وَ هِيَ الإِحْسَانُ ، وَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ تَعَالى : ((**فَمَنْ عَفَا و أَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ**))[1]
وَ بِقَولِهِ تَعَالى : ((**وَ الكَاظِمِينَ الغَيْظَ وَ العَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَ اللهُ يُحِبُّ المُحْسنِين**))[2]

إِنَّهَا دَرَجَاتٌ مِنَ الخُلُقِ الكَرِيمِ ، كُلُّهَا كَرِيمَةٌ ، بَيْدَ أَنَّهَا تَتَفَاوَتُ فِيمَا بَيْنَهَا مِنْ كَرِيمٍ إِلى أَكْرَمٍ ، كَتَفَاوُتِ النَّاسِ فِي الشَّرَفِ ، مِنْ شَرِيفٍ إِلى أَشْرَفٍ .

وَ كَانَتِ الشَّجَاعَةُ وَ البُطُولَةُ تَهْدُفُ إِلى المَجْدِ الفَرْدِيِّ أَوِ القَبَلِيِّ ، فَوَجَّهَهَا الدِّينُ الإِسْلامِيُّ إِلى خِدْمَةِ الأُمَّةِ وَ البَشَرِيَّةِ وَ إِلى الدِّفَاعِ عَنْ مَبْدَأٍ شَرِيفٍ ، وَ لَيْسَ أَسْمَى وَ أَشْرَفُ مِنْ مَبْدَأٍ حَدَّدَهُ القُرآنُ الكَرِيمُ : ((**وَ مَا لَكُمْ لا تُقَاتُلونَ فِي سَبِيلِ اللهِ و المُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَ النِّسَاءِ وَ الوِلْدَانِ الَّذينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخرِجْنَا مِنْ هَذِهِ القَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُها**)) [3] .

إنَّ هَؤُلاءِ الرِّجَالَ الَّذينَ التَفُّوا حَوْلَ الرَّسُولِ الكَرِيمِ جَعَلُوا العَقْلَ وِعَاءَ المَشَاعِرِ فَكَانَ اللهُ عَزَّ و جَلَّ معَ نُصرَتِهِمْ عَلى أنفُسِهِمْ ، إذْ وَضَعَ كُلٌّ مِنْهُمْ فِي قَلبِهِ الفِطرَةَ المُنيرَةَ المُشِعَّةَ ، و بِاختِيارِهِمْ وَصَلُوا إلى مَا وَصَلُوا إِلَيهِ مِنْ أَعظَمِ دَرَجَاتِ العَظَمَةِ مِنَ الجَمَالِ الخُلُقيِّ الإنسانيِّ ، و مَا يَتَناسَبُ معَ الجَمالِ الإِلَهِيِّ و الكمالِ البَشَريِّ فِي الوَقْتِ الّذي يَحسَبُهُمُ الجَاهِلُ مُجبرينَ على مَا فَعَلُوا.

و إذا كانَتِ العِبَاداتُ الشَّعائرِيَّةُ أَسَاسَ البُنيَانِ فِي الإِسلامِ فَإِنَّ مَا يَرفَعُ كَمالَ البُنيَانِ هُوَ القِيَمُ الأَخلاقِيَّةُ و هُوَ مُمَارَسَةُ العِبادَةِ التَّعامُليَّةِ فِي الحَيَاةِ . و لا تُقبَلُ العِبَادَةُ الشَّعائِرِيَّةُ إلاَّ إذا قُبِلَتِ العِبَادَةُ التَّعامُليَّةُ .

إنَّ النُّفُوسَ الّتِي أَنشأَها الإسلامُ خَلقاً آخرَ أَمسَتْ فِيهِ شَفَّافَةً عَلى دَرجَةٍ عَاليَّةٍ مِنَ الرُّقِيِّ فِي التَّعامُلِ الإنسانيِّ تَعَامُلاً يَفيضُ على الدُّنيَا نُبلاً يَمَسُّ حَرَكَاتِ العُقُولِ و خَلَجَاتِ القُلوبِ ، و يُضِيئُها بِمَعاني البُطُولَةِ الكَرِيمَةِ .

و إذ قُلنَا : إنَّ الأَخلاقَ القُرآنيَّةَ قَدْ أَعطَتِ الدَّواءَ النَّاجِعَ لِلآفَاتِ النَّفسيَّةِ . فإنَّ طَائِفَةً مِنَ الصَّحابَةِ لَمْ تَبْرَأْ مِنْ بَعضِ تِلكَ الآفاتِ مَعَ طُولِ صُحبَتِهِمْ للنَّبِيِّ – عَلَيهِ السَّلامُ– و هُنَا يَجبُ تَصويرُهُمْ دُونَ مُبالَغَةٍ فِي الكَمالِ ، بَلْ يَجبُ تَصْويرُهُمْ بِكَمالِهِمْ مِنْ جَانَبٍ ، و بِنَقصِهِمْ البَشَرِيِّ مِنْ جَانبٍ آخَرَ ،

[1] الشورى / من الآية 40
[2] آل عمران / من الآية 134
[3] النّسَاء / مِنَ الآية 75/

فَالأخلاقُ لَيْسَتْ قَضِيَّةَ وَعْظٍ ، هِيَ أَعمَقُ بِكَثِيرٍ ، فَثَمَّةَ أَخلاقٌ أَسَاسِيَّةٌ تَجَلَّوا بِهَا كَالصِّدقِ و الوَفَاءِ ، و لَمْ يَتَخلَّوا عَنها ، و ثَمَّةَ أخلاقٌ كَمَالِيَّةٌ ، يَكتَمِلُ الإنسانُ بِهَا كَالشَّجاعَةِ وَ الكَرَمِ ، و لكنْ لم يتحلَّوا بِهَاتينِ الصِّفَتَيْنِ ، فَالشَّجاعَةُ لَمْ تكُنْ مِنْ أَخلاقِ حَسَّانِ بنِ ثابت – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ – و رَضِيَ القُعُودَ مَعَ النِّسَاءِ فِي الحِصْنِ حِينَ خَرَجَ النَّاسُ معَ النَّبِيِّ عليه السَّلامُ ، لِلغَزوِ ، و لا يُتَّخذُ هَذا مَطعناً فِيهِ ، و هُوَ الُمحامي الُمنَافِحُ عَنِ الدِّينِ ، و هُوَ الُمجاهِدُ بِلِسَانِهِ فِي سَبِيلِ اللهِ ، فقَدْ كانَ شِعرُهُ أَشَدَّ على الُمشرِكينَ مِنْ وَقْعِ السُّيوفِ . و الكَرَمُ الّذي هُوَ قِمَّةُ الأَخلاقِ لَمْ يَسْتَطِعْ أبو سُفيانَ أَنْ يَقِفَ مَوقِفاً بُطُولِيًّا ، فيتَغلَّبُ عَلى شُحٍّ نَفسِهِ ، و قَدِ اشتَكَتْ زَوجَتُهُ ، هِنْدٌ إمسَاكَ يَدِهِ إلى النَّبِيِّ – ﷺ– فَكَانَ يَهُزُّ رَأسَهُ عَجَباً مِنْ هَذا الخُلُقِ فِي أبي سُفيَانَ . و لكنْ يَبْقَى هذا الرَّعِيلُ الأَسبَقُ الّذي صَحِبَ النَّبِيَّ مَضرِبَ المَثَلِ لِلنَّاسِ عَلى مَرِّ العُصُورِ ، فَالجَوانِبُ السَّلبِيَّةُ ذَرَّاتٌ فِي جِبَالٍ شَامِخَاتٍ و قَطَراتٌ فِي مُحيطَاتٍ هَادِرَاتٍ .

و لَقَدْ أَرادَ قَدَرُ هذا الدِّينِ العَظِيمِ أَنْ يُضيفَ إلى دُروسِ العَظَمةِ و البُطُولَةِ الَّتي يُلقِيها على البَشَرِيَّةِ بِأَسرِها دَرساً فَذّاً فِي الوَّفَاءِ بَطَلُهُ وَاحِدٌ مِنْ أُولئكَ الّذينَ صَاغَهُمْ الإسلامُ و رَبَّاهُمْ نَبِيُّهُ – عَلَيهِ الصَّلاةُ و السَّلامُ– أَمَامَ دَعِيٍّ أَفَّاكٍ لَمْ يَتَحلَّ بِأَدنى صِفَةٍ مِنْ صِفَاتِ الُمروءَةِ و العُروبَةِ و الرُّجُولةِ تَرُدُّهُ عَنْ ضَلالِهِ و غُرورِهِ إِذْ سَفَكَ دَمَ رَسُولٍ مُسَالمٍ يَحمِلُ رِسَالةً مَكتُوبَةً ، وَ هُوَ أَمرٌ كَانَتِ العَرَبُ تَحترِمُهُ و تُقَدِّسُهُ .

و هَذَا البَطَلُ هُوَ حَبيبُ بنُ زَيدٍ و ذَلكَ الدَّعِيُّ الأَفَّاكُ هُوَ مُسَيلَمَةُ الكَذَّابُ الّذي راحَ يُقَطِّعُ جَسَدَ رَسُولِ رَسُولِ اللهِ ((**قِطعَةً قِطعَةً ، وَ بِضْعَةً بِضْعَةً ، و عُضْواً عُضْواً ، و البَطَلُ العَظِيمُ لا يَزِيدُ على هَمْهَمَةٍ يُرَدِّدُ بِها نَشيدَ إِسْلامِهِ : لا إلهَ إلاّ اللهُ ، محمَّدٌ رَسُولُ اللهِ**))[1] .

و أَبَى عَلَيهِ إيمانُهُ وَ وَفَاؤُهُ أَنْ يَستَجيبَ لادِّعاءِ مُسَيْلَمَةَ بِأَنَّهُ رَسُولٌ . و نَالَ البَطلُ دَرجَةَ الشَّهادَةِ ، و ظَلَّ مَكَانُهُ فِي ذَاكِرَةِ التَّاريخِ ، و فِي ضَميرِ الحَياةِ بَطَلاً عَظيماً.

و أَمَّا الأَمانَةُ فَلَها المَنزِلَةُ الرَّفِيعَةُ فِي الإسلامِ ، و لَقَدْ بَلَغَ مِنْ مَنزِلَتِها أَنْ عَظُمَ حَمْلُهَا على مَخلُوقاتِ اللهِ الّتِي أَشْفَقَتْ مِنْهَا ثُمَّ حَمَلها الإنسانُ ، قالَ اللهُ عَزَّ و جَلَّ يُبَيِّنُ ذَلكَ : ((**إِنَّا عَرَضْنَا الأَمانَةَ عَلى**

[1] رجال حول الرسول ، خالد محمَّد خالد ، دار الفكر ، دمشق ، ط1416/2-1995 ص461

السَّمَوَاتِ و الأَرضِ و الجِبَالِ فأَبَينَ أَنْ يَحمِلنَها و أَشْفَقْنَ مِنْهَا و حَمَلَهَا الإنسانُ إنَّهُ كانَ ظَلُوماً جَهُولاً))[1] .

و أَمَرَ الإسلامُ بِالتَّعاوُنِ و التَّراحُمِ تَحقيقاً لِلتَّكافُلِ الاجتِماعيِّ الّذي يَضْمَنُ المُسْتَوى الإنسانيَّ الكَريمَ لكُلِّ إنْسَانٍ في المُجتَمَعِ الإسلاميِّ ، قالَ اللهُ تَعالى ((**و تَعَاوَنُوا عَلى البِرِّ و التَّقوى و لا تَعَاوَنُوا عَلى الإثمِ و العُدوانِ))**[2] .

وَ العِبَاداتُ الَّتي جَاءَ بِهَا الإسلامُ هَادِفَةٌ ، فمَا مِنْ عِبَادَةٍ إلاَّ وَ لَها هَدَفٌ شُرِعَتْ لِتَحقِيقِهِ . و مَا العِبَادَاتُ إلاّ سِياجٌ للأخلاقِ ، وَ حِفْظٌ لَهُ ، إذْ يَنْشَأُ عَنِ العِبَادَةِ شُعُورٌ بِمُراقَبَةِ اللهِ ، فَيَستَيقِظُ الضَّميرُ الإنسانيُّ الحَيَّ الّذي يُراقِبُ سُلُوكَ الإنسانِ ، و يَقَوِّمُ اعْوِجَاجَهُ ، و بِذَلكَ حَقَّقَ الخُلُقُ الإنسانيُّ الكَريمُ مَعْنَى البُطُولَةِ الإنسانيَّةِ في الفَردِ ، فَكَانَ خَلِيفَةَ اللهِ في الأَرضِ ، يقيمُ أَركَانَ العَدْلِ ، و يَنشُرُ الأَمنَ ، و السَّلامَ ، و المُسَاواةَ بَينَ النَّاسِ جَميعاً و الحُرِّيَّةَ مِنْ مَنْظُورٍ سَمَاويٍّ ((**فَالمُسَاواةُ و الحُرِّيَّةُ في المَنظُورِ الإسلاميِّ لا عَلاقَةَ لَهُما بالإنسانِ كَفَرْدٍ مُسْتَقِلٍّ بَلْ إنَّهُمَا مَظْهَرٌ مِنْ مَظَاهِرِ ارْتِبَاطِ الإنسانِ بالمُطلَقِ و نَتيجَةٌ لِهَذا (الحُضُورِ الإلَهِيِّ) في وُجْدَانِ الإنسانِ))**[3] .

إنَّ تِلكَ المفاهيمَ الوَضَّاءَةَ كَانَتْ مُناخاً لِلنَّماءِ الرُّوحيِّ لِعلاقاتِ المَوَدَّةِ و التَّعاطُفِ بِبُعْدٍ جَديدٍ كَريمٍ يُنْزِلُ النَّاسَ مَنَازِلَهُمْ و إنْ اخْتَلَفَتْ أَهواؤُهُمْ و مَشَارِبُهُمْ ، و بالتَّالي فإنَّهُ يُمكِنُنَا القَولُ : ((**لَقَدْ قَدَّمَتْ هَذهِ المفَاهيمُ أَعظَمَ تَحَدٍّ لِمُعاصِري مُحمَّدٍ مِنَ الكَّافِرينَ الّذينَ كَانُوا يُؤمِنُونَ أَنَّ النَّبالَةَ تَعتَمِدُ فقَطْ عَلى الحَسَبِ و النَّسَبِ))**[4]

---

[1] الأحزاب 72
[2] المائدة من الآية 2
[3] مَا يَعِدُ بِهِ الإسلامُ ، رُوجيه غَارودي ، ترجمة قُصي اتاسي و ميشيل واكيم ، دار الوثبة –دمشق ، ط2 ، 1983، ص101
[4] الصِّراعُ مِنْ أجلِ الإيمان ، د. جفري لانغ ، ترجمة د. منذر العَبسيّ ، دار الفكر ، دمشق ، ط1/ 1419 -1998 ، ص205

بُطُولاتُ الجِهَادِ في مَعْرَكَةِ بَدْرٍ :

لَمَّا تمكَّنَتْ عَقِيدَةُ الإيمَانِ مِنْ نُفُوسِ المُسْلِمينَ ، وَ تَهَيَّأَ لَهَا مَنْ يُدَافِعُ عَنْهَا ، وَ يَذُودُ عَنْ حَقِيقَتِها ، وَ ثَبَّتَ اللهُ أَقْدَامَ المُؤمِنينَ الشَّامِخَةَ على أَرْضِ العَقِيْدَةِ الصُّلْبَةِ نَزَلَ الوَحْيُ الإلَهِيُّ مُسْتَجيْبَاً لاسْتِئذَانِهِمْ رَسُولَ اللهِ في القِتَالِ دِفَاعَاً عَنْ أَنْفُسِهِمْ وَ عَقِيدَتِهِمْ بَعْدَ صَبْرٍ عَلَى العَذَابِ طَويلٍ : ((**إنَّ اللهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذينَ آمَنُوا إنَّ اللهُ لا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ * أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَ إِنَّ اللهَ عَلى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ**))[1] .

وَ كَانَتْ مَعرَكَةُ بَدْرٍ أَوَّلَ مَعْرَكَةٍ مِنَ المَعَارِكِ الفَاصِلَةِ في الإسْلامِ بَيْنَ الإيمَانِ وَ الشِّرْكِ ، وَ كَانَتْ ضَرْبَةً عَسْكَرِيَّةً وَ سِيَاسِيَّةً قَاصِمَةً يَتَلَقَّاهَا المُشْرِكُونَ . وَ قَدْ تَجلَّتْ في هَذِهِ المَعْرَكَةِ مَشَاهِدُ رَائِعَةٌ ، تَبْرُزُ فِيْهَا قُوَّةُ العَقِيْدَةِ وَ الثَّبَاتُ عَلى المَبْدَأ ، فَفِي هَذِهِ المَعْرَكَةِ التقَى الآبَاءُ بِالأَبْنَاءِ ، وَ الإخْوَةُ بالإخْوَةِ ، خَالفَتْ بَيْنَهُما المَبَادِئُ ، فَفَصَلَتْ بَيْنَهُمَا السُّيُوفُ ، وَ التَقَى المَظْلُومُ بظَالِمِهِ ، فَشَفَى مِنْهُ غَيْظَهُ .

كَانَتْ نُفُوسُ المُؤمِنِينَ مَلأَى بالمَزَايا وَ العَظَائِمِ وَ إِنَّهُمْ في هَذَا اليَومِ لَفِي مَزِيَّةٍ تَزِيْدُ حَيَاتَهُم أَلَقَاً وَ عَظَمَةً . وَ إِنَّ الرَّسُولَ في هَذا اليَوْمِ يُحَرِّضُ المُؤمِنينَ عَلى القِتَالِ ، وَ هُوَ يَقُولُ : ((**و الَّذي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ ، لا يُقاتِلُهُمُ اليَوْمَ رَجُلٌ فَيُقْتَلَ صَابِرَاً مُحْتَسِباً ، مُقْبِلاً غَيْرَ مُدْبِرٍ ، إلاَّ أَدْخَلَهُ اللهُ الجَنَّةَ، فَقَالَ عُمير بنُ الحُمَامِ أخو بني سَلَمَة ، و في يَدِهِ تَمَرَاتٌ يَأكُلُهُنَّ ؛ بَخْ بَخْ ، أَفَمَا بَيني وَ بَيْنَ أَنْ أَدْخُلَ الجَنَّةَ إلاَّ أَنْ يَقْتُلَني هَؤُلاءِ ، ثُمَّ قَذفَ التَّمراتِ مِنْ يَدِهِ وَ أَخَذَ سَيْفَهُ ، فَقَاتَلَ القَوْمَ حَتَّى قُتِلَ**))[2] . إِنَّهُ نَموذجٌ مِنَ القَامَاتِ العِمْلاقَةِ الَّتي رَأَيْنَا إِيْمَانَها وَ ثَبَاتَهَا ، وَ بُطُولاتِهَا ، وَ وَلاءَها للهِ و للرَّسُولِ .

انْجَلَتِ المَعْرَكَةُ عَنْ مَصْرَعِ عَدَدٍ كَبيرٍ مِنْ سَادَاتِ قُرَيشٍ ، وَ أَسْرِ عَدَدٍ كَبيرٍ مِنْهُمْ أَيْضَاً ، وَ كَانَتْ مَنْبَعَ فَخْرٍ لا يَنْضَبُ لِشُعَرَاءِ المُسْلِمِينَ ، وَ مِنَ الشُّعَرَاءِ الَّذِينَ شَغَلَهُمْ هَذَا النَّصْرُ العَظِيمُ حَسَّانُ بنُ ثَابتٍ –رضي اللهُ عَنْهُ – الَّذي بَدَأَ قَصِيدَتَهُ بالوقُوفِ عَلى الأَطْلالِ جرْيَاً عَلَى عَادَةِ الشُّعَرَاءِ في الجَاهِلِيَّةِ. وَ هِيَ عَادَةٌ لم يَسْتَطِعْ أَكْثَرُ شُعَرَاءِ الجَاهِلِيَّةِ الخُروجَ عَلَيْهَا وَ نَبْذِهَا :

عَرَفْتُ دِيَارَ زَيْنَبَ بِالكَثِيبِ   كَخَطِّ الوَحْيِ في الوَرَقِ القَشِيبِ

---

[1] الحجّ ، 38 ، 39 .
[2] السِّيرَةُ النَّبَوِيَّة ، ج1 ، ص687 ، 688 .

تَدَاوَلَهَا الرِّيَاحُ بكُلِّ جَوْنٍ		مِنَ الوَسْمِيِّ مُنْهَمِرٌ سَكُوبِ
فَدَعْ عَنْكَ التَّذَكُّرَ مُحَلَّ يَوْمٍ		وَ رُدَّ حَرَارَةَ الصَّدْرِ الكَئِيبِ [١]

إِنَّهَا وَقْفَةٌ مُتَكَلِّفَةٌ ، وَ حُشِرَتْ لِمَوْضُوعٍ لاَ تَحْتَمِلُهُ فِكْرَةُ النَّصِّ ، و تُلاَحَظُ فِيهَا بُرودَةُ العَاطِفَةِ وَ رَغْبَةُ الشَّاعِرِ في الخُرُوجِ مِنْ هَذِهِ الوَقْفَةِ سَرِيعاً إلى المَوْضُوعِ الأسَاسِيِّ الَّذِي هُوَ الفخْرُ بِمَا مَنَّ اللهُ عَلى المُؤمِنِينَ مِنَ النَّصْرِ العَزِيزِ :

وَ خَبِّرْ بالَّذي لاَ عَيْبَ فِيهِ		بصِدْقٍ غَيْرَ إخْبَارِ الكَذُوبِ
بمَا صَنَعَ المَلِيكُ غَدَاةَ بَدْرٍ		لَنَا فِي المُشرِكِينَ مِنَ النَّصِيبِ
غَدَاةَ كَأَنَّ جَمْعَهُمُ حِرَاءٌ		بَدَتْ أَرْكَانُهُ جِنْحَ الغُيُوبِ
فَوَافَيْنَاهُمُ مِنَّا بجَمْعٍ		كَأُسْدِ الغَابِ مُرْدَانٍ وَ شِيبِ
أَمَامَ مُحَمَّدٍ قَدْ آزَرُوهُ		عَلَى الأَعْدَاءِ فِي لَفْحِ الحُرُوبِ
بأَيْدِيهِمْ صَوَارِمُ مُرْهَفَاتٌ		وَ كُلُّ مُجَرِّبٍ حَاظِي الكُعُوبِ
بَنُو الأَوْسِ الغَطَارِفُ آزَرَتْهَا		بَنُو النَّجَّارِ فِي الدِّينِ الصَّلِيبِ
فَغَادَرْنَا أَبَا جَهْلٍ صَرِيعاً		وَ عُتْبَةَ قَدْ تَرَكْنَا بالجَبُوبِ
وَ شَيْبَةَ قَدْ تَرَكْنَا فِي رِجَالٍ		ذَوي حَسَبٍ إِذَا نُسِبُوا نَسِيبِ [٢]

وَ إِلَى فَخْرِهِ بالنَّصْرِ المُبِينِ يَفْخَرُ حَسَّانُ بِجُنْدِ اللهِ الَّذين بَدَوا كَأُسُودِ الغَابِ عَلى اختلافِ أَسْنَانِهِمْ ، وَ بِهَذِهِ الوَحْدَةِ الَّتِي جَمَعَتْ مَا بَيْنَ الأَوْسِ وَ بني النَّجارِ عَلَى طَرِيقِ الحَقِّ وَ الهُدَى وَ نُصْرَةِ النَّبيِّ وَ مَا جَاءَ بِهِ الدِّينُ القَوِيمُ .

وَ يَسْلُكُ الشَّاعِرُ حَسَّانَ مَسْلَكَ الشَّاعِرِ عَنْتَرَةَ ، فَهُوَ لاَ يَستَهِينُ بِجَيْشِ قُرَيْشٍ ، وَ لاَ يَضَعُ مِنْ شَأْنِهِ ، بَلْ يَصِفُهُ بالقُوَّةِ ، وَ شِدَّةِ البَطْشِ وَ كَثْرَةِ العَدَدِ ، لِيَكُونَ ذَلِكَ الانْتِصَارُ عَلَيْهِ أَدْعَى إِلى الفَخْرِ ، وَ أَكْثَرَ دَلاَلَةً عَلى الشَّجَاعَةِ و البُطُولَةِ ، فَالمُشْرِكُونَ لِكَثْرتِهمْ كَأَنَّهُمْ جَبَلُ حِرَاءَ ، وَ كُلُّهُمْ ذُو حَسَبٍ حَسِيبٍ ، وَ مَعَ ذَلِكَ انْتَصَرَ المُسْلِمُونَ عَلَيْهِمْ بِفَضْلِ شَجَاعَتِهِمْ وَ بُطُولَتِهِمْ .

وَ أَهَمُّ مَا تَمْتَازُ بِهِ القَصِيدَةُ صِدْقُ العَاطِفَةِ وَ حَرَارَتِهَا ، يَبْدُو ذَلِكَ فِي شَمَاتَةِ الشَّاعِرِ بِقُرَيشٍ لِمَا حَلَّ بِهَا مِنْ تَقْتِيلِ سَادَاتِهَا ، وَ حِرْصِ الشَّاعِرِ عَلى ذِكْرِ قَتْلاهَا بِأَسْمَائِهِمْ .

---

[١] ديوانُهُ ص 70 ، 71 .
[٢] ديوانه ص 71 ، 72 ، 73

وَ لَمْ يَنْسَ حَسَّانُ أَنْ يُوَشِّحَ قَصِيدَتَهُ بِبَعْضِ التَّشْبِيهَاتِ المَأْلُوفَةِ ، كَتَشْبِيهِ آثَارِ الدِّيَارِ بِالكِتَابَةِ ، وَ جَمْعِ المُشْرِكِينَ بِالجَبَلِ ، وَ جَمْعِ المُسْلِمِينَ بِأُسُودِ الغَابِ ، وَ إِذَا كَانَتْ هَذِهِ التَّشْبِيهَاتُ مِمَّا هُوَ مَأْلُوفٌ قَبْلَ حَسَّانَ وَ تَعَاوَرَهُ أَكْثَرُ الشُّعَرَاءِ ، فَإِنَّ حَسَّانَ بن ثَابِتٍ اسْتَطَاعَ أَنْ يُضْفِيَ عَلَى بَعْضِهَا جِدَّةً وَ طَرَافَةً وَ جَمَالاً بِمَا أَضَافَهُ إِلَيْهَا مِنْ خَيَالِهِ ، وَ ذَلِكَ فِي صُورَةِ جبل حِرَاءٍ وَ قَدْ غَرَبَتْ خَلْفَهُ الشَّمْسُ مُرْسِلَةً أَشِعَّتَهَا مِنْ خِلالِ قِمَمِهِ وَ شِعَافِهِ الَّتِي بَدَتْ لِذَلِكَ سَامِقَةً رَهِيبَةً .

وَ إِذَا قِيْسَ هَذَا النَّصُّ بِمَا عُرِفَ مِنْ نُصُوصِ العَصْرِ الجَاهِلِيِّ بَدَا أَثَرُ الإِسْلامِ وَاضِحَاً فيهِ ، وَ ذَلِكَ فِي بُعْدِ الشَّاعِرِ عَنِ الغَرِيبِ ، وَ إِيثَارِ السُّهُولَةِ وَ البَسَاطَةِ فِي الأَلْفَاظِ و التَّرَاكِيبِ ، حَتَّى لَتبدُوَ فِي بَعْضِ أَبْيَاتِهِ أَقْرَبَ إِلى لُغَةِ النَّثْرِ فيها إلى لُغَةِ الشِّعْرِ .

وَ نَعْثُرُ فِي النَّصِّ عَلَى بَعْضِ أَوْجُهِ الصَّنْعَةِ البَدِيعِيَّةِ ، كَالتَّصْرِيعِ فِي البَيْتِ الأَوَّلِ ، وَ المُطَابَقَةِ بَيْنَ (الصِّدْقِ وَ الكَذِبِ) وَ بَيْنَ (المُرْدَانِ و الشِّيْبِ) وَ لَكِنَّ ذلِكَ جَاءَ عَفْوَ الخَاطِرِ ، وَ لا نُحِسُّ مَعَهُ عُسْرَاً وَ لاَ رَهْقَاً .

وَ عَلَى الجُمْلَةِ يُعَدُّ هَذَا النَّصُّ نُمُوذجاً لشِعْرِ حَسَّانَ بنِ ثَابِتٍ بَعْدَ الإِسلاَمِ بِمَا امْتَازَ بِهِ مِنْ صِدْقِ العَاطِفَةِ ، وَ بُعْدٍ عَنِ الغَرَابَةِ ، وَ تَأَثُّرٍ بِالفِكْرِ الإِسْلامِيِّ الجَدِيدِ .

وَ هَذَا النَّصُّ وَ سِوَاهُ مِمَّا يُشَابِهُهُ يُمْكِنُ وَصْفُهُ بِأَنَّهُ لا يُستَنْفَدُ ، أي النُّصُوص الَّتِي تَكُونُ بِسَبَبٍ مِنْ فَعَّالِيتِهَا المُشِعَّةِ دَائِمَاً حَاضِرَةً فِي كُلِّ زَمَانٍ وَ مَكَانٍ ، وَ عَلى هَذَا يَقُومُ التُّراثُ الشِّعْرِيُّ الفَعَّالُ .

وَ فِي قَصِيدَةٍ أُخْرَى يُعَيِّرُ حَسَّانُ بنُ ثَابِتٍ الحَارِثَ بْنَ هِشَامٍ بِفِرَارِهِ يَوْمَ بَدْرٍ [1] وَ هُوَ مَنْ هُوَ شَجَاعَةً وَ بُطُولَةً ، لَقَدْ أَذْهَلَتْهُ بُطُولاتُ المُسْلِمينَ وَ أَدْهَشَتْهُ ، فَآثَرَ النَّجَاةَ عَلَى فَرَسٍ تَجري بِهِ سَرِيعاً ، وَ تَرَكَ قَوْمَهُ فِي شَرِّ مَكَانٍ :

إِنْ كُنْتِ كَاذِبَةَ الَّذِي حَدَّثْتِنِي	فَنَجَوْتَ مَنْجَى الحَارِثِ بْنِ هِشَامِ
تَركَ الأَحِبَّةَ لم يُقَاتِلْ دُونَهُمْ	وَ نَجَا بِرَأْسِ طِمِرَّةٍ وَ لِجَامِ
مَلأَتْ بِهِ الفَرْجَينِ فَارْمَدَّتْ بِهِ	وَ ثَوى أَحِبَّتَهُ بِشَرِّ مُقَامِ(1)

[1] العِقْدُ الفَرِيدُ ، ج1 ص144-145 ، و الأبياتُ في دِيوانِهِ ص419 ، وَ يُنْظَرُ نَبَأُ فِرارِ الحَارِثِ في شَرْحِ حَماسةِ أبي تَمَّام ، د. عليّ المُفَضَّل حَمُّودان ، مج1 ص180 ، وَ في السِّيرةِ النَّبويَّة ، ج2 ص794 .

وَ نَرَى بَرَاعَةَ التَّصْوِيرِ لِحَالَةِ فِرَارِ الفَارِسِ ، لقَدْ مَلأَتِ الفَرَسُ مَا بَيْنَ يَدَيْهَا ، وَ مَا بَيْنَ رِجْلَيْهَا حَضْرَاً وَ جَرْيَاً لِتُسْرِعَ بِفَارِسِهَا طَالِبِ النَّجَاةِ .

وَ يَتَنَصَّلُ الفَارِسُ الفَارُّ مِنْ فَعْلَتِهِ ، وَ يَحْتَجُّ لِنَفْسِهِ ، فَهُوَ لَمْ يُخلِّ مَكَانَهُ إلاَّ بَعْدَ كَسَتِ الدِّمَاءِ فَرَسَهُ ، وَ وَجدَ أَنَّ اسْتِمْرَارَ حُضُورِهِ فِي مَيْدَانِ المَعْرَكَةِ لَنْ يَقْهَرَ فَارِسَاً أَو يُوقِعَ بِهِ وَ لِهَذَا انْصَرَفَ عَنْ قِتَالِ الأَبْطَالِ المُسْلِمِينَ ، و تَرَكَ رَهْطَهُ وَ إِخْوَتَهُ يُلاَقُونَ القَتْلَ أَو الأَسْرَ ، طَامِعَاً فِي أَنْ يَعُودَ إِلى مُعَاقَبَةِ المُسْلِمِينَ فِي يَوْمٍ يُفْسِدُ عَلَيْهِمْ فَرْحَةَ النَّصْرِ :

اللهُ أَعْلَمُ مَا تَرَكْتُ قِتَالَهُمْ ... حَتَّى حَبَوا مُهْرِي بِأَشْقَرَ مُزْبِدِ
وَ عَرَفْتَ أَنِّي إِنْ أُقَاتِلْ وَاحِدَاً ... أُقْتَلْ وَ لا يُبكي عَدُوِّي مَشْهَدِي
فَصَدَدْتُ عَنْهُمْ وَ الأَحِبَّةُ فِيهِمُ ... طَمَعَاً لَهُمْ بِعِقَابِ يَوْمٍ مُفْسِدِ [1]

إِنَّهُ فَارِسٌ بَطَلٌ ، يُشْهِدُ الله عَلَى فِعْلِهِ البُطُولِيِّ أَمَامَ فِعْلٍ بُطُولِيٍّ أَعْلَى ، وَ هُوَ ما تَرَكَ القِتَالَ حَتَّى تَسَرْبَلَ جَوادُهُ بِالدَّمِ ، و قِتَالُهُ وَحِيداً دونَ جَوادٍ لَنْ يُغنِيَ عَنهُ شَيئاً ، لذلكَ انصَرفَ عَنِ القِتَالِ لَعَلَّهُ يُعِدُّ نَفسَهُ لِيَومٍ يَثأَرُ فِيهِ مِنَ الأَبطالِ المُسلمِينَ الّذينَ اعْتَرفَ بِبُطولتِهِمْ فِي البَيتِ الأَوَّلِ.

و يَرَى كعبُ بنُ مَالكٍ يومَ بَدْرٍ مِنْ أَيَّامِ اللّهِ ، يَجْلُو ظُلمَةَ الكُفرِ ، تَحقَّقَ فيهِ النَّصرُ الّذي وعَدَ اللهُ بِهِ نَبيَّهُ ، إِنَّهُ أَمرٌ مُحكَمٌ و لا رَادَّ لأَمرِ اللهِ ، و قَدْ خَابَ ظَنُّ قُرَيشٍ ، فلَمْ تَنَلْ مِنَ المُؤمنينَ وَطَراً ، و لَمْ يَعُدْ فَوارِسُها إليها بِمَا عَادَ جُندُ اللهِ الّذينَ آزَرَهُمْ جِبريلُ و ميكائيلُ و الملائكةُ يَسْبقُهمْ رَسُولُ اللهِ إلى أَمرِ اللهِ :

وَرَدَناهُ بِنُورِ اللهِ يَجلُو ... دُجَى الظَّلماءِ عَنَّا و الغَطَاءِ
رَسُولُ اللهِ يَقْدُمُنَا لأَمرٍ ... مِنْ امرِ اللهِ أُحْكِمَ بالقَضَاءِ
فَما ظَفِرَتْ فَوارِسُكُمْ بِبَدرٍ ... و مَا رَجَعُوا إِليكُمْ بِالسَّواءِ
فَلا تَعجَلْ أَبا سُفيانَ وَ ارْقُبْ ... جِيَادَ الخَيلِ تَطلُعُ مِنْ كَدَاءِ
بِنَصرِ اللهِ رُوحُ القُدسِ فيها ... و مِيكالُ فَيَا طِيبَ المَلاءِ [2]

---

[1] السيرة النبوية ج3 ص795.

[2] ديوان كعبِ بن مالكٍ الأنصاريِّ ، دراسة و تحقيق د. سامي مكّي الكّتّاني – عالم الكُتبِ – بيروت ، ط2 1417-1977 ص145 و يُنظَرُ ((البداية و النهاية لابن كثير ، تحقيق أحمد أبو ملحم و غَيرهِ ، دارُ الكُتب العلميَّة ، بيروت ، ط3 ، 1987 ، ج3 ص336.

إنَّهُ خِطابٌ شِعريٌّ بأُسلوبٍ جَديدٍ يَربطُ البُطُولاتِ المُنتصرةَ بإرادةِ اللهِ الّذي لا رَادَّ لأَمرهِ ، و يَثِقُ بِنَصْرٍ آخَرَ قَريبٍ تُفتَحُ فِيهِ مَكَّةُ لِكَلمةِ التَّوحيدِ.

و إنَّها بُطُولاتُ الصِّراعِ بَينَ الحَقِّ و البَاطِلِ ، و لكنَّ النَّبي – عَليهِ السَّلامُ – كانَ يَرَى نتيجةَ هَذا الصِّراعِ ، فَيَدُلُّ على مَصَارِعِ أَبْطَالِ قُرَيشٍ و صَنَادِيدِهَا.

وحِينَ آبتْ قُرَيشُ.و قَدْ ذَاقَتْ وَبَالَ أَمرِهَا إلى مَكَّةَ و قَدْ سِيقَتْ فُرسَانُها و أَبطَالُهَا إلى المَوتِ عَادَ شُعراؤُهَا إلى أَنفسِهِمْ و صَفَائِها يَسترجِعُونَ صُورَ القِتَالِ ، و يَذكُرونَ بَلاءَ أَبطَالِهِمُ الحَسَنَ ، الّذينَ لَمْ تُغنِ عَنهُمْ كَثرَتَهُمْ و عُدَّتَهُمْ . الشَّاعِرُ المَفجُوعُ عِبداللهِ بنَ الزِّبَعرَى وَقَفَ على أَبوابِ شَاعريَّتِهِ ، ثُمَّ وَلَجَها لِيُخرِجَ مِنهَا مَشَاعِرَهُ العَاطِفيَّةَ بِمَا فِيها مِنْ صِدقٍ و عَطَاءٍ . لَقَدْ رَثَى أَبَا جَهلٍ و مَنْ صُرِعَ مَعَهُ مِنْ صَنَاديدِ قُرَيشٍ ، و راحَ يُعَدِّدُ مَآثِرَهُمْ و مَنَاقِبَهُمْ:

مَاذَا عَلَى بَدرٍ و مَاذَا حَولَهُ؟ مِنْ فِتيَةٍ بِيضِ الوُجُوهِ كِرَامُ
تَرَكُوا نُبَيهاً خَلفَهُمْ و مُنَبِّهاً وَ ابنَيْ رَبيعَةَ خَيرَ خَصْمٍ فِئَامِ
و الحَارثُ الفَيَّاضُ يَبْرُقُ وَجهُهُ كَالبَدْرِ جَلَّى لَيلَةَ الإظْلاَمِ
و العَاصِيَ بنَ مُنَبِّهٍ ذَا مِرَّةٍ رُمحاً تَمِيماً غَيرَ ذِي أَوْصَامِ
تَنْمِي بِهِ أَعرَاقُهُ و جُدُودُهُ و مَآثِرُ الأَخْوَالِ و الأَعمَامِ
و إذَا بَكَى بَاكٍ فَأَعْوَلَ شَجْوُهُ فَعَلى الرَّئيسِ المَاجِدِ ابنِ هِشَامِ [١]

إنَّ الشَّاعرَ لا يَفجَأُ المُتَلقِّيَ بِمَا حَشَدَ في أبيَاتِهِ مِنْ فِكرٍ و مَعَانٍ و صُوَرٍ ، و إنَّ صِيغَةَ الاستِفهَامِ في مَطلَعِ النَّصِّ صَوتُ تَوجُّعٍ في أُصُولِهَا ، تَحفَّزَ الشَّاعرُ بَعدَهَا لإحدَاثِ شَيءٍ ما ، باتِّجاهِ الإثَارَةِ لِفِعلٍ يَتَحرَّكُ في أَعماقِهِ ، يَدفَعُهُ لِلتَّحرُّكِ على أَرضِ الوَاقِعِ ، أَو مسَاحَةِ النَّصِّ ، فَكَانَ مَوكِبُ الاستِعارَاتِ و التَّشبيهاتِ ، و سِرْبُ المَعَاني.

و يَدخُلُ الشَّاعِرُ ضِرارُ بنُ الخَطَّابِ الفِهريُّ المِنطَقَةَ الشِّعريَّةَ الَّتي دَخلَهَا ابنُ الزِّبَعرَى ، و يَمتَحُ مِنَ المَعينِ نَفسهِ ، و يَتَحرَّكُ في إطارٍ مِنَ العِبَارَةِ المَتَخيَّرَةِ المَشْحُونَةِ بالأَسَى ، و تَسْتَوفِي فِكَرَهُ في رِثَاءِ أَبي جَهلٍ عَمرو بنِ هِشَامٍ ، و تَمتَدُّ لِتَشْمَلَ مَا تَمَيَّزَ بِهِ مِنْ صِفَاتٍ ، فَهُوَ سَيِّدُ النَّادي في قُرَيشٍ ، كَرِيمُ

[١] شِعرُ عبداللهِ بن الزِّبَعرَى ، تحقيق د. يحيى الجُبوريُّ ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط2 1981/1401 ص 46 ، 47 في السِّيرةِ النَّبويَّةِ ، ج /ص 791 ، 792 ،الفِئامُ: الجماعاتُ مِنَ النَّاس، نَبيهٌ و مُنَبَّهٌ ابنَا الحجَّاجِ بن عامر بن حُذيفة ، ابنَا رَبيعَةَ بن عَبدِ شَمسٍ عُتبَة و رَبيعة ، الحارثُ: الحارث بن مُنبَّه بنِ الحجَّاج . التَّميمُ : هُنَا الطَّويلُ ، الأوصَامُ : العُيُوبَ ، المِرَّةُ : القُوَّةُ و الشِّدَّةُ ، فأعولَ : رفع صوته بالبكاء ، الشَّجن : الحُزن.

المَسَاعي ، غيرُ دَنِيءٍ و لا بَخِيلٍ ، و هُوَ البَطَلُ المِقدَامُ الّذي لَم يَبرَحْ مَوقِفَهُ في القِتَالِ ، ثَابتُ القَلبِ و القَدَمِ ، شَديدُ الإقدَامِ و الالتِحامِ بفُرسَانِ المُسلِمِينَ و أَبطَالِهِمْ ، حَتَّى تكسَّرَت رِمَاحُهُمْ في نَحرِ مَهرِهِ وأَكَلَتْ مِنْ لَحمِهِ و ظَلَّ الفَارِسُ البَطَلُ يَكُرُّ على فُرسَانِ المُسلِمِينَ و يَكُرُّونَ عَلَيهِ حتَّى ثَوَى صَرِيعاً ، و هكذا كَانَ دَأْبُهُ إنَّهُ أجرَأُ مِنَ الأَسَدِ حِينَ تَشتَجِرُ الرِّمَاحُ ، و يُنَادَى في السَّادَةِ الكَرَمَاءِ الشُّجعَانِ هَلُمُّوا إلى النِّزَالِ :

فَبَلِّغْ قُرَيشاً أَنَّ خَيرَ نَدِيِّهَا ... وَ أكرَمَ مَنْ يَمشِي بِسَاقٍ عَلى قَدَمْ
ثَوَى يومَ بَدرٍ رَهْنَ خَوصَاءَ رَهنُهَا ... كَرِيمُ المَسَاعي غَيرُ وَغدٍ و لا بَرِمْ
تَرى كِسَرَ الخَطِّيِّ في نَحرِ مَهْرِهِ ... لَدَى بَائِنٍ مِنْ لَحمِهِ بَيْنَها خِذَمْ
و مَا كَانَ لَيثٌ سَاكِنٌ بَطنَ بِيشَةٍ ... لَدَى غَلَلٍ يَجري بِبَطحاءَ في أَجَمْ
بأَجْرَأَ مِنهُ حِينَ تَختَلِفُ القَنَا ... و تَدْعَى نَزَالِ في القَمَاقِمَةِ البُهَمْ [1]

و ذَلكَ الوَصفُ لِبُطُولَةِ عَمرو بنِ هِشَامٍ و بَأْسِهِ و شَجَاعَتِهِ زَادَهُ الشَّاعِرُ رَوعَةً ، فإذا البَأسُ لَيسَ كَلاماً يُسَاقُ ، بَلْ هُوَ وَصفٌ يَجعَلُ المُتَلَقِّي يُحِسُّ بِمَا كَانَ يَدُورُ ، و إذا الجَوُّ صَهيلُ جِيَادٍ ، و حَمحَمةُ أَفراسٍ ، و رِمَاحٌ تَتَكسَّرُ ، و أبطالٌ صَرعَى ، و طَوَّعَ الشَّاعِرُ لُغَتَهُ لِيَبُثَّ أَحاسِيسَهُ بِشَكلٍ يَجعَلُنَا نُشَاطِرُهُ مَا يُحِسُّ بِهِ مِنْ قِيَمٍ ، و نَستَخلِصُ جَوانِبَ مِنَ المُثُلِ العُليا.

و بَعدَ أَنْ صَحَتْ قُرَيشٌ و شَاعِرُها مِنْ وَقعِ الهَزِيمَةِ المُرَّةِ رَاحَتْ تُعِدُّ العِدَّةَ لِلثَّأْرِ و الانتِقَامِ ، و هَا هُوَ يَتَوَعَّدُ بالثَّأْرِ على لِسَانِ قَومِهِ ، الّذينَ تَتُوقُ أَنفُسَهُمْ لِلمَوتِ أَبطالاً كَمَا مَاتَ رِجَالٌ مِنْ قَبلِهِمْ ، إنَّ الخَيلَ العِتَاقَ ، الطَّوِيلَةَ ، السَّرِيعَةَ ستَندَفِعُ بِهِمْ وَسْطَ الأَوسِ و الخَزرَجِ اندِفاعاً يَشفِي غليلَ فُرسَانِها بِالثَّأرِ للغِلِّ الكَامِنِ في صُدورِهِمْ ، و سَيَكرُّونَ الخُيُولَ المُثقَلَةَ بأَحمَالِها مِنَ الفُرسَانِ الدَّارِعِينَ و رِمَاحِهِمْ . و يَمضِي في الحَدِيثِ عَنْ أَبطالِ قُرَيشٍ ، فَهُمْ سَيَترُكُونَ أبطالَ المَدِينَةِ صَرعَى ، تَجتَمِعُ عَصَائِبُ أَسرَابِ الطُّيورِ حَولَهُمْ لِتَتَغذَّى مِنْ جُثَثِهِمْ حَتَّى لا يَجِدَ المُسلِمُونَ مِنْ وَلِيٍّ أَو نَصيرٍ إلاَّ الأَمَانِيَّ ، و سَوفَ يُخلِّفُونَ نِسْوَةً في المَدِينَةِ يَبكِينَ صَرعَاهُنَّ ، و يَنقَلِبُ لَيلَهُنَّ سَهَراً طَويلاً على أَجفَانِهِنَّ ، و تِلكَ عَادَةٌ قَدْ عُرِفَتْ عَنْ أَبطالِ قُرَيشٍ ، فَسُيُوفُهُمْ الخَبِيرَةُ بِمُجَالَدَةِ العَدُوِّ مَا زَالَتْ تَقْطُرُ دَماً مِنْ دِمَاءِ أَعدَائِهِمْ:

[1] ديوان ضرار بن الخَطَّابِ الفهري ، جمعه و حقَّقهُ و شرَحَهُ . د. فاروق اسليم ، دار صادر ، بيروت ط1 ، 1996 ، ص83 ، 84 . و في السيرة النَّبويَّة ج2 ص804 ، 805 ، الخَوصاءُ : البئر الضَّيِّقة ، البَرِمُ : البَخيلُ ، الخِذَمُ : قِطَعُ اللَّحمِ ، الغَلَلُ: المَاءُ الجاري في أصول الشَّجر ، القَمَاقِمَةُ : السَّادَةُ ، الكرماء واحدُهم قمقامٌ ، البُهمُ: الشجعان ، و الواحد بُهمَةٌ.

فَإنْ تَكُ قَتلَى غُودِرَتْ مِنْ رِجَالِنَا ... فَإنَّا رِجَالٌ بَعْدَهُمْ سَنُغَادِرُ
وَ تُردِي بِنَا الجُردُ العَناجيجُ وَسْطَكُمْ ... بَني الأَوسِ حتَّى يَشفِيَ النَّفسَ ثَائِرُ
وَ وَسْطَ بَني النَّجَّارِ سَوفَ نَكُرُّهَا ... لَهَا بالقَنَا و الدَّارِعِينَ زَوافِرُ
فَتُتْرَكُ صَرعَى تَعصِبُ الطَّيرُ حَوْلَهُمْ ... وَ لَيسَ لَهُمْ إلاَّ الأَمانيَّ نَاصِرُ
وَ تَبْكِيهُمُ مِنْ أَهلِ يَثرِبَ نِسْوَةٌ ... لَهُنَّ بِهَا لَيلٌ مِنَ النَّومِ سَاهِرُ
و ذَلكَ أَنَّا لا تَزَالُ سُيُوفُنَا ... بِهِنَّ دَمٌ مِمَّنْ يُحَارِبْنَ مَائِرُ [١]

إنَّ الشَّاعرَ التَقَتْ لَدَيهِ الفِكرَةُ بالمَعنَى بانقِلابِ تَصَوُّرِهِ الذِّهنيِّ لأَحاسيسِهِ إلى معنىً بتَحَوُّلِهِ إلى إدراكٍ عَقليٍّ مُجرَّدٍ ، ثُمَّ انتَهى إلى تَعبيرٍ صَبَّ في المَعنَى المُلائمِ لَهُ ، و المَعاني مَأْلوفَةٌ لا تَستَعصِي على فَهمٍ ، و لا إلى إجهادِ فِكرٍ للوُصُولِ إلى مَا أَرادَهُ الشَّاعرُ . و أَمسَكَ الشَّاعرُ بِزِمامِ صُوَرِهِ ، وَوَجَّهَهَا تَوجيهاً حَيثُ يُريدُ فِكرُهُ ، و استَطَاعَ أَنْ يَصِلَ إلينَا بِقُوَّةٍ .

بُطُولات مَعْرَكَةِ أُحُدٍ :

شَهِدَ العَرَبُ لِنَصْرِ المُسْلِمِينَ في مَعْرَكَةِ بَدْرٍ ، وَ تَحَرَّقَتْ قُرَيشٌ غَيْظَاً وَ حَنَقاً عَلى المُؤْمِنينَ الَّذينَ أَيَّدَهُمُ اللهُ بِنَصْرِهِ ، وَ اضطَرَبَتْ لِذَلِكَ الانْتِصَارِ ، وَ رَاحَتْ تَحْشُدُ قُوَاهَا جَهَاراً لِلنَّقْمَةِ وَ الثَّأْرِ القَاصِمِ لِمَا أَصَابَها فِي بَدْرٍ مِنْ مَأسَاةِ الهَزِيمَةِ ، وَ قَتْلِ صَنَادِيدِهَا الأَشْرَافِ ، وَ انْطَلَقَتْ تُؤَلِّبُ القَبَائِلَ وَ تُحَرِّضُهَا ، وَ تُثِيرُ حَفِيظَةَ الجَاهِلِيَّةِ فِي النُّفُوسِ ، وَ تُشْعِلُ فِيهَا العَدَاوَةَ وَ البَغْضَاءَ ، وَ تُنْفِقُ الأَمْوَالَ لإِعْدَادِ الجَيْشِ الَّذي يُدْرِكُ ثَأْرَهَا : ((**فَكَلَّمُوا أَبَا سُفْيَانَ بنَ حَرْبٍ وَ مَنْ كَانَتْ لَهُ فِي قُرَيشٍ تِجَارَةٌ** ، فقالوا : **يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ ؛ إنَّ مُحَمَّدَاً وَتَرَكُمْ ، وَ قَتَلَ خِيَارَكُمْ ، فَأَعِينُونَا بِهَذَا المَالِ عَلى حَرْبِهِ ، فَلَعَلَّنَا نُدْرِكُ مِنْهُ ثَأْرَنَا بِمَا أَصَابَ مِنَّا ، فَفَعَلُوا**))[٢] .

[١] ديوانه ص61 ، 62 ، و في السِّيرة النَّبويَّةِ ج2 / ص789-790 ، تُردي : تُسرعُ ، الجُردُ: الخيلُ العِتَاقُ القَصيراتُ الشَّعر ، العناجيجُ: عُنجوج و هو الطَّويلُ السَّريعُ ، زوافرُ : حاملاتٌ للثِّقلِ ، تَعصِبُ : تَجتَمِعُ عصَائبَ عَصَائبَ ، مائرٌ: سَائلٌ
[٢] السّيرةُ النّبويّةُ ، ج2 ، ص839 .

وَ قَدْ بَشَّرَ القُرْآنُ الكَرِيمُ بِأَنَّ الأَمْوَالَ الَّتِي أُنْفِقَتْ فِي الصَّدِّ عَنْ سَبِيْلِ اللهِ سَتَكُونُ حَسْرَةً عَلى مُنْفِقِيهَا ثُمَّ يُغْلَبُونَ : ((**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيْلِ اللهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ**))[1]

إِنَّ قُرَيْشاً بِثَرائِهَا وَ قُوَّةِ فُرْسَانِهَا وَ بَأسِهِمْ تَقِفُ فِي وَجْهِهَا القِلَّةُ الفَقِيرَةُ الَّتِي جَعَلَتْهَا حَرَارَةُ الإِيْمَانِ وَ قُوَّةُ اليَقِينِ مَضْرِبَ المَثَلِ فِي البُطُولَةِ . كَانَ كُلُّ مُؤمِنٍ مُعْتَزٍّ بِدِينِهِ بَطَلاً مِغْوَاراً يَعْدِلُ عَشَرَةً مِنَ المُشْرِكِينَ فِي قُوَّةِ بَأسِهِ ، وَ شِدَّةِ شَكِيمَتِهِ ، وَ صَبْرِهِ عَلى الجِهَادِ وَ البَلاءِ ، وَ فِي ذَلِكَ يَقُولُ اللهُ ﷻ: ((**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ المُؤمِنِينَ عَلَى القِتَالِ . إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عشرونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَينِ وَ إِنْ يَكُنْ مِنْكُم مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفاً مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ لاَ يَفْقَهُونَ**))[2]

فِئَتَانِ ، لِكُلٍّ مِنْهُمَا شِرْعَةٌ وَ مِنْهَاجٌ : فِئَةٌ بَاغِيَةٌ تَبْذُلُ مَا لَهَا لِتَئِدَ دَعْوَةَ الحَقِّ وَ الهُدَى فَلَمْ تُغْنِ عَنهَا أَموالُها و لا فُرسَانُها ، و أُخرى مُؤمِنَةٌ تَبْذُلُ النُّفُوسَ طَيِّبَةً لأنَّ تِلكَ النُّفُوسَ ارتَقَتْ بِأَصحابِها إلى أَعلى دَرَجاتِ الإيمانِ حتَّى أَمسَى مِنَ المُستَحيلِ أَنْ يُفصَلَ بَينَ ذَواتِهِمْ و بَينَ جَوهَرِ الإيمانِ الّذي مَلأَ جَوانِبَها ، لِذَلكَ كانَ أَصحابُهَا لا يُقيمُونَ وَزْناً لِلموتِ لَأنَّ لَهمْ مِساراً أَسمَى ، فَالمَوتُ فِي سَبيلِ اللهِ هُوَ أَعظَمُ البَشَائرِ بِالجَنَّةِ ، و فِي ضَوءِ هَذا الأمرِ العَظيمِ تَهاوَتْ رَهبَةُ المَوتِ فِي تِلكَ النُّفُوسِ ، و غَيَّرَتْ الغَايةُ العُظمى وَ هِيَ الظَّفرُ بِالجَنَّةِ مَعنَى النَّظَرِ إلى المَوتِ ، و إذْ جَعَلَتْهُ المَوقِفَ الّذي تَتَحقَّقُ فِيهِ الذَّاتُ على الوَجهِ الأَكمَلِ ، فَالجِنَانُ تَترَاءى تَحتَ ظِلالِ السُّيوفِ ، و تُفَتَّحُ أَبوابُها لأَصحابِ تلكَ النُّفوسِ العَظيمةِ لِيَخلُدُوا فِي النَّعيمِ المُقيمِ . و عَلى ضَوءِ البَيَانِ الإلهيِّ المُنهَمِرِ بُشرى فِي قَولِهِ تَعَالى ((**و لا تَحسبَنَّ الّذين قُتِلُوا فِي سَبيلِ اللهِ أَمواتاً بَلْ أَحياءٌ عِندَ ربِّهِمْ يُرزَقُونَ * فَرِحِينَ بِمَا آتاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ و يَستَبْشِرونَ بالّذينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلفِهِمْ أَلاَّ خَوفٌ عَليهِمْ و لا هُمْ يَحزَنُونَ * يَسْتَبْشِرونَ بِنعمَةٍ مِنَ اللهِ و فَضْلٍ و أنَّ اللهُ لا يُضِيعُ أَجْرَ المُؤمِنينَ**[3]))

عَلى ضَوءِ ذَلكَ البَيانِ بَاتَ مِنْ أَقْصَى أَمَانِي كُلِّ بَطَلٍ الخُروجُ مِنْ دَائرَةِ المَوْتِ المُحتَّمِ القَاهِرِ القَبيحِ و الدُّخُولِ فِي دَائرةِ المَوتِ الجَميلِ و الخُلودِ فِي ظِلالِ الجِنانِ بِسَلامٍ.

---

[1] الأنفال : 36
[2] الأنفال : 65
[3] آل عُمران : 169 ، 170 ، 171

عَمرو بنُ الجَمُوحِ زَعيمٌ مِنْ زُعَمَاءِ المَدينَةِ ، و سَيِّدٌ مِن سَادَاتِ قَومِهِ أرادَ بَنُوهُ أنْ يَحُولوا بَيْنَهُ و بَينَ الخُروجِ إلى الجِهَادِ في أُحُدٍ لِعَجْزِهِ المَاثِلِ في عَرَجِهِ الشَّديدِ ، فَذَهَبَ عَمروٌ إلى النَّبيِّ ﷺ يَتَوَسَّلُ إليهِ أنْ يَأْذَنَ لَهُ ، و قالَ لَهُ :((**يَا رَسُولَ اللهِ !إنَّ بَنِيَّ يُريدُونَ أنْ يَحبِسُونِي عَنِ الخُروجِ معَكَ إلى الجِهادِ ، وَ و اللهِ إنِّي لأَرجُوا أَنْ أَخطِرَ بِعَرجَتِي هَذهِ في الجَنَّةِ . و أمامَ إصرارِهِ العَظيمِ أَذِنَ لَهُ النَّبيُّ–عَليهِ السَّلامُ – بالخُروجِ ، فَأَخَذَ سِلاحَهُ ، و انطَلقَ يَخطِرُ في حُبُورٍ و غَبطَةٍ ،**

و دَعَا رَبَّهُ بِصَوتٍ ضَارِعٍ : ((**اللهُمَّ ! ارْزُقْنِي الشَّهادَةَ و لا تَرُدَّنِي إلى أَهلي**))[١]

و كَانَ هَذَا البَطَلُ يَخْتَالُ فِي سَاحَةِ المَعرَكَةِ ، و اللهُ سُبْحَانَهُ و تَعَالى يَقُولُ: ((**إنَّ اللهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُختالٍ فَخُورٍ**))[٢]. و عَمرو بنُ الجَموحِ لَمْ يَكُنْ مُختالاً إلاّ في تِلكَ اللَّحظَةِ ، قَبلَ المَعرَكَةِ فَرَحاً بإذْنِ رَسُولِ اللهِ ، و استبشاراً بالجَنَّةِ. ((**و كانَ عَمروٌ وَسْطَ المَعمَعةِ الصَّاخِبَةِ ، و معَ كُلِّ خَطْرَةٍ يَقطِفُ سَيْفُهُ رَأْساً مِنْ رُؤوسِ الوَثَنِيَّةِ** [٣]))0و قَدِ اسْتَجابَ اللهُ الكَريمُ دُعاءَهُ لِيَعلَمَ أهلُ الجَنَّةِ ((**أنَّ مُحمَّداً رَسُولُ اللهِ ﷺ يَعرِفُ كَيفَ يَختارُ الصّحابَ ، و كَيفَ يُرَبِّي الرِّجالَ** [٤])).

نَموذجٌ آخرُ لاختيارِ النَّبيِّ ﷺ هُوَ أبو دُجانَةَ الأنصاريُّ الّذي صَنَعَ قَاعدةً استثنائيةً لِلبطَلِ ،((و كانَ أبو دُجانَةَ رجلاً شُجاعاً يَختَالُ عِندَ الحَربِ ، إذا كانتْ ، و كانَ إذا أَعلَمَ بِعِصَابَةٍ لَهُ حَمراءَ ، فَاعتَصَبَ بِهَا عَلِمَ النَّاسُ أنَّهُ سَيُقاتِلُ ، فلَمَّا أخَذَ السَّيفَ مِن يَدِ رسُولِ اللهِ ﷺ أَخرَجَ عِصَابَتَهُ تِلكَ ، فَعَصَبَ بهَا رَأْسَهُ ، و جَعلَ يَتَبَختَرُ بَينَ الصَّفَّينِ . فقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حِينَ رأى أَبَا دُجانةَ يَتَبَختَرُ : ((**إنَّها لَمِشيَةٌ يُبغِضُها اللهُ ، إلاّ في مِثلِ هَذا المَوطِنِ** [٥])).

إنَّ لحظَةَ اللِّقَاءِ و المَوتِ الّتِي يتَلهَّفُ الفَارسُ البَطَلُ للانطِلاقِ إليها لَحظَةٌ تَختَزِنُ طَاقَاتٍ هَائلَةً مِنَ الإيمانِ تَسقُطُ فِيها السُّدودُ بَينَ البَطَلِ و أُمنِيَّتِهِ ، و هَذِهِ اللَّحظَةُ كَفيلَةٌ وَحْدَها بالتَّحريضِ و الإثارةِ الشَّاعرِيَّةِ .

و قَدْ رَسَمَ الشَّاعرُ كَعبُ بنُ مالكٍ صُورةً مُضيئةً لِتِلكَ الفِئةِ الّتي أَضاءَ في قُلوبِها الإيمانُ ، فَكانَ مَحَطَّ التَّضحيَةِ و الفِداءِ في سَبيلِ العَقيدَةِ ، لقَدْ أحسَنَتْ تِلكَ الفِئَةُ اسْتغلالَ سِرَّ هَاتِيكَ اللَّحظَةِ بِصِدقٍ طَمَعاً

---

[١] رجال حول الرسول ، ص455-456
[٢]
[٣] نَفسُهُ و ذاتُها
[٤] نفسه و ذاتها
[٥] السيرة النبوية ج 2 ص845

فِي الشَّهادَةِ ، و كُلُّ نَفسٍ مِنْ تِلكَ النُّفُوسِ الطَّيِّبةِ لا تُغوِي صَاحِبَها بِالارتِدادِ إلى الحَياةِ الحَافِلَةِ الّتي سَبَقَتْ تِلكَ اللَّحظَةِ طَاعَةً لِلهِ و للرَّسُولِ:

وَ فِينَا رَسُولُ اللهِ نَتْبَعُ أَمْرَهُ   إذا قالَ فِينَا القَوْلَ لا نَتَطَلَّعُ
نُشَاوِرُهُ فِيمَا نُرِيدُ وَ قَصْرُنَا   إِذَا مَا اشْتَهى أَنَّا نُطِيعُ وَ نَسْمَعُ
وَ قَالَ رَسُولُ اللهِ لَمَّا بَدَوا لنا   ذَرُوا عَنْكُمُ هَوْلَ المَنِيَّاتِ وَ اطْمَعُوا
وَ كُونُوا كَمَنْ يَشْرِي الحَيَاةَ تَقَرُّبَاً   إلى مَلِكٍ يُحْيَا لَدَيْهِ وَ يُرْجَعُ [1]

وَ يومَ الْتَقَى الجَمْعَانِ فِي غَزْوَةِ أُحُدٍ حَيْثُ خَرَجَتْ قُرَيشٌ عَلى بَكْرَةِ أَبِيها ، وَ مَعَهَا حُلَفَاؤُهَا مِنْ قَبَائِلِ العَرَبِ ((**وَ كَانَ زُعَمَاءُ قُرَيشٍ يَهْدِفُونَ بِمَعْرَكَتِهِمُ الجَدِيدَةُ هَذِهِ إلى رَجُلَينِ اثْنَينِ : الرَّسُولِ عَلَيْهِ صَلاَةُ اللهِ وَ سَلامُهُ ، وَ حَمْزَةُ ﷺ وَ أَرْضَاهُ**)) [2]

كَانَ حَمْزَةُ –ﷺ– يَتَوَسَّطُ أَرْضَ أرضَ المَوتِ و القِتالِ بَطَلاً ثابتاً ((**و رَاحَ يَصُولُ و يَجُولُ ، لا يُرِيدُ رأساً إلا قَطَعَهُ بِسَيْفِهِ ، و مَضَى يَضرِبُ فِي المُشرِكِينَ، و كأنَّ المَنايا طَوعُ أَمرِهِ ، يَقذِفُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ فَتُصِيبُهُ فِي صَمِيمِهِ** [3])).

و سَقَطَ أسَدُ اللهِ و رَسُولِهِ شَهِيداً مَجِيداً.

إنَّ صَحابَةَ رَسُولِ اللهِ الأبطالَ كَانُوا فِي أُحُدٍ فَوقَ التَّفوُّقِ و السُّموِّ و التَّأَلُّقِ ، و أَبياتُ كَعب بن مَالكٍ تُومِئُ إلى تِلكَ السِّماتِ ، و تَتَطَلَّعُ إلى سَمَائِهَا ، و لعَلَّ قُدرَتَهُ الشِّعريَّةَ اسْتَطَاعَتِ الإحاطَةَ بِتِلكَ العَظَمةِ:

فَجِئنَا إلى مَوجٍ مِنَ البَحرِ وَسطُهُ   أَحَابِيشُ مِنهُمْ حَاسِرٌ و مُقَنَّعُ
فَلمَّا تَلاقَيْنَا و دَارَتْ بِنَا الرَّحى   وَ لَيسَ لأَمرٍ حَمَّهُ اللهُ مَدْفَعُ
ضَرَبْنَاهُمُ حَتَّى تَرَكْنَا سَرَاتَهُمْ   كَأَنَّهُمُ بَالقَاعِ خُشبٍ مُصَرَّعُ
وَ رَاحُوا سِراعاً مُوجفِينَ كَأَنَّهُمْ   جَهَامٌ هَرَاقَتْ مَاءَهُ الرِّيحُ مُقْلِعُ
وَ رُحْنَا و أُخرانا بِطَاءٌ كَأَنَّنا   أُسُودٌ على لَحمٍ بِبِيشَةَ ظُلَّعُ
فَنِلْنَا و نَالَ القَومُ مِنَّا و رُبَّما   فَعَلنَا و لكنْ مَا لَدَى اللهِ أَوسَعُ

---

[1] دِيوانُهُ ، دار صادر ، بيروت ، ط1 1997 ، ص59-60 ، السّيرة النّبويّة ، ج2 ص914 .
[2] رِجَالٌ حَولَ الرَّسُولِ ، ص165 .
[3] نَفسهُ ص167

و نَحنُ أُنَاسٌ لا نَرَى القَتْلَ سُبَّةً عَلى كلِّ مَنْ يَحمي الذِّمارَ و يَمنَعُ
جِلادٌ عَلى رَيبِ الحَوادِثِ لا نَرى عَلى هَالِكٍ عَيناً لَنَا الدَّهرَ تَدْمَعُ
بَنُو الحَربِ لا نَعيَا بِشَيءٍ نَقُولُهُ و لا نَحنُ مِمَّا جَرَّتِ الحَربُ نَجزَعُ [١]

و نُلاحِظُ امتِداداً واضِحاً لِلشِّعرِ الجَاهليِّ في نَصِّ كَعبٍ لأنَّ تُراثَ الشِّعرِ الجَاهليِّ بِرَصيدِهِ الفَنِّيِّ الضَّخمِ وَجدَ فِيهِ الشُّعراءُ بعدَ الإسلامِ نَماذِجَ تُحتَذَى و تُغذِي مَواهِبَهُمُ الشِّعريَّةَ و اللُّغةِ و الإيقاعِ. و مَهما يَكُنْ مِنْ تَأَثُّرِ الشُّعراءِ الإسلاميِّينَ بأَساليبِ سَابِقيهِمْ فَإنَّ المُجتمعَ الإسلاميَّ الجَديدَ بَاعَدَ مُباعَدَةً بَيِّنَةً بَيْنَ رَوعَةِ الإحساسِ بَينَ هؤلاءِ و هَؤلاءِ ، فَمَشَاعِرُ الشُّعراءِ المُسلمينَ تَرفُلُ بلَبُوسٍ يَختالُ بِهِ الأبطالُ في خُطَا يَسْتَبدِلُون بهِ بإذنِ رَبِّهِمْ أثوابَ الخُلودِ في الجَنَّةِ يَرفُلونَ بهَا شُهَدَاءَ أَحياءَ عِندَ رَبِّهِمْ . هَذا هُوَ الشَّاعرُ الفَارسُ عبدُاللهِ بنُ رُواحةَ يَنطَلِقُ لِسَانُهُ عَذباً قَوِيَّاً بأُمنيَّتِهِ الَّتي يَتَمنَّاها أبطالُ المُسلمينَ جَميعُهمْ :

لَكنَّني أَسْأَلُ الرَّحمَنَ مَغْفِرَةً وَ ضَربَةً ذَاتَ فَرغٍ تَقذِفُ الزَّبَدَا
أو طَعنَةً بِيَدَي حَرَّانَ مُجهزَةً بحَربَةٍ تُنفِذُ الأحشَاءَ و الكَبِدَا
حَتَّى يُقالَ إذا مَرُّوا عَلَى جَدَثي: أَرشَدَهُ اللهُ مِنْ غَازٍ و قَدْ رَشَدَا [٢]

و قَدْ وَقَفَ الشُّعراءُ بَعْدَ أُحُدٍ عِندَ لَحظَةِ المَوتِ البُطُوليِّ ، يَسترجعونَ خِلالَ مَواقِفِ الاستِشهادِ صُوَرَ القِتالِ البُطُوليِّ الّذي آلَ إلى الظَّفرِ بِأَكرَمِ الحُسنَيَينِ ، و بِذَلكَ يُمسي المَأْتَمُ مَوقِفاً مِنْ مَواقِفِ الحَمِيَّةِ لِلبُطُولَةِ الحَقَّةِ و الشَّجاعةِ.

الشَّاعرُ كَعبُ بنُ مالكٍ انْغَرَسَ في انتِماءٍ وُجدانيٍّ إلى لَحظَةٍ تاريخيَّةٍ مُضيئةٍ أَشرَقَتْ مِنْ وَقعَةِ أُحُدٍ باستِشهادِ أَسَدِ اللهِ و رسولِهِ ، صانعِ البُطولاتِ العَجيبةِ ، فإذا بِارتباطِهِ بِتلكَ اللَّحظَةِ يُثْمِرُ تَمجيداً لِلبُطُولةِ في نَصٍّ تَحفِلُ أَلفاظُهُ بالدَّلالاتِ ، و تَتَواشَجُ حُروفُهُ في إيقاعاتٍ تَتبَنَّى نَفسيًّا شُعورَ المُسلمينَ الّذي خَلَّفَهُ ذَلكَ الحَدثُ العَظيمُ ، فجاءَ النَّصُّ وَحدَةً لا تَتَجزَّأُ في المَوضوعِ و الشُّعورِ و الدَّلالةِ:

وَ التَّارِكُ القِرْنَ الكَمِيَّ مُجَدَّلاً يَومَ الكَريهَةِ و القَنَا يَتَقصَّدُ

[١] ديوانه ص60-61-62 ، السيرة النَّبويَّة ، ج2 ، ص915
[٢] ديوان عبدالله بن رواحة الأنصاري . د. حسن محمد بَاجودَه – دار التارث ، القاهرة ، د.ت ، ص88

وَ تَراهُ يَرفُلُ فِي الحَديدِ كَأَنَّهُ ذُو لِبْدَةٍ شَثْنُ البَراثِنِ أَربَدُ
عَمُّ النَّبِيِّ مُحمَّدٍ و صَفِيُّهُ وَرَدَ الحِمَامَ فَطابَ ذَاكَ المَوردُ
وَ أَتى المَنِيَّةَ مُعلِماً فِي أُسرَةٍ نَصَرُوا النَّبِيَّ وَ مِنهُمُ المُسْتَشْهِدُ [1]

وَ لاَ سَبِيلَ لَنَا أَنْ نَتَتَبَّعَ مَا قَالَهُ الشَّاعِرُ هَا هُنَا ، وَ لَكِنْ لاَ يَفُوتُنَا أَنْ نُشِيْرَ إِلى التَّوقِيعِ عَلى النَّغْمَةِ الدِّينِيَّةِ، إِنَّهَا لَيْسَتْ حَرْباً يُؤَجِّجُهَا الطَّمَعُ بَيْنَ فِئَتَينِ مِنَ النَّاسِ ، بَلْ هِيَ فِي أَسَاسِهَا حَرْبٌ بَيْنَ دِيْنِ التَّوحِيدِ و الشِّرْكِ. وَ هَذَا اللَّونُ مِنَ الشِّعْرِ لا يُبْكِي وَ لاَ يُحزِنُ ، وَ لَكِنَّهُ يُمَجِّدُ و يُطْرِبُ وَ يُعْجِبْ.

وَ تِلكَ الجماعةُ الّتِي رَبَطتْ بَينَهُمْ نُصرَةُ اللهِ و رسولهِ حتَّى مَنَّ اللهُ عَليهِمْ بالشَّهادَةِ رَثَاها كَعبُ بنُ مَالكٍ ، و لكِنَّهُ أَسْبَغَ حَولَ لَحظَةِ الشَّهادةِ جَوَّاً بُطُولياً هُوَ النَّصْرُ كُلُّهُ عَلَى الرُّغْمِ مِنَ القَرْحِ الَّذي مَسَّ المُؤْمِنِينَ فَقَدْ كَانَتْ مَوْقِعَةُ أُحُدَ هَزَّةً عَنِيفَةً للأَبْطَالِ المُسْلِمِينَ ، إِذِ الْتَفَّ الأَبْطَالُ حَوْلَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عليه وَسَلَّمَ ، يُدَاوون الجِراحَ ، وَلَمْ يَفْقِدُوا القُدْرَةَ النَّفْسِيَّةَ وَ العَاطِفِيَّةَ عَلَى تَجَاوُزِ الهَزِيمَةِ بِإِدْراكِهُمُ العَمِيقِ لَهَا ، فَهِيَ لَمْ تكُنْ هَزِيمَةً ، بَلْ كَانَتْ قَرْحاً نَزَلَتْ بِهِ المُوَاسَاةُ السَّماوِيَّةُ الَّتِي خَفَّفَتْ مِنْ وَقْعِ القَرْحِ : ((**إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ القَوْمَ قَرْحٌ مِثْلَهُ**)) [2] .

لَمْ تَنْتَصِرْ قُرَيشٌ ، فَلَمْ تُقِمْ سُرَادِقَهَا فِي سَاحَةِ المَعْرَكَةِ لِتَحْتَفِلَ بالنَّصْرِ كَمَا هَيَّأَتْ فِي بَدْرٍ قَبْلَ المَعْرَكَةِ ، وَ لَمْ تَأْسِرْ أَسِيراً وَاحِداً ، وَ لَمْ تَغْنَمْ غَنِيمَةً ، بَلْ فَرَّت أَمَامَ المُسْلِمِينَ وَلَحِقَ بِهَا النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمْ – وَصَحْبُهُ الأَبْطَالُ ، وَ أَوْقَعُوا فِيهِمْ قَتْلى وَ جَرْحَى ، يَقُولُ كَعْبُ بنُ مَالكٍ ، فَيُحْسِنُ تَصْوِيرَ تِلْكَ البُطُولَةِ ، وَ يُجِيدُ تَحْلِيلَ الجَوَانِبِ النَّفْسِيَّةِ الَّتِي تَمَّمَتْ صُنْعَ بُطُولاتِ الشُّهَدَاءِ :

فَقَلْبُكَ مِنْ ذِكْرِهِمْ خَافِقٌ مِنَ الشَّوْقِ وَ الحُزْنِ المُنْضِجِ
وَقَتْلاهُمُ فِي جِنَانِ النَّعِيمِ كِرَامُ المَدَاخِلِ وَ المَخْرَجِ
بِمَا صَبَرُوا تَحْتَ ظِلِّ اللِّواءِ لِوَاءِ رَسُولِ اللهِ بِذِي الأَضْوُجِ
غَدَاةَ اسْتَجَابَتْ بِأَسْيَافِهَا جَمِيعاً بَنُو الأَوْسِ وَ الخَزْرَجِ
وَأَشْيَاعُ أَحْمَدَ إِذْ شَايَعُوا عَلَى الحَقِّ ذِي النُّورِ وَ المَنْهَجِ
فَمَا بَرِحُوا يَضْرِبُونَ الكُمَاةَ وَيَمْضُونَ فِي القَسْطَلِ المُرْهَجِ
كَذَلِكَ حَتَّى دَعَاهُمْ مَلِيكٌ إِلى جَنَّةٍ دَوْحَةِ المَوْلِجِ

---

[1] ديوانه ص160 ، البداية و النهاية ، ج4 ، ص60 ، يتقصَّدُ: يتكسَّرُ ، ذُو لِبدَة: الأسدُ . الأسرَةُ : الجماعة التي يَربطها أمرٌ مُشتركٌ
[2] آل عمران ، مِنَ الآية 140 .

فَكُلُّهُمْ مَاتَ حُرَّ البَلاءِ عَلَى مِلَّةِ اللهِ لَمْ يَحْرَجِ [1]

إنَّ النّصَّ يُشرِقُ مِنْ أُفُقٍ مُغايرٍ لِشِعرِ البُطُولةِ في الجاهليَّةِ ، إنَّ نَكهَةَ البُطُولَةِ و الإقدامِ و التَّضحيَةِ المُفعَمَةِ بالإيمانِ و التَّحدِّي لا تَكادُ تُغادِرُ بَيتاً مِنْ أبياتِ القَصيدَةِ .

هِيَ مَشَاعرُ و انفِعالاتُ قُرَيشٍ ، و هِيَ مَشَاعرُ الاعتِزازِ و الشَّماتَةِ ، و حُقَّ لَهُ أنْ يَعتَزَّ بهَذا النَّصرِ الّذي أَدرَكَهُ قَومُهُ ، و لكن أَنْ يَقِفَ مَوقِفَ الشَّامِتِ بِمَا أصَابَ المُسلِمينَ ، فهذا خُروجٌ عَنْ أخلاقِ الفُروسيَّةِ و البُطُولةِ العربيَّةِ.وَ تتكَرَّرُ مَعَاني البُطُولَةِ و الإقدامِ في شِعرِ عبدالله بنِ الزِّبَعرى ، و هُوَ يَتحدَّثُ عَمَّا تَرَكَهُ فُرسَانُ قُرَيشٍ بأبطالِ المُسلِمينَ ، و إنَّ مَعَانيَ القَصيدَةِ و نَسجَهَا و أَلفَاظَهَا أحكَمَهَا الشَّاعرُ للفَخرِ بِقَومِهِ ، مُستَشفِياً بمَا حَلَّ بِالمُسلِمينَ مِمَّا أصَابَ قُرَيشاً في بَدرٍ:

كَمْ تَرى بالجَرِّ مِنْ جُمجُمَةٍ وَ أَكُفٍّ قَدْ أُتِّرَتْ وَ رِجلْ
و سَرَابيلَ حِسَانٍ سُرِّيَتْ عَنْ كُمَاةٍ أُهلِكُوا في المُتَنَزَّلْ
كَمْ قَتَلنا مِنْ كَريمٍ سَيِّدٍ مَاجِدِ الجَدَّينِ مِقْدَامٍ بَطَلْ
صَادِقِ النَّجدَةِ قَرْمٍ بَارِعٍ غَيرِ مُلْتَاثٍ لَدَى وَقعِ الأَسَلْ
فَقَتَلنَا الضِّعْفَ مِنْ أَشرَافِهِمْ وَ عَدَلْنَا مَيْلَ بَدْرٍ فَاعتَدَلْ
بسُيُوفِ الهِندِ تَعلُو هَامَهُمْ عَلَلاً تَعلُوهُمُ بَعدَ نَهَلْ [2]

كَانَ لِوُلُوجِ الذَّاتِ الشَّاعرةِ إلى النَّصِّ الشِّعريِّ الأَثَرُ الأكبرُ في نَقلِهِ إلى مُستَوى أكثَرَ حَيَويَّةً و انتِماءً ، إنَّهُ الانتِقالُ إلى رُوحِ الجَماعَةِ ، و النَّزعَةُ التَّصويريَّةُ تَعكِسُ بِوُضُوحٍ سَيطَرَةَ الشَّاعرِ على المَعَاني ، و في تَشكيلٍ لُغويٍّ يَرتَبِطُ بالمسَارِ اللُّغويِّ المَألوفِ ، تَرَكَّزَ الأَداءُ الشِّعريُّ على الصُّورَةِ ، بإثارَةِ الحِسِّ البَصَريِّ مِنْ خِلالِ مُكوِّنَاتِ التَّصويرِ البَصَريِّ . و يُسبِغُ الشَّاعرُ صِفَاتِ البُطُولَةِ و الثَّبَاتِ و الفُروسيَّةِ على الأبطالِ المُسلِمينَ لِيَكُونَ ذَلكَ أَدعَى للافتِخَارِ بانتِصَارِ قُرَيشٍ.

---

[1] ديوانه ص32-33 ، السِّيرَةُ النَبَوِيَةُ ج2 ، ص 919 – 920 ، الأَضْوُجُ : جَمْعُ ضُوج وَ هُوَ جَانِبُ الوَادِي ، القَسْطَلُ : الغُبَارُ ، المُرْهَجُ الَّذي عَلَا في الجَوِّ .

[2] ديوانه ص43 ،44 ، السيرة النبوية ، ج2 ، ص917 ، الجَرُّ: موضِعٌ بِأُحُدٍ ، أُتِّرت : قُطِّعَت ، السَّرابيل: الدروع ، سُرِّيَت : جُرِّدَتْ ، المُتَنَزَّل : مَوضِعُ النِّزَال ، القَرْمُ : الفَحلُ الكريم ، البارع ، المُبرِّز على غيره ، مُلتَاثٌ : ضعيفٌ ، العَلَل: الشرب الثاني، و النهل : الشرب الأول . يريد الضَّربَ بَعدَ الضَّرب.

بُطُولاَتُ غَزْوَةِ الخَنْدَقِ :

انْسَحَبَ القُرَشِيُّونَ مِنْ أُحُدٍ وَ هُمْ يَقُولُونَ : ((**يَوْمٌ بِيومٍ وَ لَنَا مَعَكُمْ يَوْمٌ آخَرُ**)) وَ رَاحُوا يُضْمِرُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ العَوْدَةَ إِلى المَدِينَةِ المُنَوَّرَةِ بِقُوىً أَكْثَرَ عَدَداً وَ عُدَّةً ، وَ مَضَوا يُؤَلِّبُونَ القَبَائِلَ عَلى المُسْلِمينَ وَ يُؤازِرُ حِقْدَ قُرَيْشٍ كَيْدُ يَهُود بَني النَّضِيرِ الَّذِينَ أَجْلاَهُمُ النَّبِيُّ –ﷺ– عَنِ المَدِينةِ بنَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ ، وَ بَذَلُوا أَمْوَالَهُمْ عَلاَنِيَةً لِتَهْيِئَةِ ضَرْبَةٍ إِلى المُسْلِمينَ تَكُونُ قَاتِلَةً لاَ حَيَاةَ لِلْمُسْلِمينَ مِنْ بَعْدِهَا ، وَ لَمَّا لَمْ يَكُونُوا لِيَجْرُؤوا عَلَى مُنَاوَرَةِ المُسْلِمينَ . لَجَؤوا إلى التَّحريض (**وَ اسْتَجَابَتْ قُرَيْشٌ لِتَحْرِيضِ يَهُود ، فَخَرَجَتْ فِي أَرْبَعَةِ آلافِ مُقَاتِلٍ عَلى رَأسِهِمْ أَبُو سُفْيَانَ ، وَ اسْتَجَابَتْ غَطَفَانَ ، فَخَرَجَتْ فِي أَلْفٍ، وَ خَرَجَتْ قَبَائِلُ مِنَ العَرَبِ فِي خَمْسَةِ آلافٍ** [1])، وَ لأَنَّ بني النَّضِيرِ حَزَّبُوا قَبَائِلَ العَرَبِ عَلَى المُسْلِمينَ سُمِّيَتْ الغَزْوَةُ بِغَزْوَةِ الأَحْزَابِ .

لَمْ يُبَاغَتْ مُحَمَّدٌ –عليه السلام– وَ صَحْبُهُ بِزَحْفِ الأَحْزَابِ إِلى المَدِينَةِ إِذْ كَانُوا عَلى عِلْمٍ بِهِ فِي أَثْنَاءِ تَهْيِئَتِهِ. وَ أَدْرَكَ رَسُولُ اللهِ –ﷺ– أَنْ لاَ قِبَلَ لِلمُسْلِمينَ بِمُلاَقَاةِ المُشْرِكِينَ هَذِهِ المَرَّةَ فِي مَعْرَكَةٍ مَكْشُوفَةٍ بِعَدَدِهِمُ الجَمِّ الغَفِيرِ . مِنْ أَجْلِ هَذَا قَرَّ الرَّأْيُ عَلَى حَفْرِ خَنْدَقٍ حَوْلَ النِّقَاطِ الضَّيِّقَةِ مِنَ المَدِينَةِ المُنَوَّرَةِ لِمُقَاتَلَةِ المُشْرِكِينَ مِنْ وَرَائِهِ .

وَ حِينَ وَصَلَ المُشْرِكُونَ المَدِينَةَ لَمْ يَكُنْ فِي حُسْبَانِهِمْ أَنْ يُفَاجِئَهُمُ الخَنْدَقُ وَ يَحُولَ بَيْنَهُمْ وَ بَيْنَ بُغْيَتِهِمْ، وَ قَالُوا ((**هَذِهِ مَكِيدَةٌ مَا عَرَفَتْهَا العَرَبُ**)) .

وَ أَخَذَ المُشْرِكُونَ يَطُوفُونَ بِغَيْظِهِمْ حَوْلَ الخَنْدَقِ يَتَحَسَّسُونَ نُقْطَةً ضَعِيفةً لَعَلَّهُمْ يَنْحَدِرونَ مِنْهَا ، و المُسْلِمُونَ يَرْصُدُونَ جَوْلاتِهِمْ ، وَ يَرْشِقُونَهُمْ بالنَّبلِ ، حَتَّى لا يَجْتَرِئُوا على الاقْتِراب مِنَ الخَنْدَقِ ، فَلاَ يَسْتَطِيعُوا اقتِحَامَهُ أَو إِهَالَةِ التُّرَابِ عَلَيهِ لِيَجِدُوا طَرِيقاً فَيَعْبُرُوا .

وَ كَرِهَتْ طَائِفَةٌ مِنْ فُرْسَانِ قُرَيْشٍ أَنْ تَقِفَ عَاجِزَةً حَوْلَ الخَنْدَقِ ، لأَنَّ ذَلِكَ لم يَكُنْ مِنْ شِيَمِ العَرَبِ، وَ تَمَكَّنَتْ تِلْكَ الطَّائِفَةُ مِنَ الوُقُوعِ عَلى ثَغْرَةٍ ، فَاقتَحَمَتِ الخَنْدَقَ مِنْهَا ، وَ جَالَتْ بها خَيْلُهَا ، وِ خَرَجَ عَلِيُّ بنُ أَبِي طَالِبٍ –رضي الله عنه– فِي نَفَرٍ مِنَ الأَبْطَالِ المُسْلِمِينَ حَتَّى أَخَذُوا عَلى فُرْسَانِ قُرَيشٍ الثَّغْرَةَ الَّتِي أَقْحَمُوا مِنْهَا خَيْلَهُمْ ، وَ كَانَ فَارِسُ الجَزِيرَةِ العَرَبِيَّةِ عَمْرُو بنُ عَبْدِ وُدٍّ مُعْلِماً لِيُرَى مَكَانُهُ ، فَلَمَّا

---

[1] تُنظرُ السِّيرةُ النَّبويَّة ، ج2 ، ص1006 .

وَقَفَ هُوَ وَ خَيْلُهُ قَالَ مَنْ يُبَارِزُ ، فَبَرَزَ لَهُ عَليُّ بنُ أَبي طَالب – رضي الله عنه– فَدَعَاهُ إلى الإسْلاَم ، فَأَبى ، فَقَالَ لَهُ عَليٌّ ((**فَإنِّي أَدْعُوكَ إلى النِّزَالِ** ، فقَالَ لَهُ : **لِمَ يَا بْنَ أَخي؟ فَوَالله مَا أُحِبُّ أَنْ أَقْتُلَكَ** ، فقال لَهُ عَلِيٌّ : **لَكِنِّي و اللهِ أُحِبُّ أَنْ أَقْتُلَكَ ، فَحَمِيَ عَمْرٌو عِنْدَ ذَلِكَ ، فَاقْتَحَمَ عَنْ فَرَسِهِ ، فَعَقَرَهُ ، وَ ضَرَبَ وَجْهَهُ ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلى عَلِيٍّ ، فَتَنَازَلا وَ تَجاوَلا ، فَقَتَلَهُ عَلِيٌّ** رضي الله عنه ، **وَ خَرَجَتْ خَيْلُهُمْ مُنْهَزِمَةً حَتَّى اقْتَحَمَتْ مِنَ الخَنْدَقِ هَارِبَةً**))[1] . فَقَالَ عَلِيٌّ يُصَوِّرُ هَذَا المَوقِفَ البُطُولِيَّ أَمَامَ أَعْتَى فَارِسٍ في العَرَبِ :

فَغَدَوْتُ أَلْتَمِسُ الصِّرَاعَ وَ صَارِمٌ ... عَضْبٌ كَلَوْنِ المِلْحِ فِي أَقْرَابِ
عَرَفَ ابْنَ عَبْدٍ حِينَ أَبْصَرَ صَارِماً ... يَهْتَزُّ أَنَّ الأَمْرَ غَيْرُ لِعَابِ
أَرْدَيْتُ عَمْرَاً إذ طَغَى بِمُهَنَّدٍ ... صَافي الحَدِيدِ مُجَرِّبٍ قَصَّابِ
نَصَرَ الحِجَارَةَ مِنْ سَفَاهَةِ رَأيِهِ ... وَ نَصَرْتُ رَبَّ مُحَمَّدٍ بِصَوَابِي
فَصَدَرْتُ حِينَ تَرَكْتُهُ مُجَدَّلاً ... كَالجِذْعِ بَيْنَ دَكَادِكٍ وَ رَوَابي
لاَ تَحْسَبُنَّ اللهَ خَاذِلَ دِينِهِ ... وَ نَبِيِّهِ يَا مَعْشَرَ الأَحْزَابِ [2]

لَقَدْ لَوَّثَتْ حَمِيَّةُ الجَاهِلِيَّةِ بُطُولَةَ عَمْرِو بْنِ عَبْدِ وُدٍّ ، وَ لكِنَّ بُطُولَةَ عَلِيٍّ – رضي الله عنه– ازْدَانَتْ بِشَرَفِ الرُّجُولَةِ ، وَ عِفَّةِ الوَرَعِ ، وَ لَمْ تكُنْ قَطُّ في خِدْمَةِ زَهْوٍ شَخْصِيٍّ ، أَو هَوَىً مُنْحَرِفٍ ، بَلْ كَانَتْ خَالِصَةً لِنُصْرَةِ دِين اللهِ .

وَ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ لاَ غَرَوَ فِي أَنْ يَنْدُبَهُ رَسُولُ اللهِ فِي مَهَامِّ البُطُولَةِ الَّتِي تَتطَلَّبُ حَظَّاً وَافِرَاً مِنَ الجُرْأَةِ البَالِغَةِ وَ ضَبْطِ النَّفْسِ ، وَ كَفَى عَلِيَّاً فَخْرَاً بِذَلِكَ لأَنَّ فِيهِ مَا فِيهِ مِنَ الإِطْرَاءِ لِبُطُولَتِهِ ، وَ التَّزْكيةِ لِشَهامَتِهِ .

وَ هَذا النَّصُّ يُوَجِّهُهُ الإِمَامُ عَليٌّ البَطَلُ أَدَاةً لِحُرِّيَّةِ الإِنْسَانِ وَ تَحَرُّرِ فِكْرِهِ ، إنَّ الفَارِسَ البَطَلَ الَّذي امْتَلَكَ نَاصِيَةَ اللُّغَةِ أَعَادَ تَشْكِيلَهَا مِنْ جَدِيدٍ وِفْقَ عَلاَقَاتٍ جَدِيدَةٍ ، وَ قَدَّمَ صُوَرَاً شِعْرِيَّةً مَأْلُوفَةً ، وَ لَكِنَّهَا مُتَمَيِّزَةٌ لأنَّها تَحْمِلُ رُؤْيَةَ الشَّاعِرِ البَطَلِ وَ رُؤْيَاهُ ، وَ مَوقِفَهُ مِنْ أَهْلِ الشِّرْكِ وَ الضَّلاَلِ .

---

[1] السّيرة النبويّة ، ج2 ، ص1011 ، حَمِيَ : اشتَدَّ غَضَبُهُ .
[2] دِيوانُ الإِمام عَلِيٍّ رضي الله عنه ، شَرْح د. يوسف فرحات ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط5 ، 1418-1998 ، الحَدِيدُ : الخَالِصُ من كُلّ شَائِبة ، قَصَّاب : قاطع ، الدّكادك : جمع دكداك وَ هُوَ الرّمل اللين .

إنَّ أُسْلُوبَ النَّصِّ ، وَ أَرْكَانَ الجُمْلَةِ فِيهِ مَصْدَرٌ تُلْتَمَسُ فيهِ مَعَانِي الشَّجَاعَةِ وَ الإِقْدَامِ لِمَنْ أَدْمَنَ أَدَاءَ الفِعْلِ البُطُولِيِّ .

وَ فِي أَبْيَاتٍ جَاءَتْ صَدَىً لِمَا وَقَعَ فِي غَزْوَةِ الخَنْدَقِ يُوَظِّفُ الشَّاعِرُ كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ مَقْدِرَتَهُ الشِّعْرِيَّةَ تَوْظِيفاً يَرْتَبِطُ ارْتِباطاً مُبَاشَرَاً بالحَدَثِ العَظِيمِ ، وَ يُحَوِّلُهُ بحَرَارَةِ التَّجْرِبَةِ وَ صِدْقِهَا إِلى عُمْقٍ حَيَوِيٍّ يَرْشَحُ بِخُصُوصِيَّةٍ جَمَالِيَّةٍ يَكْتَسِبُ فِيهَا النَّصُّ طَبِيعَةً جَدِيدَةً وَ قُرْبَاً حَمِيمِيَّاً مِنَ الْمُتَلَقِّي ، يَقُولُ كَعْبٌ:

فِي عُصْبَةٍ نَصَرَ الإِلهُ نَبِيَّهُ — بِهُمُ وَ كَانَ بِعَبْدِهِ ذَا مَرْفَقِ
فِي كُلِّ سَابِغَةٍ تُخَطُّ فُضُولُهَا — كالنَّهْيِ هَبَّتْ رِيْحُهُ الْمُتَرَقْرِقِ
جَدْلاَءَ يَحْفِزُهَا نِجَادُ مُهَنَّد — صَافِي الحَدِيدَةِ صَارِمٍ صَارِمٍ ذِي رَوْنَقِ
نَصِلُ السُّيُوفَ إِذَا قَصُرْنَ بِخَطْوِنَا — قُدُمَاً وَ نَلْحَقُهَا إِذَا لَمْ تُلْحَقِ
وَ نُعِدُّ لِلأَعْدَاءِ كُلَّ مُقَلَّصٍ — وَرْدٍ وَ مَحْجُولِ القَوَائِمِ أَبْلَقِ
أَمَرَ الإِلَهُ بِرَبْطِهَا لِعَدُوِّهِ — فِي الحَرْبِ إِنَّ اللهَ خَيْرُ مُوَفِّقِ
لِتكونَ غَيْظَاً لِلْعَدُوِّ وَ حُيَّطَاً — لِلدَّارِ إِنْ دَلَفَتْ خُيُولُ النُّزَّقِ [١]

يُطِلُّ الْمَشْهَدُ الشِّعْرِيُّ لِيَرْسُمَ وَضْعَ جَيْشِ الْمُؤْمِنِينَ مُقَابِلَ الجَيْشِ الزَّاحِفِ مِنْ قُرَيْشٍ وَ أَشْيَاعِهَا ، وَ هَذَا الْمَشْهَدُ يُفْضِي إِلى وَصْفِ الحَرَكَةِ مَأْخُوذاً بِدَلاَلاتِ الصُّوَرِ الْمُخْتَزَنَةِ فِي الذَّاكِرَةِ الشَّاعِرَةِ وَ مُزْدَانَاً بِهَا مُحْتَفِلاً بِهَا احْتِفَالاً جَدِيداً . فَفِي قَوْلِهِ : نَصِلُ السُّيُوفَ إِذا قَصُرْنَ بِخَطْوِنَا ...

تَأَثَّرَ بِمَنْ سَبَقُوهُ ، قَالَ قَيْسُ بْنُ الخَطِيمِ :

إِذَا قَصُرَتْ أَسْيَافُنَا كَانَ وَصْلُهَا — خُطَانَا إِلى أَعْدَائِنَا فَنُضَارِبُ [٢]

وَ قَالَ الأَخْنَسُ بْنُ شِهَابٍ :

إِذَا قَصُرَت أَسْيَافُنَا كَانَ وَصْلُهَا — خُطَانَا إِلى القَوْمِ الَّذينَ نُضَارِبُ [٣]

فَوَصْلُ السُّيُوفِ بالخُطَا عِنْدَ الشَّاعِرِ الصَّحَابِيِّ بُطُولَةٌ صَادِقَةٌ فِي سَبِيلِ اللهِ ، لاَ فِي سَبِيْلِ حَمِيَّةٍ جَاهِلِيَّةٍ . وَ لاَ مَنْدُوحَةَ للشَّاعِرِ كَعْبٍ عَنِ الإِفَادَةِ مِنْ مَعَانِي آيَاتِ التَّنْزِيلِ الحَكِيمِ ، لَفْظَاً ، وَ صِيَاغَةَ صُورَةٍ

---

[١] ديوانه ، ص 195 ، 196
[٢] ديوانُهُ ص34 .
[٣] المُفضّلِيَّاتُ / ص27 .

و مَعْنَى ، وَ أَبْيَاتُ الشَّاعِرِ تُشِيرُ هُنَا إلى صِدْقِ التَّأَثُّرِ الَّذِي يَكْشِفُ عَنْ أَمْرٍ طَبِيعِيٍ لِقُرْبِ الشَّاعِرِ وَ أَمْثَالِهِ مِنَ القُرآنِ الكَرِيمِ ، إِنَّهُ يُشَكِّلُ لَوْحَةً شِعْرِيَّةً في الأَبْيَاتِ الثَّلَاثَةِ الأَخيرةِ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى:

((وَ أَعِدُّوا لَهُمْ ما اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَ عَدُوَّكُمْ وَ آخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمْ اللهُ يَعْلَمُهُمْ)) [١]

وَكَتَطَوُّرِ صُوَرِ الشَّاعِرِ يَبْدُو تَطَوُّرُ مُعْجَمِهِ إِذْ حَاوَلَ تَوظِيفَ المُفْرَدَاتِ فِي شِعْرِهِ لِتَعْمِيقِ دَلَالَاتِها وَ بِمَا يَتَّسِقُ مَعَ وَاقِعِيَّةِ الشِّعْرِ أَخْلَاقِيًّا وَ اجْتِماعِيًّا ، وَ تَدُورُ مُفْرَدَاتُ الشَّاعِرِ حَوْلَ بُطُولَةِ المُؤمِنِينَ وَ نَصْرِ اللهِ لِنَبِيِّهِمْ وَلَهُمْ ، وَ بِقَدْرِ مَا تَكُونُ اللُّغَةُ قَرِيبَةً مِنْ لُغَةِ مُمَارَسَةِ الفِعْلِ البُطُولِيِّ فَإِنَّهَا تَنْقُلُ الأَبْعَادَ المُعْجَمِيَّةَ لِلُّغَةِ إِلى أَبْعَادٍ دَلالِيَّةٍ تَسْمُو بِالنَّصِّ إِلى الشِّعْرِيَّةِ الخَالِصَةِ .

وَمَعَ أنَّ العَرَبِيَّ يَجِدُ الفِرَارَ مَعَرَّةً لا يُطِيقُهَا نَجِدُ عِكْرِمَةَ بنَ أَبِي جَهْلٍ يَلُوذُ بِأَذْيَالِهِ وُ هُوَ مُنْهَزِمٌ عَنْ نَصِيرِهِ عَمْرٍو حِيْنَ شَهِدَ لِقَاءَهُ مَعَ عَلِيٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَهَذَا لَم يَفْعَلهُ مِنْ قَبْلٍ ، فَقُوَّةُ الإِيْمَانِ أَمْضَى مِنْ كُلِّ سَيْفٍ ، وَ أَنْفَذُ مِنْ كَلِّ رُمْحٍ ، وَ تُبْطِلُ كُلَّ بُطُولَةٍ ، وَ تَبْهَتُ كُلَّ جَبَرُوتٍ ، وَ فِي ذَلِكَ يَقُولُ حَسَّانُ بنُ ثَابِتٍ :

فَفَرَّ وَ أَلْقَى لَنَا رُمْحَهُ	لَعَلَّكَ يَا عِكْرَمَ لم تَفْعَلِ
وَوَلَّيْتَ تَعْدُو كَعَدْوِ الظَّلِيمِ	مَا إِنْ تَجُورُ عَنِ المَعْدِلِ
وَلَمْ تَلْقَ ظَهْرَكَ مُسْتَأْنِساً	كَأَنَّ قَفَاكَ قَفَا فُرْعُلِ

وَ كَانَ الاعتِزازَ بِالبُطولةِ و القُوَّةِ و الحَضِّ على الثَّأرِ طَغَى على شِعرِ قُرَيشٍ في حُروبِها المُتَّصِلَةِ مَعَ المُسلِمينَ ، و كانَ لِتِلكَ المُواجَهاتِ الحَادَّةِ الأَثَرُ الأَكبَرُ في إِذْكَاءِ الشَّاعريَّةِ المَشبُوبَةِ بِعَواطِفِ شُعراءِ قُرَيشٍ. فَضِرارُ بنُ الخطَّابِ يَجعَلُ مِنْ إِشفَاقِ المَرأةِ الّتِي ذَهَبَتْ بِهَا الظُّنونُ كُلَّ مَذهَبٍ مَدخلاً إلى وَصفِ الكَتيبَةِ الّتِي قَادَها في غَزوةِ الخَندَقِ ، فَهِيَ شَديدةُ القُوَّةِ ، تَقديرُ عَدَدِهَا كَجَبَلِ أُحُدٍ ، دُروعُهَا كَامِلةٌ على فُرسَانِها مَعَ التُّروسِ مِنَ الجِلدِ ، ثُمَّ يَصِفُ المُواجَهَةَ البُطُولِيَّةَ بَينَ أَبطالِ المُسلِمينَ و أبطالِ قُرَيشٍ فكَأَنَّ صَوَلانَ الفُرسَانِ و جَوَلانِهِمْ مُصَافَحةٌ بَينَهُمْ عَبرَ الخَندَقِ الفَاصِلِ بَينَهُمْ ، و امتَدَّ حِصَارُ قُرَيشٍ لِفُرسَانِ المُسلِمينَ شَهراً كَامِلاً ، يَروحُ فُرسَانُهَا و يَغدُونَ مُدَجَّجِينَ بِأسلِحَتِهِمْ ، بِأيديهِمْ السُّيُوفُ الحَادَّةُ القَاطِعَةُ يَحتَزُّونَ بِهَا رُؤوسَ الأبطالِ المُسلِمينَ و مَجامِعَ عِظَامِهَا ، و لَولا أَنْ حَالَ

---

[١] الأنفال ، الآية 60 .

الخَندَقُ الّذي احْتَمَى خَلفَهُ فُرسَانِ المُسلِمينَ جَزَعاً و هَلَعاً مِنْ شِدَّةِ بُطُولَةِ فُرسَانِ الأَحزاب ، لَولا أَنْ حالَ هذا الخَندقُ بَينَ الجَمعَينِ لَدَمَّرَ أبطالُ قُريشٍ الأبطالَ المُسلمينَ تَدميراً ، لَقدْ لاذَ المُسلِمونَ بالخَندَقِ خَوفاً مِنَ المُشرِكينَ:

وَ مُشفِقَةٍ تَظُنُّ بنَا الظُّنُونا   و قَدْ قُدْنَا عَرَندَسَةً طَحُوَنا
كَأَنَّ زُهَاءِها أُحُدٌ إذا مَا   بَدَتْ أَركَانُهُ لِلنَّظِرِينَا
كَأَنَّهُمُ إذا مَالُوا وَ مِلنَا   بِبَاب الخَندَقَين مُصَافِحُونَا
فَأَحجَرْناهُمُ شَهراً كَرِيتاً   وَ كُنَّا فَوقَهُمْ كَالقَاهِرِينَا
نُرَاوِحُهُمْ و نَغدُو كُلَّ يَومٍ   عَلَيهِمْ في السِّلاحِ مُدَجَّجِينَا
بأَيدِينَا صَوَارِمُ مُرهَفَاتٌ   نَقُدُّ بهَا المَفَارِقَ و الشُّؤُونَا
فَلَوْلا خَندَقٌ كَانُوا لَدَيهِ   لَدَمَّنَا عَلَيهِمْ أجمَعِينَا
وَ لكن حَالَ دُونَهُمُ و كَانُوا   بِهِ مِنْ خَوفِنَا مُتَعوِّذِينَا [١]

لَقَدْ أَدَّى ضِرارُ بنَ الخطَّابِ هذِهِ الصُّوَرَ البَصَرِيَّةَ التي يمثِّلُ فيها ما تَمتَلِئُ بِهِ سَاحَةُ اللِّقَاءِ حتَّى تَكادُ هذه الصُّوَرُ أَنْ تَنسَحِبَ على جَيَشَانِ النَّفسِ إذا مَا تَقَصَّاهَا المُتَلقِّي ، فسَيطَرَةُ قُرَيشٍ كَما صَوَّرَها الشَّاعرُ تَامَّةٌ على مَيدَانِ المَعرَكَةِ ، و التِحَامُ الشَّاعرِ بمَضمُونِ الوَاقِعِ الّذي صَوَّرَهُ أَضفَى على الصُّورَةِ الشِّعريَّةِ مَوقِفَهُ الانفِعَاليَّ .

إنَّ البُطُولَةَ قَابَلَتِ البُطُولَةَ فِي الخَندَقِ ، و الفَارِسُ الشُّجَاعُ لَهُ بَلاؤُهُ فِي الأعداءِ ، و مَوتُهُ فِعلٌ فِي ابتِنَاءِ أَمجادِ قَومِهِ ، و تِلكَ قِيمَةٌ خُلُقِيَّةٌ تَحَلَّى بِهَا فَارِسُ الجَزيرَةِ العربيَّةِ عَمرو بنِ عبدِ وُدٍّ العَامِريِّ ، و مِثلُ تِلكَ القِيَمِ أَحقُّ بالرِّثَاءِ ، مُسَافِعُ بنُ عَبدِ مُنَافٍ بن وهَبٍ الجَمحِيُّ بَكَى هَذا الفَارِسَ ، فَأَظهَرَ فُروسِيَّتَهُ و بُطُولَتَهُ ، فَهُوَ بَطلٌ يُحسِنُ المُجالَدَةَ بالسُّيُوفِ ، بَلْهَ المُطاعَنَةَ بِالرِّمَاحِ ، كَما أظهَرَهُ ثَابِتَاً ، رابِطَ الجَأشِ ، و مِمَّا يُخَفِّفُ مِنْ أَلمِ الفَجيعَةِ فِي نُفُوسِ القُرشِيِّينَ أنَّ هذا البَطَلَ صُرِعَ على يَدِ بَطَلٍ لَهُ رَصِيدُهُ الحَقيقيُّ فِي مُمَارَسَةِ الفِعلِ البُطُوليِّ بمَهارَةٍ و أداءٍ فَعَّالٍ و فِي قَتلِ البَطلِ شَرَفٌ و مفخَرَةٌ لِخَصمِهِ البَطَلِ ، و هَذا مَا ظَفِرَ بِهِ عليٌّ – كرَّمَ اللهُ وَجهَهُ – يَقُولُ مُسَافِعٌ:

عَمرو بنُ عبدٍ كانَ أوَّلَ فَارسٍ   جزَعَ المَدَادَ و كَانَ فَارسَ بَلْيَلِ
سَمحُ الخَلائقِ مَاجِدٌ ذُو مِرَّةٍ   يَبغِي القِتَالَ بِشَكَّةٍ لَمْ يَنكَلِ

---

[١] ديوانه ،ص29 ، السيرة النبوية ، ج2 ، ص1041 ، 1042 .

و لَقَدْ تَكَنَّفَتِ الأسِنَّةُ فَارساً   بِجَنُوبِ سَلْعٍ غَيرَ نكسٍ أَمِيَلِ
فَاذْهَبْ عَلِيُّ فمَا ظَفِرتَ بمِثلِهِ   فَخراً و لا لاَقَيتَ مِثلَ المُعضِلِ
نَفسِي الفِدَاءُ لِفَارسٍ مِنْ غَالِبٍ   لاقَى حِمَامَ المَوتِ لَم يَتحلحَلِ [1]

إنَّ عَمرو بنَ عَبدِ وُدٍّ قُتِلَ بَطَلاً ، و لكِنْ قَتَلَ نَفسَهُ في غَيرِ وَجهِ حقٍّ إذْ أتبَعَ نَفسَهُ هَوَاهَا . و لَو وَجَّهَ هَذا الفارسُ البَطَلُ و غَيرَهُ مِنَ الأبطَالِ الّذينَ جُندِلُوا بسُيُوفِ المُسلِمِينَ وُجهَةَ الحَقِّ الّذي استَيقَنَتْهُ نُفُوسُهُمْ، لَكَانَ خَيراً لَهُمْ ، و لكِنَّهُمْ عَانَدُوا رَغبَةَ الحَقِّ فِيهَا كِبراً و بطَراً ، فَثَبَتُوا أمَامَ ذَلكَ الأَمرِ العَظِيمِ المُتمَثِّلِ في دَعَوةِ الخَيرِ ، و اسْتَهوَتْهُمْ رُوحُ مُقَاوَمَتِهَا ، يُرِيدُونَ إخضَاعَ القَدَرِ لإرادَتِهِمْ مَا دَامَ الصَّبْرُ لَمْ يَخْذِلهَا ، و لا يَهُمُّهَا عَدَاوَةُ الدَّهرِ و الخَيرِ و الجَمَالِ .

لَقَدْ تَجَسَّدَتْ فِي غَزْوَةِ الأَحْزَابِ البُطُولَةُ المُضِيئَةُ بِمَعَانِي الإِيمَانِ ، وَ المُؤَيَّدَةُ بِنَصْرِ اللهِ ، لَقَدْ أُيِّدَ كَعْبُ ابْنُ مَالِكٍ فِي تَصْوِيرِهِ الصَّادِقِ لِتِلْكَ البُطُولَةِ : نَصِلُ السُّيُوفَ إذا قَصُرْنَ بِخَطْوِنَا

أُيِّدَ بِثَنَاءِ النُّقَّادِ الَّذِينَ رَأَوا فِي البَيْتِ أَجْمَلَ تَصْوِيرٍ لأَعْلَى دَرَجَاتِ الشَّجَاعَة [2] وَ تِلْكَ البُطُولَةُ المُضِيئَةُ بِمَا يُرْضِي اللهَ وَ رَسُولَهُ بِجُنْدِهِ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُهُمْ إلاَّ هُوَ ، فَتَفَرَّقَتْ كَلِمَةُ الأَحْزَابِ ، وَ تَنَافَرَتْ قُلُوبُهمْ، ثُمَّ أَرْسَلَ اللهُ عَلَيْهِمُ فِي لَيْلَةٍ مُظْلِمَةٍ رِيحاً شَدِيْدَةً ، فَكَفَأَتْ قُدُورَهُمْ ، وَ اقْتَلَعَتْ أَوْتَارَ خِيَامِهِمْ ، فَوَلُّوا عَلَى وُجُوهِهِمُ هَاربينَ ، وَ تَرَكُوا مَا اسْتَثْقَلُوا مِنْ مَتَاعِهِمْ ، وَ فِي ذَلِكَ يَقُولُ اللهُ ﷻ :
((يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَ جُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا)) [3] لَمْ تَكُنْ مَعْرَكَةُ الأَحْزَابِ كَسَابِقَتَيْهَا : أُحُدٍ وَ بَدْرٍ ، إذْ لَمْ يَدُرْ فِيهَا قِتَالٌ بَيْنَ المُؤْمِنِينَ وَ المُشْرِكِينَ ، إلاَّ أَنَّهَا كَانَتْ مِنْ أَحْسَمِ مَعَارِكِ التَّارِيخِ الإِسْلامِيِّ ، آلَتْ إلى تَخَاذُلِ المُشْرِكِينَ وَ ارْتِدَادِهِمْ عَنِ المَدِينَةِ ، وَ فِي ذَلِكَ مَعْنىً و أَيُّ مَعْنىً! إنَّ الدَّعْوَةَ الإِسْلاَمِيَّةَ أَمْسَتْ فِي ذَلِكَ الحِينِ أَقْوَى مِنْ خُصُومِهَا جَمِيعاً مُتَظَاهِرِينَ ، وَ لَمْ يَعُدْ بِاسْتِطَاعَتِهِمْ اسْتِئْصَالُ جُذُورِ قُوَّتِهَا الضَّارِبَةِ فِي تُرْبَةِ المَدِينَةِ ، لأَنَّهُمْ لاَ طَاقَةَ لَهُم بِحَشْدِ مَا يَفُوقُ حَشْدَهُمْ فِي الأَحْزَابِ ، وَ لِذَلِكَ صَارَ المَكِّيُّونَ يَتَقَرَّبُونَ إلى الرِّسُولِ لإحْلالِ السَّلامِ مَا أَمْكَنَ بَيْنَ مَكَّةَ وَ المَدِينَةِ ، وَ فِي ذَلِكَ مَا يُوحِي بِاعْتِرَافِ قُرَيشٍ بِكَيَانِ

[1] السيرة النبوية ، ج2 ص1055 ، جَزَعَ : قطَعَ ، المَدَادُ : مَوضِعٌ في المدينة المنورة حيث حُفرَ الخندقُ ، بَلِيل : وادٍ بِبدرٍ ، الشَّكة : السِّلاح ، لم ينكُل : لم يرجع من هَيبةٍ أو خوفٍ ، النِّكس: الضعيف من الرِّجال،الأميَل: الذي لا رُمح أو لا تُرسَ معَهُ.
[2] يُنظر ديوانُ المعاني ، ص 115
[3] الأحزاب ، الآية 9 .

الدَّعْوَةِ فِي المَدِينَةِ ، وَ هُوَ كَيَانٌ لَهُ هَيْبَتُهُ فِي نُفُوسِ المُشْرِكِينَ ، وَ مِنْ هُنَا جَاءَ قَوْلُ النَّبِيِّ ﷺ **((الآنَ نَغْزُوهُمْ وَ لاَ يَغْزُونَنَا ، نَحْنُ نَسِيرُ إِلَيْهِمْ))**[1]

بُطُولاتُ فَتْحِ مَكَّةَ :

هُوَ الفَتْحُ الَّذِي بَشَّرَ بِهِ اللهُ نَبِيَّهُ بِقَوْلِهِ تَعَالى : ((**إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً * لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَ مَا تَأَخَّرَ وَ يُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَ يَهْدِيكَ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً**)) [2]

مَا كَادَتْ قُرَيشٌ تَلْتَزِمُ بِمِيثَاقِ الحُدَيْبِيَةِ حَتَّى نَكَثَتْ وَعْدَهَا لِلنَّبِيِّ ، وَ غَدَرَتْ غَدْرَاً صَرِيحَاً كَانَ سَبَباً نَالَتْ بِهِ مَا أَعَزَّهَا ، وَ طَهَّرَ مَكَّةَ مِنَ الوَثَنِيَّةِ .

لَيْلَةَ الفَتْحِ أَوْقَدَ المُسْلِمُونَ نِيرَاناً كَثِيرَةً أَلْقَتِ الرُّعْبَ فِي قُلُوبِ القُرَشِيِّينَ وَ أَيْقَنُوا أَنَّهُمْ لاَ قِبَلَ لَهُمْ بِجَيْشِ المُسْلِمِينَ ، وَ كَانَ صُلْحُ الحُدَيبية بُشْرَى بَيْنَ يَدَي الفَتْحِ ، إِنَّ بَصِيرَةَ الشَّاعِرِ حَسَّانَ بْنَ ثَابِتٍ أَدْرَكَتْ بُشْرَى هَذَا الفَتْحِ ، فَاسْتَبَقَ وُقُوعَ الحَدَثِ العَظِيمِ وَ تَحَقُّقَ المَوْعِدَةِ الَّتِي وَعَدَ اللهُ بِهَا نَبِيَّهُ ، فَصَوَّرَ دُخُولَ المُسْلِمِينَ مَكَّةَ المُكَرَّمَةَ فَاتِحِينَ بَعْدَ أَنْ مُنِعُوا عَنِ المَسْجِدِ الحَرَامِ مُعْتَمِرِينَ :

عَدِمْنَا خَيْلَنَا إِنْ لَمْ تَرَوْهَا ... تُثِيرُ النَّقْعَ مَوْعِدُهَا كَدَاءُ
يُبَارِينَ الأَعِنَّةَ مُصْعِدَاتٍ ... عَلَى أَكْتَافِهَا الأَسَلُ الظِّمَاءُ
تَظَلُّ جِيادُنَا مُتَمَطِّرَاتٍ ... تُلَطِّمُهُنَّ بِالخُمُرِ النِّسَاءُ
فَإِمَّا تُعْرِضُوا عَنَّا اعْتَمَرْنَا ... وَ كَانَ الفَتْحُ وَ انْكَشَفَ الغِطَاءُ
وَ إِلاَّ فَاصْبِرُوا لِجِلاَدِ يَوْمٍ ... يُعِزُّ اللهُ فِيهِ مَنْ يَشَاءُ [3]

تَبْدَأُ الأَبْيَاتُ بِجُمْلَةٍ دُعَائِيَّةٍ تَحْمِلُ مَعْنَى الفَخْرِ وَ التَّعْظِيمِ لِشَأْنِ الفَتْحِ ، وَ يُصَوِّرُ الشَّاعِرُ سُرْعَةَ انْطِلاَقَةِ الخَيْلِ بِقَوْلِهِ : تُثِيرُ النَّقْعَ ، وَ سُرْعَةَ انْطِلاَقَةِ الخَيْلِ ، وَ الدُّعَاءُ يُوحِيَانِ بِشِدَّةِ الحِرْصِ عَلى الجِهَادِ لإِعْلاَءِ كَلِمَةِ اللهِ .

[1] صحيحُ البخاريَ ، رقم الحديث 3883 .
[2] الفَتْحُ ، الآيتان 1-2
[3] دِيوانه ، ص60 ، 61 ، و يُروى البَيْتُ الثَّانِي في نُسْخَةٍ : يُبَارِينَ الأَسِنَّةَ ...

وَ في البَيْتِ الثَّاني صُورَةٌ لِلْخَيْلِ سَلْسَةَ القِيَادِ مَاضِيَةً لاَ تُلْوي على شَيْءٍ شَوْقَاً للقِتَالِ في سَبيلِ اللهِ ، أَوْ تُحَاوِلُ أَنْ تُسَابِقَ الرِّمَاحَ المُلْقَاةَ على أَعْنَاقِهَا ظَنَّاً مِنْهَا أَنَّ الأَسِنَّةَ تَجْري مَعَهَا. وَ يُصَوِّرُ تِلْكَ الرِّمَاحَ ظَامِئَةً ، مُتَشَوِّقَةً إِلى دِمَاءِ المُشْرِكينَ .

وَ فِي البَيْتِ الثَّالِثِ صُورَةُ الخَيْلِ مُسْرِعَةً جيئَةً وَ ذَهَاباً ، وَ النِّسَاءُ تَمْسَحُ العَرَقَ عَنْهُنَّ ، وَ يَنْفُضْنَ مَا عَلاَها لِمَا أَصَابَهَا مِنَ الجَهْدِ وَ مَا غَطَّاهَا مِنَ الغُبَارِ وَ العَرَقِ بَعْدَ أَنْ يَمُنَّ اللهُ عَلَى عِبَادِهِ بِالنَّصْرِ وَ الفَتْحِ .

وَ في البَيْتِ الرَّابعِ يُخَاطِبُ قُرَيْشاً قَائِلاً : إِنْ تَنحَّيْتُمْ عَنَّا ، وَ أَخْلَيْتُمْ طَريقَنا قَصَدْنَا إِلى بَيْتِ اللهِ الحَرَامِ وَ زُرنَاهُ مُعْتَمِرِينَ ، وَ تَحَقَّقَ مَا وَعَدَ اللهُ سُبْحَانَهُ نَبِيَّهُ -ﷺ- مِنْ نَصْرٍ بِفَتْحِ مَكَّةَ .

ثُمَّ يَنْتَقِلُ في البَيْتِ الأَخِيرِ إِلى تَهْدِيدِ قُرَيشٍ إِنْ تَعَرَّضَتْ لِلمُسْلِمِينَ فَلْتَستَعِدَّ لِحَربٍ ضَمِنَ اللهُ فيها النَّصْرَ لِعِبَادِهِ المُؤمنينَ ، وَ هُوَ الَّذي تَكَفَّلَ بنَصْرِ مَنْ وَالاهُ ، وَ هَزِيمَةِ مَنْ عَادَاهُ. وَ في البَيْتِ أُسْلُوبُ جَمِيلٌ وَ ذَلِكَ أَنَّ الشَّاعِرَ لَمْ يُصَرِّحْ فِيهِ بِمَنْ يُعِزُّهُ اللهُ ، وَ هُوَ -ﷻ- لاَ يُعِزُّ إلاَّ أَوْلِياءَهُ .

مَعَ صِلَةِ الشَّاعِرِ بالمَورُوثِ الشِّعْرِيِّ الجَاهِليِّ فَإِنَّهُ يَبْدُو شَدِيدَ الصِّلَةِ بالمَصْدَرِ القُرْآنيِّ ، فَكَمَا اهتَمَّ بالوقُوفِ عِنْدَ مَلَكَةِ خَيَالِهِ ، فَقَدِ اهْتَمَّ بالوُقُوفِ عِنْدَ مَادَّةِ إِسْلاَمِهِ ، وَ إِنَّ مُعْجَمَهُ اللَّفْظِيَّ لِيَبْدُو شَدِيدَ الاقْتِراب مِنَ الصِّيَاغَةِ اللَّفْظِيَّةِ للآيَةِ ، فَفِي قَوْلِهِ : ((**يُعِزُّ اللهُ فِيهِ مَنْ يَشَاءُ**)) نَجِدُهُ مُتَطَلِّعَاً إِلى قَوْلِهِ تَعَالَى : ((**وَ تُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَ تُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ**))[1]

في كُلِّ بَيْتٍ مَدَىً مَفْتُوحٌ لِقِصَصِ بُطُولَةِ الإِيمانِ ، وَ القَصِيْدَةُ هِيَ لَحْظَةُ الشُّمُوخِ الَّتي اعْتَرَتِ الشَّاعِرَ حَسَّانَ بنَ ثَابتٍ وَ الصَّحَابَةَ رِضْوَانُ اللهِ عَلَيْهِمْ ، إِنَّهَا في الحَقِيقَةِ شُعُورُهُمْ تُجَاهَ مَكَّةَ الَّتِي تَتَجَسَّدُ فِيهَا الآمَالُ وَ الأَحْلامُ فَمكَّةُ بشِعَابِهَا ، وَ وُدْيَانِهَا سِرُّ وُجُودِ هَذَا الكَائِنِ الحَيِّ الَّذِي يَتَحَرَّكُ في دَاخِلِ كُلِّ مُؤمِنٍ مُهَاجرٍ ، حَمَلُوهَا في قُلُوبِهِمْ ، وَ لَمْ تَكُنْ غَائِبَةً عَنْهُمْ لا في صَحْوَتِهِمْ ، وَ لاَ في مَنَامِهِمْ.

وَ مِمَّا صَوَّرَهُ النَّصُّ شَجَاعَةُ المَرْأةِ المُسْلِمَةِ ، وَ مُشَارَكتُهَا الرِّجَالَ في الحُرُوبِ :

((تُلَطِّمُهُنَّ بِالخُمُرِ النِّسَاءُ))

---

[1] آل عمران ، من الآية 26 .

وَ نَرَى فِي النَّصِّ تَعَاظُمَ أَثَرِ الشِّعْرِ فِي البِيئَةِ الجَدِيدَةِ ، فَقَدْ كَانَ أَكْبَرَ وَسِيْلَةٍ لِلدِّعَايَةِ وَ الدِّفَاعِ.

وَ يَتَجَلَّى فِي الأَبْيَاتِ – كَسَائِرِ قَصَائِدِ الَّذِينَ تَأَثَّرَ أَصْحَابُهَا بِالإِسْلَامِ – الارتِيَاحُ إِلى الجِهَادِ ، وَ الاطْمِئْنَانُ إِلى حُسْنِ المَصِيْرِ ، وَ هَذَا مَا لَمْ يَكُنْ مِنْ قَبْلُ فِي الشِّعْرِ ، بَلْ حَمَلَهُ الإِسْلامُ إِلى الشُّعَرَاءِ.

و هذهِ اللَّفتَةُ إلى الخَيلِ لَهَا قِيمَتُها الجَماليَّةُ ، فَتَلبيَةُ حَاسَّةِ الجَمَالِ ، وَ وُجدانِ الفَرحِ و الشُّعُورِ الإنسَانِيِّ بِتَلبيَةِ حَاجَةِ الجِهَادِ تُصَوِّرُ الخَيلَ جَميلَةَ الصُّورةِ ، خَفيفَةَ الحَركَةِ ، دَقيقَةَ التَّكوينِ ، يُضرَبُ بِهِ المَثَلُ و الشَّبَهُ بالجَمالِ و الخِفَّةِ ، و كَأَنَّها تَشعُرُ بِشُعورِ فَارِسِهَا البَطَلِ ، فَتُطِيعُ ، و تَندَفِعُ بِهِ لِتَترَاحَ الحُجُبُ و الحَواجزُ بَينَهُ و بَينَ مَا يُريدُ.

لَمْ يَكُنْ حَتْماً مَقْضِيَّاً عَلَى الشُّعَرَاءِ ، وَ مَا كَانَ مُنْتَظَراً مِنْهُمْ أَنْ يُنَاقِشُوا فِي مَوْقِفٍ كَهَذَا قَضِيَّةَ العَقِيدَةِ مَعَ المُشْرِكِينَ ، وَ لَمْ يَشَأْ أَحْدُهُمْ أَنْ يَصِلَ بِنَقَاءِ عَقِيدَتِهِ وَ مَبْدَئِهِ إِلى دَرَجَةٍ مِنَ التَّعْقِيدِ ، وَ قَدْ تَمَكَّنَ مَبْدَؤُهُ ، وَ الْتَزَمَهُ عَنِ اقْتِنَاعٍ .

كَانَ فَتْحُ مَكَّةَ فَتْحَ مَرْحَمَةٍ إِذْ تَجَلَّتْ بُطُولَةُ النَّبِيِّ الخُلُقِيَّةُ ، فَقَدْ دَخَلَ مُتَواضِعاً ، خَاشِعَاً ، وَ حَقَّقَ نَصْرَاً مَعْنَوِيَّاً بِعَفْوِهِ عَنْ أَهْلِ مَكَّةَ وَ نَوَاصِيهِمْ بِيَدَيْهِ ، وَ هُمُ الَّذِينَ آذَوْهُ وَ آذَوا أَصْحَابَهُ ،وَ أَخرَجُوهُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ ، فَقَالَ لَهُمْ : اذْهَبُوا فَأَنْتُمُ الطُّلَقَاءُ. وَ تَمَكَّنَ مَن اختَفَى مِنَ المُسْلِمينَ بِمَكَّةَ مِنْ إِظْهَارِ دِيْنِهِ، وَ الدَّعْوَةِ إِلَيْهِ ، وَ المُنَاظَرَةِ عَلَيْهِ ، وَ إِذَا كَانَتْ مَقُولَةُ النَّبِيِّ عَلى وَجْهِ الاسْتِعلاءِ وَ التَمَنُّنِ ، فَهُوَ الاسْتِعْلاءُ لِلَّهِ وَ هِيَ البُطُولَةُ لِإِحْقَاقِ الحَقِّ. إِنَّ هَذَا الضَّبْطَ فِي الخُلُقِ وَ المَشاعِرِ دَلالَةٌ كَرَأْدِ الضُّحَى عَلَى جَمَالِ الذَّوقِ فِي القَلْبِ وَ العَقْلِ خِلاَلَ التَّعَامُلِ مَعَ النَّفْسِ وَ مَعَ الآخَرِينَ ، لَقَدْ كَانَتْ أَخلاَقُ النَّبِيِّ –ﷺ– نُمُوذَجَاً لاَ نَظِيرَ لَهُ لِتَرْقِيَةِ الذَّوْقِ يَقْتَبِسُ منهُ الصَّحَابَةُ –رِضْوَانُ اللهِ عَلَيْهِمْ– ما يَرْتَقِي بِهِمْ إِلى أَكْمَلِ جَوَانِبِ الذّوقِ البَشَرِيِّ حَتَّى أَصْبَحُوا شُهَدَاءَ عَلى النَّاسِ خِلاَلَ تَرْبِيَةِ العَلاَقَاتِ الاجْتِمَاعِيَّةِ فِيمَا بَيْنَهُمْ .

تِلْكَ البُطُولَةُ الخُلُقِيَّةُ السَّامِيَةُ فَتَّحَتْ أَبْوَابَ الأَمَلِ وَاسِعَةً أَمَامَ الشَّاعِرِ كَعْبِ بْنُ زُهَيرٍ بَعْدَ أَنْ هَامَ عَلى وَجْهِهِ فَرَقَاً عَلى نَفْسِهِ مِنْ إِهْدَارِ الرَّسُولِ دَمَهُ ((بَعْدَ أَنْ آذَى النَّبِيَّ –ﷺ– بِهِجَائِهِ وَ أَذَى

المُسْلِمينَ ، وَ قَالَ عليه السلام : ((**مَنْ لَقِيَ مَنْكُمْ كَعْبَ بْنَ زُهَيْرٍ فَلْيَقْتُلْهُ**))[1] فَكَتَبَ بُجَيرُ بنُ زُهيرٍ إلى أخيهِ كَعبٍ يُخبِرُهُ بذلكَ ، فإذا رَغِبَ في السَّلامَةِ فَليَأْتِ رَسُولَ اللهِ مُسْتَأمِناً ؛ فَإنَّهُ لا يَقتُلُ أحَدَاً جَاءَهُ تَائِباً ، فقَدِمَ المَدينَةَ بَعدَ أَنْ ضَاقَتْ عَلَيهِ الأرضُ بما رَحُبَتْ ، ثُمَّ أَقبَلَ حَتَّى أَنَاخَ رَاحِلَتَهُ بِبَابِ مَسجدِ رَسُولِ اللهِ –ﷺ–و تَخطَّى الحِلَقَ حَتَّى جَلَسَ إلى اللهِ –ﷺ– فقالَ : يَا رَسُولَ اللهِ! الأَمانَ ، قالَ: وَ مَنْ أَنتَ ؟ قالَ : كَعبُ بنُ زُهيرٍ ، فقالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ –ﷺ– مَأمُونٌ و اللهِ . ثُمَّ أَنشَدَهُ:

بَانَتْ سُعادُ فَقَلبي اليَومَ مَتْبُولُ........[2]

استَهلَّ قَصِيدَتَهُ بالغَزَلِ ؛ ثُمَّ أَخَذَ يَصِفُ حَالَتَهُ وَ هُوَ هَائمٌ على وَجهِهِ ، لا يَجدُ لَهُ خَلاصَاً مِمَّا وَقَعَ فِيهِ ، و يَعتذِرُ لِلرَّسُولِ عَمَّا بَلَغَهُ عَنهُ ، رَاضِياً بِقَضَاءِ اللهِ و قَدَرِهِ بَعْدَ أَنْ ضَاقَ بِمَنْ تَخَلَّوا عَنهُ.

وَ قَالَ كُلُّ خَليلٍ كُنتُ آمَلُهُ ... لا أُلهِيَنَّكَ إِنِّي عَنْكَ مَشْغُولُ
فَقُلتُ: خَلُّوا سَبيلي لا أَبالَكُمُ ... فكُلُّ مَا قَدَّرَ الرَّحمنُ مَفْعُولُ
نُبِّئتُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ أَوعَدَنِي ... وَ العَفوُ عِندَ رَسُولِ اللهِ مَأْمُولُ
مَهْلاً ، هَدَاكَ الّذي أَعطَاكَ نَافِلَةَ ... القُرآنِ فيها مَواعيظٌ و تَفصيلُ
لا تَأخُذَنِّي بِأَقوالِ الوُشَاةِ ، و لَمْ ... أُذْنِبْ ، وَ إنْ كَثُرَتْ فِيَّ الأَقَاويلُ
لَقَدْ أَقُومُ مَقَاماً لَوْ يَقُومُ بِهِ ... أَرَى وَ أَسْمَعُ مَا لَوْ يَسْمَعُ الفِيلُ
لظَلَّ يَرْعُدُ إلاَّ أَنْ يَكُونَ لَهُ ... مِنَ الرَّسُولِ بإذْنِ اللهِ تَنْوِيلُ
حَتَّى وَضَعتُ يَميني لا أُنازِعُهَا ... في كَفِّ ذِي نَقِمَاتٍ قِيلُهُ القِيلُ[3]

بَعدَ أَنْ يَعرِضُ كَعبٌ إيمانَهُ بِقَاءِ اللهِ و قَدَرِهِ ، يَعرِضُ مُبَرِّرَ اطمِئنَانِهِ الّذي لا يَتعارَضُ مَعَ قُوَّةِ رَسُولِ اللهِ ، وَ يَسْتَرُوحُ أَنسَامَ الأَمَلِ في عَفْوِ رَسُولِ اللهِ و رَحمَتِهِ : ((و العَفْوَ عِندَ رَسُولِ اللهِ مَأْمُولُ)) وَ لَوْ قَضَى بالانتِقَامِ مِنْهُ لكَانَ قَضَاؤُهُ الحَقَّ ، و قَولُهُ الفَصْلُ ، و ذَلكَ لِيَقيسَ عَظَمَةِ ذَنبِهِ وَ خَوفِهِ بِسعَةِ عَفْوِ رَسُولِ اللهِ و حِلمِهِ . وَ الصُّورَةُ الّتي سَاقَهَا في قَولِهِ : ((لَقَدْ أَقُومُ ، تَحمِلُ مَعنَى الخَوفَ و الاضطرابِ أَشَدَّ مَا يَكُونَانِ ، كَما تَحمِلُ الأَبياتُ استِعطافَ كَعبٍ المُؤثِّرَ ، نَرَاهُ في : مَهلاً هَدَاكَ الّذي أَعطَاكَ نَافِلَةَ القُرآنِ)) و ((لا تَأْخُذَنِّي بِأَقوالِ الوُشَاةِ ،)) وَ ((لَمْ أُذنِبْ و إنْ كَثُرَتْ فِيَّ الأَقاويلُ)).

[1] الأغاني ، تحقيق . مُحمَّد عليّ البَجَاوِيّ وَ إشراف مُحمّد أبو الفضلِ إبراهيم – الهَيئةُ المِصريّة العَامّة للتَّأليف و النّشر – القَاهرة 1389 / 1970 ، ج17 ، ص86 – 87 .

[2] نفسه ص 87

[3] شَرحُ ديوان كَعبِ بن زُهير ، صنعةُ الإمامِ الحَسَنِ بنِ الحُسَينِ بن عبداللهِ السُّكَّرِيِّ ، دَارُ الكُتب المِصريَّةِ ، القاهرة ، 1369-1950 ، ص89 ، و ينظَرُ كتابُ مُنتَهى الطَّلب مِنْ أشعارِ العَرب ، مج1 ، ص81-82

و في التّكرارِ على مُستوَى اللّفظِ كرّرَ الشّاعرُ لَفظَ الرَّسُولِ ، طلباً لِعَفوهِ ، و التِماساً لِلينِ قَلبِهِ.

و اتّسَمَتْ لُغَةُ كَعبٍ بالصِّدقِ و عُمقِ الدّلالَةِ المُنبَثِقَةِ عَنْ وُضُوحٍ في مُعطَياتِ النَّصِّ الشِّعريِّ القائِمِ على اعتِذَارِ الشّاعرِ إلى النّبيِّ و شَفيعُهُ في ذَلكَ ثِقَتُهُ في الفَضَائلِ الرّاسِخَةِ الثّابتَةِ الّتي كوّنَتْ شَخصيَّةَ النّبيِّ عليهِ السّلامِ . و في دِفَاعِهِ عَنْ نَفسهِ تجلّتْ حَاجَةُ الشّاعرِ عَنِ الإفصَاحِ عمّا يُعانيهِ بتَعابيرَ تُبدي خُلاصَةَ المُعانَاةِ الّتي ولّدَهَا الصِّراعُ بَينَ عَالَمِهِ الدّاخِليِّ ، و عَوالِمَ خَارجيَّةٍ مِثاليَّةٍ تَحمِلُ التّصَوُّرَ الفِكريَّ الّذي يَحمِلُهُ النّبيُّ وَ صَحْبُهُ.

و في لَوحَةٍ شِعريَّةٍ أُخرى و في النّصِّ نَفسهِ يُظهِرُ الشّاعرُ شَجاعَةَ النّبيِّ –ﷺ– و بُطولَتَهُ في إحقاقِ الحَقِّ ، هُوَ و مَنْ التَفَّ حَولَهُ مِنْ فِتيَةٍ آمَنُوا باللهِ و رَسُولِهِ ، فَمَا أَعظَمَ رَسُولَ اللهِ ! إنّهُ لَنُورٌ سَاطِعٌ ، أَرسَلَهُ اللهُ لِيُضيءَ السَّبيلَ ، و يُبَدِّدَ الظُّلُماتِ ، و هُوَ سَيفٌ أَصْلَتَهُ اللهُ لِيَقضِيَ على المُشرِكِينَ . و الّذينَ هَاجَروا مَعَهُ إلى المَدينَةِ كَانُوا نِعْمَ الأَبْطَالِ ؛ فَهُمْ أَشِدَّاءُ ، شُجْعَانٌ ، ثُبُتٌ عِنْدَ اللِّقَاءِ ، وَ لا يَرْتَدُّونَ مُنْهَزِمِينَ ، وَ لاَ هُمْ عُزْلٌ لَمْ يُعِدُّوا لِلْحَرْبِ عُدَّتَهَا . أَلاَ مَا أَعَزَّ نُفُوسَ هَؤلاَءِ الأَبْطَالِ! وَ مَا أَعْلَى أَنَفَتَهُمْ! إِنَّهُمْ لاَ يَتَوَانَوْنَ ، وَ لاَ يَتواكَلُونَ عِنْدَ اللِّقَاءِ ، لِباسُهُمْ يَوْمَ الحَرْبِ الدُّرُوعُ المُحْكَمَةُ الصُّنْعِ . وَ فَوقَ ذَلِكَ لاَ تَخِفُّ أَحْلاَمُهُمْ ، فَإذا ما انْتَصَرُوا عَلَى قَوْمٍ ، وَ أَصَابُوا مِنْهُمْ مَقْتَلاً ، لم تَأخُذْهُمْ نَشْوَةُ الظَّفَرِ ، كما أَنَّهُمْ لاَ يَجْزَعُونَ إِذَا أُصِيبُوا ، وَ إذا دَارَتْ عَلَيْهِمُ الدَّائِرَةُ لَمْ يَذْهَبِ الرَّوْعُ بِأَلْبَابِهِمْ لِرَباطَةِ جَأشِهِمْ. وَ هُمْ يُمَثِّلُونَ ذِرْوَةَ الفُرُوسِيَّةِ ، وَ يُجَسِّدُونَ قِمَّةَ البُطُولَةِ ، يَتَلَقَّونَ الطَّعْنَ بِصُدورِهِمْ لاَ بِظُهُورِهِمْ كما يَفْعَلُ الجُبَنَاءُ ، وَ مَهْمَا بَلَغَتْ شِدَّةُ القِتَالِ عَلَيْهِمْ لا يُرَى مِنْهُمْ مَنْ يَفِرُّ مِنْ سَاحِ اللِّقَاءِ ، بَلْ يَثْبُتُونَ ، فَإِمَّا بُلُوغَ النَّصْرِ بِإِذْنِ اللهِ ، وَ إِمَّا الظَّفَرُ بالشَّهَادَةِ مِنَّةً مِنَ اللهِ وَ نِعْمَةً .

لَقَدْ أَحْسَنَ الشَّاعِرُ في تَشْبِيهِهِ الرَّسُولَ بالنُّورِ وَ السَّيْفِ ، فَتَلْكَ حَقِيقَةُ الإسْلاَمِ الَّتي جَاءَ بِهَا ، هِدَايَةٌ وَ نُورٌ يُبَدِّدُ ظُلُمَاتِ الجَهْلِ وَ الكُفْرِ ، وَ قُوَّةٌ تَقْضِي عَلَى الوَثَنِيَّةِ وَ الشِّرْكَ .

وَ فِي البَيْتِ الأَخِيرِ نَجدُ الشَّاعِرَ يُكَنِّي عَنْ شَجَاعَةِ الصَّحَابَةِ بِقَوْلِهِ : ((**لاَ يَقعُ الطَّعْنُ إلاَّ في نُحُورِهُمُ**)) لأَنَّ الشُّجَاعَ هُوَ الَّذِي يَتَلَقَّى الطَّعْنَ في صَدْرِهِ ، وَ أَمَّا الجَبَانَ الَّذِي يَنْكُصُ على عَقِبَيْهِ فَالطَّعْنَةُ تُصِيْبُهُ في ظَهْرِهِ .

وَ أَثَرُ البيئَةِ العَرَبِيَّةِ في شِعْرِ كَعْبٍ ظَاهِرٌ وَاضِحٌ في تَشْبِيهِ الرَّسُولِ بالنُّورِ وَ السَّيْفِ ، وَ في التَّعْبيرِ عَنْ مَيَادِينِ القِتَالِ بالحِيَاضِ ، وَ في وَصْفِ مَلاَبِسِ الحَرْبِ وَ دُرُوعِهَا . وَ نَلْمَحُ في شِعْرِ كَعْبٍ قُوَّةَ الأُسْلُوبِ وَ جَمَالَ التَّصْوِيرِ ، وَ طَابَعِ الشِّعْرِ الجَاهِلِيِّ ، كَمَا يَظْهَرُ في القَصِيدَةِ الطَّابَعُ الإِسْلاَمِيِّ سَوَاءٌ في المَعَانِي أَوْ بَعْضِ الأَلْفَاظِ وَ التَّعَابِيرِ .

عِنْدَمَا يَتَوقَّفُ المُتَلَقِّي أَمَامَ قَصِيدَةٍ رَائِعَةٍ يُحِسُّ أَنَّهُ أَمَامَ مِيرَاثٍ مُقَدَّسٍ ، يُحِسُّ أَنَّهُ أَمَامَ عَالَمٍ مِنَ المَشَاعِرِ وَ العَوَاطِفِ وَ الفِكَرِ و المُعَانَاةِ ، تَصْهَرُهَا جَمِيعاً في نَفْسِ الشَّاعِرِ نَارُ الإِبْدَاعِ الشِّعْرِيِّ الَّتي سَكَبَهَا في نُفُوسِ الشُّعراءِ وادي عُبْقُر .

تَأَلَّقَ اسْمُ الشَّاعِرِ ، وَ ذَاعَ بِاعْتِذَارِهِ لِلرَّسُولِ ، لَقَدْ كَانَتْ الرَّهْبَةُ مُلْهِمَةً لَهُ وَ عَرَفَتْ كَيْفَ تُشِيعُ الإِخْلاَصَ في قَلْبِ الشَّاعِرِ ، وَ كَيفَ تِسْتَحْضِرُ جَمَالَ الصُّورَةِ ، وَ حُسْنَ التَّعْبِيرِ ، وَ يَكْفِي الشَّاعِرَ فَخْرَاً أَنَّهُ حِينَ وَصَلَ في إِنْشَادِهِ إِلى قَولِهِ :

إِنَّ الرَّسُولَ لَنُورٌ يُسْتَضَاءُ	مُهَنَّدٌ مِنْ سُيُوفِ اللهِ مَسْلُولُ
زَالُوا فَمَازَالَ أَنْكَاسٌ وَ لاَ كُشُفٌ	عِنْدَ اللِّقَاءِ و لاَ خُورٌ مَعَازِيلُ

أَشَارَ الرَّسُولُ إِلى الخِلَقِ أَنْ يَسْمَعُوا شِعْرَ كَعْبِ بْنِ زُهَيرٍ [1] لَقَدْ تَمَّ الفَتْحُ العَظِيمُ ، وَ دَخَلَ النَّاسُ في دِينِ اللهِ أَفْوَاجاً ، وَ كَانَ إِسْلاَمُ قُرَيْشٍ قَضَاءً عَلى الوَثَنِيَّةِ في جَزِيرَةِ العَرَبِ ، فَقَدْ كَانُوا أَبْطَالاً حَمَلُوا رَايَةَ الإِسْلاَمِ ، وَ ذَادُوا عَنْ شُمُوخِهَا بِأَرْوَاحِهِمْ وَ أَمْوَالِهِمْ في كُلِّ مَوْطِنٍ فَتَحُوهُ فَكَانُوا خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ .

****

[1] الأغاني ، ص88

الفصل الثاني

- بُطُولَةُ المَرْأَةِ المُسْلِمَةِ .
- بطولتها في مديان الفكر و العقيدة:
- بطولتها في ميدان الجِهَادِ .
- بَطَلُ الأبطالِ .

بُطُولَةُ المَرْأَةِ المُسْلِمَةِ:

بُطُولَةُ الفِكرِ و العقيدَةِ

البُطُولَةُ مَوقِفٌ تَبْعَثُهُ فِي النُّفُوسِ العَظِيمَةِ غَايَاتٌ نَبيلَةٌ جَلِيلَةٌ ، فَتَنْدَفِعُ إلى ذَلِكَ المَوْقِفِ في لَحْظَةٍ مِنْ لَحظَاتِ السُّمُوِّ عَلَى مَا تَخْضَعُ لَهُ النُّفُوسُ الضَّعِيفَةُ رَغْبَةً أوْ رَهْبَةً ، وَيَتَجَافَى بِهَا عَنْ تِلْكَ الوَضَاعَةِ مَا آمَنَتْ بِهِ مِنَ القِيمِ وَالمُثُلِ.

وَكَمَا خرَّجَتِ الدَّعْوَةُ الإِسْلامِيَّةُ رِجَالاً ذَوي نُفُوسٍ عَظِيمَةٍ عَامِرَةٍ بالأَنَفَةِ وَالعِزَّةِ ، صَهَرَتْهَا البُطُولَةُ وَالشَجَاعَةُ فِي سَبِيلِ المَبْدَأ ، فَوَقَفَ أَمَامَهَا الأَعْدَاءُ مُنْدَهِشِينَ عَاجِزِينَ عَنْ إِدْرَاكِ حَقِيقَتِهَا ، فَإِنَ تِلْكَ الدَّعْوةَ الرَّبَّانِيَّةَ القُدْسِّيَةَ أَحَاطَتْ كَوكَبَةً مِنَ النِّساءِ ذَوَاتِ العِلْمِ ، وَالفَضْلِ ، وَالعَقْلِ الحَصِيفِ بَزَّتِ الرِّجَالَ فِي مَيَادِينِ السِّيَاسَةِ وَالبُطُولَةِ وَالجِهَادِ ، وَصَلابَةِ المَواقِفِ في الحَقِّ ، وتَرَكْنَ أثَرَاً بَاهِرَاً يَتَأَلَقُ عَبْرَ العُصُورِ ، وَهَذَا مَا لَمْ تَرْقَ إِلَيْهِ وَلَنْ تَرْقَى إليه المَرْأَةُ الأُورُبيَّةُ لأَنَّ مُفَكِّرِي أوربَا لَمْ يُحَاوِلُوا تَهْيئَتَهَا لِمَا يَتَنَاسَبُ وَإِنْسَانِيَّتَهَا ، مِمَّا يَجْعَلُهَا تَنْفُذُ بحُضُورِهَا إلى سَاحَاتِ تَارِيخ قَومِهَا، وَهَذَا مَا جَعَلَهَا تَفْقِدُ شَخصِيَّتِهَا أُنْثَى وَكَيَانَهَا امْرَأَةً ، وَتَخْسَرُ دَوْرَهَا في الحَيَاةِ ، وَلِذَلِكَ جَاءَتْ مُساوَاتُهَا مَعَ الرَّجُلِ بَعِيدَةً عَنْ جَوْهَرِ المُسَاوَاةِ وَحَقِيقَتِهَا ، وَلَمْ تَبْرَحْ خَاضِعَةً لِنُفُوذِ الرَّجُلِ فِي مَجَالاتِ الحَيَاةِ كَافَّةً ، وَحَتَّى فِيمَا هُوَ مِلْكُ يَمِينهَا.

وَإِنْ فُتِحَتْ أَبْوَابُ المُجْتَمَعِ للمرْأَةِ الأُورُبِّيَّةِ لِتَلِجَ مِنْ أيِّ بَابٍ تَشَاءُ ، وَلِتَأْخُذَ مَكَانَهَا إلى جَانبِ الرَّجُلِ فَلَيسَ ذَلِكَ لِكَوْنِهَا إِنْسَانَةً ذَاتَ كيَانٍ رُوحِيٍّ مُستَقِلٍّ ، بَلْ لِكَوْنِهَا أَدَاةً مِن أَدَوَاتِ تَسْلِيَةِ الرَّجُلِ الَّذي مَنَّ عَلَيْهَا بِفَتْحِ مَغَالِيقِ أَبْوابِ المُجْتَمَعِ.

وَأَمَّا الإِسْلامُ فَلَمْ يَمْنَعِ المَرْأَةَ مِنَ مُشَارَكَةِ الرَّجُلِ فِي إِقَامَةِ الحَيَاةِ فِي السَّرَّاءِ والضَّرَّاءِ وَحِينَ البَأْسِ ، فَالنِّسَاءُ شَقَائِقُ الرِّجَالِ فِي مِيزَانِ الإِنْسَانِيِّةِ ، وَالمَرْأَةُ مُكَلَّفَةٌ كَالرَّجُلِ تَمَامَاً ، وَعَلَيْهَا مِنَ المَسْؤُولِيَّةِ بِقَدْرِ مَالَهَا مِنَ الحُقُوقِ.

وَهَذِه المَسْؤُولِيَّةُ مُتَنَوِّعَةٌ بِحَسْبِ طَاقَاتِهَا وَقُدْرَاتِهَا وَمطَالِبِ الحَيَاةِ.

وَمِنَ الأُمُورِ الَّتِي شرَّفَ اللَّهُ بِهَا المَرْأَةَ كَأَخِيهَا على الصَّعِيدِ الإنْسَانِّي الرَّجُلِ مُشَارَكَتُهَا لَهُ في مَيَادِينِ الدَّعْوَةِ وَالبُطُولَةُ في الدِّفَاعِ عَنْهَا ، لأَنَّ التَّكْلِيفَ وَالوُجُوبَ بِدَرَجَةٍ وَاحِدَةٍ عَلى الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ. وَلَمْ تَقِلَّ بُطُولَةُ المَرْأَةِ المُسْلِمَةِ عَنْ بُطُولَةِ الرَّجُلِ المُسْلِمِ في مَيْدَانِ حَمْلِ الفِكْرَةِ الَّتِي أَنْبَتَتْهَا الدَّعْوةُ الإسْلامِيَّةُ، وَفي ميدانِ المُنَافَحَةِ عَنْهَا بالتَّضْحِيَةِ وَالفِدَاءِ.

وَمَا أَكْثَرَ النِّسَاءَ اللَّواتي بَرَزْنَ في المَيْدَانَيْنِ ، وَنَافَسْنَ الرِّجَالَ الأَبْطَالَ بَعْدَ أَنِ ارْتَوَيْنَ مِنْ يَنَابيعِ الدَّعْوَةِ المُطَهَّرَةِ ، فَانْطَلَقْنَ يُبَشِّرْنَ بِهَا.

وَفي طَلِيعَةِ اللَّواتي لَمْ يَعْرِفِ التَّاريخُ مِثْلَهُنَّ السَّيِّدَةُ خَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ ، فَقَدْ مَنَحَهَا اللَّهُ قَلْباً ذَكِيَّاً ، وَآتَاهَا فِكْراً نَافِذاً ، وَذَكَاءً يُجَلِّي خَفَايَا الأُمورِ ، وَيَحِلُّ المُعْضِلاتِ ، وَجَمَعَتْ مِنَ العَقْلِ وَالحَزْمِ والسِّيَاسَةِ ، مَا لَمْ يَجْتَمِعْ مِثْلُهُ إلاَّ عِنْدَ أَفْذَاذِ الرِّجَالِ.كَانَتْ تَرَى مُحَمَّدَاً- ﷺ- قَبْلَ البِعْثَةِ ، وَتَسْمَعُ أَخْبَارَهُ العَطِرَةَ الَّتِي شَاعَتْ عَلَى كُلِّ لِسَانٍ في مَكَّةَ فَعَرَضَتْ عَلَيهِ التَّزَوَّجَ بِهَا فَقَبِلَ عَرْضَهَا ، وَكَانَتْ زَوْجَةً مِثَالِيَّةً ضَرَبَتْ أَرْوَعَ الأَمْثِلَةِ لِلزَّوْجَةِ الوَفِيَّةِ المُخْلِصَةِ للزَّوْجِ ، وَالمُعِينَةِ لَهُ بِكُلِّ مَا مَلَكَتْ مِنْ جُهْدٍ وَمَالٍ وَرَأْيٍ.

أَسْرَعَتْ إِلى الإِيمَانِ بِهِ وَالتَّصْدِيقِ بدَعْوَتِهِ ، فَكَانَتْ أَوَّلَ مَنْ آمَنَ مِنَ النِّسَاءِ.وَ وَقَفَتْ إِلى جَانِبِهِ تُوَاسِيهِ، وَتُخَفِّفُ عَنْهُ مَا يَلْقَاهُ مِنَ الأَذَى وَالتَّكْذيبِ ، وَوَضَعَتْ أَمْوَالَهَا بَيْنَ يَدَيْهِ خِدْمَةً للدَّعْوَةِ. وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ-ﷺ- "**لاَ يَسْمَعُ شَيْئاً مِمَّا يَكْرَهُهُ مِنْ رَدٍّ عَلَيْهِ وَتَكْذِيبٍ لَهُ ، فَيُحْزِنُهُ ذَلِكَ ، إلاَّ فَرَّجَ اللَّهُ عَنْهُ بِهَا إِذَا رَجَعَ إِليهَا، تُثَبِّتُهُ وَتُخَفِفُ عَنْهُ ، وَتُصَدِّقُهُ ، وَتُهَوِّنُ عَلَيْهِ أَمْرَ النَّاسِ.**[1]

إنَّ هَذِهِ المَرأَةَ الجَليلَةَ التي نَهَلَتِ الإسلامَ صَافِياَ ، و تَشَرَّبَتْ رُوحُهَا العَقيدةَ ، و حَظِيَتْ بِنَصِيبٍ وَافٍ مِنَ الصُّحبَةِ و التَّوجيهِ النَّبويِّ ،تَمتَّعَتْ بالجُرأَةِ و الإيمانِ العَالي حِينَ أَدَّتْ رُكْناً أسَاسِيَّاً في الدِّينِ ، فَصَلَّتْ في رَابعَةِ النَّهارِ –و على مَلأٍ مِنْ قُرَيشٍ – خَلفَ النَّبيِّ ﷺ – و معَ عليٍّ رضيَ اللهُ عنهُ – في فِنَاءِ الكَعبَةِ ، بَعدَ أَنْ مَكَثَ رَسُولُ اللهِ ﷺ – و خَديجَةُ يُصَلِّيَانِ سِرّاً حتَّى جَهَراَ بِصَلاتِهِمَا ، و قَدْ رَوَى ذَلكَ رَجُلٌ مِنْ كِنْدَةَ ، اسْمُهُ عَفيفٌ ، حِينَ وَفَدَ على مَكَّةَ ، و نزَلَ على العَبَّاسِ بن عبدالمُطَّلِبْ . قالَ :((**فَأَنا عِندَهُ و أنا أَنظُرُ إلى الكَعبَةِ ، و قَد حَلَّقَتِ الشَّمسُ ، فَارتَفَعَتْ إذْ أَقبَلَ شَابٌّ حَتى دَنَا مِنَ الكَعبَةِ ، فَرَفَعَ رَأْسَهُ إلى السَّماءِ ، فَنَظَرَ ، ثُمَّ اسْتَقْبَلَ الكَعبَةَ قَائماً ، فَرَفَعَ رَأْسَهُ مُستَقبِلَهَا إلى**

[1] السِّيرَةُ النَّبَويَّةُ،ج 1،ص 284

أَنْ جاءَ غُلامٌ حَتَّى قَامَ عَنْ يَمينهِ ثُمَّ لَمْ يَلبَثْ يَسيراً حَتَّى جاءَتِ امرأةٌ فَقَامَتْ خَلفَهُمَا ثُمَّ رَكَعَ الشَّابُ فرَكَعَ الغُلامُ و رَكَعَتِ المَرأَةُ ، ثُمَّ رَفَعَ الشَّابُّ رَأْسَهُ ، و رَفَعَ الغُلامُ رأسَهُ ، و رفعَتِ المرأَةُ رأسَها ، ثُمَّ خَرَّ الشَّابُّ سَاجِداً ، و خرَّتِ المَرأَةُ ، قالَ يا عبَّاسُ ! إنِّي أَرى أمراً عَظيماً ، فقالَ العَبَّاسُ : أمرٌ عَظيمٌ ، هَلْ تَدري مَنْ هَذا الشَّابُّ ؟ قُلتُ : لا أدري . قالَ : هَذا مُحمَّدُ بنُ عبدالله ابنُ أخي ، هَل تَدري مَنْ هَذِهِ ؟ قُلتُ : لا أدري . قالَ : هَذِهِ خَديجَةُ بنتُ خُوَيلدٍ زَوجَةُ ابن أخي هذا.إنَّ ابنَ أخي هَذا الّذي تَرى حَدَّثَنا أنَّ رَبَّهُ رَبُّ السَّمواتِ و الأرضِ ، أَمَرَهُ بهَذَا الدِّينِ الّذي هُوَ عَليهِ . و اللهِ مَا عَلِمْتُ على ظَهْرِ الأرضِ كُلِّها على هَذا الدِّينِ غَيرَ هَؤلاءِ الثّلاثَةِ . قالَ عَفيفُ فَتمنَّيتُ أن أكونَ رابِعَهُمْ))[1]

وَلَيسَ أَدَلُّ عَلَى إِخْلاَصِهَا وَصِدْقِ إِيمَانِهَا مِنْ تَرْكِهَا نَعِيمَ العَيْشِ لِتُشَارِكَ النَّبِيَّ- ﷺ- مُرَّ العَيشِ عِنْدَمَا حَاصَرَ المُشْرِكُونَ المُسْلِمِينَ فِي الشِّعْبِ.

وَلَمَّا تَوَفَّاهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فقدَ رَسُولُ اللَّهِ-ﷺ- أَصْدَقَ المُنَاصِرِينَ فِي كُلِّ سَاعَةِ عُسْرَةٍ ، حَتى وَافَاهَا الأَجَلُ ، مِمَّا تَرَكَ أَثَراً بَليغاً فِي نَفْسِ رَسُولِ اللَّهِ-ﷺ-.

وَمَشَتْ فِي هَذَا المَوكِبِ القُدْسِيِّ الأَنْوَرِ نِسَاءٌ جَلِيلاَتٌ ، وَفِي ذَلِكَ أَنْصَعُ دَلِيلٍ عَلَى مَا حَمَلَهُ الإِسْلاَمُ لِلمَرأَةِ مِنْ خَيْرٍ وَصَلاَحٍ ، وَمَا هَيَّأَ لَهَا مِنْ مَحَلٍّ رَفِيعٍ خَوَّلَهَا أَنْ تَكُونَ دَاعِيَةً لِلرِّسَالَةِ السَّمَاوِيَّةِ ، وَشَارِحَةً لأَحْكَامِهَا فَهِيَ فِي هَذَا المِيدَانِ وَالرَّجُلُ سَوَاءٌ ، فَكَانَتْ رُكْناً فِي بِنَاءِ الأُمَّةِ وَعَوْناً عَلَى تَحْقِيقِ مُثُلِهَا العُلْيَا.

أَسْمَاءُ بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ، كَانَتْ فِي الطَّلِيعَةِ المُبَكِّرَةِ مِنْ جَيْشِ الحَقِّ وَالهُدَى ، كَانَ إِيمَانُهَا كَعَقْلِهَا مَعَ انْتِقَالِ دَعْوَةِ الخَيْرِ مِنْ طَوْرٍ إلى طَوْرٍ مُنْذُ أَنْ بَايَعَتْ نَبِيَّ الهُدَى عَلَى الوَفَاءِ لِشِرْعَةِ السَّمَاءِ ، وَالثَّبَاتِ عَلَيْهَا. تَشَرَّفَ بِمَوْقِفِهَا الجَلِيلِ تَارِيخُ أُمَّتِنَا المَجِيدِ. فَفِي مَوْكِبِ الهِجْرَةِ البَسِيطِ لِلْنَّبِيِّ- ﷺ- وَأَبِيهَا، مِنْ مَاضِي مَكَّةَ المُظْلِمِ إِلَى مُسْتَقْبَلِ الدُّنْيَا الوَضَّاءِ، مَثَّلَتْ تِلْكَ المَرْأَةُ النِّسَاءَ المُؤْمِنَاتِ فِي مَوْقِفِهَا الَّذي مَلأَ الدُّنْيَا، إِذْ كَانَتِ الهِجْرَةُ سِرّاً لاَ يَعْلَمُهُ فِي أُمِّ القُرَى إلاَّ رَجُلٌ هُوَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَامْرَأَةٌ هِيَ أَسْمَاءُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ، وَأَرَادَ أَبُو جَهْلٍ، فِرْعَوْنَ هَذِهِ الأُمَّةِ أَنْ يَنْتَزِعَ هَذَا السِّرَّ مِنْهَا، فَقَدْ جَاءَهَا

[1] أعلام النّساء في عالمي العَربِ و الإسلامِ ، عمر رضا كحالة ، المطبعة الهاشمية ، دمشق ط2 ، 1379، 1959 ، ج1 ، ص329 ، 330

فِي رَهْطٍ مِنْ أَصْحَابِهِ بِكِبْرِيَائِهِ وَجَبَرُوتِهِ يَسْأَلُهَا عَنْ أَبِيهَا، فَأَبَى عَلَيْهَا إِيمَانُهَا أَنْ تُفْشِيَ سِرَّ الرَّسُولِ وَصَاحِبِهِ، فَهَدَّدَهَا، فَلَمْ تَخَفْ، فَرَفَعَ يَدَهُ بِنَذَالَةِ الجَبَانِ الَّذي يَعْجزُ عَنْ مُوَاجَهَةِ الأَبْطَالِ، فَضَرَبَهَا [1]، وَخَلَّدَ التَّاريخُ بُطُولَةَ المَرْأَةِ المُسْلِمَةِ بِثَبَاتِهَا عَلَى مَبْدَئِهَا الكَرِيمِ، وَعَقِيدَتِهَا النَّاصِعَةِ.

إِنَّهَا امْرَأَةٌ عَاشَتْ فِي دُنْيَا عَقِيدَتِهَا وَإِيمَانِهَا، انْقَادَتْ لَهَا الدُّنْيَا لأَنَّهَا لَمْ تَحْرِصْ على مُتَعِهَا وَلَذَّاتِهَا، فَكَانَتْ فِي سِيرَتِهَا وَأَعْمَالِهَا مَثَلاً مَضْرُوباً لِمَا يَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ عَلَيْهِ المَرْأَةُ المُسْلِمَةُ، وَقَدْ مَلأَتْ تِلْكَ السِّيرَةُ العَطِرَةُ قُلُوبَ الصَّادِقِينَ مَحَبَّةً لَهَا وَأَلْسِنَتَهُمْ ثَنَاءً عَلَيْهَا.

ذَاقَتْ فِتْنَةَ تَرْكِ الوَطَنِ وَالدَّارِ، فَلَحِقَتْ بِأَبِيهَا ، وَدَخَلَتْ فِي مَوْكِبِ الهِجْرَةِ القُدْسيِّ الأَنْوَرِ، تَضْرِبُ فِي كَبِدِ الصَّحْرَاءِ المُقْفِرَةِ ، وَتِلْكَ بُطُولَةٌ لِتَأْيِيدِ دِينِ اللَّهِ وَنَصْرِهِ ، قَابَلَتْ فِتْنَةَ الإِيذَاءِ مُخْلِصَةً لِرَبِهَا ، وَخَرَجَتْ مِنْ مَكَّةَ لِيَسْلَمَ لَهَا دِينُهَا.

وَكَيْفَ لا تُكْسَى ثَوْبَ البُطُولَةِ وَالتَّضْحِيَةِ وَأَبُوهَا شَيْخُ الإِسْلامِ الصِّدِّيقُ أَبُو بَكْرٍ بَطَلُ مُحَارَبَةِ المُرْتَدِّينَ، وَزَوْجُهَا حَوَارِيُّ رَسُولِ اللَّهِ الزُّبَيْرُ بنُ العَوَّامِ أَوَلَ مَنْ سَلَّ سَيْفَاً فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، بَطَلَ الجِهَادِ ، السَمْحُ الكَرِيمُ ، وَابْنُهَا الفَارِسُ البَطَلُ الشَّهِيدُ عَبْدَاللَّهِ بنُ الزُّبَيْرِ. و هِيَ البَطَلَةُ فِي عَقِيدَتِها فِي المَوقفِ الّذي حَفِظَهُ التَّاريخْ : فقدْ ((**دَخَلَ عَلَيهَا ابنُهَا عَبدُاللهِ بنُ الزُّبَير قبلَ قَتلِهِ بَعشرِ ليالٍ و هيَ وَجيعَةٌ فقَالَتْ لِعَبدِلله ما أشتَهي أن أموتَ حتَّى آتِيَ على أحَدِ طَرَفَيك : إمَّا أن تُقتَلَ فأَحتَسبَكَ ، و إمَّا أن تَظفَرْ فتَقرَّ عَيني ، فإيَّاكَ أن تُعرَضَ عَلَيكَ خَصْلَةٌ لا تُوافِقُكَ فتَقْبَلَها كَراهيَةَ المَوتِ**)) [2]لَمْ يَكُنْ زَوْجُهَا يَمْلِكُ مِنَ الدُّنْيَا شَرْوَى نَقِيرٍ ، فَصَبَرَتْ عَلَى الفَقْرِ وَرَوَّضَتْ نَفْسَهَا عَلَى الحِرْمَانِ ، ثُمَّ ذَاقَتْ نَعِيمَ الغِنَى الوَاسِعِ فِي كَنَفِ زَوْجِهَا الَّذي فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِ أَبْوَابَ الغِنَى فِيمَا بَعْدُ ، فَلَمْ تَبْطَرْ بِغِنَاهَا، بَلْ ظَلَّتْ امْرَأَةً كَمَا نَشَّأَهَا الإِسْلامُ ، امْرَأَةَ خَيْرٍ وَبِرٍّ وَإِحْسَانٍ ، وَتِلْكَ بُطُولَةٌ أَعْلَى.

هَكَذَا تَفْعَلُ الدَّعْوَةُ بِالنُّفُوسِ الجَلِيلَةِ الَّتِي يَتَشَرَّفُ بِهَا تَارِيخُ هَذِهِ الأُمَّةِ العَظِيمَةِ.

بُطُولَةٌ أُخْرَى سَامِيَةٌ شَهِدَ لَهَا التَّارِيخُ، سَجَّلَتْهَا امْرَأَةٌ مِنَ النِّسَاءِ اللَّوَاتِي تَلأْلأَتْ سِيَرُهُنَّ النَّقِيَّةُ فِي الدُّنْيَا–عَائِشَةُ أُمُّ المُؤْمِنِينَ–رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا– لَمْ تَعْرِفِ الدُّنْيَا مِثْلَهَا، كَانَتْ بَطَلَةً فِي كَرَمِ نَفْسِهَا وَسَخَاءِ

---

[1] السِّيَرَةُ النَّبَوِيَّةُ،ج 1،ص 544

[2] صَفوةُ الصَّفوَة ، الإمام جمال الدين أبو الفرج عبدالرحمن بن عليّ بنُ الجَوزي ، دار الجيل ، بيروت ، طبعة أولى ، 1412 ، 1992 ، ص365

يَدِهَا، وَبَطَلَةً فِي صَبْرِهَا مَعَ النَّبِيِّ -ﷺ- عَلَى الفَقْرِ وَالجُوعِ إِذْ كَانَتْ تَمُرُّ اللَّيَالِي ذَوَاتُ العَدَدِ وَالأَيَامُ الطَوِيلَةُ، وَمَا تُوقَدُ فِي بَيْتِ رَسُولِ اللَّهِ نَارٌ لِخُبْزٍ أَوْ طَبْخٍ، وَرَضِيَتْ أَنْ تَعِيشَ مَعَ النَّبِيِّ -ﷺ- عَلَى التَمْرِ وَالمَاءِ.

إِنَّ الإِيْمَانَ يَصْنَعُ المُعْجِزَاتِ، فَلَمَّا أَقْبَلَتِ الدُّنْيَا بِمَا فِيهَا عَلَى المُسْلِمِينَ جِيءَ لَهَا مَرَّةً بِمِائَةِ أَلْفٍ، وَكَانَتْ صَائِمَةً، فَفَرَّقَتْ مِائَةَ الأَلْفِ،وَلَمْ تُبْقِ بَيْنَ يَدَيْهَا شَيْئًا، وَلَيْسَ فِي بَيْتِهَا شَيْءٌ وَهَذِهِ هِيَ بُطُولَةُ الإِيثَارِ.

كَانَتْ بَطَلَةً فِي صَبْرِهَا عَلَى تُهْمَةِ الإِفْكِ بُطُولَةً عَالِيَةً ، وَاسْتَمْسَكَتْ بِحَبْلِ اللَّهِ وَهِيَ تُرَدِّدُ قَوْلَهُ تَعَالَى:"**فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ المُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ**"[1] حَتَّى أَيَدَهَا اللَّهُ بِتَنَزُّلِ آيَاتِ تَبْرِئَتِهَا، وَكَشْفَ كَيْدِ المُنَافِقِينَ.

إِنَّ المُنَافِقِينَ حِينَ أَمْسَوْا وَلَيْسَ لَهُمْ شَوْكَةٌ، أَوْقَدُوا الفِتْنَةَ، فَكَانَتْ وَلِيدَةَ الخُرُوجِ عَلَى الضَّوَابِطِ وَالآدَابِ، وَالتَّمَرُّدِ عَلَى قَوَاطِعِ النُّصُوصِ، لِخَلْقِ مُنَاخٍ نَفْسِيٍّ يُمَارِسُونَ فِيهِ وَبِدَوَافِعَ ثَأْرِيَّةٍ مُهْتَاجَةٍ بَيْنَ جَوَانِحِهِمْ انْتِقَامُهُمْ مِنَ الوُجُودِ الإِسْلاَمِيِّ.

إِنَّ إِعْصَاراً كَادَ يَعْصِفُ بِجَوْهَرِ الأُخُوَّةِ الإِسْلاَمِيَّةِ بَعْدَ أَنْ أَوْشَكَتِ الفِتْنَةُ تَعُمُّ الأَنْصَارَ ، تَضْرِبُ أَوْسَهُمْ بِخَزْرَجِهِمْ لِاخْتِلاَفِ مَوْقِفِهِمْ مِنْ رَأْسِ النِّفَاقِ وَمَوْقِدِ الفِتْنَةِ وَمُؤَجِّجِهَا.

إِنَّ الفِتْنَةَ الَّتِي جَرَتْ عَلَى أَلْسِنَةِ المُنَافِقِينَ بَغْيًا وَعُدْوَانًا أَطْفَأَهَا اللَّهُ بِصُمُودِ هَذِهِ البَطَلَةِ وَثَبَاتِهَا عَلَى الحَقِّ.

إِنَّ ضَبْطَ مَصَادِرِ المَعْرِفَةِ يَمْنَحُ المَرْءَ اسْتِقَامَةً فِي فِكْرِهِ، وَبُعْداً فِي نَظَرِهِ يُمَيِّزُ بِهَا بَيْنَ غَثِّ الأَخْبَارِ وَسَمِينِهَا.

إِنَّ عَائِشَةَ فِي مَوْقِفِهَا المُؤَيَّدِ بِنَصْرِ اللَّهِ تُعَلِّمُ النِّسَاءَ العَفِيفَاتِ الحِرْصَ عَلَى الابْتِعَادِ عَنْ مَوَاطِنِ الشُّبَهَاتِ وَسَبِيلَ الدِّفَاعِ عَنْ بَرَاءَتِهِنَّ. وَهِيَ القُدْوَةُ المُثْلَى فِي مَوْقِفِ الإِسْلاَمِ مِنَ المَرْأَةِ.((**و إلى السَّيِّدةِ عائشة**

[1] سُورَةُ يُوسُف مِنَ الآيَةِ18

يَرجِعُ الفَضْلُ الأَكبَرُ – بعدَ رَسُولِ اللهِ – في إعظامِ النَّاسِ المَرأَةَ الإعظَامَ اللاَّئقَ، حتَّى ظَهَرَ كَثيرٌ مِنَ اللاَّئي طَمِحْنَ إلى اقتِفاءِ أَثَرِها في الشَّجاعَةِ و الجُرأَةِ الأدبيَّةِ))[1]

تَنطَوي الدَّعوَةُ إلى اللهِ عَلى سُلُوكٍ جَليلٍ يُوصِلُ العَبْدَ المُؤمِنَ بِهَا إلى أَجَلِّ أَلوانِ البُطُولَةِ ، و يَتقرَّبُ بتَضْحِيَتِهِ إلى بارِئِهِ – ﷻ – و ذلكَ حَصَادُ التَّربيَةِ القَويمَةِ الَّتي تَنْفُخُ فِيهِ رُوحَ السُّمُوِّ عَنْ حُطَامِ الدُّنيا ، فَيَتعالى عَنِ الإسفَافِ إلى مَتَاعِهَا الزَّائلِ.

إنَّ المَواقفَ الصُّلبَةَ في وَجْهِ الدُّعَاةِ إلى الكُفرِ و الطُّغيَانِ ، مَعَ الصَّبرِ النَّاجمِ عَنْهَا مُنذُ الخُطُوَاتِ الأُولى للاعتِقَادِ تُمَثِلُ قُدسيَّةً تُثَبِّتُ الخُطَا على طَريقِ الحَقِّ و الهُدَى ، و قَدْ تُشَكِّلُ حَافِزاً لإيصَالِ المُعَادينَ إلى الحّقِّ ، و لكنْ إذا كانَ البَاغي لا يُفَارِقُ البَاطِلَ فَإنَّ التَّفانيَ و الإصرارَ يَرتَقِي بالنَّفسِ الرَّاضِيَةِ بِالخَيرِ إلى أُفُقِ الجَلالِ ارْتِقَاءً يُسَفِّهُ حِلمَ البَاغي ، فَيُوري غَيظَهُ .

البَطَلَةُ سُمَيَّةُ بِنتُ خُبَّاطٍ[2] الأُمُّ العَظيمةُ الّتي أَنجَبَتْ البَطَلَ العَظِيمَ عَمَّارَ بنَ ياسِرٍ نَالَتْ مِنْ عَذَابِ الطُّغَاةِ نَصيباً فَادِحاً و رَهيباً حِينَ تَلاشَى مِنْ رُوحِهِمْ مَا تَتحلَّى بِهِ الرُّوحُ الإنْسَانيَّةُ العَربيَّةُ مِنْ سعَةِ الأَخلاقِ ، و السَّماحَةِ ، و النَّجدَةِ و الكَرَمِ ، و لكِنَّ عَظَمَةَ ثَبَاتِهَا ، و جَلالَ تَضحِيَتِها جعَلَها في موقِفٍ يَمنَحُ المُؤمنينَ بِمَبادِئِ الحَقِّ في كُلِّ عَصْرٍ شَرَفاً لا يَزُولُ حِينَ لَمْ تَعْدْ تَجِدُ لِلعَذَابِ المُنصَبِّ عَلى جَسَدِها أَلماً ، و لَمْ تَعُدْ تُلقِي لَهُ بَالاً ، لأَنَّ شَخصِيَّتَها الإيمانيَّةَ تَأصَّلَ فِيها العَزمُ ، و الحَزمُ ، و الإرادةُ العَاليَةُ ، و كُلُّ ذَلكَ يَشْهَدُ لَهَا بالبُطُولَةِ الّتي يَزيدُها البَطشُ و الفَتْكُ جَلالاً ، و بَعْدَ التَّعذيبِ برَمْضَاءِ مَكَّةَ ((**قَتَلُوها و هِيَ تَأبَى إلاَّ الإسلامَ**))[3] لَقَدْ قَتَلُوها و رَبِحَتْ رُوحَهَا و إيمانَها إذْ كَرَّمَها اللهُ بِالشَّهادَةِ ، و كانَ اسْتِشْهَادُها عُنواناً مُضيئاً في صَفَحاتِ البُطُولَةِ الإسلاميَّةِ ، و في سِجِلِّ الشَّهادَةِ في سَبيلِ اللهِ ، وَ مَكرُمَةٌ أُخرَى تُوِّجَت بِهَا شَهادَتُهَا ؛ فَهِيَ أَوَّلُ شَهيدَةٍ في الإسْلامِ.

إنَّ عَظَمَةَ الإيمانِ إذا اكتَنَزَتْهَا النَّفسُ أَثارَتِ الدَّهْشَةَ ، و بَوَّأَتْ صَاحِبَها مَكاناً عَلِيّاً بَيْنَ عُظَماءِ الفِكرِ و العَقيدَةِ . إنَّ بُطُولَةَ سُمَيَّةَ نَفَضَتْ عَنْهَا عَوادِيَ الرِّقِّ و الضَّعفِ ؛ فَبَعدَ هَوانِهَا على النَّاسِ مَدَّتْ

---

[1] عائشة و السياسة ، سعيد الأفغاني ، دار الفكر ، دمشق ، ط2 1971/1391،ص25
[2] صفوة الصفوة ، مج1 ص366 ، و ذُكِرت في بعض المصادر بالياء مثل الطبقات الكبرى لابن سعد ، تقديم الدكتور إحسان عباس ،دار صادر بيروت ،1418 ، 1992 ، ج3 ص246 ، و سيَرُ اعلام النبلاء ، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي ، مؤسسة الرسالة ، دمشق ، ط 11 ، 1422 ، 2001 ، ج3 ص406
[3] السيرةُ النَّبويَّةُ، ج1 ، ص368

بَصيرتَهَا المُضَاءَةُ بالحَقِّ مَسَاحَاتِ اليَقينِ أَمَامَها ، و كَانَ صَبْرُهَا يُشَكِّلُ وفقَ إيمانِهَا ، و يَزيدُ في عُنفُوانِهَا و تَضْحيَتِهَا ، و يَرتَفعُ بِهَا إلى مُستَوَى الفِداءِ الّذي لا يَحرَصُ إلاَّ على الشَّهادَةِ.

و مِمَّا يُضَافُ إلى المَواقِفِ البُطوليَّةِ في العَقيدَةِ مَوقفُ امرأَةٍ احتَّلَتِ المَهَابَةَ و الكَرامةَ في النُّفُوس ، و ظلَّ هَذَا المَوقِفِ الصَّادِقِ يَجُولُ في أذهانِ النَّاسْ و صَاحِبَةُ هَذا المَوقِفِ هيَ صَفيَّةُ بنتُ عبدِ المُطَّلِبْ حِينَ بَلَغَهَا نَبأ استِشهادِ أخيها حَمزةَ رَضِيَ اللهُ عَنهُ و المُثْلَةُ بِهِ إذْ جَاءَتْ لِتَنظُرَ إليهِ ((**فقالَ رَسُول الله ﷺ لابنهَا الزُبَير بنُ العَوَّام القَهَا فَأَرْجِعْهَا ، لا تَرَى مَا بأخيهَا ، فقالَ لَها يَا أُمَّهْ ! إنَّ رَسُولَ اللهِ يَأْمُرُكِ أنْ تَرجِعِي ، قَالَتْ** : **و لِمَ ؟ و قَدْ بَلَغَني أَنَّهُ قَدْ مُثِّلَ بأَخي ، و ذَلكَ في اللهِ ، فَمَا أَرضَانا بِمَا كانَ مِنْ ذلك ! لأَحتَسِبَنَّ و لأَصبرَنَّ إن شَاءَ اللهُ**))[1] و لَّما لَمَسَ رَسُولُ اللهِ ﷺ احتِسَابَها و صَبرَهَا ، أمَرَ ، فَخُلِيَّ سَبيلَها فأتَتْ أَخاهَا سَيدَ الشُّهَدَاءِ ((**فنظَرَتْ إليهِ ، فصلَّتْ عَلَيهِ ، و استَرجَعَتْ ، و استَغْفَرَتْ لَهُ ، ثُمَّ أَمرَ بِهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَدُفِنْ**))[2] ثُمَّ قالَتْ تَرثِيهِ رِثَاءً يُعبِّرُ عَنْ حُزنِ الفِراقِ ، و لكنَّهُ حُزنٌ مُنَوَّرٌ بِرِضَاهَا بِقَضَاءِ اللهِ و قَدَرِهِ و بِحُسْنِ ظَنِّهَا باللهِ الّذي دَعَا حَمزَةَ فلَبَّى ، فأَبدَلَهُ بِالحَيَاةِ الدُّنيا جَنَّةً لا نَصَبَ فِيها و لا حَزَنٌ ، و هِيَ خَيرُ المَنازِلِ للشَّهيدِ يومَ الحَشْرِ :

دَعَاهُ إلهُ الحَقِّ ذُو العَرشِ دَعوَةً	إلى جَنَّةٍ يَحيَا بهَا و سُرورُ
فَذَلكَ مَا كُنَّا نُرَّجي و نَرتَجي	لِحَمزَةَ يَومَ الحَشْرِ خَيرَ مَصيرِ
فَواللهِ لا أَنسَاكَ مَا هَبَّتْ الصَّبَا	بُكاءً و حُزناً مَحضَري و مَسيري [3]

و هَكَذَا يَكُونُ الدَّليلُ سَاطِعاً على قُوَّةِ العَقيدَةِ ، و بُرْهَاناً لا يُدْحَضُ على ثَباتِ الفِكرِ الإنسانيِّ في النَّفسِ و القَلبِ .

بُطولَةُ الجِهادِ:

إذا نَحنُ جَاوَزنا مَيدانَ جِهادِ المَرأَةِ في الفِكرِ و العَقيدةِ إلى مَيدانِ بُطُولَةِ القِتَالِ و الجِهَادِ ، رَأَينا المَسْأَلَةَ تَختَلِفُ ، إذْ نَجدُ أَنَّهُ لَيسَ لأحَدٍ أَنْ يَحرِمَ المَرأَةَ شَرَفَ المُشَارَكَةِ في الجِهَادِ ، و أَنَّها هِيَ و الرَّجُلُ سَواءٌ في المُطالَبَةِ بِهِ ، كُلٌّ بِحَسَبِ استِعدادِهِ و اختِصَاصِهِ .

[1] السيرة النبوية ، ج1 ، ص877 ، يُنظر ((البدَايةُ و النّهايَة)) لابن كثير الدّمشقيّ ، دار ابن كثير ، دمشق ، بيروت ، ط1 1428 ، 2007 ، ج4 ، ص217
[2] السيرة النبوية ، ج2 ، ص877 ، 878
[3] نفسهُ ص 951

و لَقَدْ دَرَجَتِ المَرأَةُ العَربيَّةُ مِنْ قَبلُ عَلى هَذا ، إذْ أُسْنِدَ إليها في حُروبِ الجَاهليَّةِ التَّمريضُ ، و العِنَايَةُ بالجُروحِ ، و سَقْيُ المَاءِ ، و تَحميسُ المُحاربينَ .

وَ لَمَّا أَنارَ الإسلامُ بَصِيرَتَهَا فَتَحَتْ عَينَيْهَا على رِجالٍ غَيرِ الرِّجالِ الّذينَ عَهِدَتْهُمْ ، و عَهِدَتْ عَقِيدَتَهُمْ، فَأَخَذَتْ مِنْ هَذا الدِّينِ نَصيبَها الأوفَى و نَشطَتْ مِنْ قُيُودِ الجَاهليَّةِ تَشْكُرُ لِلَّهِ شُكراً عَمَليَّاً عَلى مَا تَمَّ عَلَيهَا مِنْ نِعَمٍ .

قَاسَتْ في خُطُواتِها الأُولى على طَريقِ الهُدَى مَا قَاسَتْهُ الرِّجالُ مِنْ عَذَابٍ ، و اضطِهادٍ ، و أذَىً ، و هِجْرَةٍ ، ثُمَّ شُرِّفَتْ بانتِظَامِهَا في صُفُوفِ الأَبطالِ المُجاهِدِينَ مُنَافَحَةً عَنْ خَفْقِ رَايَةِ الحَقِّ ، و ذَوداً عَنْ دينِ اللهِ و رَسُولِهِ ، فَآبَتْ بِثَوابِ الجِهادِ و كَرامَتِهِ ، وَ لَيسَ بَعْدَ بَذْلِ الرُّوحِ غَايَةٌ مِنْ حَمدٍ و شُكرٍ.

وَ خَلَّدَ التَّاريخُ لِلمرأَةِ المُسلِمَةِ الإنسانَةِ في صَدْرِ الإسلامِ أَجَلَّ أَثَرٍ و أَسْمَى ذِكرٍ ، إذْ شَهِدَتِ المَرأَةُ في صَدْرِ الإسلامِ المَعَارِكَ و المُواجَهاتِ ، وَ جَهِدَتْ في أنْ تُبَرْهِنَ بمَواقِفِهَا البُطُوليَّةِ على أنَّها خَليقَةٌ بإعلاءِ كَلِمَةِ اللهِ عَلى أَسَاسٍ مِنْ إنسَانيَّتِهَا ، فكَانَ لَهَا في هَذا المَيدَانِ المَواقِفُ المَحمُودَةُ الّتي لا تُجارَى، و كَانَتْ مَضْرِبَ المَثَلِ بِشَجَاعَتِهَا ، وَ إقدَامِهَا ، و حُسنِ بَلائها و إخلاصِهَا .

خَرَجَتْ النِّسَاءُ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ في غَزَواتِهِ ، وَ أَبلَيْنَ مَعَهُ البَلاءَ الحَسَنَ ، فَكُنَّ نِعْمَ المُعينَاتُ لِلمُحارِبينَ ، يُخلينَ جَرْحَاهُمْ و قَتلاهُمْ كَيلا يُمثِّلَ بِهِمُ العَدُوُّ ، و يَنُبْنَ مَنَابَهُمْ في حِراسَةِ رِحَالِهِمْ و الإشرافِ عَلَيها ، و يَقُمْنَ عَلى خِدْمَةِ المَرضَى ، و كُنَّ أحياناً يُمارِسْنَ القِتَالَ ، فَعَنْ أُمِّ عَطِيَّةَ الأَنصَاريَّةِ ، قَالَتْ : ((**غَزَوتُ معَ رَسُولِ اللهِ ﷺ سَبْعَ غَزواتٍ . أَخلُفُهمْ في رِحالِهِمْ ، أَصْنَعُ لَهُمْ الطَّعامَ ، و أُداوي الجَرحَى ، و أَقُومُ على المَرضَى**))[1] .

و عَنِ الرُّبَيِّعِ بِنتِ مُعَوِّذٍ ، قَالَتْ : ((**كُنَّا نَغْزو مع رسول اللهِ ﷺ فَنسْقي القَومَ و نَخْدُمُهُمْ ، و نَرُدُّ الجَرحَى و القَتلى إلى المَدينَةِ**))[2]

---

[1] صحيح مسلم ، دار الجيل ، بيروت ، د. ت رقم الحديث 4793 ، و تُنظر ترجمتها في شرح حياة الصَّحابَةِ ، ج1 ، ص906 ، و صَفوةِ الصَّفوة مج1 ، ص368 ، 369

[2] صَحيحُ البُخاريِّ ، رقم الحديث 2727

و تَتابَعَتْ المَواقِفُ المَأثُورةُ الخَالِدَةُ لِلمَرأَةِ المُسلمَةِ بَينَ يَدي رَسُولِ اللهِ ﷺ ، و حَفِظَ التَّاريخُ لَنا أسماءَ بَطَلاتٍ مُجاهِداتٍ مِنَ الصَّحابيَّاتِ -رِضوانُ اللهِ عَلَيهِنَّ – ضَاهَيْنَ في بُطُولَتِهِنَّ بُطُولاتِ الرِّجالِ ، و اقتَحَمْنَ لَظَى الحُروبِ غيرَ هَيَّابَاتٍ ، لَمْ يَمسَسْهُنَّ وَجَلٌ . و لَنْ يَنسَى أَحَدٌ سَيِّدَةً جَليلَةَ القَدْرِ ، عَالِيَةَ الهِمَّةِ ، كَبيرةَ القَلْبِ ، رَفيعَةَ الرُّوحِ ، و إنْ شِئتَ فَقُلْ : جَمَعَتْ هَذِهِ الصَّحابيَّةُ الفَاضِلَةُ المَكارِمَ كُلَّهَا . و قَدْ خَطَّتْ هَذِهِ المَرأَةُ في حَيَاتِها صَفَحاتٍ مُضيئَاتٍ في أسفارِ البُطُولَةِ ظَلَّتْ تُروَى ، و سَتَظَلُّ تُروَى بالتَّقديرِ و الإعجابِ إلَى أَنْ يَرِثَ اللَّهُ الأَرض وَمَنْ عَلَيْهَا لِأَنَّ تِلْكَ البُطُولَةَ تَفيضُ بالإِيمَانِ باللهِ عَزَّ وَ جَلَّ ، وَ الحُبِّ وَ الوَفَاءِ لِرَسُولِ اللهِ – ﷺ– فَقَدْ خَرَجَتْ هَذِهِ المَرْأَةُ المُؤْمِنَةُ أُمُّ عُمَارة ، نَسيبَةُ بنتَ كَعْبٍ المَازِنيَّةُ مَعَ زَوْجِهَا غَزِيَّةَ بْنِ عَمْرو ، و ابْنَيهَا عَبْدِ اللهِ و حَبيبٍ حينَ خَرَجُوا في غَزْوَةِ أُحُدٍ، وَقَامَتْ بِفعَالِيَّاتِهَا المُهِمَّةِ شَأْنُهَا في ذَلِكَ شَأنُ بَقيَّةِ الصَّحابيَّاتِ ، و لكنَّ ظُروفَ المَعركَةِ أَلقَتْ على عَاتِقِها مَهمَّةً أَجَلَّ، فَحينَ جَانَبَ المُسلمينَ النَّصرَ ، و انْكَشَفَ النَّاسُ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ مِنْ هَولِ مَا أَصَابَهُمْ ، أَخَذَتْ سَيفاً و تُرساً ، و انحازَتْ إلى رَسُولِ اللهِ ﷺ مع ابنَيها و زَوجِهَا و نَفَرٍ قَليلٍ ، و النَّاسُ يَمرُّونَ بالنَّبيِّ ﷺ -مُنهزمينَ- و رآها النَّبيِّ ﷺ و لا تُرسَ مَعَهَا ، و رَأَى رَجُلاً مُولِّياً و مَعَهُ تُرسٌ ، فقالَ لَهُ : ((**أَلقِ تُرسَكَ إلى مَنْ يُقَاتِلُ ، فألقَاهُ ، فَأخذَتْهُ ، و جعَلَتْ تُترِسُ بِهِ عَنْ رَسولِ اللهِ ﷺ ، و اعترَضَتِ ابنَ قَميئَةَ الّذي جَاءَ يَبغي قَتلَ النَّبيِّ ﷺ فأثْخنَها بالجرَاحِ ، وَ هِيَ لا تُبالي فِداءً لِرَسُولِ اللهِ ﷺ و انْدِفاعاً وراءَ عَقيدَتِها الخَالِصَة.**[1] و كَانَتْ جِراحَاتُها العَديدةُ وِسَامَ شَرَفٍ لَها ، و قَلَّدها رَسُولُ اللهِ ﷺ وِسَامَ شَرَفٍ آخرَ ، حينَ أَثْنَى عَلى بُطولَتِها ، و هِيَ تَذُودُ عَنهُ أبطالُ قُرَيشٍ المُندَفِعينَ نَحوَهُ ذَاتَ اليَمينِ و ذَاتَ الشِّمَالِ ، قالَ ﷺ: ((**ما التَفتُّ يَميناً و لا شِمَالاً إلاَّ و رَأَيتُها تُقاتِلُ دُوني**))[2]

و هذهِ البُطُولَةُ الوَضَّاءَةُ في أُحُدٍ سَطَعَتْ يَومَ حُنَينٍ ، فحينَ انْهَزَمَ بَعضُ المُسلِمينَ لِهَولِ المُفَاجَأةِ بَرزَتِ المُجاهِدَةُ البَطَلَةُ لِتَصْدُقَ مَا عَاهَدَتِ اللهِ عَليهِ وَ لِتُتَوِّجَ جِهَادَها بِرِضَا اللهِ و رِضَا رَسُولِهِ.

لَقَدْ أمسَى لِلمَرأَةِ المُسلِمَةِ شَأْنٌ و مَقَامٌ في البُطُولَةِ ، و مَا كَانَتِ المَرْأَةُ المُؤمِنَةُ لتَنْدفِعَ في تَضْحِيَاتِها لَوْ لَمْ يُقِرَّ الإسلامُ حُقُوقَها في الحَياةِ الكَريمَةِ . و قَدْ نَالَتْ أُمُّ سُلَيْمٍ بِنتُ مِلْحَانِ شَرَفَ الخُروجِ معَ

---

[1] تُنظَرُ سيرتُها في ((سِيَرُ أعلامِ النُّبَلاءِ)) شمسُ الدِّين مُحمّد بن أحمد بنَ عُثمانَ الذَّهبيُّ ، مُؤسَّسةُ الرِّسالةِ ، دِمشقَ ، ط11 ، 1424 ، ج2 ، مِنْ ص278 حتى نِهاية ص282 ، و تُنظَرُ قِصَّةُ بُطولتِها في أُحُدٍ في ((شَرحُ حياة الصَّحابَةِ رَضيَ اللهُ عنهم ، العلاّمة الشيخ محمد يوسف الكاندهلوي ، دار ابن كثير ، دمشق و بيروت ، ط3 ، 2008/1429/ ج1 ص909

[2] حَياةُ الصَّحابة ، ج 1 ص909

النَّبيِّ ﷺ لإعلاءِ كَلِمَةِ اللهِ في سَاحَةِ الجِهَادِ ، و قَدْ نَهَضَتْ هذهِ الصَّحابيَّةُ الجَليلَةُ بمَسْؤوليَّةَ القِتَالِ معَ رَسُولِ اللهِ ﷺ بصِدقِ إيمانِهَا ، و صَلابَةِ عَقيدَتِها . و شَهِدَتْ أمُّ سُلَيْمٍ أُحُداً و حُنَيناً ، كَرَّمَها اللهُ بخِدْمَةِ الجَرْحَى سِقَايَةً و مُداواةً ، فقدْ رُوِيَ عَنْ أَنَسِ بنِ مالكٍ ﷺ أنَّهُ قالَ: ((**و لَقَدْ رَأَيْتُ عَائشَةَ بنتَ أبي بَكرٍ و أُمَّ سُلَيمٍ ، و إنَّهُما لَمُشَمِّرَتَانِ أَرَى خَدَمَ سُوقِهِما تَنقُزَانِ القِرَبَ عَلى مُتُونِهِمَا ، ثُمَّ تُفرِغَانِهِ في أَفْواهِ القَومِ ، ثُمَّ تَرْجِعَانِ فَتملآنِهَا ، ثُمَّ تَجيئانِ فَتُفرِغَانِهَا في أفواهِ القَومِ**))[1]

وَ حَظِيَتْ أُمُّ سُلَيمٍ بمَكرُمَةِ الخُروجِ معَ النَّبيِّ ﷺ يومَ حُنَينٍ ، خَرَجَتْ و قَدْ حَزَمَتْ خِنجراً على وَسَطِهَا ، فَجاءَ زَوجُها سَعْدُ أبو طَلحَةَ الأنصاريُّ رَسُولَ اللهِ ﷺ يومَ حُنَينٍ يُضحِكُ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَقَالَ : يا رسول اللهِ أَلَمْ تَرَ إلى أُمِّ سُلَيمٍ مَعَها خِنجَرٌ ؟! فقَالَ لَها رَسُولُ اللهِ ﷺ مَا تَصنَعينَ بِهِ يَا أُمَّ سُلَيمٍ ؟ قالَتْ : أَرَدْتُ إنْ دَنَا أَحَدٌ مِنَ المُشرِكينَ مِنِّي طَعَنْتُهُ))[2]

إنَّ هذهِ الرُّوحَ الجِهادِيَّةَ لَمْ تَقعُدْ بِأُمِّ أَيْمَنَ بَرَكَةَ بِنْتُ ثَعلَبَةَ حَاضِنَةِ النَّبيِّ ﷺ و رَاعيةِ شَأنِهِ بعدَ وَفَاةِ أُمِّهِ ، و ازدَادَتْ عِنَايَتُها بهِ عليه السلام بَعدَ وَفاةِ جَدِّهِ عبدُالمُطَّلِبِ . و لَمَّا بُعِثَ النَّبيَّ ﷺ كانتْ مِنَ السَّابقَاتِ إلى الإسلامِ ، و لِتُبَرْهِنَ عَلى صِدقِ إيمانها ، فقَدْ انطَلَقَتْ – على تَقَدُّمِ سِنِّها – تُشَارِكُ رسول اللهِ ﷺ و أَبطالَ الإسلامِ شَرَفَ مُنَاجَزَةِ أَعداءِ الحَقِّ ، و سَجَّلَ لَها التَّاريخُ مَواقِفِ تَشهَدُ لِشَجاعَتِها و بُطُولَتِها . كانَتْ معَ النِّسَاءِ اللَّواتي خَرَجْنَ إلى غَزوَةِ أُحُدٍ تَسْقي الجَرحَى ، و بينما كَانَتْ تَقُومُ بِمَهَمَّتِها رَمَاها أَحَدُ المُشرِكينَ بِسَهْمٍ وَ هُوَ حِبَّانُ بنُ العَرَقَةِ ، فوقَعَتْ أُمُّ أَيمَنَ أَرضَاً فَضَحِكَ حِبَّانُ لِذَلكَ ضَحِكاً شَديداً ، فَشَقَّ ذَلكَ على رَسُولِ اللهِ ﷺ ثُمَّ دَفَعَ إلى سَعدِ بنِ أبي وَقَّاصٍ بِسَهمٍ لا نَصْلَ لَهُ ، فقالَ : ((اِرمِ)) فَأَصَابَ السَّهمُ حِبَّانَ ، فَوَقَعَ مُستلقِياً على الأرضِ ، فَبَدَتْ عَورَتُهُ ، فَضَحِكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حَتى بَدَتْ نَواجِذُهُ ، ثُمَّ قالَ : ((**اسْتَقادَ لَها سَعدٌ ، أجَابَ اللهُ دعوتكَ ، و سَدَّدَ رَمْيَتَكَ**))[3]

وَ لَمْ تَنَلِ الإصابَةُ مِنْ عَزيمَةِ أُمِّ سَعدٍ و حِكمَتِهَا ، فَانطَلَقَتْ تُتَمِّمُ مَهمَّتَها بثَباتِها حَولَ النَّبيِّ ﷺ حِينَ انَهزَمَ بَعضُ المُسلمينَ بِمُخالَفَةِ رُمَاةِ السِّهامِ أَمرَهُ عليه السلام ((**فَرَاحَتْ تَحثُو التُّرابَ في وُجوهِهِمْ و تَقولُ:**

[1] صحيح البُخاري ، رقم الحديث 2724 ، و تُنظر الأحاديث 2746 ، 3600 ، 3837

[2] صحيح مُسلم ، دار الجيل ، بيروت ، رقم الحَديث 4783 ، و يُنظر (كَنزُ العُمَّالِ)) دارُ الرِّسالةِ ، دِمشقُ ، ج10 ، رقم الحديث 30232 ، و صفوةُ الصَّفوة ، مج1 ص369-370

[3] يُنظر أنساب الأشرافِ ، الإمام أحمد بن يحيى بن جابر البُلاذريُّ ، تحقيق د. مُحمّد حميد الله ، معهد المخطوطاتِ لِجامعة الدُّول العربية ، و دار المعارف بالقاهرة ، 1959 ، ج1 ، ص320

هاكَ المِغزَلَ ، فَاغزِلْ بِهِ ، و هَلُمَّ سَيْفَكَ ، ثُمَّ انطَلَقَتْ مَعَ نِسْوَةٍ تَطمَئنُّ إلى سَلامَةِ النَّبيِّ ﷺ و تَحمَدُ اللهَ عَلى سَلامَتِهِ)) [١]

وَ لَم يَكُنْ مَوقِفُ أُمِّ أَيمَنَ فِي غَزوَةِ خَيبرَ بأقلَّ رَوعَةً مِنْ مَوقِفِهَا فِي يَومِ أُحدٍ ، إذْ ((**شَهِدَ خَيبَرَ مع رَسُولِ اللهِ ﷺ نساءٌ مِنْ نِسَاءِ المُسلمينَ ، فَرَضَخَ لَهُنَّ رَسُول اللهِ ﷺ مِنَ الفَيءِ ، و لم يَضْرِبْ لَهُنَّ بِسَهمٍ))** [٢]

و قَدْ قَرَنَتْ أُمُّ أَيمَنَ القَولَ بالفِعلِ إذْ عَيَّرَتْ ابنَهَا بِالجُبنِ و التَخلُّفِ عَنْ غَزوةِ خَيبَرَ قَبلَ أَنْ تَعلَمَ العُذْرَ البَيِّنَ الّذي أَخَّرَهُ عَنِ الخُروجِ معَ النَّبيِّ ﷺ إلى الغَزوِ في خَيبَرَ ، و قَدْ عَذَرَ الشَّاعرُ حسَانُ بنُ ثَابتٍ الفارسَ البَطَلَ ، فمَا أَخَّرَهُ عَنِ الغَزوِ إلاّ مَرَضُ مَهْرِهِ :

عَلى حِينِ أَنْ قَالَتْ لأَيْمَنَ أُمُّهُ	جَبُنْتَ و لَمْ تَشْهَدْ فَوَارسَ خَيبَرِ
وَ أَيمَنُ لَمْ يَجْبُنْ و لَكِنَّ مُهرَهُ	أَضَرَّبَهُ شُربُ المَديدِ المُخمَّرِ
وَ لَولا الّذي قَدْ كَانَ مِنْ شَأْنِ مُهرِهِ	لَقَاتَلَ فِيهِمْ فَارساً غَيرَ أعسَرِ
و لكنَّهُ قَدْ صَدَّهُ فِعلُ مُهْرِهِ	و مَا كانَ مِنْهُ عِنْدَهُ غَيرَ أَيسَرِ [٣]

إنَّ شَرفَ مُشارَكةِ المَرأةِ بِتَجارِبِ الجِهَادِ و أَحداثِهِ زَادَ في بُنيانِ ضَبطِ مَشَاعِرِهَا الإيمانيَّةِ بِتَذَوُّقِ الانتِصَاراتِ و الهَزائِمِ . امْتَزَجَتْ مَشَاعرُ المرأةِ معَ حَيَويَّةِ التَّجربَةِ المُعاشَةِ الّتي أَضَاءَتْ فِكرَها و ضَميرَها بواقِعيَّتِها و ثِقَلِهَا حَتَّى غَدَتْ جُزءاً مِنْ كِيَانِهَا مُتمثِّلاً في دَمِهَا و أَعصَابِها ، و وُجدَانِها ، فَأَدَّتْ رِسَالَتَها .و القِيَمُ الأخلاقيَّةُ السَّماويَّةُ الّتي ارتَبَطَتْ بالأحداثِ الخَطيرَةِ ، كانَ لَها وَقعُها العَميقُ في نَفسِ المَرأةِ ، و سُرعَانَ مَا وَجَدَتْ لَها سَبيلاً مُيَسَّراً إلى الاستقرارِ في النَّفسِ و القَلبِ حَتَّى في أَحرَجِ المَواقِفِ حِينَ كانَ يُسقَطُ في أيدي الأَبطالِ ، و تَنكَسِرُ هِمَمُهُمْ.

---

[١] نفسه ، ص 326 ، و مَادة تَحثُو وَاويَّةٌ و يَائِيَّةٌ ، و هَلُمَّ : اسم فعل أمر يَستوي فيها المُفردُ و المُثنَّى و الجمع و المُذكَرُ و المُؤنَّثُ . و قَدْ تُلحَقُ بِها الضَّمائرُ في لُغَةِ نَجدٍ

[٢] السِّيرة النَّبويَّة ، ج ص1133 ، رضخ لهنَّ : أعطاهُنَّ عَطاءً يَسيراً.

[٣] السِّيرة النَّبويَّة ج2 ، ص1139 ، الأيسَرُ هُوَ الفَرَسُ الّذي يُعنى بِهِ صَاحِبُهُ ، و الأبياتُ الثَّلاثةُ الأولى في ديوان الشَّاعرِ ، ص257

بَطَلُ الأَبْطَالِ :

لَقَدْ أَقَامَ اللهُ –عَزَّ وَجَلَّ– دِينَ الإِسْلاَمِ بالحُجَّةِ وَ البُرْهَانِ في النُّفُوسِ الخَيِّرَةِ ، ثُمَّ بِالسَّيفِ وَ السِّنَانِ لِمَنْ ضَلَّ السَّبِيْلَ ، وَ كَانَ اللِّسَانُ نَصِيرَاً لَهُمَا فِي كُلِّ زَمَانٍ وَ مَكَانٍ . وَ ذَلِكَ لا يَتِمُّ إلاَّ بِثباتِ الجَنَانِ ، وَ تِلْكَ المَنْزِلَةُ الشَّرِيفَةُ لا يَتَبَوَّؤُها إلاَّ مَنْ كَانَ في قِمَّةِ البُطُولةِ وَ الفُروسِيَّةِ ، وَ هِيَ مُحَرَّمَةٌ عَلَى كُلِّ مَهِينٍ جَبَانٍ.

وَ البُطُولَةُ في نُصْرَةِ الحَقِّ مِنْ أَخْلاَقِ المُؤمِنينَ وَ حُلْيَةِ الأَنْبِياءِ ، يَصْدَعُونَ بمَا يُؤمَرُونَ بِشَجَاعَةٍ تَجْبَهُ البَاطِلَ بِمَا يُعْلِي كَلِمَةَ الحَقِّ ، لا تُبَالي بِجَوْلَةِ الظُّلْمِ ، وَ لاَ تُقِيمُ لِعُتَاتِهَا وَزْنَاً ، فَاللهُ – سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى– يَشُدُّ أَزْرَهُمْ ، لأَنَّهُمْ هُمُ ((**الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَةَ اللهِ وَ يَخْشُونَهُ وَ لاَ يَخْشَوْنَ أَحَدَاً إلاَّ اللهَ وَ كَفى باللهِ حَسِيباً**))[1]

وَ مِنْ أَرْوَعِ أَلْوَانِ البُطُولَةِ الإِيمَانُ بالعَقِيْدَةِ ، وَ اليَقِينُ بالفِكْرِ ، وَ الثَّبَاتُ عَلى المَبْدَأِ ، وَ الإِنْسَانُ إِذَا مَنَّ اللهُ عَلَيْهِ بِهَذِهِ الفَضِيلَةِ ، لم يَتَهَيَّبِ المَصَاعِبَ ، وَ يَهُونُ عَليهِ كُلُّ أَمْرٍ جَلَلٍ ، وَ لَقَدْ ضَرَبَ رَسُولُ اللهِ –صلى الله عليه وسلم– القُدْوَةَ المُثْلى لِكُلِّ فَارِسٍ بَطَلٍ ، فَرَفَعَ اللهُ لَهُ ذِكْرَهُ في كُلِّ مَيْدَانٍ ، وَ أَبْقَى لَهُ في كُلِّ نَفْسٍ أَثَرَاً مُضِيئَاً مِنْ سِيرَتِهِ لاَ يَطْمِسُهُ حِجَابُ الجُحُودِ .

إنَّ مُحَمَّدَاً –صلى الله عليه وسلم– احْتَمَلَ مِنَ الأَذى النَّفْسيِّ ما لا تَحْتَمِلُهُ الجِبَالُ ، فَقَدَ شَتَمَهُ قَوْمُهُ ، وَ آذَوْهُ ، وَ سَلَّطُوا عَلَيْهِ سُفَاءَهُمْ ، وَ اتَّهَمُوهُ بالجُنُونِ ، و السِّحْرِ ، وَ الكَذِبِ ، وَ ثَبتَ ثَبَاتَاً لَيْسَ لَهُ نَظِيرٌ في تَاريخِ البَشَرِ ، إِنَّهَا مَواقِفُ يَقْنُطُ فيها أَجْلَدُ الأَبْطَالِ ، وَ هُوَ يُنَاجِي رَبَّهُ : إِنْ لَمْ يَكُنْ بِكَ غَضَبٌ عَلَيَّ فَلاَ أُبالِي .

وَ حِينَ لَمْ تُؤثِّر هَذِهِ الأَهْوَالُ في عَزِيمَةِ النَّبيِّ – صلى الله عليه وسلم– البُطُولِيَّةِ عَرَضَتْ عَلَيْهِ قُرَيْشٌ مِنَ المُغْرَيَاتِ مَا يَرْضَخُ لَهَا أَصْلَبُ الرِّجَالِ ، وَ كَانَ لَهُ –عليه السلام– مَوقِفٌ بُطُولِيٌّ آخَرُ ، لَمْ يُكَرَّرْ في تَارِيخِ الجِنْسِ البَشَرِيِّ ، فَأَبَى بِكِبْرِياءِ الإِيمَانِ ، وَ بِعَظَمَةِ العَقِيْدَةِ .

لَقَدْ كَانَتْ هَذِهِ البُطُولَةُ سِجلاًّ نَاصِعَاً يَدْمَغُ بَاطِلَ مُحْتَرِفِي الغَزْوِ الفِكْرِيِّ وَ التَّشْكِيكِ عَلَى مَدَى التَّاريخ ((**لَقَدْ فَكَّرَ أَمْثَالُ كريمر وَ فَان فاوتن طَويلاً ، ثُمَّ لَمْ يَجِدُوا مِنْ سَبِيْلٍ لأَدَاءِ مُهِمَّةِ التَّشْكِيكِ وَ الغَزْوِ إلاَّ أَنْ يُغْمِضُوا أَعْيُنَهُمْ عَنِ الحَقِيْقَةِ وَ يَزْعَمُوا أَنَّ دَوَافِعَ مُحَمَّدٍ –عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَ السَّلاَمُ–**

[1] الأحزاب ، 39

فِي دَعْوَتِهِ إِنَّمَا كَانَتِ الرَّغْبَةُ فِي السِّيَادَةِ وَ الْمُلْكِ ، وَ إِنْ صَدَمُوا رُؤُوسَهُمْ فِي هَذَا الزَّعْمِ بِصُخُورٍ عَاتِيَةٍ تَقْذِفُهُمْ وَ تَرَدُّهُمْ إِلى الوَرَاءِ أَشْوَاطَاً)) [1] .

تَجَلَّتْ بُطُولَةُ النَّبِيِّ -ﷺ- مُطْلَقَةً فِي الفِعْلِ وَ القَوْلِ ، وَ المَوقِفِ ، وَ الإِدَارَةِ ، وَ كَانَ قَوِيَّ الشَّخْصِيَّةِ ، قَوِيَّ الرُّوحِ حَتَّى تَكْتَمِلَ شَخْصِيَّتُهُ .

تَمَثَّلَتْ عَظَمَةُ بُطُولَتِهِ النَّبِيْلَةِ فِي سُمُوِّ المَطَامِحِ ، وَ عَظَمَةِ المَقَاصِدِ ، وَ رَجَاحَةِ العَقْلِ ، لَمْ يُمْسِكْ سَيْفَاً حَتَّى يَقْتُلَ أَحَدَاً مِنَ المُشْرِكِينَ ، وَ فِي غَزْوَةِ أُحُدٍ طُلِبَ مِنْهُ أَنْ يَدْعُوَ عَلَى كُفَّارِ قُرَيْشٍ
وَ قَدْ أَثْخَنَتْهُ الجِرَاحُ ، فَتَجَلَّتْ بُطولَتُهُ الأَخْلاقِيَّةُ ، وَ رَفَضَ أَنْ يَدْعُوَ عَلَيْهِمْ رَجَاءَ أَنْ يَخْرُجَ مِنْ أَصْلابِهِمْ مَنْ يَحْمِلُ العَقِيدَةَ فِي قَلْبِهِ ، وَ يُنَافِحُ عَنْهَا بِسَيْفِهِ .

وَ كَمَا اكْتَمَلَتْ فِيهِ -الطَّيْكُلا- البُطُولَةُ الخُلُقِيَّةُ ، فَكَانَ خَيْرَ الأَبْطَالِ فِي الحَقِّ ، فَقَدْ اكْتَمَلَتْ فِيهِ البُطُولَةُ البَدَنِيَّةُ ، وَ هَذَا مَا تَرَكَ عَلَى التَّارِيخِ سَعَادَةَ البَشَرِيَّةِ فِي الدُّنْيَا و الآخِرَةِ ، وَ قَدْ أُثِرَ عَنْهُ -الطَّيْكُلا- أَنَّهُ صَارَعَ الأَبْطَالَ قَبْلَ البِعْثَةِ **((وَ مِنْهُمْ كِلْدَةُ بنُ أُسَيْد وَ رُكَانَةُ بْنُ عَبْدِ يَزِيدٍ ، فَكَانَ هُوَ الغَالِبُ دُونَ فَخْرٍ أَو مُبَاهَاةٍ))** [2] وَ أَمَّا بَعْدَ البِعْثَةِ فَقَدْ شَهِدَ لِعُلُوِّ أَخْلاقِهِ المُنْصِفُونَ مِنْ غَيْرِ العَرَبِ ، يَقُولُ تُومَاس كارليل مُتَحَدِّثَاً عَنْ حُرُوبِهِ مَعَ جُفَاةِ الأَعْرَابِ وَ قَسْوَتِهِ وَ رَحْمَتِهِ مَعَهُمْ : ((**لَمْ تَخْلُ الحُرُوبُ الشَّدِيدَةُ الَّتِي وَقَعَتْ لَهُ مَعَ الأَعْرَابِ مِنْ مَشَاهِدِ قَسْوَةٍ ، وَ لكنَّها لَمْ تَخْلُ كَذَلِكَ مِنْ دَلائِلِ رَحْمَةٍ وَ غُفْرَانٍ . وَ كَانَ مُحَمَّدٌ لا يَعْتَذِرُ مِنَ الأُولى ، و لا يَفْتَخِرُ بِالثَّانِيَةِ . إِذْ كَانَ يَرَاهَا مِنْ وَحْيِ وُجْدَانِهِ وَ أَوَامِرِ شُعُورِهِ**)) [3]

وَ كَانَتْ هَاتَانِ الخَلَّتَانِ عَوْنَاً لَهُ فِي تَرْبِيَةِ أَصْحَابِهِ عَلَى البُطُولَةِ وَ الشَّجَاعَةِ فِي مُواجَهَةِ البَاطِلِ ، وَ جَعَلَهُمْ يَسْتَمْسِكُونَ بِعُرْوَةِ الشِّيَمِ العَالِيَةِ فِي بُطُولاتِهِمْ .

وَ لَمَّا أُخْرِجَ -الطَّيْكُلا- مِنْ مَكَّةَ إِلى المَدِينَةِ خَرَجَ شُجَاعَاً بَطَلاً وَ بَشَّرَهُ اللهُ -ﷻ- بِرَدِّهِ إِلَيْهَا : ((**إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ القُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلى مَعَادٍ))** [4] ، وَ تَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ ، فَعَادَ -الطَّيْكُلا- شُجَاعَاً بَطَلاً ، كَانَتْ بُطُولَتُهُ أَسْطَعَ مَا ذَكَرَهُ التَّارِيخ ، إِذْ تَلاشَتْ سَطْوَةُ قُرَيْشٍ وَ جَبَرُوتِهَا،
وَ ارْتَقَى هُوَ -الطَّيْكُلا- إِلى أُفُقٍ أَعْلَى لا يُجَارَى فِي البُطُولَةِ حِينَ صَفَحَ عَنْهُمْ الصَّفْحَ الجَمِيلَ .

---

[1] فِقْهُ السِّيرَةِ النَّبَوِيَّةِ ، د.مُحَمَّد سَعِيد رمضان البُوطِيُّ ، دَارُ الفِكر دمشق ، ط27 ، 1428 / 2007 – ص82 .
[2] بُطُولاتٌ إِسْلامِيَّةٌ وَ عَرَبِيَّةٌ ، أَحْمَد الشُّرْبَاصِيُّ ، الدَّارُ القَوْمِيَّةُ لِلطِّبَاعَةِ وَ النَّشْرِ ، القَاهِرة ، د.ت ، ص103 .
[3] الأَبْطَالُ : تُوماس كارليل ، تَرْجَمَةُ مُحَمَّد السِّبَاعيّ ، دار الكِتابِ العَربيِّ ، لِلتَّأليفِ و التَّرْجَمَةِ وَ النَّشْرِ ، بيروت ، د.ت ، ص85 .
[4] القَصَص : مِنَ الآية 85

وَ مِنَ البُطُولاتِ النَّبوِيَّةِ بُطُولَةٌ يَذْكُرُهَا تَارِيخُ الخُلُقِ القَويم ، فَعَنْ جَابر بن عَبْدِاللهِ -رَضي اللهُ عَنْهُمَا- أَنَّهُ غزَا مَعَ رَسُولِ اللهِ -ﷺ- قِبَلَ نَجْدٍ ، فَلَمَّا قَفَلَ رَسُولُ اللهِ -ﷺ- قَفَلَ مَعَهُ ، فَأَدْرَكَتْهُمْ القَائِلَةُ فِي وَادٍ كَثِيرِ العِضَاهِ ، فَنَزَلَ رَسُولُ اللهِ -ﷺ- وَ تَفَرَّقَ النَّاسُ يَسْتَظِلُّونَ بِالشَّجَرِ ، فَنَزَلَ رَسُولُ اللهِ -ﷺ- تَحْتَ سَمُرَةٍ وَ عَلَّقَ بِهَا سَيْفَهُ ، وَ نِمْنَا نَوْمَةً ، فَإِذَا رَسُولُ اللهِ -ﷺ- يَدْعُونا ، وَ إذا عِنْدَهُ أعرابيٌّ ، فَقَالَ : (**إنَّ هذا اخْتَرَطَ سَيْفِي وَ أنا نَائِمٌ ، فَاسْتَيقَظْتُ وَهُوَ فِي يَدِهِ صَلْتَاً ، فقال : مَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّي ، قُلتُ : اللهُ ، فَشَامَ السَّيْفَ ، فَهَا هُوَ جَالِسٌ**) ، ثُمَّ لَمْ يُعَاقِبْهُ .[1]

لَقَدْ رَبَطَ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللهُ عليهِ وَ سَلَّمَ – قُوَّتَهُ بِمَدَدٍ وَ قُوَّةٍ منَ اللهِ ، وَلَمْ يَتَّخِذْ منْ قُوَّتِهِ البَدَنِيَّةِ سَبيلاً إلى مُلاقَاةِ ذَلِكَ الرَّجُلِ ، وَ فِي هَذا دَرْسٌ لأصْحابِهِ ، فَمَا النَّصرُ وَ إن تَعَدَّدَتْ أسْبَابُهُ إلا من عِنْدِ اللهِ العَزيزِ الحَكيمِ . لَقَدْ كَانَ – عَلَيهِ السَّلامُ مَثَلاً أعْلى فِي الرَّحْمَةِ و الرَّأفَةِ ، وَ كَانَ مَثلاً أعلى فِي الشِّدَّةِ و التَّأديبِ لأهلِ البَغْيِ وَ الطُّغْيَانِ أمثَالِ ذلكَ الرَّجُلِ الباغِي .

إنَّ الرَّسُولَ الكَرِيمَ الّذي آمَنَ بعَدَالةِ مَبْدَئِهِ ، وَ نَافَحَ عَنهُ بِبُطُولةٍ نادِرَةٍ ، و استَطاعَ بِتِلكَ العَدَالةِ و البُطُولَةِ أن يُحَقِّقَ المُعجزاتِ ، إنَّ هذا الرَّسُولَ و القَائِدَ العَظيمَ لَمْ يَغفَلْ عَن بَثِّ تِلكَ الرُّوحِ المَعنَوِيَّةِ فِي نُفُوسِ الأبطالِ مِنْ حَولِهِ ، فَأودَعْتَ فِي تِلكَ النُفُوسِ الصَّبْرَ و العَزِيمَةِ ، فَـتَابَعَ تَحقُّقُ المُعجزاتِ و بِفَضلِ الرُّوحِ تِلكَ غَلَبَتْ فِئَةٌ قَليلَةٌ فِئاتٍ كَثيرةً بإذنِ اللهِ.

وَلَقَدْ أَرَادَ رَسُولُ اللهِ – ﷺ – لِصَحَابَتِهِ مِنْ حَوْلِهِ أَنْ يَكُونُوا عَلَى شَاكِلَتِهِ ، فَيُحَقِّقُوا فِي أنفُسِهِمْ وَفِي المواطن كُلِّهَا – ما يَجْعَلُهُمْ أَهْلاً لِتِلْكَ الغَلَبَةِ الفَذَّةِ و الانتِصَارِ الفَرِيدِ ، و إتْقَانِ الجِّهَادِ ، وَ الإقْدَامِ عَلَى التَّضْحِيَةِ ، وَ الثَّبَاتِ فِي مَواطِنِ البَأسِ إلى جانب العناية بتَرْبِيَةِ النَّفْسِ تَربِيَةً قَوِيمَةً ، فيها مِنْ مَبَادِئِ الفُرُوسِيَّةِ صِفَاتُ القُوَّةِ وَ التَّمَاسُكِ ، وَ الثِّقَةُ بِأَنَّ النَّصْرَ مِنْ عِنْدِ اللهِ . وَ لَكِنَّ هَذِهِ الصُّورَةُ الَّتِي رَسَمَهَا القُرآنُ المَجِيدُ لِمُحَمَّدٍ وَ صَحْبِهِ غَامَتْ يَوْمَ حُنَينٍ ، حِينَ لَمْ تُحْمَدْ طِبَاعُ الصَّحَابَةِ وَ فِعَالَهُمْ ، إِذْ سُرُّوا بِكَثْرَتِهِمْ ، وَ وَقَعَ فِي قُلُوبِهِمْ أَنَّهُمْ سَيَغْلِبُونَ بِتِلْكَ الكَثْرَةِ ، وَ لَنْ يُهْزَمُوا مِنْ قِلَّةٍ ، وَ بِذَلِكَ افتَخَرَ العَبَّاسُ بنُ مرداس ، و عبَّرَ عَنِ الشُّعورِ الّذي خَالَطَهُ الزَّهْوُ و الإعجابُ بالنَّفْسِ لِكَثرَةِ العَدَدِ الّذي تَكادُ الأرضُ تَأخُذُها الرَّجفَةُ هَيبَةً و رَهبَةً مِنهُ:

---

[1] صَحيحُ البُخَاريِّ ، رقم الحديث 2756 ، وَتُنْظَرُ الأحَاديثُ : 2753 ، 3898 ، 3905 ، 3906 ، 3908 ، العِضَاة : شجرة كثيرة الشوك ، سَمُرَة : شَجَرة ، صَلْتاً : مُصْلَتاً ، شَامَ السَّيْفَ أغْمِدَهُ .

أبلغْ هَوازِنَ أَعلاها و أسْفَلَها مِنِّي رِسَالَةَ نُصْحٍ فِيهِ تِبْيَانُ
إنِّي أَظُنُّ رَسُولَ اللهِ صَابَحَكُمْ جَيشاً لَهُ فِي فَضَاءِ الأرضِ أركانُ
فِيهِمْ سُلَيْمٌ أَخُوكُمْ غَيرُ تَارِكِكُمْ و المُسْلِمُونَ عِبَادُ اللهِ غَسَّانُ
و فِي عِضَادَتِهِ اليُمنَى بَنُو أَسَدٍ و الأُخرَيَانِ بَنُو عَبسٍ و ذِبْيَانُ
تَكَادُ تَرجُفُ مِنْهُ الأَرضُ رَهبَتَهُ و فِي مُقَدَّمِهِ أَوسٌ و عُثْمانُ [1]

لقد ذَهَبَ صَحابةُ رَسُولِ اللهِ ﷺ بذَلكَ إلى الأَسبابِ دُونَ رَبْطِها بالْمُسَبِّبِ ، فَأَرادَ اللهُ ﷻ أَنْ يَحُلَّ فِيهِمْ عِقَابٌ يُخزيهِمْ ، و يُعلي مِنْ قَدْرِ رَسُولِهِ بِثَبَاتِهِ و بُطُولَتِهِ ، فَلَقَدْ ثَبَّتَ اللهُ قَدَمَ نَبيِّهِ و رَبَطَ على قَلبِهِ ، فَضَربَ مَثَلاً رائعاً في الصُّمودِ و البُطُولَةِ ، خَليقاً بأَنْ يُحتَذَى و يُلهِمَ الأَجيالَ.

كَمَنَتْ ثَقِيفُ و هَوازِنُ في شِعابِ حُنَين و جَوانبِهِ و مَمرَّاتِهِ الضَّيِّقَةِ استِعداداً لِمُباغَتَةِ المُسلمينَ ، و لَمَّا بَدَأَ الْمُسْلِمُونَ هُجُومَهُمْ كَانَتْ الظُّلْمَةُ تُخالِطُ النُّورَ ، فَلَمْ يَروا عَدُوَّهُمْ ، و عَلى غِرَةٍ أَخذتْ هَوازِنُ و ثَقيفٌ المُسلمينَ ، و انقَضُّوا عَلَيهِمْ انقِضَاضاً بَاغَتَهُمْ ، و أَشَاعَ في صُفُوفِهِمْ الفَوضَى ، فسَارَعَ بَعضُهُمْ إلى الهَرَبِ ، أمَّا الرَّسُولُ فقَدْ كانَ ثَابتاً في مَكانهِ لا يَتزَعْزَعْ
((وَ انْحَازَ رَسُولُ اللهِ –ﷺ– ذَاتَ اليَمِينِ ، ثُمَّ قَالَ : أَينَ أَيُّهَا النَّاسُ؟ هَلُمُّوا إِلَيَّ ، أَنَا رَسُولُ اللهِ ، أَنَا مُحَمَّدُ بنُ عَبْدِ اللهِ . وَ حَمَلَتِ الإِبِلُ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ ، فَانْطَلَقَ النَّاسُ ، إِلاَّ أَنَّهُ بَقِيَ مَعَ رَسُولِ اللهِ –ﷺ– نَفَرٌ مِنَ الْمُهَاجِرينَ وَ الأَنْصَارِ وَ أَهْلِ بَيْتِهِ)) [2]

و حَدَّثَ البراءُ بن عازب عن شجاعة النبيِّ حِينَ ولَّى النَّاس مُدبرين إذ قال لهُ رجلٌ((يا أبا عُمارةَ ! وَلَّيتُمْ يومَ حُنين ؟ قال: لا واللهِ ما ولَّى النَّبيُّ ﷺ و لكن ولَّى سُرعانُ النَّاس ، فَلقِيَهُمْ هَوازِنُ بالنَّبلِ ، و النَّبيُّ ﷺ على بَغلَتِهِ البَيضاء ، و أبو سُفيانَ بن الحارث آخِذٌ بِلجامِها ، و النَّبيُّ ﷺ يقول : ((**أنَا النَّبيُّ لا كَذِبْ ، أنا ابن عبدالمطلِبْ**)) [3]

ثُمَّ أَمَرَ النَّبيُّ –ﷺ– عَمَّهُ العَبَّاسَ ، وَ كَانَ ذَا صَوْتٍ جَهُورِيٍّ أَنْ يُنَادِيَ فِي النَّاسِ لِيَعُودُوا وَ يَثْبُتُوا ، فَنَادَى ، فَعَادُوا وَ هُمْ يَقُولُونَ : لَبَّيكَ ، لَبَّيكَ ، وَ اسْتَعَادُوا رَبَاطَةَ جَأْشِهِمْ مُجْتَمِعِينَ حَوْلَ النَّبيِّ ، **((وَ كَانَتِ الدَّعْوَى أَوَّلَ مَا كَانَتْ : يَا لَلأَنْصَارِ! ثُمَّ خَلُصَتْ أَخِيرَاً : يَا لَلخَزْرَجِ! وَ كَانُوا**

[1] السيرة النبوية ، ج2 ، ص1237 ، و ينظر كتاب البداية و النهاية ، ج3 ، ص442
[2] السِّيرَةُ النَّبَوِيَّةُ ، ج2 ، ص 1238 .
[3] صحيح البخاري رقم الحديث 2719 ، و تنظر الأحاديث 2772، 2877 ، 4061 ، 4063

صُبُرَاً عِنْدَ الحَرْبِ ، فَأَشْرَفَ رَسُولُ اللهِ ﷺ في رَكَائِبِهِ ، فَنَظَرَ إلى مُجْتَلَدِ القَوْمِ ، وَ هُمْ يَجْتَلِدُونَ ، فَقالَ : ((الآنَ حَمِيَ الوَطِيسُ))[١]

وَ قَوْلُهُ –عليه السلام– : ((الآنَ حَمِيَ الوَطِيسُ)) وَ هُوَ يَعْنِي حَمَسَ الحَرْبُ وَ عَظُمَ الخَطْبُ ، مَجَازٌ ، لأَنَّ الوَطِيسَ حَفِيْرَةٌ تُحفَرُ فَتُوقَدُ فِيهَا النَّارُ للاشْتِوَاءِ ، وَ لاَ وَطِيسَ هُنَاكَ عَلى الحَقِيْقَةِ ، وَ إِنَّمَا المُرَادُ هُنَا حَرُّ القِرَاعِ وَ شِدَّةُ المِصَاعِ و الْتِفَافُ الأَبْطَالِ[٢]

لَقَدْ أَبْلَى المُسْتَجِيبُونَ لِنِدَاءِ رَسُولِ اللهِ –ﷺ– بَلاَءً حَسَنَاً أَوْقَعَ الهَزِيمَةَ بِهَوَازِنَ وَ ثَقِيفٍ ، وَ كَانَ نَصْرُ اللهِ المُؤَزَّرَ لِلمُسْلِمينَ بِفَضْلِ صُمُودِ رَسُولِ اللهِ – ﷺ– وَ بُطُولَتِهِ إِذْ دَعَاهُمْ ، وَ كَانَ المَوْتُ أقرَبَ مِنهُ إلى شِراكِ نَعلهِ[٣]

وَ لَقَدْ شَهِدَ الصَّحَابَةُ الكِرَامُ لِلنَّبِيِّ بالبُطُولَةِ وَ الإِقْدَامِ وَ الفِدَاءِ وَ تَقَدُّمِ الصُّفُوفِ حَتَّى غَدَا المَثَلَ الأَعْلَى فِي مَيادينِ الجِهادِ ، وَ هَذِهِ شَهَادَةٌ لِلصَّحَابيِّ الجَليلِ عُمْرَانَ بنِ الحُصَينِ بِبُطُولَةِ رَسُولِ اللهِ ((**مَا لَقِيَ النَّبيُّ كَتِيْبَةً إلاَّ كَانَ أَوَّلَ مَنْ يَضْرِبُ**))[٤]

وَ لَقَدْ ذَكَرَ التَّاريخُ مَواقِفَ كَثِيرةً لأَبْطَالٍ لاَذُوا بالفِرَارِ ، وَ فَرُّوا مِنَ المُواجَهَةِ ، لَكِنَّهُ لم يَسْتَطِعْ أَنْ يُسَجِّلَ مَوْقِفَاً وَاحِداً يَمَسُّ بُطُولَةَ رَسُولِ اللهِ بِمَا يَشِينُ ((**فَإِنَّهُ لَمْ يَقْبَلْ أَبَدَاً أَنْ يَتْرُكَ المَيْدَانَ مُنْهَزِمَاً**))[٥] بَلْ كَانَ عليه السلام جُنَّةً لأَبْطَالِ المُسْلِمينَ إِذَا اشْتَدَّ البَأْسُ ، وَ احمَرَّتْ الحَدَقُ ((**وَ هَا هُوَ ذا البَطَلُ المُجَاهِدُ الشُّجَاعُ عَلِيُّ بنُ أَبي طَالِبٍ –رضي الله عنه– يَقُولُ : كُنَّا إِذَا حَمِيَ البَأسُ ، و احْمَرَّتِ الحَدَقُ اتَّقَيْنَا بِرَسُولِ اللهِ –ﷺ– فَمَا يَكُونُ أَحَدٌ أَقْرَبَ إلى العَدُوِّ مِنْهُ ، لَقَدْ رَأَيْتُنَا يَوْمُ بَدْرٍ وَ نَحْنُ نَلُوذُ بِرَسُولِ اللهِ –ﷺ– ، وَ هُوَ أَقْرَبُنَا إلى العَدُوِّ و كانَ من أشدِّ النَّاس يومئذٍ بَأساً**[٦]

---

[١] المجازات النبوية ص39

[٢] المَجَازَاتُ النَّبَوِيَّة ، ص39 ، 40 و المِصَاعُ : المُضارِبةُ بالسّيف .

[٣] نَفسُهُ ص 63 - 64 ، و احمِرارُ الحَدَقِ كِنَايَةٌ عَنْ شِدَّةِ الغَضَبِ .

[٤] الفِداءُ في الإِسلامِ ، سِلسِلة كتاب ((اِقرَأ)) د.أحمد الشُّرْبَاصيّ ، دار المعارف - مصر ، 1969 ، ص62 - 63 .

[٥] نَفْسُهُ ص 63 .

[٦] الفداء في الإسلام ، سلسلة كتاب إقرأ ، د. أحمد الشرباصي ، دار المعارف – مصر ، 1969 ، ص62-63 ، احمرار الحدَق كناية عن شدَّة الغضب

و يُبيِّنُ البراءُ بن عازب رضي اللهُ عنه خَصائصَ النَّبيِّ ﷺ في عَظَمَةِ بُطولَتِهِ الّتي صَاغَتْ أمَّةً مِنْ جديدٍ ، و إنَّ بُطولته ﷺ لَتُقَاسُ بما تَركَتْ من آثارٍ خَالدَةٍ طَيِّبَةٍ في مَيادينِ لِقَاءِ العَدوِّ ، يَقُولُ البَراءُ : ((كُنَّا – وَاللهِ – إذا احمرَّ البأسُ نَتقِّي بِهِ ، و إنَّ الشُّجاعَ مِنَّا الّذي يُحاذي بِهِ ، يَعني ﷺ))[1]

وَ تَجَلَّى فِي بُطُولَةِ النَّبِيِّ – ﷺ – مَبْدَأُ الإيثارِ فِي مُواجَهَةِ الخَطَرِ ، فَإِذَا كَانَ المُؤمِنُونَ يُؤثِرُونَ اللهَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ ، فَيَذَرُونَ الحَيَاةَ ، وَ يُلَبُّونَ نداءَ الجِهَادِ فَإنَّ النَّبِيَّ – ﷺ – يُؤْثِرُ صَحَابَتَهُ عَلَى نَفْسِهِ ، فَقَدْ سَمِعَ الصَّحَابَةُ هَيْعَةً حَوْلَ المَدِينَةِ ، فَرَكِبَ الفُرْسَانُ يُريدُونَ أَنْ يَعْلَمُوا مَصْدَرَ الضَّجَّةِ ((**فَإِذَا هُمْ يَجِدُونَ رَسُولَ اللهِ –عَلَيْهِ صَلَوَاتُ اللهِ وَ سَلاَمُهُ رَاكِبَاً جَوَادَاً عَارِياً لأبي طَلْحَةَ ، وَ قَدْ سَبَقَهُمْ إلى الصَّوْتِ، وَ عَرَفَ جَلِيَّةَ الأَمْرِ ، وَ رَجَعَ يُطَمْئِنُهُمْ قَائِلاً :لَنْ تراعُوا**))[2]

وَ الحَقِيقَةُ النَّاصِعَةُ الَّتِي لاَ جِدَالَ فِيها أَنَّ ثَبَاتَ النَّبِيِّ –ﷺ– كَانَ سَبَبَاً فِي تَثْبِيتِ أَقْدَامِ المُؤمِنِينَ وَ أَفْئِدَتِهِمْ إذعَانَاً لأَمْرِ اللهِ – ﷻ – الَّذي نَهَى نَهْيَاً حَازِماً عَنِ الفِرَارِ مِنْ مُواجَهَةِ العَدُوِّ ، وَ حَدَّدَ الحَالاَتِ الَّتِي يُمْكِنُ لِلمُؤمِنِ أَنْ يُعْطِيَ ظَهْرَهُ لِلْعَدُوِّ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ((**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إذا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفَاً فَلاَ تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ ، وَ مَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبَرَهُ إلاَّ مُتَحرِّفَاً لِقِتَالٍ أو مُتَحَيِّزَاً إلى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ وَ مَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَ بِئْسَ المَصِيرُ**))[3]

و لا يُمكن التَّحدث عَن البُطُولةِ دونَ التَّعرُّضِ للجُبنِ ، و لا يمكنُ تَحديدُ الشَّجاعَةِ إلا بِمُقابلَتِها بالخوفِ و لَمْ يَخشَ أكثرُ الأبطالُ الجَّاهليين ثقةً بأنفِسهِمْ مِنَ الاعترافِ بأَنَّهُمْ أحسُّوا به ، و لكنَّ النَّبيَّ ﷺ استطاعَ أن يَقهَرَ الخَوفَ و ينتزعَهُ مِنْ صُدورِ أَصحابِهِ و خَاضَ بِهِمْ المَنايا غَيرَ آبهينَ بمَا يُلاقونَ بَعدَ أن غَرَسَ في نفوسِهِمْ الإيمانَ بالرِّسَالةِ الّتي نَزَلَتْ عَليهِ مِنَ السَّماءْ.

و لَقَدْ أَرَادَ رَسُولُ اللهِ – ﷺ – أَنْ تَزْدَانَ نُفُوسُ المُؤمِنِينَ بالعِزَّةِ العَالِيَةِ ، الدَّالةِ عَلى سُمُوِّ النَّفْسِ وَ شَرَفِ الهِمَّةِ ، فَكَانَ يُعَلِّمُهُمْ كَلِمَاتٍ كَمَا تُعَلَّمُ الكِتَابَةُ ، وَ مِنْ هَذِهِ الكَلِمَاتِ : ((**اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الجُبْنِ**)) [4] .

[1] أخرجَه مسلم برقم 4716 ، دار الجيل ، بيروت د . ت
[2] بُطولاتٌ إسلاميَّة و عَربيَّة ، ص 103 .
[3] الأنفال ، 15 ، 16
[4] صَحيحُ البُخاريِّ مِنَ الحَديثِ 2667 ، وَ مِنَ الحديثِ 6027

وَ الُمُتَتَبِّعُ لِسيرَةِ النَّبيِّ –عليه السلام– يَجدُ أَنَّ مِثالِيَّةِ البُطُولَةِ الكَريمَةِ قَدْ صَارَتْ في ذَاتِهِ وَ حَيَاتِهِ حَقَائِقَ وَ وَقَائِعَ ، وَ غَدَا بِهَا مَثَلاً فَرِيْدَاً لِلشَّخْصِيَّةِ الكَامِلَةِ الُمحَصَّنَةِ بِمَكَارِمِ الأَخْلاَقِ ، وَ فَضَائِلِ الأَعْمَالِ الَّتِي أَظْهَرَتْ عِزَّةَ الإِسْلاَمِ وَ حَمَلَهَا أَهْلُهُ السَّابِقُونَ الَّذِينَ عَرَفُوا قُبْحَ كُلِّ أَمْرٍ ، فَكَانُوا أَوَّلَ الُمنْتَهِينَ عَنْهُ ، وَ عَرَفُوا جَمَالَ كُلِّ أَمْرٍ ، فَتَحَلَّوا بِهِ ، فَانْطَلَقُوا بِمَا حَمَلُوا مِنَ العُبُودِيَّةِ إِلى الحُرِّيَّةِ ، وَ حَفِظُوا لِلكَرَامَةِ الإِنْسَانيَّةِ حَقَّهَا في حِينَ كَانَ الكُفْرُ مُلِحَّاً في الُمجَاهَرَةِ في الطُّغْيَانِ وَ الاسْتِعْلاَءِ في الأَرْضِ.

وَ الشَّاعِرُ عَبَّاسُ بنُ مِرْدَاسٍ يَمْتَدِحُ بُطُولَةَ النَّبيِّ – ﷺ– وَ خِبْرَتَهُ في قِيادَةِ الأَبْطَالِ الفُرْسَانِ ، وَ تَجْنِيدِ آرائِهِمْ وَ قُلوبِهِمْ لإِعْلاءِ كلمةِ اللهِ ، تُقَادُ بِعَيْنِ عِنَايَةِ اللهِ وَ حِفْظِهِ :

حَلَفْتُ يَمِيناً بَرَّةً بِمُحَمَّدٍ ... فَأَلْفَيْتُهُ إِلْفَاً مِنَ الخَيْلِ مُعْلَمَا
سَرَاياً يَرَاهَا اللهُ وَ هُوَ أَمِيرُهَا ... يَؤُمُّ بِهَا في الدِّينِ مَنْ كانَ أَظْلَمَا
عَلَى الخَيْلِ مَشْدُودَاً عَلَيْنَا دُرُوعُنَا ... وَ خَيْلاً كَدُفَّاعِ الأَتِيِّ عَرَمْرَما
أَطَعْنَاكَ حَتَّى أَسْلَمَ النَّاسُ كُلُّهُمْ ... وَ حَتَّى صَبَحْنَا الخَيْلَ أَهْلَ يَلَمْلَمَا [1]

وَ حِينَ أَجْمَعَ رَسُولُ اللهِ –ﷺ– السَّيْرَ إِلى الطَّائِفِ ، قَالَ كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ يَصِفُ زَحْفَ الصَّحَابَةِ الأَبْطَالِ فُرْسَانَاً وَ رِجالاً ، وَ عَلَى رَأْسِهِمْ بَطَلُهمْ –ﷺ– الَّذي يُصِيبُ غَايَةَ التَّوفِيقِ في عَظَمَةِ القِيَادَةِ لِلأَبْطَالِ الشُّجْعَانِ ، يَتقَدَّمُ الزَّحْفَ فُرْسَانٌ خَلْفَهُمْ زَحْفُ الُمؤمنينَ الكَثِيفُ ،
وَ يَتْرُكُ نُزولُهُمْ في سَاحَاتِ القِتَالِ وَقْعَاً شَدِيداً ، وَ اضطِرَابَاً مُرْعِبَاً بِأَيدِيْهِمُ السُّيُوفُ القَواطِعُ الَّتِي تُورِدُ أَعْدَاءَهُمْ مَوَارِدَ الهَلاَكِ ، وَ يَتَقَدَّمُ هَؤلاءِ الكُماةِ الأَبْطَالِ بَطَلُهُمُ النَّبيِّ – ﷺ– صُلْبَاً في إِيمَانِهِ وَ مَوْقِفِهِ ، نَقِيَّ القَلْبِ مِنْ هَوَى كُلِّ عَرَضٍ مِنْ أَعْرَاضِ الدُّنْيا ، وَ يَتحمَّلُ صَابِرَاً انْصِرَافَ قَلْبِهِ عَمَّا تَشْتَهيهِ النَّفْسُ ، جَمَعَ إِلى البُطُولَةِ تِلْكَ صِفَاتِ الرَّشَدِ و الحِكْمَةِ وَ العِلْمِ بِوَضْعِ الأُمُورِ في مَواضِعِها مِنْ دُونِ طَيْشٍ أَو خِفَّةٍ :

وَ يَأْتِيكُمْ لَنَا سَرْعَانُ خَيْلٍ ... يُغَادِرُ خَلْفَهُ جَمْعَاً كَثِيفَا
إِذَا نَزَلُوا بِسَاحَتِكُمْ سَمِعْتُمْ ... لَهَا مِمَّا أَنَاخَ بِهَا رَجِيفَا
بِأَيْدِيهِمْ قَوَاضِبُ مُرْهَفَاتٌ ... يُزِرْنَ الُمصْطَلِينَ بِهَا الحُتُوفَا
رَئِيسُهُمُ النَّبِيُّ وَ كَانَ صُلْبَاً ... نَقِيَّ القَلْبِ مُصْطَبِراً عَزوفا

[1] الأغاني ، الأصفهانيّ ، أحمد فرَّاج - دارُ الثّقافة ، بيروت ، مج 14 ، ص289 ، الأتِيَّ : السَّيْلُ ، حتّى صبحنا الخيل : الخيلُ بمعنَى الفُرْسَان

رَشِيْدَ الأَمْرِ ذُو حُكْمٍ وَ عِلْمٍ وَ حِلْمٍ لَمْ يَكُنْ نَزِقَاً خَفِيفا [1]

إنَّ الأَصَالَةَ الفَنِّيَّةَ مَكَّنَتْ كَعْبَ بْنَ مَالكٍ مِنْ خَلْقِ أَثَرٍ شِعْرِيٍّ يعكْسِ مَاهِيَّةَ إِسْقَاطِ الوَاقِعِ عَلَى ذَاتِهِ شَاعِرَاً ، فَجَاءَتِ الأَبْيَاتُ بِطَاقَةٍ لُغَوِيَّةٍ قَادِرَةٍ عَلَى نَقْلِ التَّجْرِبةِ البُطُولِيَّةِ الَّتِي عَاشَهَا .

وَ مَالكُ بنُ نَمَطٍ شَاعِرٌ كَرَّمَ رَسُولُ اللهِ – ﷺ– قَوْمَهُ بعَهْدٍ وَ ذِمَامٍ دُونَ قِتَالٍ ، فَرَأى ذَلِكَ الشَّاعِرُ فِي رَسُولِ اللهِ –ﷺ– صِفَاتِ البَطَلِ العَظِيمِ مِنَ الشِّدَّةِ فِي الحَرْبِ وَ اللِّينِ فِي السِّلْمِ :

حَلَفْتُ بِرَبِّ الرَّاقِصَاتِ إلى مِنىً صَوَادِرَ بالرُّكْبَانِ مِنْ هَضْبِ قَرْدَدِ
بِأَنَّ رَسُولَ اللهِ فِيْنَا مُصَدَّقٌ رَسُولٌ أَتَى مِنْ عِنْدِ ذِي العَرْشِ مُهْتَدِي
فَمَا حَمَلَتْ مِنْ نَاقَةٍ فَوْقَ رَحْلِهَا أَشَدَّ عَلَى أَعْدَائِهِ مِنْ مُحَمَّدِ
وَ أَعْطَى إِذَا مَا طَالِبُ العُرْفِ جَاءَهُ وَ أَمْضَى بِحَدِّ المَشْرَفِيِّ المُهَنَّدِ [2]

يُؤَكِّدُ الشَّاعِرُ عَلَى صِدْقِ مَشَاعِرِهِ بيَمِينِ برَبِّ الإِبِلِ الَّتِي تُشَدُّ رِحَالُهَا إلى البَيْتِ الحَرَامِ وَ يَتَيَقَّنُ أَنَّ مُحَمَّدَاً هُوَ رَسُولُ اللهِ حَقَّاً وَ صِدْقَاً ، بَعَثَهُ رَبُّ العَرْشِ هَادِيَاً مَهْدِيَّاً ، وَ هُوَ عَلَى يَقِينٍ أَيْضَاً أَنَّهُ مَا عَلا رَحْلَ نَاقَةٍ بَطَلٌ أَشَدُّ عَلى أَهْلِ الكُفْرِ ؛ أَعْدَاءِ اللهِ مِنْ مُحَمَّدٍ ﷺ .

وَ لَيْس ثَمَّةَ مَنْ هُوَ أَبَرُّ مِنْهُ بذوي الحَاجَاتِ ، وَ أَكْثَرُ عَطَاءً للمُعْتَفِينَ ، وَ أَعْلَى دَرَجَةً فِي البُطُولَةِ، وَ لَكِنْ لإِحْقَاقِ الحَقِّ الَّذي يَضْرِبُ عَنْهُ بِالحُسَامِ المُهَنَّدِ ، وَ مَا تِلْكَ الشِّدَّةُ الَّتِي أَشَارَ إليها الشَّاعِرُ إلاَّ بِأَمْرٍ مِنَ اللهِ –ﷻ– لِنَبِيِّهِ –ﷺ– . بقوله تعالى : ((**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الكُفَّارَ وَ المُنَافِقِينَ وَ اغْلُظْ عَلَيْهِمْ**))[3]

جَاءَتْ لُغَةُ الشَّاعِرِ يَنْظُمُهَا إِيقَاعٌ تَتَجَلَّى فِيهِ مَشَاعِرُ الذَّاتِ المُبْدِعَةِ فِي لحظة صِدْقٍ مَعَ النَّفْسِ يُعَزِّزُهَا قَسَمُ الشَّاعِرُ ، وَ تُؤَيِّدُهَا صِيَغُ التَّفْضِيلِ ، وَ حَيْثُ تَحرَّرتِ الذَّاتُ الشَّاعِرَةُ مِنْ قُيُودِ العُنْجُهِيَّةِ الجَاهِلِيَّةِ ارتادَتْ فَضَاءَاتٍ شِعْرِيَّةً تُحرِّضُ عَلَى الإِفْصَاحِ عَنْ حَقِيقَةِ مَا تُفرِزُهُ مِصْدَاقِيَّةُ التِقاءِ عَوَالِمِ الشَّاعِرِ الدَّاخِلِيَّةِ بِالعَوالِمِ الخَارِجيَّةِ فأَظْهَرَتْ أَبْيَاتُهُ حَقِيقةَ شَخْصِيَّتِهِ .

---

[1] ديوانه ، ص 67 - 68 السّيرة النّبويّة ، ج2 ، ص1278 .
[2] السّيرة النّبويّة ، ج2 ، ص1403 . الرّاقِصاتُ : الإبلُ . و الرقصُ و الرَّقَصَانُ : ضَرْبٌ مِنَ السَّيْرِ فِيْهِ حَرَكَةٌ ، و القَرددُ : ما ارتفع من الأرض .
[3] التَّوبة ، من الآية 73 ، التَّحريم من الآية 9

إنَّ التَّاريخَ ليَذْكُرُ ، وَ لَنِعْمَ مَا يَذْكُرُ أَنَّ الحَمْلاَتِ المُتَتَابِعَةَ عَلى الجَزِيْرَةِ العَرَبِيَّةِ رُدَّتْ حَسِيْرَةً كَلِيلَةً، وَ أَعْيَتْهَا شَكَائِمُ أَهْلِهَا أُبَاةِ الضَّيْمِ ، وَ أَنَّ النَّبِيَّ وَحْدَهُ اسْتَطَاعَ تَذْلِيلَ جَانبِهِمْ ، أَوَ لَيْسَ فِي ذَلِكَ سِرٌّ عَجِيبٌ ، فَلَقَدْ ((**كَانَ فِي العَرَبِ عَجْرَفِيَّةٌ وَ اسْتِعلاَءٌ ، وَ كَانُوا أُبَاةَ الضَّيْمِ ، صِعَابَ الشَّكَائِمِ ، فَمَنْ قَدِرَ عَلى رِيَاضَتِهِمْ وَ تَذْلِيْلِ جانِبِهِمْ حَتَّى أَذْعَنُوا لَهُ ، وَ اسْتَقَادُوا فَذَلِكُمْ –وَ ايمِ اللهِ– بَطَلٌ كَبِيرٌ**))[1] إِنَّ البُطُولَةَ العَظِيْمَةَ يَصْنَعُهَا النُّبْلُ وَ يَصُوغُهَا الفَضْلُ ، وَ قَدْ عَجزَ القَيَاصِرَةُ وَ أُولُو التِّيجَانِ و الصَّوْلَجَانِ عَنْ أَنْ يُصِيبُوا بَعْضَ ((**مَا نَالَهُ مُحَمَّدٌ فِي ثَوْبِهِ المُرَقَّعِ بِيَدِهِ ، فَكَذَلِكَ تكونُ العَظَمَةُ ، وَ هَكَذَا تَكُونُ الأَبْطَالُ**))[2] .

---

[1] الأبْطَالُ ، ص84

[2] نَفْسُهُ و ذَاتُهَا

الفصل الثَّالِثُ

بُطولاتُ الفُتُوح الإسلامِيَّةِ :

- إنسَانيَّةُ الفُتُوحِ.
- الشِّعرُ و المعارك.
- بُطولاتُ مَعرَكَةِ اليَرْمُوكِ.
- بُطُولاتُ مَعرَكَةِ القَادِسيَّةِ .
- الخَيلُ و السِّلاحُ في شعر بُطُولاتِ الفُتُوحِ.

إنسَانيَّةُ الفُتُوحِ:

أَصبَحَتِ المَدينَةُ المُنوَّرةُ و مَكَّةُ المُكرَّمَةُ بَعدَ الفَتْحِ الفَضَاءَ الإنسانيَّ الحَضَاريَّ الأَقوَمَ و الأَمثَلَ لِتَكوينِ و تَنشِئَةِ المُجتَمَعِ الإسلاميِّ الجَديدِ الّذي صَبَغَ الجَماعاتِ العَربيَّة المُشتَّتَةِ بِصِبغَةِ التَّطوُّرِ العَظيمِ.

وَ مِنْ مَدينَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ ، انطَلَقَتْ زُحُوفٌ تَتْلُوها زُحُوفٌ لِلجَيشِ الإسلاميِّ شَرْقَاً و غَرباً تَدْعُو النَّاسَ إلى الانضِواءِ تَحتَ رَايَةِ الإسلامِ الحَنيفِ ، بِمَنهَجٍ إنسَانيٍّ رَفيعٍ ، و سَيَبقَى هَذا المَنْهَجُ مَاثِلاً في الأذهانِ ، و قَائماً و نَاصِعاً ، و سَتَبقَى سِلسِلَةُ الفُتُوحاتِ المُظَفَّرَةِ الخَيِّرَةِ الّتي نَثَرَتْ شُهَدَاءَ الحَقِّ ، و نَصَبَتْ رَايَةَ العَدْلِ و التَّوحيدِ في كُلِّ صِقْعٍ خَالِدَةً.

و كَانَ لِبُطُولاتِ الفُتُوحاتِ المَنزِلَةُ العَاليَةُ مِنَ الفَضْلِ ، و الشَّرَفِ بَينَ الأُمَمِ ، بِما تَجَلَّتْ بِهِ مِنْ حَميدِ الخِصَالِ ، و عَمِلَتْ لَهُ مِنْ كريمِ المَبادِئِ ، وَ جَاهَدَتْ في سَبيلِهِ مِنْ رَفيعِ الأَهدافِ ، و آمَنَتْ بِهِ مِنْ جَليلِ القِيَمِ .

و قَدْ نَالَ الفَاتِحونَ الأَبطالُ شَهادَاتٍ عَاليَةً تُفحِمُ مُرَوِّجي الفِكرِ المُفتَرِي الّذي حَاوَلَ طَمسَ الحَقَائقِ لِيُرَوِّضَ مَنْطِقَ البَاطِلِ بِأَنَّ الإسلامَ نُشِرَ بِحَدِّ السَّيفِ ((**إنَّ الاعتِقَادَ بِأَنَّ الإسلامَ يُرَوِّجُ للعُنْفِ فِكرَةٌ مُتأَصِّلَةٌ في التَّجرِبَةِ الغَربيَّةِ لِدَرَجَةِ أَنَّنَا نَستَطيعُ أَنْ نَدْعُوَ ذَلِكَ بَديهيَّةً ثَقَافِيَّةً ، و أَعتَقِدُ أنْ لَيسَ هُناكَ غَربِيٌّ تَقريباً مِمَّنْ لا يُؤْمِنُ بالفِكرَةِ القَائلَةِ : إنَّ الإسلامَ يُحَرِّضُ المُسلمينَ على اسْتِخدامِ القُوَّةِ في سَبيلِ نَشْرِ الدَّعوَة**))[1]

إنَّ في الإسلامِ سِرّاً عَجيباً جَعَلَ المُنصِفِينَ يَنطِقُونَ بالحَقِّ ، فَإنَّ الأبطالَ الفَاتِحينَ صَهَرَتْ قِلَّةَ أعدادِهِمِ أَخلاقٌ قَويَّةٌ ، و مَواهِبُ عَبقَرِيَّةٌ ، و حَمَاسَةٌ لا تُقهَرُ مُنذُ اجتِمَاعِهِمْ على كَلِمَةِ التَّوحيدِ و الإخلاصِ في العَقيدَةِ فقَدْ

((كَانَ لِلقَبَائلِ العَربيَّةِ في الجَزيرةِ العَربيَّةِ شُهرَةٌ بِتَمرُّسٍ فُنُونِ القِتَالِ و الحُروبِ ، و لكِنَّ عَدَدَهُمْ كانَ ضَئيلاً ، و لِذَا لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّهلِ أَنْ يَكُونُوا أنداداً لِلجُيُوشِ الجَرَّارةِ ، و مَعَ هذا فَإنَّهُمْ

[1] حتَّى المَلائِكَةُ تَسْألُ ، رحلةُ الإسلامِ في أمريكا ، د. جيفري لانغ ، ترجمة د. منذر العَبسي ، دار الفكر ، دمشق ، ط3 ، 2008/1429

عِندَما تَوحَّدُوا تَحتَ رَايَةِ مُحمَّد ﷺ لأَوَّلِ مرَّةٍ في التَّاريخِ ، وَ ارتَشَفُوا تَعاليمَ الدِّينِ الجَديدِ ، الّذي زَادَهُمْ إيماناً بالإلهِ

الوَاحِدِ ، فَإِنَّ هَذِهِ الجُيُوشَ العَربيَّةَ الصَّغيرَةَ قَامَتْ بِسلسلَةٍ مِنْ فُتُوحاتٍ لَيسَ لَهَا مَثيلٌ في تَاريخِ البَشريَّةِ))[1].

إنَّ الثَّقافةَ الَّتي صَبَّتْهَا أَنوارُ الهِدايةِ في نُفُوسِ الأَبطالِ جَعَلتهُمْ يَشعُرونَ بِثِقَلِ الأَمَانَةِ بِحَملِ الحُرِّيَّةِ إلى النَّاسِ . إنَّ الزَّمَنَ لَمْ يَنْطَوِ لِتَنْداحَ الفُتُوحاتُ في قَرْنٍ في مَشَارقِ الأَرضِ و مَغَارِبهَا إلاَّ بِمَا تَزَوَّدُوا بهِ مِنْ صِدقِ الوَصَايا الإنسَانيَّةِ الّتي كانَ يَنطِقُ بِهَا النَّبيُّ الهَادي عِنْدَ عَقدِ الأَلوِيَةِ :

((أُغْزُوا بِسمِ اللهِ وَ في سَبيلِ اللهِ ، تُقاتِلونَ مَنْ كَفَرَ باللهِ ، و لا تَغْلُوا ، و لا تَغْدِرُوا ، و لا تُمَثِّلُوا، و لا تَقْتُلُوا امرأَةً و لا وَليداً))[2].

وَ الخَليفَةُ الأوَّلُ أبو بَكرٍ الصِّدِّيقِ ﷺ يُوَدِّعُ أُسَامَةَ بنَ زَيدٍ و جَيشَهُ و هُمْ في الطَّريقِ إلى بِلادِ الشَّامِ . فَيُوصيهِ بِأَنْ يَكُونَ مَثَلاً أَعلَى في التَّسَامُحِ و الصِّدقِ و الوَفَاءِ و الحِلمِ :

((إنِّي مُوصيكَ بِعَشرٍ: لا تَغْدُر و لا تُمَثِّلْ ، و لا تَقتُلْ هَرِماً و لا امرَأَةً و لا وَلِيداً ، و لا تَعقِرَنَّ شَاةً و لا بَعيراً إلاَّ مَا أَكَلتُمْ ، و لا تَحرقَنَّ نَخلاً ، و لا تَخربَنَّ عَامِراً ، و لا تَغُلَّ ، و لا تَبْخَسْ))[3].

و لقَدْ تَجلَّى هَذا الخُلُقُ الكَريمُ في وَصَايا الفَاروقِ عُمَر بنِ الخَطَّاب ﷺ ، فقَد كَانَ يَقُولُ عِنْدَ عَقْدِ الأَلوِيَةِ :

((بِسمِ اللهِ و بِاللهِ ، و عَلى عَونِ اللهِ ، امضُوا بِتَأييدِ اللهِ و النَّصرِ ، وَ لُزومِ الحَقِّ و الصَّبرِ ، فقَاتِلُوا في سَبيلِ اللهِ مَنْ كَفَرَ باللهِ ، و لا تَعتَدُوا إنَّ اللهَ لا يُحبُّ المُعتَدِينَ ، و لا تَجبُنُوا عِندَ اللِّقَاءِ ، و لا

[1] المِائةُ الأوائلُ ، د. مَايكل هَارَت ، ترجمةُ . خالد أسعد عيسى و أحمد غسَّان سبانو ، دار قتيبة للطّباعة و النَّشر ، دمشق ، ط3 /1404/ 1984 ، ص21

[2] العِقدُ الفَريد ، أمين ، الزَّين ، الأبياري ، ج1 ، ص128 ، لا تَغْلُوا : لا تَخُونُوا.

[3] نَفسُهُ ، ص129

تُمَثِّلوا عِندَ القُدرةِ ، و لا تُسرِفُوا عِندَ الظُّهورِ ، و لا تَقتُلُوا هَرِماً و لا امرَأَةً و لا وَليداً ، و تَوَقَّوا قَتلَهُمْ إذا التقَى الجَمعانِ))[1] .

و مَا كانَ النَّصرُ لِيُحالِفَ المُؤمِنينَ إلاَّ لِواذُهُمْ بِتقوَى اللهِ وَ اجتِنابُهُمُ المَعَاصِي خِلافَ عَدُوِّهِمِ الّذي يُهزمُ بِذَنبِهِ و مَعصِيَتِهِ لِلهِ ، و كَتَبَ عمر ﷺ إلى سَعْدِ بنِ أبي وَقَّاصٍ و مَنْ مَعَهُ مِنَ الأَجنادِ :

((أمَّا بَعدُ، فَإنِّي آمُرُكَ و مَنْ مَعكَ مِنَ الأَجنادِ بِتقوَى اللهِ عَلى كُلِّ حالٍ ، فإنَّ تَقوَى اللهِ أَفضَلُ العُدَّةِ عَلى العَدُوِّ ، و أَقوَى المكيدَةِ في الحَربِ ، و آمُرُكَ و مَنْ معَكَ أَنْ تكونُوا أَشَدَّ احتِراساً مِنَ المَعَاصي مِنكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ ، و إنَّما يُنصَرُ المُسلِمونَ بِمَعصِيَةِ عَدُوِّهِمْ لِلهِ ، و لَولا ذَلكَ لَمْ تَكُنْ لَنا قُوَّةٌ ، لأنَّ عَدَدَنَا لَيسَ كَعَدَدِهِمْ ، و لا عُدَّتُنا كَعُدَّتِهِمْ ، فَإنِ اسْتَوَيْنَا في المَعصِيَةِ كَانَ لَهُمُ الفَضْلُ عَلَينا بِالقُوَّةِ))[2]

هَذا التَّسَامُحُ الكَريمُ قُوبِلَ بِعَدَاوَةٍ و بَغضَاءَ جَهَرَ بِهَ مَنْ أَعمَتْهُمْ ضَلالَتُهمْ و تَكشِفُ حَقيقَةَ دَخيلَتِهِمْ ، و تَغَنَّوا بِالتَّخلِّي عَنِ القِيَمِ الإنسانيَّةِ الّتي تَدْعُو إليها الحَقيقةُ المَسيحيَّةُ السَّمحَاءُ ، وَ افْتَنَّتِ المَلاحِمُ الأُوروبيَّةُ بِذَلكَ((**وَ مِثالُهَا مَلحَمَةُ رُولاند الّتي تَعِجُّ بالحِقدِ الجَارِفِ على المُسلِمينَ و بِالدَّعوَةِ إلى ذَبحِهِمْ و إبادَتِهِمْ مَرْضَاةً للإلهِ مِمَّا يُفقِدُهَا عُنصُرَ النُّبلِ الإنسانيِّ))**[3]

هذا الحِقدُ مُتوَارَثٌ في الحَقيقَةِ التَّاريخيَّةِ ((**وَ كَانَتْ بيزَنطَةُ في حَرْبٍ مُتَواصِلَةٍ ضِدَّ المُسلِمينَ مُنذُ عُهُودِ حُروبِ التَّحريرِ الأولى الّتي حَدَثَتْ في زَمَنِ أبي بَكرٍ و عُمَرَ رضيَ اللهُ عَنهُما))**[4]

ثُمَّ حُشِدَتْ جُهُودُ أوربَّا و بيزنطةَ لِلقَضَاءِ على الإسلامِ ، وَ جَاءَ في الوَثيقَةِ نَفسِهَا ((**أنَّ جُهُودَ أوربَّا و بيزَنطةَ لِلقَاءِ على الإسْلامِ سَابِقَةٌ عَلى الحُروبِ الصَّليبيَّةِ . فقَدْ بَدَأَتْ أوربا كُلُّها تُغَذِّي الإسبانَ ، و تُمِدُّهُمْ بالمُسَاعَداتِ لِيَتمكَّنُوا مِنَ القَضَاءِ عَلى الإسلامِ في شِبهِ الجَزيرةِ الإبيريَّةِ))**[5]

---

[1] نَفسُهُ ص128
[2] نفسُهُ ص130
[3] جَوانبُ مِنَ الأدَبِ و النَّقدِ في الغَربِ ، ص81
[4] وَ ثائقُ الحُروبِ الصَّليبيَّةِ و الغَزو المَغوليّ لِلعالمِ الإسلاميِّ ، دراسةٌ و نُصوصٌ ، د. مُحمد ماهر حمَّادة ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط2 ، 1979/1399 /ص19 ، 20
[5] نفسُهُ ص19

إنَّ لُغَةَ الانتِقَامِ و المَجازِرِ يَسعَى غُزَاةُ أُمَّتِنا إلى تِكرارِهَا و تَحوِيلها إلى سُلوكٍ حَقِيقيٍّ عِندمَا يَفشَلونَ في مُواجَهَةِ المُقَاومةِ البُطُوليَّةِ ، فَإنَّهُمْ لا يَتورَّعُونَ عَنِ اسْتِهْدافِ الآمِنينَ العُزَّلِ مِنَ الشُّيُوخِ و الأَطفالِ و النِّسَاءِ ، فَالغُزاةُ الصَّليبيُّونَ الّذينَ جَاسُوا خلال دِيَارِ المُسلمينَ ، و تَدَفَّقُوا كالسَّيلِ العَرِمِ ، وَ وَجَدُوا مِنَ المُسلِمينَ مُقَاوَمَةً قَاسِيَةً ، فقَدْ كانَ الأبطالُ المُسلِمونَ لا يَتراجَعُونَ إلاَّ مُتَحَفِّزِينَ لِقِتالٍ ، كانَ المَدَنيُّونَ الآمِنُونَ هُمُ العُنوانُ الّذي يَتَوجَّهُ إليهِ الغُزَاةُ بِفَتْكِهِمْ وَ وَحشِيَّتِهِمْ ((**فَالمؤَرِّخُونَ الَّذينَ رَافَقُوا الجَيشَ الصَّليبيَّ ، و وَثَّقُوا تِلكَ المَرحَلَةَ ، كَتَبُوا عَنِ الانفِلاتِ الجُنُونيِّ لِلجَيشِ الغَازي ، فَتَحدَّثُوا عَنْ أَكلِ الصَّليبيِّينَ لَحمَ البَشَرِ على امتِدادِ الطَّرِيقِ مِنْ إنطَاكيَّةَ نَحوَ مَعرَّةَ النُّعمانِ ، لّتِي حَدَثَتْ فِيها أكبَرُ مَأْكَلَةٍ لِلَحمِ الإنسانِ عَبرَ التَّاريخِ ، و بَعدَ أن استَراحُوا ، أَتَوا على مَا تَبقَّى مِنْ عِظامِ أهلِهَا ، و تَوجَّهُوا نَحوَ إلى بَيتِ المَقْدِسِ ، لِيَرتَكبُوا فِيها أشَدَّ المَجازِرِ ،**
و يَكفي فِيها مَا يَقُولُهُ هُمْ ، عِندَما كَانوا يُمسِكُونَ بالطِّفلِ ، و يَضرِبُونَ رأسَهُ بِحَجَرٍ ، ثُمَّ يَلتَهِمُونَ دِماغَهُ))[1]

و في العَصرِ الحَديثِ فَإنَّ المَدَنِيَّةَ الغَربيَّةَ فَتَحَتْ عَلى الإنسانيَّةِ أبوابَ الشَّرِّ وَ الأَذى جَحيماً لا يُطَاقُ إذا اضطَرَبتِ بَينَ أَيدي ذَوي البَطشِ و الجَبَروتِ مَقَاييسُ القِيَمِ الأخلاقِيَّةِ ، و انطَلَقَتِ الغَرائِزُ الشِّرِّيرَةُ تَعصِفُ بِمَعَاني الخَيرِ و الجَمالِ ، و تُحَطِّمُ الفَضَائلَ في النُّفُوسِ ، و تُفسِدُ الصِّلاتِ بَينَ الأُمَمِ ،
و انْدَلَعَتْ حُروبٌ تَذَوَّقَ حَرَّ نيرانِها المُحارِبُونَ و الآمِنُونَ عَلى السَّواءِ ، فقَدْ ((**شَهِدَ النِّصْفُ الأوَّلُ مِنَ القَرنِ العِشرينَ حَربَينِ عَالَمِيَّتَيْنِ ، احتَرَقَ العَالَمُ بِلَظَاهُمَا ، و ذَهَبَ ضَحيَّتَهُما مَلايينُ البَشَرِ ، و مَعَ ذَلكَ فإنَّ شَبَحَ الحَرب تُخيِّمُ الآنَ بِمَا يُنذِرُ بِوُقُوعِ حَربٍ عالَمِيَّةٍ ثَالِثَةٍ لا يَعلَمُ مَدَاها إلاّ اللهُ**))[2]

و المُتَتَبِّعُ لِتَاريخِ الطُّغَاةِ في الغَربِ يَرَى أنَّ سَفْكَ الدِّمَاءِ غَريزَةٌ في نُفُوسِهِمْ ، تَنطَلِقُ مِنْ عِقَالِ كُلِّ شُعورٍ إنسَانِيٍّ يَتَأَلَّقُ حُبَّاً للإنسانِ في كُلِّ بُقْعَةٍ مِنَ الأَرضِ ((**لأنَّ التَّعَطُّشَ لِلعُنفِ و الطُّمُوحَ إلى العُدوانِ غَريزَةٌ فِطريَّةٌ لِلطَّبيعَةِ البَشَرِيَّةِ . هَذِهِ هِيَ النَّظَرِيَّةُ الأسَاسِيَّةُ لِهَذا المَفهُومِ المُنتَشِرَةُ بِشَكلٍ واسِعِ اليَومَ فِي الغَربِ فقَطْ ، لأنَّ غَريزَةَ العُدوانِ هِيَ الّتي تَقُودُهُمْ إلى ذَلكَ**))[3] إنَّ تَاريخَ المُستَعمرينَ الأُوربيِّينَ أجدادَ الأمريكيِّينَ الحَاليِّينَ مَعَ الهُنُودِ الحُمرِ ثَابتٌ و مُوَثَّقٌ لا شُبْهَةَ فِيمَا حَفِلَ بِهِ

[1] مِن مَقالةِ بعنوان ((الصّليبيُّون و لُغَةُ الانتقامِ و المجازر ، هَيئةُ التّحرير ، مجلة المُجاهد ، مركز بيت المقدس للثَّقافة و الإعلام ، العدد 402 ، شَعبان 1427 ، 2006
[2] شِعرُ الحَربِ في العَصْرِ الجَاهليِّ ، ص5
[3] نَظَرَّاتُ العُنفِ في الصِّراعِ الأيديولوجيِّ . ف دينيسوف ، ترجمة د. سَحر سعيد ، دار دمشق ، دمشق ، د.ت ، ص 135

مِنَ الإرهابِ و العُدوانِ عَلى هَذا العِرقِ الإنسانِيِّ البَريءِ صَاحِبِ الأرضِ الحَقيقيِّ ((**وَ قَدَّرَتْ مَصَادرُ تَاريخيَّةٌ أنَّ عَدَدَ الهُنُودِ الحُمرِ الّذينَ قُتِلُوا على يَدِ الأمريكيِّينَ يتراوَحُ بَينَ 10 و 20 مِليون شَخص ، و هُنَاكَ مَنْ يَقُولُ أَكثَرُ مِنْ ذَلكَ بِكَثيرٍ . و ابتدَاءً مِنْ سَنَةِ 1798 و حَتَّى اليَومِ قَامَتِ الوِلاياتُ المُتَّحِدَةُ بِشَنِّ حُروبٍ شَمِلَتْ مُعظَمَ مَنَاطِقِ العَالَمِ و قَارَّاتِهِ . و يُمكِنُ الحَديثُ عَنْ حَوالي 200 حَربٍ خَاضَتْهَا الوِلاياتُ المُتَّحِدَةُ أَدَّتْ إلى القَضَّاءِ على أكثَرِ مِنْ 50 مليون شَخصٍ**))[1]

و في مَنحىً شَائِنٍ آخَرَ في قَتلِ الإنسانِ : ((**قَامَ أَمريكيُّونَ باستِحضَارِ مَلاَيِّينِ الأَفَارِقَةِ و اسْتِعبَادِهِمْ في مَزارِعِهِمْ ، و لَقِيَ مِئاتُ الآلافِ مِنهُمْ حَتْفَهُمْ نَتيجَةَ المُعَامَلَةِ القَاسِيَةِ على يَدِ أَسيَادِهِمْ**))[2]

و أمَّا الأُمَّةُ الإسلاميَّةُ فَإنَّها لَمْ تُحافِظْ على المَدَنيِّينَ عَبرَ التَّاريخِ فَحَسْبُ ، و إنَّما حَافَظَتْ عَلى الشَّجَرِ و الحَجَرِ ، و دَليلُ ذَلكَ أنَّ تُراثَ الأُمَمِ المَغلوبَةِ بَقِيَتْ كَما هِيَ ، وَ لَمْ تَتعرَّضْ للنَّهبِ و الخَرابِ إلاَّ بَعْدَ أكثَرِ مِنَ ألفِ سَنَةٍ عِندَما ضَعُفَ المُسلِمُونَ ، و بَاتُوا رَهَائِنَ في قَبضَةِ الاستِعمارِ البَغيضِ .

---

[1] مِنْ مَقَالةٍ بعُنوان ((الولاياتُ المُتَّحِدَةُ و حُلمُ السَّيطرَةِ على العَالم)) أُسَامَة عبدالحكيم ، مجلة "فلسطينُ المسلمة " العَدد الخامس ، أيار 2008 / ربيع الثّاني 1429 ، ص37.

[2] نفسُها و ذاتُها

الشِّعرُ و المَعارِكُ:

لَمْ تَعرفِ الآدابُ العَالَمِيَّةُ أَدَباً يَزخَرُ بِعَوامِلِ الصِّدقِ و الإبَاءِ ، و يَطْفَحُ بِعَوامِلِ العِزَّةِ و الكَرَامَةِ و التَّضْحِيَةِ كَالّذي سَجَّلَتهُ صَفَحاتُ الشِّعرِ العَربِيِّ ، و لا عَجَبَ فِي ذَلكَ لأَنَّهُ شِعرٌ لَمْ يَنشَأْ على ضِفَافِ الأَنْهارِ فِي حَدائِقَ وَارِفَةِ الظِّلالِ ، بَلْ فُجِّرَ تَفجيراً في نَارِ الوَاقِعِ ، فإذا تَفَيَّأَ الفَارِسُ البَطَلُ أَوَى إلى ظَلٍّ مَديدٍ تَحتَ تَشَابُكِ حُدودِ السُّيوفِ المُرهَفَةِ ، وَ اشْتِجَارِ الرِّمَاحِ العَوالي لِيَنسَكِبَ الشِّعرُ صَدَى لِلنُّفُوسِ الطَّافِحَةِ بِحُبِّ المَوتِ و الحَياةِ مَعاً ؛ لأنَّ أَصْحَابَهُ نَطَقُوا بهِ ، لا يَفصِلُ المُتَلَقِّي بَينَهُمَا ، لأَنَّهُ لا يَجِدُ عَالَماً يَنفَصِلُ عَنِ الآخَرَ ، فَشِعرُ الفُتُوحِ إنَّما هُوَ لِلحَياةِ حِينَ تَدْعُو دَواعِيهَا ، و هُوَ للتَّضحِيَةِ و البُطُولَةِ حِينَ يُنَادي مُنادِيها، و هُوَ تَمازُجٌ فَذٌّ بَينَهُ و بَيْنَ الفَارسِ البَطَلِ ، لا نَجِدُ لَهُ نَظيراً في آدابِ أُمَّةٍ .

إنَّ شُعراءَ الفُتُوحِ مُتَّصِلُو الجُذورِ بالأُمَّةِ الّتي أَنشَأَتْهُمْ وَ سَوَّتْهُمْ ، فَبِفَضْلِهَا رَافَقَتْهُمُ الانتِصَاراتُ ، و خَفَقَتِ الرَّاياتُ فَوقَهُمْ شَامِخَةً ، فَالشَّاعِرُ الفَارسُ البَطَلُ كانَ لا يَرى فِي حَيَاتِهِ سِوَى لَحظَةِ اسْتِشهَادِهِ سَوَاءٌ أَكُتِبَتْ لَهُ هَذِهِ الأُمنيَّةُ أَمْ لَمْ تُكتَبْ ، و لكنْ إذا نَالَ ما تَمنَّاهُ بَرَزَ فِي المُقَابِلِ مَوتٌ مَعنَويٌّ لِلعَدُوِّ . و قَدْ تَكونُ هَذِهِ المَكرُمَةُ هِيَ البُؤْرَةُ الخِصْبَةُ الّتي تَفيضُ مِنْهَا دَلالَةُ القَصِيدَةِ .

الشِّعرُ و بُطولاتُ القَادِسيَّةِ:

تَأتِي مَعرَكةُ القَادِسِيَةِ فِي طَليعَةِ مَعَارِكِ الفُتُوحِ الخَارجيَّةِ إذْ كَانَتِ المَعرَكةُ الفَاصِلَةُ الّتِي حَدَّدَتْ نِهائيًّاً مَصيرَ الإمبراطوريَّةِ السَّاسَانيَّة ، كَمَا كَانَتْ أضخَمَ المَعارِكِ الّتِي خَاضَهَا العَرَبُ الفَاتِحونَ ضِدَّ أَعدائِهِمْ سَوَاءٌ فِي المُدَّةِ الّتِي استغرَقَتْهَا ، أَوْ فِي عَدَدِ الجُنودِ الّذينَ اشْتَرَكُوا فِيها ، فقَدْ دَامَتْ ثلاثَةَ أيَّامٍ بلَياليهَا ، لَمْ يَكُنْ يتوقَّفْ فِيها القِتَالُ إلاَّ فِي مُنتَصَفِ اللَّيلِ ، كَمَا اشترَكَ فِيها مائةُ و عُشرونَ ألفاً مِنَ الفُرسِ على رأسِهِمْ (رستم) ، و مَا يَقرُبُ مِنْ أَربَعينَ ألفاً مِنَ العَرَبِ تَحتَ قِيادَةِ سَعدِ بنِ أبي وَقَّاصٍ.

إنَّ النَّصرَ و الهَزيمةَ لا يتعلَّقانِ بمَقاديرِ القُوى المَاديَّةَ و العَدَدِ فَحَسْبُ ، و إنَّما هُنَاكَ قُوىً مَعنويَّةٌ لَيسَتْ أقلَّ قِيمَةً مِنْ تِلكَ ، إنْ لَمْ تَكُنْ أَعظَمَ مِنها فِي تَرجيحِ كفَّةِ النَّصرِ . فمَبدأُ فُرسَانِ القَادسيَّةِ الأَوَّلُ الصِّدقُ، و خُلُقُهُمُ الأمانَةُ، تَحلَّوا بالإقدامِ و شِدَّةِ البَأسِ ، إنْ حَمَلُوا لا يَرجعُونَ ، و إنْ حُمِلَ عَلَيهِمْ لا يُوَلُّونَ يَرَونَ الدُّنيَا دَارَ فَناءٍ ، و الآخِرَةَ دارَ بَقَاءٍ ، فلا يُرهِبُهُمُ المَوتُ فِي سَبيلِ أَهدافِهِمْ.

و كانَ فِي جَيشِ الفَتحِ العَربِيِّ خُلاصَةَ الأُمَّةِ وَقتئِذٍ ، إذْ لَمْ يَدَعِ الخَليفَةُ عُمرُ بنُ الخطَّابِ ﵁ ذَا رأيٍ أو نَجدَةٍ أو سُلطَةٍ ، و لَمْ يَترُكْ شَاعراً أو خَطيباً إلاّ جَنَّدَهُ لِهَذِهِ المَعرَكَةِ فَضلاً عَنْ بِضعَةٍ و سَبعينَ مِمَّنْ شَهِدُوا بَدراً ، و ثلاثمائةٍ مِنْ أبناءِ الصَّحابَةِ.

و الجَانبُ المُهِمُّ عِندَنَا أنَّ طَائِفَةً مِنَ الشُّعراءِ الفُرسَانِ كانَ لَهُمُ شَرَفُ المُشارَكَةِ فِي هَذِهِ المَعرَكةِ كانَ مِنْ أَبرَزِهِمْ عمرُو بنُ مَعدِيكرب الزَّبيديّ ، و القَعقاعُ بن عَمروِ التَّميميُّ ، و أبو مِحجَنٍ الثَّقَفِيُّ..

و فِي أحضَانِ مَلاحمِ القَادِسِيَّةِ الرَّائعَةِ وُلِدَ شِعرٌ عَربِيٌّ غَزيرٌ فِيهِ نَفَحاتٌ سَامِيَةٌ لَمْ يُعهَدْ مِثْلَهَا فِي الشِّعرِ الجَاهليِّ ، و فِيهِ تَصويرٌ رائعٌ لِمَا جَاشَتْ بِهِ نُفُوسُ الفُرسَانِ المُحارِبينَ مِنْ عَواطِفَ و أحاسِيسَ و مشاعرَ.

وَ لَقَدْ اشْتَملَ هذا الشِّعرُ على مَوضُوعاتٍ شَتَّى ، اختَلفَتْ بِاختِلافِ الشُّعَرَاءِ وَ المُنَاسَباتِ : فَمِنْ فَخرٍ بالبُطُولاتِ الفَرديَّةِ ، إلى فَخرٍ بالبُطُولاتِ الجَماعِيَّةِ إلى ازْدِهَاءِ العَرَبِ و المُسلِمينَ عَامَّتِهِمْ ، إلى تَصويرٍ دَقيقٍ لِلمَعَارِكِ و المُبَارَزَاتِ إلى رِثَاءِ الشُّهَداءِ ، إلى تَشَوُّقٍ إلى القِتَالِ.

جَاءَ وَصْفُ بُطُولاتِ الفُتُوحِ في مُقَطَّعَاتٍ شِعريَّةٍ تَتَّفِقُ مَعَ قِصَرِ النَّفَسِ الشِّعريِّ لانشِغالِ الأَبطالِ الشُّعَرَاءِ بِتَحقيقِ الأفعالِ البُطُوليَّةِ.

وَ مِمَّنْ مَثَّلُوا البُطُولَةَ في القَادِسيَّةِ فَارِسُ اليَمَنِ وَ أَحَدُ أَبطالِها المَشهُورينَ ، عَدَّهُ صَاحِبُ العِقْدِ الفَريدِ أَحَدُ فُرسَانِ العَرَبِ في الجَاهليَّةِ و هُمْ ((**عَنترةُ الفَوارِسِ ، و عُتَيبَةُ بنُ الحَارثِ بنِ شِهَاب ، و أبو بَراءٍ عامرَ بنَ مالكٍ مُلاعِبِ الأَسِنَّةِ ، و زَيدُ الخَيلِ ، و بسطامُ بنُ قَيسٍ ، و الأُحَيمِرُ السَّعديُّ ، و عَامرُ بنُ الطُّفَيلِ ، و عَمرُو بنُ عَبدِ وُدٍّ ، و عَمرو بنُ مَعديكرب**))[1]

و قَدْ طالَ العُمُرُ بِعمرِو بنِ مَعديكرب ، حتَّى أدرَكَ الإسلامَ ، و كَرَّمَهُ اللهُ بالمُشَارَكةِ في بُطُولاتِ الفُتُوحِ . إنَّ رُوحَ البُطُولَةِ و الإقدَامِ لَمْ تُفَارِقْ هَذَا الشَّيخَ البَطَلَ ، و إنَّ الإيمانَ جَعَلَهُ يُطِلُّ بِشِعرِهِ على القِتَالِ مِنْ مَواقِعَ أَكثَرَ إطلالاً على الأفعالِ البُطُوليَّةِ.

و هَذِهِ صُورَةٌ لِذَلكَ الفَارِسِ البَطَلِ مُتفَرِّداً و مُفتَخِراً بِبُطُولَتِهِ الذَّاتيَّةِ في مُلاقَاةِ الفُرسِ الّذينَ نَكَسُوا رُؤوسَهُمْ خَوفاً و ذُلاًّ أمامَ قُوَّةِ الإيمانِ ، ثُمَّ يَختارُ مِنْ بَينِهِمْ فَارِساً شَريفاً ، و يَدعُوهُ لِيُنـــزِلَ بِهِ الدَّواهِيَ .

رَأَيتُ رِجالاً نَاكِسِينَ رُؤوسَهُمْ	وَ لَمْ يَكُ رَأسي لِلرِّجَالِ بِنَاكِسِ
رَأَوْا فَارِساً كَالصَّقْرِ يَخطَفُ عِندَما	أَمَرَّ عَلَيهِمْ كُلَّ رَطبٍ و يَابِسِ
يُنادِي بأَعلى الصَّوتِ مِنْ دَعوَةٍ لَهُ	فَقُلتُ : و مَنْ ذَا ؟ قِيلَ جَمرَةُ فَارِسِ
و أَنْتَ أَبو ثَورٍ ؟ فَقُلتُ : أَجَلْ أَنا	هُمَامٌ و إنِّي قَاتِلٌ لِلفَوارِسِ
ذَروني و ذَاكَ الفَارسيَّ فَإنَّني	سَأَخْطَفُهُ خَطْفَ العُقَابِ المُخالِسِ
فَإنْ بَدَرَتْ كَفِّي إليهِ بِضَرْبَةٍ	فَتِلكَ وَ رَبِّ البَيتِ إحدَى الدَّهارِسِ
وَ إنْ بَدَرَتْ كَفَّاهُ كَفِّي سُرعَةً	فَخَلُّوا عَنِ الشَّيخِ الكَبيرِ المُمارِسِ [2]

يَحِقُّ لِلشَّاعرِ الفَارسِ أَنْ يَفْخَرَ بِمَجْدٍ عَظيمٍ إن ظَفِرَ بِقَتلِ سَيِّدٍ و رَمزٍ للفُرْسِ،و إلاَّ فَلْيُخَلِّ قَومُهُ بَينَهُ و بَينَ ذَلكَ الفَارسِ ، و إنْ أُصِيبَ بِضَربَةٍ مِنهُ . و صُورَةُ الذَّاتِ المُفردَةِ المُقْدِمَةِ عَلى الجِهَادِ قَدِيمَةٌ و لكِنَّها في ثَوبٍ جَديدٍ ، فَالفَارسُ البَطلُ في ظِلِّ دِينِهِ الجَديدِ وَرِثَ صِفَاتٍ كانَتْ طَبيعيَّةً في خُلُقِ العَربِيِّ،و في أرضٍ قَاسيَةٍ يَتعانَقُ فيها المَوتُ و الحَياةُ ، كَأَنَّهُما شَيءٌ وَاحِدٌ ،و هُوَ في إسلامِهِ أَرقَى

[1] العِقد الفريدُ ، ج1 ، ص117

[2] ديوانُهُ ، ص190 ، 191 ، و جَمرةُ فارس: شَريفُها و فارسُها ، الدَّهارسُ : الدَّواهي .

فُروسيَّةً عَمَّا كانَ في جاهليّتِهِ ، و أَندَرُ بُطُولَةً ، و الشَّخصيَّةُ البُطُوليَّةُ الّتي تَجلَّتْ في حَدِّ السَّيفِ ، لَمْ تَأتِ هُنَا مِنْ فَرَاغٍ ، و لا مِنْ أُعجُوبَةٍ ، و كذلكَ لا تُولَدُ مِنْ مُصَادَفَةٍ ، إنَّها تَأتي مِنْ طَريقٍ طَويلٍ في المُمارَسَةِ البُطُوليَّةِ و الفُروسيَّةِ، وَ هِيَ وَحدَها جَديرَةٌ بالسَّيفِ ، و السَّيفُ جَديرٌ بها . و رُوِيَ أنَّهُ **((بَعَثَ عُمرُ بنُ الخَطَّاب إلى عَمرو بنِ مَعدِيكرب أنْ يَبعَثَ بهِ إليه بسَيفِهِ المَعروفِ بالصَّمصَامَةِ ، فبَعثَ بهِ إليهِ . فلمَّا ضرَبَ بهِ وَجَدهُ دُونَ مَا كانَ يَبلُغُهُ عَنهُ ، فكَتبَ إليهِ في ذَلكَ فرَدَّ عَلَيهِ : إنَّما بَعَثْتُ إلى أميرِ المُؤمنين بالسَّيفِ ، و لَمْ أَبعَثْ إليهِ بالسَّاعِدِ الّذي يَضرِبُ بهِ))**[١]

إذَا جَاءَتِ النُّصُوصُ الشِّعريَّةُ في إطارٍ ذَاتِّيٍّ مَوضُوعِيٍّ ، و بوجُوهٍ مُتعَدِّدَةٍ فَإنَّ حَرَكَةَ الحَياةِ العَاطفيَّةِ و الانفِعاليَّةِ تَتدَخَّلُ فيها ، و تندَرِجُ فِيها العَوامِلُ الشَّخصيَّةُ و بقُدرَةٍ على التَّواصُلِ ، تنطَلِقُ مِنْ مَفهومِ مُعَايَشَةِ الحَدَثِ لِتَحقيقِ الذَّاتِ مِنْ غَيرِ تَصَنُّعٍ . فَفي صُورَةٍ أخرَى يَستَعرِضُ الشَّاعِرُ بُطُولَتَهُ الذَّاتيَّةَ المُتمرِّدَةَ، و قَدْ شَهِدَ لَهُ قَومُهُ بِصَنيعِهِ البُطُوليِّ في القَادِسيَّةِ ، ثُمَّ يَتَوجَّهُ إلى اللهِ بالحَمدِ أنَّ مَنَّ عَلَيهِ بالهُدَى ، و في سَبيلِهِ يَسْعَى إلى نُصْرَةِ دِينِهِ ، وَ يَظَلُّ لِسَانُهُ يَلهَجُ بالثَّناءِ و الشُّكرِ عَلى مَا أنعَمَ اللهُ عَليهِ:

لقَدْ عَلِمَتْ أَقيَالُ مَذْحِجَ أَنَّني	أنَا الفَارسُ الحَامي إذا القَومُ ضَجَّروا
صَبَرْتُ لأَهلِ القَادِسيَّةِ مُعلَماً	وَ مِثلِي إذا لَمْ يَصبرِ النَّاسُ يَصْبرُ
وَ طَاعَنتُهُمْ بالرُّمحِ حَتَّى تَبَدَّدُوا	وَ ضَارَبْتُهُمْ بالسَّيفِ حَتَّى تَكَسَّروا
حَمِدتُ إلهي إذْ هَدَاني لِهَديهِ	فَلِلهِ أَسعَى مَا حَيِيتُ و أَشْكُرُ [٢]

بَرَزَتْ ضَمائرُ المُتكلِّمِ في الأبياتِ لِلتَّأكيدِ على حُضُورِهِ البُطُوليِّ ، وَ وُرودُ ضَميرِ المُتكلِّمِ (أنَا) في أوَّلِ عَجُزِ البَيتِ الأوَّلِ إنَّما هُوَ إمعانٌ مِنَ الشَّاعرِ في التَّعريفِ بنَفسهِ ، فَهُوَ الفَارسُ الحَامِي ، وَ تُوحِي (ال) التَّعريفِ الّتي دَخَلَتْ على الاسمَينِ : الفَارسِ وَ الحَامي بِشُهرَةِ الشَّاعرِ بَطَلاً مُعلِّماً.

وَ لَيسَ يَعني بُروزُ ضميرِ المُفرَدِ عِنْدَ هَذا الشَّاعرِ البَطَلِ احتِفَاءَ مَلامِحِ ضَميرِ الجَماعَةِ ، فَهُوَ و إنِ افتَخَرَ بذَاتِهِ المُتفرِّدَةِ فإنَّهُ كَانَ يَتمثَّلُ ضَميرُ الجَماعَةِ حِينَ كَانَ يَصْدُرُ في شِعرِهِ عَنْ ذَاتِهِ ، لأنَّهُ يَعتبرُ نَفسَهُ جُزءاً مِنْ جَماعَتِهِ ، و هِيَ الّتي تُوحي إليهِ بمَعَانيهِ . لذلكَ نَرَاهُ تارَةً أُخرَى لا يَنطِقُ باسمِهِ الخَاصِّ ، بَلْ بِاسمِ قَومِهِ جَميعاً ، و مَا هُوَ إلاَّ فَارسٌ مِنْ فُرسَانِهِمْ و بَطَلٌ مِنْ أَبطالِهِمْ أَقَرَّتِ الأَعاجِمُ بِبَأسِهِمْ

---

[١] العِقدُ الفريدُ، ج1 ، ص179

[٢] ديوانه ، ص190

وَ بأَنَّهُمْ أَهلٌ لِلحَربِ و البُطُولَةِ في كُلِّ حَربٍ ضَروسٍ يَندَفِعُونَ إليها بكَثْرَتِهِمْ ، ثُمَّ يَفخَرُ بِقَومِهِ بأَنَّهُمْ غَيرُ أَهلِ عُدوانٍ، وَ إِنَّمَا هُمْ سِلمٌ على مَنْ يُسَالِمُهُمْ ، و حَربٌ على مَنْ يُعادِيهِمْ:

إنَّ الأَعاجِمَ عِندَ الحَربِ قَدْ عَرفُوا ... أَربَابَ حَربٍ و أَبطالاً أَبَابيلا
بالقَادِسيَّةِ و الأَحياءُ شَاهِدَةٌ ... رَدَّتْ كَتَائِبُنَا الفُرسَانَ وَ الفِيلا
مَا زالَ قَومِي لَدَى الهَيجاءِ إن لَقِحَتْ ... حَربٌ ضَروسٌ تَرَاهُمْ نَحوَهَا حِيلا
مَنْ سَالَموهُ فَإنَّ السِّلمَ رَاحَتُهُ ... أَوْ حَارَبُوهُ فقَدْ يَلْقَى التَّناكِيلا [١]

و مَعَ أَنَّهُمْ حَرْبٌ على عَدوِّهِمْ فَهُمْ لا يُنَكِّلُونَ بِهِ بِجُرمٍ أَجرَمَهُ ، فخَرَجَ عَنْ إنسَانيَّتِهِ في حَربِهِ ، و يُفيدُ ذَلكَ الحَرفُ ((قَدْ) الّذي يُفيدُ الشَّكَّ أو احتِمَالَ الوُقُوعِ ، و في هَذا الخُلُقِ امتِثَالٌ لِمَا جَاءَ بِهِ الإسلامُ مِنْ رَحمَةٍ ، و تَسَامُحٍ ، قَالَ اللهُ تَعالى ((**وَ إنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ ولَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيرٌ للصَّابرينَ**))[٢] و قَولُ الشَّاعرِ((فقَدْ يَلقَى)) مُستوحَى مِنْ شِيمَةِ الصَّبرِ الّذي نَدَبَتْ إليهِ الآيةُ ، فَإنَّ العُقُوبَةَ مُبَاحَةٌ و تَرْكُها أَفضَلُ.

و الشَّاعرُ الفَارسُ الّذي وَلِدَ وِلادَةً جَديدَةً في هذا الخَيرِ كانَ لا بُدَّ لَهُ مِنْ أنْ يَجعلَ نَفسَهُ في هَذا الفضَاءَ البُطُوليِّ المَمدُودِ . و يُعَبِّرُ عَنِ المَفهُومِ الّذي آمَنَ بِهِ ، و قَدْ شَهِدَ لبُطُولتِهِ الخَليفَةُ عُمَرُ ﷺ كما شَهِدَ لِكُلِّ بَطلٍ إذْ كَتَبَ إلى قَائدِ مَعرَكَةِ القَادِسيَّةِ سَعدِ بنِ أبي وقَّاصٍ ﷺ حِينَ طَلَبَ مِنهُ المَدَدَ : ((**إنِّي أَمْدَدْتُكَ بألفَي رَجُلٍ عَمرو بنِ مَعديكرِبَ و طُلَيحَةَ بنِ خُوَيلِدٍ**))[٣]

هَذا البَطَلُ المِثَالُ صَقَلَ رُوحَهُ الإيمانُ ، و صَنَعَتْهُ المعَارِكُ خبيراً بالبُطُولَةِ خِبرَةً جعَلَتْ الخَليفَةَ عُمَرَ ﷺ يُرسِلُهُ عَوناً و سَنَداً لِلقائدِ النُّعمانِ بنِ مُقرنٍ وَ هُوَ عَلى الصَّائِفَةِ ، و يَأمُرُهُ ألاَّ يُسْنِدَ إليهِ و مَنْ مَعَهُ مِنَ الأمرِ شَيئاً لأَنَّهُما أَعلَمُ بمَوقِعِهِمَا في صِنَاعَةِ البُطُولَةِ الّتي تَنصُرُ الفَاتِحينَ ، فقَدْ جَاءَ في كِتابِ الخَليفَةِ عُمَرَ : ((**أَنِ اسْتَعِنْ في حَربِكَ بعَمرو بنِ مَعدِيكَرب ، و طُلَيحَةَ الأَزدِيِّ ، وَ لا تُوَلِّهِمَا مِنَ الأَمرِ شَيئاً ، فَإنَّ كُلَّ صَانِعٍ أَعلَمُ بِصِنَاعَتِهِ**))[٤]

[١] ديوانه ص191
[٢] النحل ، آية 126
[٣] شَرح حيَاةِ الصَّحابة ،ج1 ، ص871
[٤] العِقدُ الفَريدُ ، ج1 ، ص120

و هَذا البَطلُ الّذي تَعدِلُ بُطُولتُهُ بُطُولاتُ ألفِ رَجُلٍ أَمثالُهُ كُثُرٌ في الفُرسَانِ الفَاتِحينَ الّذينَ يَعمَلُونَ على شَاكِلَتِهِ ، يَهتِفُ مَرحباً بالجِهادِ ، مرحباً بالشَّهادَةِ .

الشَّاعرُ الفَارسُ القَعقَاعُ بنُ عَمروٍ التَّميميُّ تَرَعرَعَ في كَنَفِ النَّبيِّ و كَنَفِ صَحابَتِهِ صَنَعَتْهُ الفُتُوحُ إنساناً مُتبَلْوِراً على حُبِّ الشَّهادَةِ و البُطُولةِ ، و أَشرَقَتْ نَفسُهُ مِنْ خِلالِ الفُتُوحِ ، وَ اسْتَفَادَ مِنْ هَذا الوَاقِعِ البُطُوليِّ البَاذِلِ الّذي أَمَدَّهُ بِطَاقاتٍ هَائلةٍ مِنَ العواطفِ و المَشَاعرِ المَشحُونَةِ بسرٍّ سَمَاوِيٍّ ، و أنطَقَتْهُ بِالشِّعرِ بَعدَ أنْ لَمْ يَكُن لَهُ بِهِ عَهْدٌ . و هَذَا الشِّعرُ يُصَوِّرُ الفتُوحَ في حَرَكَتِهَا الدَّائبَةِ ، و صُعُودَهَا المُستَمِرَّ ، و قَوَّتَها الطَّالِعَةِ مِنَ التَّضحِيَةِ و الإقدامِ.

و هَا هُوَ يَفتَخِرُ افتِخَارَ صِدقٍ تُذْكِيهِ العَقيدَةُ باشتراكِهِ في مَعرَكَةِ القادسيَّةِ :

لَحَرْبٌ شَمَّرَتْ بِلِوَى قُدَيسٍ ... أحَبُّ إليَّ مِنْ دَعَةِ البَرَاحِ
وَ ضَرْبُ كَتيبَةٍ و طِعَانُ أُخرَى ... أَلَذُ إليَّ مِنْ لَبَنِ اللِّقَاحِ
وَ يَومٌ تَذهَلُ الأَبصَارُ فِيهِ ... أَقَمْتُ على خَوَالِيهِ البطَاحِ
فَلَلْتُ جُمُوعَهُ و الخَيلُ زُورٌ ... تَمُجُّ الآني أَو عَلَقَ الجِراحِ [١]

يَعرِضُ الشَّاعرُ البَطَلُ مِشاعِرَهُ بِبَساطَةٍ مُتَنَاهِيَةٍ في التَّعبيرِ تَقُومُ على المُقَابلَةِ بَينَ سَعَةِ العَيشِ و السَّكينَةِ و الرَّاحَةِ ، و ارتِشَافِ أَلبَانِ الإبلِ في الصَّحراءِ المُتَّسعَةِ في وَطَنِهِ ، و بَينَ حَياةِ الاستعدادِ لِلمَعارِكِ و خَوضِهَا وَاحِدةً إثرَ أخرَى . وَ لامُ الابتِدَاءِ أرادَ الشَّاعِرُ بِها التَّوكيدَ عَلى مَا يُحِبُّ ، وَ صِيغَتَا التَّفضيلِ (أَحبُّ و أَلَذُّ) تُوحي إلينا بِمَدَى صِدْقِهِ في الجِهَادِ وَ اندِفَاعِهِ فِيهِ . وَ صِفَاتُ البُطُولَةِ الّتي اتَّصَفَ بِهَا الشَّاعرُ ، و تُوحي بِفَردِيَّتِهِ و مَا اجتَمَعَتْ لَهُ إلاَّ بِفَضْلِ إخلاصِهِ لِلجِهَادِ.

وَ لَعلَّ صَوتَ القَعقَاعِ في قِلَّةِ مَا تَرَكَ مِنْ قَصَائِدَ في البُطُولاتِ أَعلَى الأَصواتِ الّتي تُمَثِّلُ بُطُولاتِ الفُتُوحِ الجَماعِيَّةَ ، و هُوَ لا يَنْطِقُ بِاسْمِهِ الخَاصِّ كَما يَبْدُو ، فإذا تَحَدَّثَ عَنْ بُطُولَتِهِ فَإنَّما يَتحَدَّثُ عَنْ بُطُولاتِ الفَاتِحينَ جَميعاً ، و إذا عَلا صَوتُهُ فَإنَّما هِيَ أَصْواتُهُمْ ، و إذا نَحنُ أَمَامَ صَوتٍ وَاحِدٍ قَوِيٍّ ابتَدَعَتهُ شَاعِرِيَّةُ الفَارسِ البَطَلِ تَهْدُرُ بِاسمِهِمْ ، لِيَغيبَ ضَميرُ المُتَكَلِّمِ غِيَاباً تَاماً لِتَبرُزَ ضَمائِرُ المُتَكَلِّمينَ مُتَلاحِقَةً .بَعدَ مَعرَكَةِ القَادِسِيَّةِ شَهِدَ الشَّاعرُ الانتِصَارَ الكبيرَ الّذي حَقَّقَتْهُ فِئَةٌ قَليلَةٌ مُؤمِنَةٌ عَلى جَيشٍ جَرَّارٍ مِنَ الفُرسِ في مَعرَكَةِ (نَهاوَند) ، و كانَ هَذا البَطَلُ قَدْ كُلِّفَ باستِدراجِ الفُرسِ مِنْ

---

[١] شُعراءُ إسلاميُّونَ ، الدُّكتور نُوري حمودي القيسي ، مَكتَبَةُ النَّهضَةِ العربيَّةِ ، بيروت ، ط2 ، 1984/1405 ، ص32

حُصُونِهمْ إلى الهَزيمَةِ الهَائِلَةِ الّتي لَحِقَتْ بِهِمْ إذْ قُتِلَ مِنْهُم ثَلاثون ألفاً بِسُيوفِ الأبطالِ الفَاتِحينَ ، وَ سَقَطَ ثَمانونَ ألفاً مَعَ خُيُولِهِمْ في خَندَقٍ عَميقٍ لَمْ يُبصِرُوهُ بِسَبَبِ الظَّلامِ و الذُعرِ الشَّديدِ ، وَ سُدَّتْ على قَائدِهم (الفْيرَزَانِ) سَبيلُ الهَرَبِ، فَتبِعَهُ القَعقاعُ و قَتَلَهُ ، ثُمَّ رَاحَ يَفتَخِرُ ، و يَزُفُّ بُشْرَى الانتِصَارِ إلى قَومِهِ :

و نَحنُ وَرَدْنَا في (نَهاوَندَ) مَوردا ً ... صَدَرْنَا بِهِ و الجَمْعُ حَرَّانُ دَاحِم

وَ نَحنُ حَبَسْنَا في نَهاوَندَ خَيلَنَا ... لِشَرِّ لَيالٍ أُنتِجَتْ للأَعاجِم

مَلأنَا شِعاباً في نَهاوَندَ مِنهُمُ ... رِجالاً وَ خَيلاً أُضرِمَتْ لِضرائِمِ

وَ رَاكضَهُنَّ (الفَيرَزَانُ) على الصَّفَا ... فَلَمْ يُنجِهِ مِنْهَا انْفِسَاحُ المَخارِمِ

أَلا أَبلِغْ أُسَيْداً حَيثُ سَارَتْ و يَمَّمَتْ ... بِمَا لَقِيتْ مِنَّا جُمُوعُ الزَّمازِمِ

غَدَاةَ هَوَوْا في (وَاي خُرْدَ) فَأَصبَحُوا ... تَعُودُهُمُ شُهبُ النُّسُورِ القَشَاعِمِ [١]

إنَّ وَصفَ القِتَالِ لَيسَ جَديداً في الشِّعرِ العَرَبيِّ غَيرَ أَنَّهُ عِندَ القَعقَاعِ شَيءٌ آخَرُ ، فَالأَمرُ لَيسَ مُجَرَّدَ وَصفِ المَعرَكَةِ الضَّارِيَةِ يَتَخلَّلُهُ شَيءٌ مِنَ الفَخرِ ، إنَّهُ عَالَمٌ صَادِقٌ يَكادُ المُتَلَقِّي يُحِسُّ نَفسَهُ مَشدُوداً إليهِ.

و خَيالُ الشَّاعِرِ القبيلُ قَريبٌ مِنْ أَخيلَةِ مَنْ سَبَقُوهُ غَيرَ أَنَّهُ يُعطي صُوَرَهُ حَيَاةً جَديدَةً ، لأَنَّها تَحمِلُ مَا تَحمِلُهُ مِنْ صِدْقِ التَّعبيرِ وَ واقِعِيَّةِ التَّجرِبَة .

وَ إذا لَمْ يَحفَلِ النَّصُّ الشِّعريُّ بِالصُّوَرِ الّتِي تُكسِبُ المَعَنى خُصُوبَةً و امتِلاءً فَلأَنَّ الكَثيرَ مِنْ هَذِهِ القَصَائدِ و المُقَطَّعاتِ ((**تَقِفُ في مَوضُوعِهَا عِنْدَ ظَاهِرَةِ المُعالَجةِ المُبَاشَرَةِ و تَسجيلِ الحَدَثِ السَّريعِ، و تَحديدِ المَواقِفِ الّتي تَستَدعيها المَعرَكَةُ ، و تَصويرِ الجَوِّ الحَربيِّ المُحيطِ بِهَا ، و هَذِهِ الخَصائصُ تَفرِضُ عَلى الشَّاعرِ سُلوكَ الطَّريقِ القَريبِ و اختِيارِ المَعنَى المُبَاشَرِ ، و انتِفَاءِ الحَالَةِ المَحسُوسَةِ و المَلمُوسَةِ**))[٢]

وَ تَلتَقي في النَّصِّ جَزَالَةُ الأَلفَاظِ مَعَ مُوسِيقا البَحرِ الطَّويلِ بِتَفعيلاتِهِ الّتي تَتَوالى كَوَقعِ سَنَابِكِ الخَيلِ ، و قَدْ نَستَطيعُ أَنْ نَقُولَ في هذا الشِّعرِ و إنْ غَلَبَتْ عَلَيهِ المُبَاشَرَةُ ، فإنَّ دَوِيَّهُ عَالٍ فَكَأَنَّهُ يُخاطِبُ الأَسْماعَ أَكثَرَ مِنْ مُخاطَبَتِهِ العُقُولَ .

---

[١] شُعراءُ إسلاميُّون ، ص48 ، (وَاي خُرد) اسم الخندق الذي سَقَطَ فيهِ فُرسَانُ الفُرس حِينَ هَرَبِهمْ.
[٢] شُعراءُ إسلاميُّون ، ص22

و إذا كَانَ شِعرُ القَعقَاعِ عَظيماً و رَائعاً فَلأَنَّ مَعارِكَ الفُتُوحِ هِيَ العَظِيمَةُ.

تَتَفتَّحُ البُطُولاتُ و العَبقريَّاتُ في غِلابِ الصِّعابِ ، و في الانتِصَارِ عَليْها تُعرَفُ فُرسَانُهَا لأَنَّ القُلوبَ تَنطِقُ لا تَأْخُذُها في قَولَةِ الحَقِّ و الجَهرِ بِهِ لَومَةُ لائمٍ ، فهِيَ إذَنْ تَعلُو عَلى التَّرهيبِ و التَّرغيبِ سِرَّاً و عَلانِيَةً.

الشَّاعرُ الفَارسُ بِشرُ بنُ رَبيعَةَ الخَثعَميُّ مِنْ أَبطالِ الفُتُوحاتِ الأفذاذِ الّذينَ أَنبَتَتْهُمْ أَدِيمُ الصَّحراءِ ، فَأَلهَمَهُمْ الأُصُولَ الأَخلاقِيَّةَ المَتينَةَ ، و هَذَّبَها الإسلامُ ، وَ وَجَّهَهَا وُجهَةً خَيِّرَةً ، و حَوَّلَها مِنْ مَزَايَا فَرديَّةٍ إلى مَبَادئَ سَامِيَةٍ ، و زَادَهَا جَمَالاً ، و تَهذيباً ، و كَمالاً ، ثُمَّ أَنطَقَتهُمْ هَذِهِ القِيَمُ و الفُتُوحُ بِنُصُوصٍ شِعريَّةٍ يَنطَوي فِيها جُماعُ مُفرَداتِ البُطُولَةِ ، و جُمَاعُ مَا يحتاجُهُ التَّاريخُ ، عِندَما يَكتُبُ نَفسَهُ على لَوحَةِ الدَّهرِ في المُقبلِ مِنْ حِقَبِهِ المُتَتَالياتِ .

لَقَدْ تَحوَّلَ اسمُ الشَّاعرِ مِنْ دَلالةٍ مُعَيَّنَةٍ إلى رَمزٍ مِنْ رُموزِ البُطُولَةِ و التَّضحيةِ ، فَفِي شِعرِهِ يَتَضَافَرُ الجَماليُّ ، و المَعنَويُّ ، و النَّفسيُّ ، و التَّاريخيُّ ، و تَنتَمي إلى حَسَاسيَّةٍ شِعريَّةٍ يَمتَزِجُ فِيها الخَاصُّ بالعامِّ امتِزاجاً عُضويَّاً ، و قَدْ شَارَكَ في القَادِسيَّةِ ، و كانَ واحِداً مِنَ المَغاويرِ الأبطالِ الّذينَ أَبلَوا بَلاءً حِسَناً .

و الصِّدَامُ المُباشَرُ في سَاحاتِ القِتَالِ بَينَ زُحُوفِ الفَتحِ ، وَ قُوى الطُّغيانِ كانَ المَادَّةَ الّتي حرَّضَتْ شَاعِرِيَّةَ الشَّاعرِ ، و ضَخَّتِ الشُّعورَ العَاطفيَّ لَهُ ، و ثَمَّةَ خُيُوطٌ تَشُدُّ شِعرَ الفُتُوحِ إلى المسَارِ اليَوميِّ للبُطُولاتِ ،

و هُوَ يَتحدَّثُ بِلُغَةٍ مُباشَرَةٍ لِيَكونَ أَقدَرَ على إيصالِ شِعرِهِ إلى النَّاسِ مِنْ حَولِهِ :

أَنختُ بِبَابِ القَادسِيَّةِ نَاقَتِي ... وَ سَعدُ بنُ وقَّاصٍ عليَّ أَمِيرُ
تَذَكَّرْ — هَدَاكَ اللهُ — وَقْعَ سُيُوفِنَا ... بِبَابِ (قُدَيسٍ) و المكَرُّ عَسيرُ
إذّا مَا فَرَغنَا مِنْ قِراعِ كَتيبَةٍ ... دَلَفْنَا لأُخرَى كالجِبَالِ تَسيرُ
فَضَارَبْتُهُمْ حَتَّى تَفرَّقَ جَمعُهُمْ ... و طَاعَنْتُ ، إنِّي بالطِّعَانِ بَصيرُ
تَرَى القَومَ فِيها أَجمَعينَ كَأَنَّهُمْ ... جمَالٌ ، بأَحمالٍ لَهُنَّ زَفيرُ
عَشِيَّةَ وَدَّ القَومُ لَوْ أَنَّ بَعضَهُمْ ... يُعَارُ جَنَاحَيْ طَائرٍ ، فَيَطيرُ [١]

[١] الأخبارُ الطِّوَالُ ، أبو حنيفة الدِّينوريُّ ، تحقيق . عبدالمنعم عامر ، مراجعة د. جمال الدِّين الشَّيَّال ، دارُ المَسيرة ، بيروت ، ص125/124 ، الأغاني ، الهيئة المِصريَّة ، ج19 ، ص5

هَذا نَصٌّ مِنَ النُّصُوصِ الّتِي وَسَمَتْهَا الجَمَاليَّةُ لأَنَّ النُّصُوصَ كُتِبَتْ مِنْ أَجلِ قَضِيَّةٍ جَميلَةٍ و نَبيلَةٍ ، و بِمعنَىً آخرَ كَتبَتْ تِلكَ القصَائدَ الفِكرةَ السَّامِيَةَ النَّبيلةَ في حُلَلٍ رائعةٍ ، و جميلةٍ . و الحِرصُ عَلى ائتلافِ المَعنَى الشَّريفِ هُوَ أَحَدُ خَصَائصِ الجَماليَّةِ في شِعرِ الفُتُوحِ .

و أرَى أنَّ النَّصَّ السَّابقَ يَمتَلِكُ صِيَاغَةً عَاليَةَ الصِّدقِ مَعَ تَشكيلِهِ الجَماليّ ، و مُؤَهِّلاتِهِ التَّعبيريَّةِ ، و التَّوسُّعِ الدِّلاليِّ . و أرَى أنَّ النَّصَّ تَشكَّلَ مِنْ مُكوِّنَاتٍ لُغَويَّةٍ مُشبَعَةٍ بالإيحاءِ المُعَبِّرِ ، و الألفاظِ الوَامِضَةِ المُشرقَةِ بِجَمالِ التَّعبيرِ ، و بَلاغَةِ التَّصويرِ الكَشِفِ عَنْ كُنْهِ الحَقيقَةِ .

إنَّ هذا العالَمَ الشِّعريَّ يندَفِعُ بالاسْتِغراقِ في شُغلِ حواسِّ المُتلَقِّي و العَملِ على إيقَاظِهَا دَفعَةً واحِدَةً لإثَارَةِ مُعطَيَاتِهَا المُبَاشِرَةِ في الصُّورَةِ و الكَلِمَةِ و الإيقَاعِ ، مِمَّا يَشغَلُ جَذوَةَ الوَعيِ بِتَلَذُذِ الأبطالِ بِالفِعلِ البُطُوليِّ ، و لقَدْ تَلاشَتِ الذَّاتُ الفَردِيَّةُ ، بِتواريها خلفَ الذَّاتِ الجَماعِيَّةِ ، لِيُعَبِّرَ الشَّاعرُ البَطَلُ عَنِ الآخَرينَ تَعبيرَهُ عَنْ نَفسهِ.

تَزدادُ علاقَةُ الفَارسِ البَطَلِ بالبُطُولَةِ عَبرَ بُعدٍ وُجدانيٍّ يُمارِسُهُ ، فإذا تَحدَّثَ عَنها مِنْ غَيرِ مُمَارسَةٍ لَمْ يَذُق طَعمَ تِلكَ المَكرُمَةِ .

الفَارسُ البَطلُ أبو مِحجَنٍ وَقَفَ مَوقِفاً نَبيلاً ، مَوقفَ مَنْ يَحتَاجُ إلى تِلكَ المَكرُمَةِ ، و يَتلهَّفُ عَليها في القَادسيَّةِ ، لأنَّهُ ((لَمَّا اشتَدَّ القِتَالُ في تلكَ اللَّيلةِ ، و كانَ أبو مِحجَنٍ قَدْ حَبَسَهُ سَعدٌ بكتابِ عَمَرٍ ، و قَيَّدَهُ و هُوَ في القصرِ ، صَعِدَ أبُو مِحجَنٍ يَستَعفيهِ و يَستَقِيلُهُ ، فَزَبَرَهُ سَعدٌ ، وَ رَدَّهُ ، فنَزَلَ ، فأَتَى سَلمَى بنتَ أبي حَفصَةَ (زوجةَ سعدٍ) فقالَ : يا بِنتَ آلِ حَفصَةَ ! هَلْ لَكِ إلى خَيرٍ ؟ قَالَتْ : و مَا ذَاكَ ؟ قَالَ : تُخَلِّينَ عَنِّي ، و تُعيرِينَني البَلقَاءَ (فَرسَ سَعدٍ) فَلِلَّهِ عَليَّ إنْ سَلَّمَني اللهُ أَنْ أرجِعَ حتَّى تَضَعِي رِجلَيَّ في القَيدِ ، فقَالَتْ : و مَا أنا و ذَاكَ ، فَرَجَعَ يَرسُفُ في قُيُودِهِ و يَقُولُ :

كَفى حُزناً أَنْ تُطعَنَ الخَيلُ بالقَنَا ... وَ أُتْرَكَ مَشْدُوداً عَلَيَّ وَثَاقِيَا

إذَا قُمتُ عَنَّانِي الحَديدُ و أُغلِقَتْ ... مَصَاريعُ مِنْ دُونِي تُصِمُّ المُنَادِيَا

وَ للهِ دَرِّي يَومَ أُترَكُ مُوثَقاً ... وَ تَذهَلُ عَنِّي أَسرَتِي و رَجَالِيَا

حَبِيساً عَنِ الحَربِ العَوانِ و قَدْ بَدَتْ ... و إعمالُ غَيري يَومَ ذَاكَ العَوالِيَا

هَلُمَّ سِلاحِي ، لا أَبَالَكَ إنَّني ... أَرَى الحَربَ لا تَزدادُ إلاَّ تَمَادِيَا

فَقَالَتْ سَلمَى : إنِّي استَخَرتُ اللهَ ، و رَضِيتُ بعَهدِكَ ، فَأَطلَقَتهُ ، و قَالَتْ : أمَّ الفَرَسُ فَلا أُعِيرُها ، فَاقتَادَها أَبو مِحجَنٍ ، و أَخرَجَهَا مِنْ بَابِ القَصرِ الّذي يَلي الخَندَقَ ، فَرَكِبَها ، ثُمَّ دَبَّ عَلَيها ، حتَّى إذا كانَ بحِيَالِ المَيمَنَةِ ، و أَضَاءَ النَّهارُ ، و تَصَافَّ النَّاسُ ، كَبَّرَ ، ثُمَّ حَمَلَ على مَيسَرَةِ القَومِ ، فَلَعِبَ برُمحِهِ و سِلاحِهِ بَينَ الصَّفَّينِ ، ثُمَّ رَجَعَ مِنْ خَلفِ المُسلِمينَ إلى القَلبِ ، فبَدَرَ أَمَامَ النَّاس ، فحمَلَ على القَومِ ، فلَعِبَ بَينَ الصَّفَّينِ برُمحِهِ و سِلاحِهِ ، و كانَ يَقصِفُ النَّاسَ لَيلَتَئِذٍ قَصْفاً مُنكراً ، فَعَجبَ النَّاسُ مِنهُ و هُمْ لا يَعرِفُونَهُ ، و لَمْ يَرَوهُ بالأَمسِ ، و جَعَلَ سَعدٌ يَقُولُ – و هُوَ مُشرِفٌ إليهِ – الطَّعنُ طَعنُ أبي مِحجَنٍ و الضَّبْرُ ضَبرُ البَلقاءِ ، و لَولا حَبسُ أبي مِحجَنٍ لَقُلتُ : هذا أبو مِحجَنٍ ، و هذِهِ البَلقَاءُ .

فَلَمْ يَزَلْ يُقَاتِلُ حتَّى انتَصَفَ اللَّيلُ ، فَتَحاجَزَ أَهلُ العَسكَرينِ ، و أَقبَلَ أَبو مِحجَنٍ حتَّى دَخَلَ القَصرَ ، وَ وضَعَ عَنْ نَفسهِ و دَابَّتِهِ ، و أعادَ رِجلَيهِ في القَيدِ [١]

تَميَّزَتِ الأبياتُ باختِلاجَاتٍ خَاصَّةٍ في علاقَتِها معَ المَكانِ الّذي قَيَّدَ أبا مِحجَنٍ ، إنَّها تُحرِّكُ العَقلَ ، و تُحرِّضُ العَاطِفَةُ ، و تَجمَعُ بَينَ الرُّؤيَةِ الهَادِفَةِ ، و التَّطَلُّعِ إلى الآتي ، فَأبو مِحجَنٍ الثَّقَفيُّ التَزَمَ بقَضيَّتِهِ الَّتي آمَنَ بهَا قَولاً و فِعلاً ، يَراعاً و سَيفاً ، و كانَتْ رُوحُهُ تَصهَلُ بَينَ ضُلوعِهِ شَوقاً إلى النِّزالِ، و قَدْ حَقَّقَتْ (سَلمَى) زَوجَةُ (سَعدٍ) مَرَامَهُ ، وَ رَوَتْ ظَمَأَهُ إلى مُلاقَاةِ العَدُوِّ .

و بَعدَ أَنْ عَادَ إلى سِجنِهِ ، و أَعادَ رِجلَيهِ في القَيدِ أَنشَأَ يَقُولُ :

لَقَدْ عَلِمَتْ ثَقِيفُ غَيرَ فَخرٍ ... بأَنَّا نَحنُ أَكرَمُهُمْ سُيوفَا
وأَكثَرُهُمْ دُرُوعاً سَابِغَاتٍ ... و أَصبَرُهُمْ إذا كَرِهُوا الزُّحُوفا
وَ أَنَّا رِفْدُهُمْ في كُلِّ يَومٍ ... فَإنْ جَحَدُوا فسَلْ بهِمْ عَرِيفَا
وَ لَيلَةَ قَادِسٍ لَمْ يَشعرُوا بي ... وَ لَمْ أَكرَهْ بمَخرَجيَ الزُّحوفَا
فَإنْ أُحبَسْ فقَدْ عَرَفُوا بَلائي ... وَ إنْ أُطلَقْ أُجَرِّعهُمْ حُتُوفَا [٢]

فأَخبَرَتْ زَوجَةُ سَعدٍ سَعداً بخَبَرِ أبي مِحجَنٍ ، فقَالَ : ((**أَمَا وَ اللهِ لا أَضرِبُ اليَومَ رجُلاً أَبلَى اللهُ المُسلِمِينَ عَلى يَدِهِ مَا أَبلاهُمْ ، فَخَلَّى سَبيلَهُ** [٣]))

[١] الأغاني ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ج19 ، ص5 ، 6 ، 7 ، البداية و النهاية ، دار عالم الكتب ، الرِّياض ، ط2 ، 1424/2003/ج9 ، 632 ،633 ، تاريخ الأمم و الملوك للطَّبري ، راجعه و صحَّحه نُخبةٌ منَ العلماء الأجلاء ، مطبعة الاستقامة ، القاهرة ، 1357/1939 ، ج3 ، ص56 ، شرح حياة الصَّحابة ، ج1 ، ص866 ، 867 ، 868

[٢] ديوانه ، ص43

[٣] الأغاني ، ج19 ، ص8

إنَّ الوُقُوفَ على السِّيَاقاتِ النَّفسيَّةِ المُكوِّنَةِ للنَّصِّ الشِّعريِّ أمرٌ ذُو بَالٍ في الوُلوجِ إلى النَّصِّ و خَصَائصِهِ الجَماليَّةِ . و قَدْ تَهيَّأَ لِشِعرِ الفُتُوحِ زَخَمٌ نَفسيٌّ فَعَّالٌ ، فتَدَفَّقَتْ مُقَطَّعاتُ هذا البَطَلِ كبَقيَّةِ الشُّعراءِ شَلاّلاتٍ مِنْ عِبَاراتِ الإقدامِ و الأَداءِ البُطوليِّ ، يَمنَحُها الشَّاعرُ الإحساسَ بالعِنَادِ في مُواجَهَةِ العَدوِّ و الثَّباتِ في سَاحاتِ المَعَارِكِ .

و إذا كانَتِ الأَبعادُ الوُجدانيَّةُ تَتضِحُ في نَفسيَّةِ الشَّاعِرِ المُتَفاعِلَةِ و بعُمقِ الصِّدقِ معَ الواقعِ ، فَإنَّ البُعدَ الجَماليَّ الّذي يَتضمَّنُ خصَائصَ التَّعبيرِ و الإيقاعِ الشِّعريِّ نَلمَسُهُ بِوَضوحٍ في النَّصِّ.

لَقَدْ صَنَعَ أبو مِحجَنٍ الثَّقَفيُّ الصُّورةَ المِثاليَّةَ ، و لَمْ يَلتَمِسْ مَصْلَحَةً فَردِيَّةً ، بَلْ مَصْلَحةَ الأُمَّةَ ، و كَانَتْ قُيُودُهُ نَفسيَّةً قَبلَ أَنْ تكونَ حَديديَّةً ، يُغَنَّى مِنهَا ، و يتَنَزَّى بهَا .

و هُوَ في إسلامِيَّةٍ إنسَانيَّةٍ نَاصِعَةٍ ، لا يَبْتَغي مَفرشاً إلاّ صَهَوَةَ الحِصَانِ ، استِعداداً لِصَيحَةٍ تُنَادِيهِ إلى القِتَالِ ، أو لَهفَةٍ تَستَغيثُ بِهِ ، فيُسَارِعُ إلى قَذفِ نَفسِهِ في المَعارِكِ ، و خَوضِ الأَهوالِ في سَبيلِ عَقِيدَةٍ اعتَنَقَها.

لقَدْ خَلا النَّصَّانِ مِنَ الصُّوَرِ البَيَانيَّةِ ، لأنَّ الحُزنَ في النَّصِّ الأَوَّلِ شَغَلَهُ عَنْ ذَلكَ ، و لأنَّ الثَّاني أَتَى مُرتَجلاً ، وَليدَ لَحظَةِ الحَماسَةِ وَ الفِعلِ البُطُوليِّ ، وَ التَّصويرُ البَيَانيُّ يَحتاجُ إلى تَأمُّلٍ ، و تَفكيرٍ ، و استِحضَارِ طَرفَي التَّشبيهِ في الذِّهنِ لِمُوازَنتِهِ معَ مَشَاهِدِ الإقدامِ و البُطُولَةِ معَ الإنصَافِ في الوَصفِ ، فَالشَّاعرُ الفَارسُ لَمْ يُحَدِّدِ الخَيلَ في قَولِهِ : ((تُطعَنُ الخَيلُ بِالقَنا)) فَالوَصفُ يَنطَبِقُ على الجَمعَينِ المُتَلاقِيَينِ ، و كَذَلِكَ في قَولِهِ : ((و إعمالُ خَيري يومَ ذَاكَ العَوَالِيَا ، لَمْ يُحَدَّدِ الطَّرفُ الّذي يُعمِلُ رُمْحَهُ ، فَهُوَ مُنْصِفٌ ، و يَعتَرِفُ بِبُطُولَةِ الآخرينَ.

وَ ظَلَّتْ مُقَطَّعَاتُ أَبي مِحجَنٍ الشِّعريَّةُ تَقتَرِحُ اسمَهُ بِقُوَّةٍ و استِمراريَّةٍ على المَشهَدِ الشِّعريِّ البُطُوليِّ بِوُضُوحٍ . وَ حِينَ يَمزِجُ الشَّاعِرُ ضَميرَ البَطَلِ ((أَنَا)) بالضَّميرِ الجَمعِيِّ في مسَارِ الأَبياتِ فإنَّهُ يُحكِمُ في هذا المَلمَحِ العِبَارةَ ، و يُسَيطِرُ على اللُّغَةِ حتَّى تَبدُوَ العِبَارَةُ شَديدَةَ التَّوَهُّجِ و الاسْتِرسَالِ .

و في مَوقِفٍ آخرَ نَجدُ الذَّاتَ الشَّاعِرَةَ برُوحِهَا المُتَوَفِّزَةِ تُهيمِنُ بمُستَوىً عَالٍ و حَيَوِيَّةٍ في انتِمائِها إلى الفِعلِ البُطُوليِّ ، قالَ يُخَاطِبُ زَوجَتَهُ مُعتَدَّاً بنَفسِهِ الغَنيَّةِ بالمَكارِمِ :

لا تَسأَلي النَّاسَ عَنْ مَالي وَ كَثرَتِهِ   وَ سَائِلي القَومَ عَنْ دِيني و عَنْ خُلُقي
قَدْ يَعَلَمُ النَّاسُ أَنِّي مِنْ سَرَاتِهُمُ   إذَا سَما بَصَرُ الرِّعدِيدَةِ الفَرِقِ
أُعطِي السِّنَانَ غَداةَ الرَّوعِ نحلَتَهُ   وَ عَامِلُ الرُّمحِ أَرويهِ مِنَ العَلَقِ
وَ أَطعَنُ الطَّعنَةَ النَّجلاءَ عَنْ عُرُضٍ   تُبقي المَسَابيرَ بالإزبادِ و الفَهَقِ [1]

الفَارسُ البَطَلُ يُبَصِّرُنَا بعَوالِمِهِ الانفِعَاليَّةِ ، و رُؤيَتِهِ الجَماليَّةِ الّتي تَستَدعي تَغييراً في التَّعبيرِ عَنِ انفِعالاتِ الكُلِّ المُتَنَاسِقِ لِيَحُلَّ الانفِعَالُ الفَردِيُّ ، و رُؤيَةُ عَينِ الشَّاعرِ ، لا العَينِ الّتي تَركَنُ إلى ظَواهِرِ الأُمورِ ، فَالرُّمحُ النَّافِذُ يَعكِسُ مَا فِي نَفسِهِ . و انصِرَافُ الشَّاعِرِ إلى صِيغَةِ المُتَكَلِّمِ يَقُومُ بِوَظِيفَةِ الإخبَارِ لِيَبُثَّ رَغبَتَهُ في إثباتِ حُضُورِهِ بَطلاً .

و لَقَدْ تَحقَّقَتْ فَاعِليَّةُ النَّصِّ عِندَ الشَّاعرِ أَيضَاً بِتَآزُرِ القِيَمِ الجَماليَّةِ جَميعِها فِيهِ بِقَولِ الشَّاعرِ : ((وَ سَائلي القَومَ عَنْ دِيني و عَنْ خُلُقي)) و بِطَريقَةٍ عَفويَّةٍ فَنِّيَّةٍ ، فَكَشَفَتْ عَنْ قِيمَةِ العَالِمِ الّذي يَرغَبُ في وُلُوجِهِ.

جُندِيٌّ آخَرَ مِنْ جُندِ اللهِ الفَاتِحينَ ضَرَبَ أَروَعَ الأَمثِلَةِ في التَّضحِيَةِ و الفِداءِ و البُطُولَةِ هُوَ ضِرارُ بنُ الخَطَّابِ الفِهريِّ ، فبَعدَ أَنْ تَبَيَّنَ لِهَذا البَطَلِ الخَيطُ الأَبيَضُ مِنَ الخَيطِ الأَسوَدِ مِنْ فَجرِ الحَقِّ ، و شَرَحَ اللهُ صَدرُهُ للإسلامِ خرَجَ يُشَارِكُ في فُتُوحِ الشَّامِ و العِراقِ و فَارسَ . و في غَمرَةِ البُطُولاتِ و الأَمجادِ الهَائلَةِ تَكَشَّفَتْ ذَاتُهُ الشَّاعِرةُ عَنْ رُؤَى شِعرِيَّةٍ خَصبَةٍ ، تَفيضُ بِالصِّدقِ ، و حَرارَةِ التَّعبيرِ ، و الاقتِدارِ على التَّأثيرِ ، تَتَوَجَّهُ بِالمُتَلَقِّي نَحوَ فَضَاءِ القِراءَةِ بِرَوِيَّةٍ و إمعانٍ يَستَدعِيَانِ قِراءَةً مُختَلِفَةً عَنْ نُصُوصِهِ الجَاهِلِيَّةِ وُصُولاً إلى فَنِّيَّةِ النَّصِّ و جَماليَّتِهِ الّتي تُسْدِلُ على صُورَةِ الشِّعرِ القَديمِ سُدُولاً مَنسُوجَةً مِنْ قِيَمِ الإسلامِ و نُورِهِ .

بَعدَ أَنْ خَاضَ هذا الفَارِسُ البَطَلُ معَ الفَاتِحينَ وَقعَةَ (بَهَندَفَ) في بِلادِ فَارسَ استَطاعَ أَنْ يَقبِضَ على نَاصِيَةِ التَّأثيرِ ، و أنْ يَنقُلَ مُعَانَاةً إنسَانيَّةً عَاشَها مَشحُونَةً بالمشاعر إلى المُتلقِّي لأَنَّ النَّصَّ جَاءَ مُطابِقاً لِلطِّبَاعِ المَغروسَةِ في الإنسانِ العَربِي العَادلِ النَّبيلِ ، يقُولُ الفَارِسُ البَطَلُ:

وَ لَمَّا لَقِينَا في بَهَندَفَ جَمعَهُمْ   أَنَاخُوا ، و قَالُوا : صَبراً آلَ فَارسِ
فَقُلنَا جَميعاً : نَحنُ أَصبَرُ مِنكُمُ   وَ أَكرَمُ في يَومِ الوَغَى و التَّمارُسِ

---

[1] دِيوانُهُ ، دِيوانُهُ ص15 ، 16 ، 17 ، 18 . الرِّعديدةُ : الجبانُ ، و الهاءَ هَا هُنا للمُبالَغةِ ، العلقُ: الدَّمُ الكثيرُ ، عَنْ عُرُضٍ : عَنْ نَاحِيَةٍ ، المَسَابيرُ ، جمع مِسبار : و هُوَ الميلُ الّذي تُقَدَّرُ بِهِ الجِراحاتُ لِيُعرَفَ غورُها ، الفَهَقُ : كَثرَةُ الدَّمِ.

ضَرَبناهُمُ بِالبِيضِ حتَّى إذا انْثَنَتْ   أَقَمنَا لَهَا مَثلاً بِضَربِ القَوانِسِ
فَما فَتِئَتْ خَيلي تَقُصُّ طَريقَهُمْ   و تَقتلُهُمْ بَعدَ اشْتِبَاكِ الحَنادِسِ
فَعَادُوا لَنَا دِيناً ، و دَانُوا بِعَهدِنَا   وَعُدْنَا إِليهِمْ بِالنُّهى فِي المَجالسِ [١]

في مَلمَحٍ أوَّلٍ في النَّصِّ نَجدُ أنَّ الحُضُورَ الفَرديَّ ضَؤُلَ لأنَّ الشَّاعِرَ عَمِدَ إلى تَوظيفِ ضَميرِ الجَمعِ في خِدمَةِ شُعورِهِ بِصُورَةٍ تُمَثِّلُ نُموذَجَ البَطلِ المُسلِمِ في إطارِ مسَاحَةٍ مِنَ المشاعرِ النَّفسيَّةِ الدَّاخليَّةِ ، الآمنَةِ المُطمَئنَّةِ ، و تَنصَبُّ جَميعُها في بُنيَةٍ شِعريَّةٍ واحدَةٍ هِيَ الفَخرُ . و في مَلمَحٍ ثَانٍ لم يَغِبْ عن أفقِ النَّصِّ الّذي يَغشَاهُ ظِلُّ الاعتزازِ الجَماعيِّ نَجَدُ الشَّاعرُ البَطلُ على صِلَةٍ عَميقَةٍ حَميمَةٍ بإنسانيَّتِهِ ، فقَدْ أَشَارَ إلى استعدادِ الفُرسِ للمَعرَكَةِ بلا خَوفٍ ، و إلى تَواصِيهِم بِالصَّبرِ ، ثُمَّ إلى خُضُوعِهِمْ بَعدَ هَزيمَتِهِمْ أمامَ العَرَبِ المُسلِمينَ الّذين واثَقُوهُمْ و أَمَّنُوهُمْ ثُمَّ رَاحُوا يُحَدِّثُونَهُمْ أحاديثَ الحِكمَةِ و العَقلِ .

و هذا هوَ الشِّعرُ الإنسانيُّ الجَميلُ الّذي لا يحتاجُ تَذَوُّقُهُ إلى مُعايَشَةِ قَائِلِهِ في عَصرِهِ ، إنَّهُ كانسيابِ الجَداولِ ، و توَهُّجِ الأريجِ الغَامرِ ، و في رِحابِ هذا الشِّعرِ ، و في يَنابيعِ هَذا المَوردِ العَذبِ يُصيبُ المُتلقِّي وِرداً وَ رَيَّاً . إنَّ الشَّاعرَ جَنَّبَ المُتلقِّيَ أَنْ يُتعِبَ عَقلَهُ ، و يُكِدَّ خَاطِرَهُ لكَي يَصِلَ إلى التَّلذُّذِ بِنَشوَةِ مَا يَسرُّ مِنْ قِراءةٍ ، و يُفيدُ مِنَ استِقصاءِ النَّصِّ و الارتياحِ إليهِ.

وَ فَحوَى الصُّورَةِ الشِّعريَّةِ يُثيرُ في القَارئِ شُعوراً مُتوَلِّداً في نَفسِ الشَّاعرِ الّذي نَجحَ في جَعلِها تَتخَطَّى مَفهُومَ الزِّينَةِ إلى أُفُقِ الدَّلالاتِ الرَّحيبِ ، فَلا مُتَلَقِّي يَعجزُ عَنِ التِقَاطِ صُوَرِ النُّبلِ و الكَمالِ ، أَو يَنصَرِفُ لُبُّهُ عَنْ جَمالٍ فَاضَ بِهِ معنَى كُلِّ بَيتٍ قامَ على حُسنِ المَبنَى و المَعنَى ، و هِيَ الوَظيفَةُ الجَوهَرِيَّةُ الّتي خُلِقَ لَهَا الشِّعرُ الأصيلُ ، وَ كَيفَ إذا وُظِّفَ تَوظيفاً تَرسُمُهُ حُدودُ الشَّريعَةِ الإسلاميَّةِ السَّمحاءِ ؟ ! إنَّهُ مُنتَهَى مَا يَحلُمُ بِهِ الشِّعرُ الإنسَانيُّ مِنْ رَوابِطَ أَخَويَّةٍ ، و أَرقَى مَا تَطمَحُ إليهِ الشُّعوبُ مِنْ قِيَمٍ إنسَانيَّةٍ.

---

[١] ديوان ضرارِ بنِ الخطَّاب الفِهريُّ ، جمعه و حقّقهُ و شَرحَهُ د. فاروق اسليم ، دار صادر ، بيروت ، ط1 ،1996 ، ص66 ، 67 ، القوانسُ جمع قَونَسٍ و هو مُقدّمُ شَعرِ الرَّأس ، ، أقمنا لها مثلاً : أقمنا عِوجَهَا ، نَقُصُّ طَريقَهُمْ : نتَتبعُ آثارهم ، اشتباكُ الحَنادسِ : اشتداد حُلكَةِ الظَّلامِ

بُطولاتُ مَعركَةِ اليرمُوكِ:

جمَعَتْ مَعركَةُ اليَرْمُوكِ بُطُولاتٍ و عَبقَريَّةً في القِيَادَةِ تَرْضَاهَا فُنُونُ الحَربِ و تَرضَاها الحَضَارةُ ، و يَرضَاهَا المُنصِفُونَ مِنَ الأَصْدِقاءِ و الأعداءِ.

و لا شَكَّ أنَّ تَحدِّيَاتٍ ثَقيلَةً وَاجَهَتِ امتِدادَ الفُتُوحِ الّتي وَاكبَتْها بُطُولاتٌ لم يُسَجِّلُ التَّاريخُ لَهَا شَبَهاً. و الشَّخصِيَّاتُ التَّاريخيَّةُ الفَذَّةُ الّذينَ يَجُودُ بِهِمُ الزَّمانُ مِنْ رَحِمِ البُطُولَةِ تَأْتِي كإشْرَاقَةِ الشَّمسِ بَعدَ لَيلٍ أَلَيلٍ يَسْبِقُها فَجْرٌ مُنَوَّرٌ مُبَشِّراً بالخَلاصِ . و في هذا المَضمونِ كَانَتْ و سَتَبقَى سِيرَةُ عُظَماءِ الفُتُوحِ مِنْ حَمَلَةِ سَيفِ العَدلِ الّذي جَعلَ أَنوارَ الدَّعوَةِ تَنْدَاحُ بِيُسرٍ في كُلِّ أَرضٍ .

كانَ انتِصَارُ العَرَبِ الفَاتِحينَ في وَقعَةِ اليَرمُوكِ مُعجزَةً حَربيَّةً رَائِعَةً تَمَّتْ بِفَضْلِ الصِّفَاتِ الحَربيَّةِ العَاليَةِ الّتي تَحلَّى بِهَا الفَارسُ العَربيُّ ، مِنَ الشَّجاعةِ ، و الإخلاصِ ، و الإيمانِ و الطَّاعَةِ و الانضِبَاطِ ، و نُكرانِ الذَّاتِ . و قَدْ توَّجَتْ هَذِهِ الصِّفَاتُ القَائِدَ العَبقَريَّ سَيفُ اللهِ المَسْلولِ خَالدُ بنَ الوَليدِ ، فَاستَجابَ لَهُ جُندُهُ الّذينَ استَطاعَ أَنْ يُوَجِّهَ طَاقَاتِهِمُ المُؤمِنَةَ تَوجيهاً بَارِعاً و جَريئاً نَحوَ الانتِصَارِ عَلى جَحافِلِ الأَعداءِ الكُثُرِ ، التَّابعينَ لأَقوى دَولَةٍ في ذَلكَ العَصرِ . و قَدْ كَانَ ﷺ بسُلوكِهِ البُطُوليِّ المُتوَهِّجِ ((**يَسيرُ في الصُّفُوفِ يُذمِّرُ النَّاسَ و يَقُولُ : يَا أَهلَ الإسلامِ ! إنَّ الصَّبرَ عِزٌّ ، و إنَّ الفَشَلَ عَجزٌ ، و إنَّ مَعَ الصَّبرِ النَّصْرَ**))[1].

و مَعَ العَبقَريَّةِ القِيَادِيَّةِ بَرزَتْ مَوهِبَتُهُ الحَربيَّةُ ، فَكانَ النَّصرُ يَمشِي في رِكَابِهِ بجُرأَتِهِ و إقْدَامِهِ . و قَدْ نَقَلَ صُورةَ قِيادَتِه الحَكيمةِ و جُرأَتِهِ إلى الخَليفَةِ عُمَرَ بنَ الخَطَّابِ ﷺ الفَارسُ البَطَلُ عَمروُ بنُ مَعديكَرِب ، حِينَ سَأَلَهُ عُمَرُ : ((**يا أبا ثَورٍ ! مِنْ أَينَ أَقبَلْتَ ؟ قالَ : مِنْ عِندِ سَيِّدِ بني مَخزومٍ ، و أَعظَمِهَا هَامَةً ، و أَمدِّها قَامَةً ، و أفضَلِها حِلمَاً ، و أَقدَمِهَا سِلماً ، و أَجرَئِها مَقدَماً ، قالَ : و مَنْ هُوَ ؟ قَالَ : سَيفُ اللهِ و سَيفُ رَسُولِهِ**))[2]

[1] العِقدُ الفريدُ ، ج1 ، ص100 ، و يُذمِّرُ النَّاسَ : يَحضُّهُمْ على القِتَال.
[2] مُختارُ الأغاني ، ج5 ، ص239

كانَ هذا البَطَلُ يَتَقدَّمُ جُندَهُ إلى مَواطِنِ الخَطَرِ ، حِينَ يَعُزُّ التَّقَدُّمُ ، فَكانَ قُدوةً يَنفُخُ فِيهِمْ مِنْ رُوحِهِ المُشِعَّةِ ، فَمِنْ صُوَرِ بُطُولَتِهِ و شَجاعَتِهِ انْكِسَارُ تِسعَةِ أَسْيافٍ فِي يَدِهِ ﷺ : ((**لَقَدْ دُقَّ فِي يَدي يَومَ مُؤتَةَ تِسعَةُ أَسْيَافٍ ، فَما بَقِيَ فِي يَدي إلاَّ صَفيحَةٌ يَمانِيَّةٌ**)).[1]

لَقَدْ خُتِمَتْ حَيَاةُ هذا البَطَلِ على حَالةٍ أَبكَتْهُ ، و كانَ لا يَشتَهيهَا لأنَّ رُوحَهُ كَانَتْ تُرَفْرِفُ شَوقاً إلى الشَّهادَةِ و هُوَ يَنشُرُ الخَيرَ فِي الآفاقِ . لَقَدْ حَضَرَهُ أَجَلُ اللهِ المَحتُومُ على فِراشِهِ ، فَبَكى ، ثُمَّ قَالَ : ((**لَقَدْ حَضَرْتُ كَذَا و كَذَا زَحفاً ، و ما فِي جَسَدي شِبرٌ إلاَّ و فيهِ ضَربَةُ سَيفٍ ، أو طَعنَةٌ بِرُمحٍ ، أو رَميَةٌ بِسَهْمٍ ، و هَا أنا أَموتُ على فِراشي حَتْفَ أَنفِي ، كَمَا يَمُوتُ البَعيرُ ، فَلا نَامَتْ أَعيُنُ الجُبَنَاءِ**))[2]

إنَّ القُلوبَ المَلأَى بِحُبِّ اللهِ و رَسُولِهِ جَعَلَتْ أَصْحَابَها يَنهَضُونَ خَلفَ القَادَةِ بِقُوَّةِ الإيمانِ ، وَ شِدَّةِ العَقيدَةِ ، لا يُبَالُونَ بِغَيرِ نَشرِ كَلِمَةِ اللهِ ،فَكَانَ ذَلكَ مَصْدَرَ التَّضحِيَّاتِ العَجيبَةِ و الفِداءِ الغَريبِ ، فَانْهَارَتْ أَمَامَ بُطُولاتِهِمُ العَقَبَاتُ ، و انتزَعُوا الانتِصَاراتِ المُتواليَةَ مِنْ بَيْنَ أَشْدَاقِ المَوتِ ، وَ هَزَمُوا أَعدَاءَهُمْ هَزيمَةً إثرَ هَزيمَةٍ ، هَذا كُلُّهُ مَهَّدَتْ لَهُ الاسْتِقَامَةُ عَلى العِبَاداتِ فِي خَشيَةٍ و حُضُورٍ ، و التَّضرُّعُ إلى اللهِ فِي كُلِّ حِينٍ ، معَ أَعلَى دَرَجَاتِ الحُبِّ ، و هُوَ حُبُّ الشَّهَادَةِ فِي سَبيلِ اللهِ ، فَتَركُوا مَلاحِمَ فِي السِّلمِ و البُطُولَةِ ، و ربَطُوا أَمجادَ دُنيَاهُمُ البُطُولِيَّةَ الّتي اسْتَفرَدَ التَّاريخُ بإنصَافِهَا ، بِآخِرَتِهِمْ .

الشِّعرُ و بُطولاتُ اليَرمُوكِ:

لا يُكتَفَى بِوَصفِ مَاقِيلَ مِنْ شِعرٍ : بأَنَّهُ تَأْريخٌ لِمَسَارِ البُطُولاتِ ، و ضَربِ الأَمثِلَةِ عَليهَا ، بَلْ يُمكِنُ القَولُ : بأَنَّهُ إبداعٌ ، يَعيدُ تَكوينَ العَالَمِ الخَارِجيِّ الّذي صَنَعَتهُ البُطُولاتُ ، فِي هَيئَةِ وَاقِعٍ جَديدٍ مُوازٍ للوَاقِعِ الحَقيقيِّ ، و لَيسَ مُحاكاةً لَهُ . و ذَلكَ لأنَّ القَصَائِدَ و المُقطَّعَاتِ تَرَسَّمَتْ خُطَا الهَدي الإسلاميِّ إثْرَ حَالَةِ الجِهَادِ و الفُتُوحِ الَتي كَانَتْ أَبوابُها تُفَتَّحُ للأبطالِ يَدخُلُونَ مِنْ بابٍ إلى بابٍ يَتَحدُّونَ الصِّعابَ و العَقَبَاتِ.

و لا يَستَطيعُ شاعرٌ فَارسٌ وُلُوجَ تِلكَ الأَبوابِ إلاّ إذا أُوتِيَ قُدرَةً ذاتَ بُنيَةٍ رُوحيَّةٍ تُحاوِلُ أَنْ تَتمَاهَى مَعَ هَؤلاءِ الأبطالِ.

[1] شَرحُ حَياةِ الصَّحابَةِ ، ج1 ، ص862 ، 863
[2] نَفسُهُ ، ص863 ،864

الشَّاعرُ الفَارسُ القَعقَاعُ بَطلٌ مَهَّدَتْ لَهُ الفُتُوحُ المَهَايعَ إلى المُشَارَكَةِ في تَحقيقِ المُثُلِ العُليَا الخَالِدَةِ في مَعرَكَةِ اليَرمُوكِ ، و فَتَحَتْ لَهُ دَورَ التَّعبيرِ الشِّعريِّ عَنْ مُعايَشَةِ التَّجربَةِ الّتي أَنتَجَت انتِصَاراً بعدَ انتِصَارٍ :

أَلَمْ تَرَنَا عَلى اليَرموكِ فُزنَا	كَمَا فُزنَا بأَيامِ العِراقِ
فَتَحنَا قَبلَهَا بُصرَى و كَانَتْ	مُحرَّمةَ الجِنَابِ لَدَى البُغَاقِ
قَتَلْنَا مَنْ أَقَامَ لَنَا وَ فِينَا	نِهَابُهُمْ بأَسيافٍ رِقَاقِ
قَتَلْنَا الرُّومَ حتَّى مَا تُسَاوي	عَلى اليَرمُوكِ ثَفْرُوقَ الوِراقِ
فَضَضْنَا جَمعَهُمْ لَمَّا استَحَالُوا	عَلى الوَاقُوصِ بالبُتُرِ الرِّقَاقِ [١]

تَبدُو في الأبياتِ نَبرةُ الفَخرِ عَاليَةً ، فَالفَوزُ المُبينُ الّذي توَّجَ هَامَ العَرَبِ الأبطالِ ذَكَّرَ الشَّاعِرَ بانتِصَاراتِ العِراقِ ، و قَدْ كَانَتْ بُصرى و مَا حَولَها مُحرَّمَةَ الجَنَابِ ، يُحمَى حِمَاهَا عِندَمَا تُمرِعُ و تُخصِبُ . و قَدْ عَلِمَ الرُّومِ مَا عَلِمُوا مِنْ شَأنِ الأَبطالِ الفَاتِحينَ قُوَّةً و بُطُولَةً ، فَانصَرَفُوا إلى الاستعدَادِ لِمُلاقاتِهِمْ لكِنَّ المَوتَ التَفَّ حَولَ فُرسَانِ الرُّومِ ، فَتَسَاقَطَ أَبطالُهُمْ صَرعَى ، و أَسقَطَتْ هَيبَةُ فُرسَانِهِمْ ، و نَزَلَ بِهِمُ الضَّعفُ و الذُّلُّ كَقِمعِ البُسرَةِ و التَّمرَةِ بسُيوفِ فُرسَانِ المُسلِمينَ.

خرَجَ الاستِفهامُ عَنْ دَلالتِهِ المُعجَميَّةِ ، و اكتَسَبَ دَلالَةً أُخرَى أكثَرَ اتِّسَاعاً وض عُمقاً ،فالشَّاعرُ لَمْ يَكُنْ يَنتَظِرُ إجابَةً عَنْ سُؤالٍ مَجهولٍ لَدَيهِ ، و إنَّمَا جَعَلَ مِنْ هَذا الأسلوبِ مِرآةً تُثيرُ تَعجُّبَ المُتَلَقِّي ، و يَرَى فِيها الحَالَ الّتي آلَ إليهَا الرُّومُ ، يَرَى مَاضِيَهُمْ و حَاضِرَهُمْ.

و مَا جَاءَ التَّوكيدُ المَعنَويُّ (قَتَلْنَا) إلاَّ ليتَيَقَّنَ المُتَلَقِّي عَظَمَةَ الفتحِ لأَنَّ الشَّاعِرَ نفسَهُ عَلى يَقِينٍ مِمَّا قَامَ بِهِ جَيشُ الفَتحِ.

و القَافِيَةُ الّتي جَرَتْ عَلى لِسَانِ القَعقاعِ بُنيَتْ عَلى حَرفِ القَافِ ، و القَافُ مِنْ حُروفِ الجَزَالةِ و الفَخَامَةِ و القُوَّةِ الّتي تُنَاسِبُ وَصفَ المَعَارِكِ . و إنَّ الكَلِمَاتِ ضِمنَ إطارِهَا الإيقَاعيِّ إنَّما تُعَبِّرُ بِصِدقٍ عَنْ مَشَاعرِ الشَّاعرِ ، و تَعكِسُ مَضَامِينَهُ العَاطِفيَّةَ ، و تَوجُّهَاتِهِ الفِكريَّةَ . و إنَّ التَّواؤُمَ بَينَ الكَلِماتِ و تَموُّجَاتِ الحَرَكاتِ النَّفسيَّةِ يُعطي النَّصَّ مُوسيقَى تَعبيريَّةً ، و مِنَ الضَّرورةِ الفَنِّيَّةِ تَجاوبُ

[١] البدايةُ و النّهايَةُ ، تحقيقُ الدُّكتور عبدالله بن عبدالمحسن التُركي ، دار الكُتُب للطّباعةِ و النّشر و التّوزيع – الرِّياض ، ط2 2003/1424 ، ج9 ، ص567 . الثّفروق: قِمعُ البُسرَةِ و التّمرَةِ

مُوسيقى القَصيدةِ مَعَ حَركَةِ النَّفسِ و انفِعَالِهَا : ((**وَ إلاَّ تَحوَّلَتِ الإيقاعاتُ الدَّاخِليَّةُ إلى نَوعٍ مِنَ الجَلَبَةِ سُرعَانَ ما يَنطَفئُ بَريقُهَا ، و يَخمَدُ صَدَاها ، و يَفِرُّ الشِّعرُ مِنْ بَينِ يَدَيكَ**))[1]

إنَّهُ التَّمازُجُ العَميقُ الصَّادِقُ بَينَ التَّجربَةِ البُطُوليَّة و صَوغِهَا شَعريَّاً عَبرَ صِيَغِ تَعبيرٍ تَستَجيبُ لانفِعَالِهِ بقُدسِيَّةٍ عَاليَةٍ ، لِذَلكَ جَاءَتِ الأبياتُ مُنتَميَّةً إلى تَجربَةٍ حَيَّةٍ ، صَوَّرَتْهَا العَلاقَةُ التَّبادُليَّةُ المَنسُوجَةُ مِنْ صِدقِ العَاطِفَةِ التَّبادُليَّةِ بَينَ الفَردِ و الجَمَاعَةِ .

وَ لا تَغيبُ عَنْ مَيدَانِ فُتُوحِ الشَّامِ شَخصيَّةُ الفَارسِ البَطَلِ ضِرارِ بنِ الأزوَرِ الّذي تَحدَّثَ عَنْ صِفَاتِ البُطُولَةِ الأَصيلَةِ فِيهِ ، مُؤكِّداً أَنَّهُ سَيُحيلُ ذَلِكَ عَملاً بُطُوليَّاً فَذَّاً خِلالَ إقدَامِهِ و تَضحِيَتِهِ في سَبيلِ عِزَّةِ و كَرامَةِ الإنسانِ ، و لِيُحَقِّقَ الصِّفَاتِ الخَيِّرَةَ الّتي جَعَلَها اللهُ وَقفاً فقَطْ على فِئَةٍ اختَارَها لِنَيلِ شَرَفِ المُشَارَكَةِ في إعلاءِ كَلِمَتِهِ ، و هَا هُوَ يُعبِّرُ عَنْ بُطُولَتِهِ ذَاتِ الخِبرَةِ الطَّويلَةِ :

سَأَضربُ في العُلوجِ بِكُلِّ عَضْبٍ … شَديدِ البَأسِ ذِي حَدٍّ صَقيلِ
و أُضرِمُ في عُلُوِّ البَابِ نَاراً … وَ أَرمي القَومَ بالخَطبِ الجَليلِ
فَوَيلٌ ثُمَّ وَيلٌ ثُمَّ وَيلٌ … لَهُمْ مِنِّي بِمَشْتَدِّ العَويلِ
سَأَقتُلُ كُلَّ بَاغٍ كانَ مِنهُمْ … بِحَدِّ السَّيفِ و البَاعِ الطَّويلِ [2]

بُنيَةُ النَّصِّ تَقُومُ على قِيمَةٍ فَرضَتْهَا الحَياةُ الجَديدَةُ و الوَاقِعُ ، و لكنَّ هَذه القِيمَةِلا تَتجلَّى إلاّ خِلالَ الصِّراعِ مَعَ مَا يُناقِضُها . و وَظَّفَ الشَّاعرُ أُسلوبَ التَّوكيدِ تَوظيفاً جَماليَّاً مُعبِّراً عَنْ لَحَظاتٍ يَعيشُهَا بِصِدقٍ و انطِلاقٍ مُركِّزاً على مَا يَحمِلُهُ هَذا الأسلوبُ مِن دَلالَةٍ تُفصِحُ عَنْ مَشَاعرِ كُلِّ بَطَلٍ في الفَاتِحينَ . فَالفِعلُ المُضَارِعُ (أَضربُ) يفيدُ الاستمرارَ في الفِعلِ البُطُوليِّ ، و سُبِقَ هذا الفِعلُ بِحرفِ السِّينِ الّذي يَدُلُّ أيضاً دَوامَ أَدَاءِ البَطَلِ في وَجهِ العَدُوِّ ، و على استمرارِ ثَبَاتِهِ و صَحبِهِ عَلى مبدئِهِمُ السَّامي ، فَالفِئَةُ المُؤمِنَةُ تَحمِلُ على البَغيْ و أَهلِهِ الجُفَاةِ الغِلاظِ ، و لا يَخفَى مَا في كَلِمَةِ (عُلوج) مِنْ مَعنَى يُوحي بالتَّهكُّمِ و التَّحقيرِ لِخُلُقِ المُتكَبِّرينَ في الأرضِ الّذينَ لا يَستَجيبُونَ لِدَواعي الهُدَى ، و لا يُقيمونَ مَوازِينَ العَدَالَةِ و لا يحتَرِمُونَ إنسَانيَّةَ الإنسَانِ.

[1] التَّجديدُ المُوسيقيُّ في الشِّعرِ العَربيِّ ، د. رَجاء عيد ، مُشأة المعارف بالإسكندريَّة 1987 ، ص 14
[2] فتوح الشام للواقِديِّ ، دار صادر ، بيروت ، ط1 ، 2004 ، ج2 ، ص501

الخَيلُ والسِّلاحُ في بُطولاتِ الفُتُوحِ:

إذَا كَانَ الإنسانُ العَربيُّ الجَاهِليُّ قَدْ أكرَمَ الخَيلَ و أَولاهَا بَالِغَ اهتِمَامِهِ ، فإنَّ الإسلامَ زَادَهَا تَكريماً و تَشريفاً ، وَ وَرَدَتْ وُجُوهُ تَكريمِهَا عَديدَةً في القُرآنِ الكَريمِ و الحَديثِ الشَّريفِ . أَقسَمَ اللهُ ﷻ بِصِفَاتٍ ثَلاثَةٍ في خَيلِ المُجاهِدينَ عَلى أَمْرٍ عَظيمٍ في صِفَةِ الإنسانِ الّذي فَضَّلَهُ على كَثيرٍ مِمَّنْ خَلَقَ تَفضيلاً ، و تِلكَ الصِّفَةُ الجُحُودُ و الكُفرانُ الشَّديدُ : ((**وَ العَادِيَاتِ ضَبحاً * فَالمُوريَاتِ قَدْحاً * فالمُغيراتِ صُبحاً * فأَثَرْنَ بِهِ نَقعاً * فَوَسَطْنَ بِهِ جَمعاً * إنَّ الإنسانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ**))[1]

هَذِه الصِّيَاغَةُ الفَنِّيَّةُ العَاليَةُ تُثِيرُ حَاسَّةَ الوُجدَانِ الدِّينيَّةِ في المُؤمِنِ بلُغَةِ الجَمَالِ الفَنِّيَّةِ العُليَا لِيَظَلَّ يُقَدِّرَ الخَيلَ قَدْرِها عَلى امتِدادِ كُلِّ زَمَنٍ ؛ لأَنَّ القُدرَةَ الفَنِّيَّةَ الّتِي أَودَعَهَا الخَالِقُ في الإنسانِ مَهمَا أَبْدَعَتْ مِن أَلوانِ الجَمَالِ و النَّفعِ ، فإنَّ ذَلكَ لَنْ يُغنِيَهُ عَنْ خَلقِ اللهِ ، فجَمالُ السَّيَّاراتِ الفَارِهَةِ لَنْ يُغنِيَهُ عَنْ جَمَالِ عِتَاقِ الخَيلِ ، فَكَيفَ إذا جَمَعَتِ الجَمالَ و الأَداءَ العَاليَ في الجِهَادِ ؟

و كَمَّا كَرَّمَ اللهُ ﷻ الخَيلَ فقَدْ كرَّمَها رسول اللهِ ﷺ و حَفِظَ فَضْلَها بِقَولِهِ ﵇ : ((**الخَيلُ بِنَواصِيها الخَيرِ إلى يَومِ القِيَامَةِ**))[2]

و لَمَّا كَانَتِ الخَيلُ عُدَّةَ الجِهَادِ في سَبيلِ اللهِ ، و مِنْ أَظْهَرِ مَا يَكشِفُ عَنْ قُوَّةِ المُجاهِدِينَ ، فقَدْ دَعا اللهُ ﷻ المُؤمِنينَ إلى أَنْ تَكونَ الخَيلُ في عِدَادِ القُوَّةِ الّتي يُرهِبُونَ بِهَا عَدُوَّ اللهِ و عَدُوَّهُمْ ، قال ﷻ:((**وَ أَعِدُّوا لَهُمْ مَا استَطَعتُمْ مِنْ قُوَّةٍ و مِنْ رِبَاطِ الخَيلِ تُرهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ و عَدُوَّكُمْ**))[3]

وَ اسْتَجابَ المُؤمِنُونَ إلى مَا دَعَاهُمُ اللهُ و رَسُولُهُ ، فَكَرَّمُوا الخَيلَ لِتَكونَ وَسيلَتَهُمْ لِلجِهَاد وَ إعلاءِ كَلِمَةِ اللهِ في العَالَمينَ .

وَ بِمِثلِ تِلكَ العَلاقَةِ الوَثيقَةِ النَّبيلَةِ بَينَ الوَسِيلَةِ و الغَايَةِ ، جَابَتِ الخُيولُ العَربيَّةُ الأَصيلَةُ الآفاقَ ، و طَوَى فُرسَانُها مُعظَمَ المَعمُورَةِ آنَذَاكَ ، لِنَشرِ رِسَالَةِ الحَقِّ و الخَيرِ لِلدُّنيا و الآخِرَةِ.

---

[1] سُورة العاديات، الآيات 1 ،2 ، 3 ،4 ،5 ،6 ،7 : و الضَّبحُ: صَوتُ الخَيلِ في الكَرِّ على العَدُوِّ ، فالمُورِيَاتِ قَدحا: الّتي تُخرِجُ شَرَرَ النَّارِ بِوَقعِ حَوافِرِهَا على الحِجَارةِ ، فَوَسَطْنَ بِهِ جَمعاً: يَتَوسَّطْنَ بالنَّقعِ جُموعَ الأَعداءِ .

[2] صَحيحُ البُخاري ، رقم الحديث 3343 . و في مُختصر صحيح مسلم ((الخيلُ مَعقُودٌ بنَواصيها الخير إلى يَومِ القِيَامَةِ : الأَجرُ و الغَنيمَةُ)) رقم الحديث 1105.

[3] سورةُ الأنفالِ : مِنَ الآية 60

و كذَلكَ احْتَفَى المُسلِمُونَ بالسِّلاحِ وَ اعتَزُّوا بِأَفضَلِ أَنواعِهَا وَ في المَقَامِ الأوَّلِ السُّيوفُ لِعِظَمِ مَكَانِهَا، فقَدْ قَالَ رسولُ اللهِ ﷺ : ((**وَ اعلَمُوا أنَّ الجَنَّةَ تَحتَ ظِلالِ السُّيوفِ**))[١]. و لِمَكانَةِ السَّيفِ في حَيَاةِ المُجاهِدينَ فقَدْ شُبِّهَ الرَّجُلُ بشَجَاعتِهِ وَ مضَاءِ هِمَّتِهِ بالسَّيفِ ، أَلَمْ يُمْدَحْ رَسُولُ اللهِ ﷺ بهذَا التَّشبيهِ في قَضَائِهِ عَلَى الشِّركِ على لِسَانِ كَعبِ بنِ زُهَير:

إنَّ الرَّسُولَ لَنُورٌ يُستَضَاءُ بِهِ   مُهَنَّدٌ مِنْ سُيُوفِ اللهِ مَسْلُولُ [٢]

وَ سُيوفُ الهِندِ أَحسَنُ السُّيوفِ عِندَ العَربِ . و يُشَبِّهُ حَسَّانُ بنُ ثَابتٍ ﷺ فِتيَةً مِنَ الصَّحابَةِ سَارَعُوا إلى إجابَةِ صَريخٍ بِسُيُوفِ الهِنْدِ :

في فِتيَةٍ كَسُيوفِ الهِندِ أَوجُهَهُمْ   نَحوَ الصَّريخِ إذا مَا ثُّوبَ الدَّاعي [٣]

و كَفَى خَالِدَ بنَ الوَليدِ فَخراً أَنَّ النَّبيَّ ﷺ أَثنَى عَلَيهِ بقَولِهِ : ((**نِعمَ فَتَى العَشيرَةِ خَالدٌ ، و هُوَ سَيفٌ مِنْ سُيوفِ اللهِ**))[٤] .

وَ تَظهَرُ زيادَةَ الثَّنَاءِ في إضَافَةِ اللَّقَبِ إلى لَفظِ الجَلالَةِ ، فَفِيها دَلالَةٌ عُظمَى ، ففيها تَشريفٌ لِلبَطَلِ الفَاتِحِ الّذي لَمْ يَهزَمْ في مَعرَكَةٍ خَاضَهَا.

وَ في حِوارٍ بَينَ الخَليفَةِ عُمَرَ ﷺ و بَينَ عَمرو بنِ مَعدِيكَربَ ، يُبَيِّنُ الفَارسُ البَطَلُ لِلخَليفَةِ صِفَةَ كُلِّ سِلاحٍ ، إذْ قَالَ الخَليفَةُ لِلفَارسِ المُقَاتِلِ ((أَخبرني عَنِ السِّلاحِ ، قالَ : سَلْ مَا شِئتَ مِنْهُ ، قالَ : الرُّمْحُ، قالَ : أخوكَ و رُبَّمَا خَانَكَ ، قالَ : النَّبْلُ ، قالَ : مَنَايا تُخطِئُ و تُصيبُ ، قالَ ، التُّرسُ ، قالَ: ذَاكَ المِجَنُّ ، و عَلَيهِ تَدُورُ الدَّوائرُ ، قالَ : الدِّرعُ ، قالَ : مَشْغَلَةٌ للرَّاجِلِ ، مُتعِبَةٌ لِلفَارسِ ، و إنَّهَا لَحِصْنٌ حَصينٌ ، قالَ : السَّيفُ ، قالَ: ثَمَّ قَارَعَتْكَ أُمُّكَ عَنِ الثَّكلِ يَا أميرَ المُؤمنينَ ، قالَ عُمَرُ ، بَلْ أُمُّكَ ، قالَ : ((**الحُمَّى أَضرَعَتْنِي لَكَ**))[٥]

---

[١] صحيحُ البُخاريّ ، رقم الحديث 2663 ، و في جامع الترمذيّ : ((إنَّ الجَنَّةَ تحتَ ظِلالِ السُّيوفِ)) رقم الحديث 1659

[٢] ديوانه ص90

[٣] ديوانه ص313

[٤] تاريخ الأممِ و الملوك ، الطبريّ ، دار صادر ، بيروت ،2003/ج2 ص563

[٥] كِتابُ الأنوارِ و مَحاسِنُ الأشعارِ ، ص24 ، و أراد بالحُمَّى أضرعتني إليك : أنَّ الإسلامَ قيَّدَني ، و لو كُنتَ في الجاهليَّة لم تكلمني بهذا الكلام ، و هُو مثلٌ تَضرِبُهُ العَربُ إذا اضطر

و قالَ عَليٌّ رضي الله عنه ((**السَّيفُ أَنْمَى عَددَاً ، و أكرَمُ وَلَداً**))[1] .

و كانَ لِلخَيلِ و السِّلاحِ الحُضُورُ الفَعَّالُ في قَصَائِدِ الشُّعراءِ الفَاتِحينَ و مَوضُوعَاتِهِمْ و صُوَرِهِمْ ، و غَصَّتْ نُصُوصُ الفَتحِ بِمُفرَدَاتِ الخَيلِ و السَّيفِ و الرُّمحِ في هَيئَاتِهَا و أَشكالِهَا ، و دَخَلَتْ تِلكَ المُفرَدَاتُ في تَركيبِ العِبَاراتِ الّتي تُؤَرِّخُ المَعارِكَ ، و تُصَوِّرُ البُطُولاتِ.

الشَّاعِرُ القَعقَاعِ بنِ عَمرِوٍ الّذي لَمْ يَنقَطِعْ عَنِ المُشَارَكةِ في الفُتُوحِ ظَلَّ جَنَاحَاهُ طَليقَينِ وَ حَنجَرَتُهُ صَدَّاحَةً بالبُطُولَةِ بِمَا يُحَقِّقُ طُمُوحَهُ العَالِيَ ، فَالفُتُوحُ مَيدَانَ بَذْلِهِ وَ اقْتِحَامِهِ ، وَ مِحوَرُ استِغرَاقَاتِهِ الفِكريَّةِ و الرُّوحِيَّةِ . في وَقعَةٍ شَهِدَ فِيها الشَّاعرُ الفَارِسُ انتِصَاراً كَبيراً حَقَّقَتْهُ عَزِيمَةُ أَبْطَالِ الفُتُوحِ عَلى جَيشٍ جرَّارٍ مِنَ الأَعاجِمِ ، قُتِلَ فِيها القَائِدانِ : (روزمهر) و (رَوزَبه) فَانطَلَقَتْ شَاعِرِيَّتُهُ تُصَوِّرُ فِعلَ الخَيلِ و السُّيُوفِ تَقتَحِمُ جُمُوعَ الأَعداءِ ، و تَحصُدُ هَامَاتِ أَبطَالِهِمْ:

أَلَمْ يَنْهَ حَيٌّ فَارسَ أَنَّنَا	مَنَعنَاهُمُ مِنْ رَبعِهِمْ بِالصَّوارِمِ ؟
وَ إِنَّا أُنَاسٌ قَدْ نُعَوِّدُ خَيلَنَا	لِقَاءَ الأَعادي بالحُتُوفِ الفَواطِمِ
وَ (رَوز) قَتَلْنَا حَيثُ أُرجِفَ خَدُّهُ	و كُلُّ رئيسٍ رازَنا بالعَظَائِمِ
غَدَاةَ صَبَحنَا في حَصيدٍ جُمُوعُهُمْ	بهِندِيَّةٍ تَفري فِرَاخَ الجَماجِمِ
وَ (رَوز) أَصَابَتْ بِالَمنايا فَأَوجَعَتْ	سُيُوفُ بَنِي عَمرِوٍ بِإحدَى العَظَائِمِ [2]

يُعلِنُ الشَّاعرُ بَلاءَهُ و بَلاءَ قَومِهِ مِنْ خِلالَ الأَلفَاظِ الّتي استَخدَمَها ، فَضْلاً عَنِ الأَفعالِ الّتي تُصَوِّرُ الحَرَكَةِ معَ تِكرارِ بَعضِ المَعَاني مُترادِفَةً مِمَّا أتاحَ لِلشَّاعرِ الكَشْفَ عَنِ الحَالَةِ النَّفسيَّةِ لإثباتِ بُطُولَةِ قَومِهِ بِخُيولِهِمُ المُغيرَةِ و سُيُوفِهِمُ البَاتِرَةِ.

و تَلَوَّنَتْ الأَبيَاتُ بِعَاطِفَةِ الزَّهْوِ بالانتِصَارِ الّذي حَقَّقَهُ الأَبطالُ العَرَبُ ، تَشُوبُهَا عَاطِفَةُ الشَّماتَةِ بِمَا آلَ إليهِ حَالُ الأَعداءِ الّذينَ أَرادُوا أنْ يَبلُوا شَكيمَةَ الفَاتِحينَ ، و الّذينَ لَوْ كُتِبَ لَهُمُ النَّصرُ مَلَؤُوا الدُّنيا شَماتَةً تَتَدفَّقُ مِنْ شِدَّةِ غَيظِهِمْ .

وَ لا رَيبَ في أنَّ مُشَارَكةَ الفَارسِ البَطَلِ في الفُتُوحِ و عَيشَهُ أَيَّامَهَا في غَمرَةِ أَهوالِهَا و احتِدامِ مَلاحِمِهَا ، كُلُّ ذَلكَ أَنطَقَهُ و أَنطَقَ غَيرَهُ مِنَ الفُرسَانِ بِشعرٍ يَنجمُ عَنْ تَجرِبَةٍ شُعُوريَّةٍ صَادِقَةٍ ،

---

[1] نَفسُهُ و ذَاتُها

[2] شُعراء إسلاميون ، ص48 ، 49 . و الحتوف الفواطمُ : التي تقطع عَنِ الأعداء طَمَعهُمْ في الحياةِ ، رزانا: جرَّبنا

و كَثيراً مَا كَانَتْ مَواقِفُهُمُ المَشْهُورَةُ أَعلَى مِنْ أَنْ يُحيطَ بِهَا شِعرُهُمْ و كَثيراً مَا كَانَتْ جَولاتُهُمْ وَ كَرُّهُمْ و فَرُّهُمْ تَسبقُ صُوَرَهُمُ الشِّعريَّةَ.

و مِنَ المُقَطَّعَاتِ الّتِي قِيلَتْ فِي شِعرِ خَيلِ الفُتُوحِ و سِلاحِهَا أَبياتُ عَاصِمِ بنِ عَمرٍو التَّميميِّ تَصِفُ عُبُورَ المُسلِمِينَ دَجلَةَ ، و تَصِفُ بُطُولاتِ المُقاتِلينَ ، فَالجِيَادُ تُسْرِعُ بالأَبطالِ الرِّمَاحِ و السُّيوفِ القَاطِعَةِ ، لا يَنْكِصُونَ حِينَ اشْتِدادِ البَأسِ ، و اشتَجَرَتِ الرِّمَاحُ ، و تَلاقَتِ السُّيوفُ ، و تكسَّرَتْ أَنيابُ المَنايا لِكَثْرَةِ مَا التَهَمَتْ مِنَ الأبطالِ ، و هُمْ فِي كَرِّهِمْ وَ فَرِّهِمْ ، رِمَاحُهُمْ مُشَرَّعَةَ يَحمُونَ بهَا صُفُوفَهُمْ ، و يَخترِقُونَ صُفُوفَ الأَعداءِ يَطعنُونَ بِهَا فُرسَانَ الخُيولِ على كَثرَتِها ، و قَدْ عَزَا ذَلكَ كُلَّهُ إلى فَضْلِ اللهِ ، إذْ نَصَرُوهُ ، فَنَصَرَهُمْ و لا غَالِبَ لَهُمْ:

رَكِبْنَا عَلى الجُردِ الجِيَادِ سَوابِحاً	بكُلِّ قَنَاةٍ بَلْ بِكُلِّ مُقَضَّبِ
وَ كُنَّا بعَونِ اللهِ لا نَرْعَوي إذا	تَبَادَرَ طَعْنٌ كالحِمَامِ المُثَلَّبِ
نَجُولُ و نَحمي و الرِّماحُ شَوارِعٌ	وَ نَطعَنُ يومَ الحَربِ كُلَّ مُجَنَّبِ [١]

تُشكِّلُ هَذِهِ اللَّقَطَاتُ الّتِي مَرَّتْ عَلَيها عَينَا الشَّاعرِ تَفَاصِيلَ جُزئِيَّةً شَديدَةَ الحسَاسِيَّةِ و الحَيَويَّةِ لِلبُطُولَةِ الجَمَاعِيَّةِ الّتِي ذَابَتْ فِيهَا الأَنا الشَّاعرَةُ ، وَ سَعَتْ إلى تَكريسِها وَ إشَاعَةِ مُنَاخِهَا .

إنَّ العَاطِفَةَ الصَّادقَةَ غَلَّفَتِ الفِكرَةَ ، و البُطُولَةُ الفَريدَةُ حَوَّلَتِ العَاطِفَةَ إلى قِيمَةٍ صَاغَهَا الشَّاعِرُ تَحكِي نَهضَةَ الرُّوحِ و النَّفسِ .

وَ الشَّاعرُ النَّجيدُ أَبُو نَجيدٍ نَافِعُ بنُ الأَسوَدِ مِنْ أَشْهَرِ الشُّعراءِ الّذينَ تَرَكُوا بَصَمَاتِهِمْ على شِعرِ البُطُولَةِ فِي الفُتُوحِ ، و كَانَ شِعرُهُ خَارِطَةً وَاسِعَةً و إنَّ ((**هَذِهِ الخَارِطَةَ الواسِعَةَ الّتِي تَحرَّكَ عَلَيْهَا الشَّاعِرُ ، و هَذِهِ المَواقِعُ الّتِي تَحدَّثَ عَنْهَا تُمَثِّلُ الصُّورَةَ الكَبيرَةَ الّتِي كانَ يَدخُلُ فِي إطَارِهَا وَ هُوَ يُواكِبُ قَوافِلَ التّحريرِ ، و يُؤَدِّي وَاجباتِهِ القِتَاليَّةَ بشَجاعَةٍ ، و يُوظِّفُ شِعرَهُ الحَربيَّ لِخِدمَةِ المَعرَكَةِ المَصِيرِيَّةِ الّتِي كَانَتْ تَخُوضُهَا الأُمَّةُ بِشَجاعَةٍ و هيَ تُؤمِنُ بِرِسَالتِها الكَريمَةِ**))[٢]

---

[١] شُعراءُ إسلاميون ، ص56 ، مُثَلَّبٌ : مُكسَّرُ السنان ، مُجنَّبٌ : كثير العَدِدِ
[٢] شعراء إسلاميون ، ص87 ،88

و في نَصٍّ قَالَهُ الشَّاعرُ مِنْ وَحي الفُتُوحِ يَبْدَأُ أَبيَاتَهُ مِنْ وَاقِعِ المَعرَكَةِ إذْ وَصَفَ نُهُوضَ الفَاتِحينَ إلى أَجوَدِ الخَيلِ الضَّوامِرِ تَضرِبُ الأرضَ بِشِدَّةٍ ، يَسُدُّونَ على الخَصُومِ مَنَافِذَ النَّجاةِ في طُرُقِ الجِبَالِ . لكِنَّ الصُّورَةَ المَشرقَةَ في الأَبياتِ خَصَّ بهَا قَومَهُ بَني تميمٍ ، إذْ دَخَلَ فُرسَانُهَا المَعرَكةَ لُيُوثاً ضَاريَةً شَديدةً ، جَاؤوا على أَجوَدِ الخَيلِ ، يَضْطَرِمُ جَريُهَا ، و تَرفَعُ يَدَيهَا معاً و تَضَعُهُما معاً . لَبُوسُهُمْ الدُّرُوعُ المُحكَمَةُ الصُّنعِ ، و كَانَ حَدُّ السَّيفِ عِندَهُمْ حَكَماً و يَقيناً يَحصُدُ الهَامَ ، و يُلقِي الرُّعبَ ، و تُذَلُّ الأُنوفُ مِنْ خِلالِ الضَّربِ بالسُّيوفِ ، لِمَالَها مِنْ تَأثيرٍ نَفسيٍّ تُثِيرُهُ و يَسْتَمِرُّ بِاستِمرارِ وَقْعِهَا ، و لأنَّ سُيُوفَ الخُصُومِ أَبطَلَتْ فِعلَهَا سُيُوفُ الأَبطالِ القَاصِمَةُ و رِمَاحُهُم الصُّلبَةُ :

وَقَودُهُمُ الخَيلَ العِتَاقَ إلى العِدَا ... ضَوَامِرَ تَردِي في فِجَاجِ المَخَارِمِ
فَجَاءَتْ تَميمٌ في الكَتائبِ نُصْرَةً ... يَسيرونَ صَفّاً كاللُّيُوثِ الضَّراغِمِ
عَلى كُلِّ جَرداءِ السَّرَاةِ و مُلهَبٍ ... بَعيدِ مَدَى التَّقريبِ عَبلِ القَوائِمِ
عَلَيهِمْ مِنَ المَاذِيِّ زَغْفٌ مُضَاعَفٌ ... لَهُ حُبُكٌ مِنْ شَكَّةِ المُتَلازِمِ
وَهَبُّوا الأَهلِ الشَّركِ ثُمَّ تَكَبكَبُوا ... فَطَارُوا إليهِمْ بالسُّيوفِ الصَّوارِمِ
فَمَا بَرَحُوا يَعصُونَهُمْ بِسُيُوفِهِمْ ... عَلى الهَامِ مِنْهُمْ و الأُنوفِ الرَّواغِمِ
مِنَ الرَّاكِبِينَ الخَيلَ شُعثاً إلى الوَغَى ... بِصُمِّ القَنَا و المُرسِفَاتِ القَواصِمِ [١]

فُتِحَتْ ذَاكِرَةُ الشَّاعرِ العَامِرَةُ عَلى مَخزُونٍ ثَرٍّ مِنْ أَلفَاظِ الأَقدَمينَ ، و صُوَرِهِمْ لِتَتآلفَ ، و تُنَاسِبَ عَظَمَةَ المَعرَكَةِ ، و رَوعَةَ البُطُولَةِ ؛ فَألفاظُ الحَربِ و صُوَرِهَا تُحيطُ الأَبياتَ بِمُجرَيَاتِ المَعرَكَةِ ، وَ هِيَ تُنْبي بِتَمكُّنِ الشَّاعِرِ مِنَ الصِّيَاغَةِ الفَنِّيَّةِ العَالِيَةِ . وَ يُثيرُ النَّصُّ الحِسَّ البَصَريَّ مِنْ خِلالِ مُكوِّنَاتِ تَصويرِهِ و انتِقَالِهِ مِنْ جُزئِيَّةٍ إلى جُزئِيَّةٍ : ((**فَتميمُ تَسيرُ إلى نُصْرَةِ الحَقِّ كاللُّيوثِ**)) و ((**الأَعداءُ يُكَبكَبُونَ صَرْعَى على وُجُوهِهِمْ**))

و ((**وَ سُيُوفُ بَني تَميمٍ القَاطِعَةَ تُعيثُ بالأعداءِ ، و تُقَيِّدُ فُرسَانَهُمْ عَنِ الحَرَكَةِ**)) .

---

[١] نَفسُه ، ص103 ، 104 ، المخارِمُ : المخارِجُ ، مُلهَبٌ ، أَلهَبَ الفَرَسُ : اضطَرَمَ في جَريِهِ ، سَرَاةُ الفَرس: أَعلى ظَهرِهِ، التَّقريب: ضَربٌ مِنَ العَدوِ ، رعفٌ: دروع محكمةٌ أو واسعةٌ و طويلةٌ ، يعصُونَهُم : يضربونهم بالسيوف و يعيثون فيهم فساداً ، المرسَفات: المُقيَّدات .

إنَّ الصُّورَةَ تَبقَى مَاثِلَةً في ذِهنِ الْمُتَلقِّي لإلْمَامِها بالجَوانِبِ الْمُحيطَةِ بالْمَعرَكَةِ ، وَ هِيَ ((**نَقلٌ أَمينٌ لِلمَشْهَدِ الطَّبيعيِّ وَ لِلحرَكَةِ الّتي فِيهِ كَمَا هُوَ وَاقِعُ الأَمرِ ، وَ لَيسَ لَهُ مِنْ دَلالَةٍ إلاَّ عَلى مَهَارَةِ الشَّاعِرِ في التِقَاطِ المَشْهَدِ و تَنَبُّهِ حَوَاسِّهِ و نَقلِهِ نَقلاً أَميناً**))[1]

و دَخَلَتْ في نَسيجِ الأبيَاتِ أَصْواتُ الحَرْفَينِ النُّونِ و المِيمِ مَعَ حَرفِ الرَّويِّ ، الميم أيضاً فَأَسبَغَتْ أجراساً قَويَّةً على الأداءِ في الإيقَاعِ الدَّاخليِّ لِتَقوِيَةِ الصُّوَرِ المَعنَويَّةِ .

كَمَا أَتَاحَ تَكرارُ المَعاني لِلشَّاعِرِ الكَشْفَ عَنِ الحالَةِ النَّفسيَّةِ وَ إثبَاتِ صِفَةِ البُطُولَةِ و الشَّجاعَةِ مِنْ خِلالِ صُورَةِ الخَيلِ الْمُغيرَةِ بفُرسَانِها ، لأنَّ الصُّورَةَ أَظهَرُ العَنَاصِرِ الّتي تَنطَوي عَلى مَجَالٍ فَسيحٍ يَستَوعِبُ مَا يَرغَبُ الشَّاعِرُ في كَشْفِهِ .

لَقَدْ كانَ لِكُلِّ شَاعرٍ مَوقِعُهُ و مَنزِلَتُهُ و مَسَاحَتُهُ على خَارِطَةِ شِعرِ الفُتُوحِ و مَا يَزالُ يَحتَفِظُ بمَكانتِهِ و التَّاريخُ هُوَ الحَكَمُ . و تَركَتْ الشُّعراءِ تَأثيراتٍ بَليغَةً لأنَّها جَاءَتْ نِتَاجَ تَجاربَ جَماعيَّةٍ في مُستوى التَّكوينِ و الحَياةِ و الثَّقافَةِ ، و مَا يَزَالَ هَذا الشِّعرُ يَلتَفِتُ إلينا مِنْ أَعماقِ التَّاريخِ ، فتَتَقَبَّلُهُ النُّفُوسُ بِصُورَةٍ مُطلَقَةٍ لِمَا تَضمَّنَهُ مِنْ خَفقِ قَلبٍ و نَفحِ وُجدَانٍ يَغسِلُ الأَرواحَ بِمَائِهِ النَّقيِّ ، و يُطَهِّرُ القُلوبَ و النُّفُوسَ ، و سيَظَلُّ يَنسَابُ إلى الأعماقِ مُتجاوِزاً الآذانَ لِيَستَقِرَّ في القَلبِ و الفِكرِ النَّقيِّ.

ثُمَّ إنَّ تِلكَ النُّصُوصَ الّتي ضَمَّخَتِ الكَونَ كُلَّهُ بِمَاءِ البُطُولاتِ الّتي أَحَقَّتِ الحَقَّ ، و أَزهَقَتِ البَاطِلَ سَيَبقَى أَريجُها فَوَّاحاً في أُفُقِ العَدلِ ، و سَتَبقَى أصداءُ صَهيلِ الخُيُولِ ، و قَعقَعَةُ السُّيُوفِ مَلحَمَةً إنسانيَّةً يُقيمُ الإنسَانُ الحقُّ لَهَا وَزْناً ، و لا يَلتَفِتُ إلى حُكَّامِ الأُمَمِ المَفتُوحَةِ الّذينَ كانَ لَهُمُ الْملكُ و كَانُوا ظَاهِرينَ ، بَاطِشِينَ ، فلَمْ يَستَجيبُوا لِنِداءِ الحَقِّ ، و عَصَوا أَمرَ ربِّهِمْ فَأَذَاقَهُمُ اللهُ مَا يَستَحِقُّونَ، و صَارُوا إلى مَا صَارُوا إليهِ .

و بَعدَ غَلَبَةِ العَرَبِ عَلى الفُرسِ جَعَلهُم اللهُ ﷻ سَواءً ؛ فَلا فَرقَ بَينَ عَربيٍّ و أَعجَمِيٍّ ، و أَيَّدَ اللهُ الإسلامَ بِرجالٍ مِنْ فَارسَ ، بِغَيرِهِمْ مِنَ أبناءِ الأُمَمِ و البُلدانِ ، فَأَحيَوا كَثيراً مِنَ النُّفُوسِ بهذِهِ العَقيدَةِ الرَّاسِخَةِ ، و كَانُوا مِنْ أَبرَزِ فُرسَانِهَا وَ أَبطَالِهَا.

---

[1] التَّفسيرُ النَّفسِيُّ لِلأَدَبِ ، د. عزّ الدِّين إسماعيل ، دارُ العَودَةِ بَيروت ، 1973 ، ص90

الفصل الرابع

مِنْ مَآسي البُطُولاتِ الإسلامِيَّةِ

- بطولات الردَّة .
- بطولات الفِتنة

مِنْ مَآسي البُطُولاتِ الإسلامِيَّةِ:

بُطُولاتُ الرِّدَّةِ :

بَعدَ التِحاقِ رَسُولِ اللهِ ﷺ بالرَّفيقِ الأَعلَى عَادَتْ نُذُرُ العَصَبيَّةِ تُهَدِّدُ ائتِلافَ المُسلمِينَ و اجتِمَاعَ قُلُوبهِمْ عَلى عَقِيدَةِ التَّوحيدِ حِينَ سَارَعَتْ قَبَائِلُ لَمَّا يَدخُلِ الإيمانُ إلى قُلُوبِ مُعظَمِ أبنائِها إلى الرِّدَّةِ و التَّمَرُّدِ ، و كانَتِ الرِّدَّةُ كَامِلَةً عَنِ الإسلامِ ، أو جُزئِيَّةً بامتِنَاعِهَا عَنْ دَفعِ الزَّكَاةِ ، و كَانَتْ عِزَّةُ النَّفسِ ، و بَقِيَّةُ العَصَبيَّة الجَاهليَّة فِيها تَصَوِّرُ لأَصْحَابِ القُلوبِ الضَّعيفَةِ أنَّ في ذَلِكَ خُضُوعاً لِقُرَيشٍ ، و ((**لَقَدْ احتَجُّوا بِأَنَّ خُضُوعَهُمْ الأَوَّلَ كَانَ لِرَسُولِ اللهِ ، طَوعاً أَو كَرهاً . أَمَا و قَدْ تُوفِّيَ رَسُولُ اللهِ فَلَيسَ لأَحَدٍ غَيرِهِ أَنْ يَقتَضِيهِمْ تِلكَ الطَّاعَةَ**))[1]

و كانَ خَليفَةُ رسُولِ اللهِ ، أبو بكرٍ ﷺ أهلاً لِحَملِ المَسْؤُوليَّةِ إذْ عَبَّأَ قُدراتِ المُؤمِنينَ للوُقُوفِ في وَجهِ الخَطَرِ الدَّاهِمِ بِعَزمٍ مَكينٍ و إرادَةٍ صَلبَةٍ لَمْ يَشُبْهَا ضَعفٌ أَو تَرَدُّدٌ ، في وَقتٍ أَوهَمَ الشَّيطَانُ المُتَمَرِدينَ أنَّ انطِلاقَ جَيشِ الفَتحِ إلى الشَّامِ أوهَنَ المُسلِمِينَ في الحِجَازِ . و تَأَلَّبَتْ قُوَى المُرتَدِّينَ مِنَ الأَعرابِ ، و أغَارُوا عَلى المَدينَةِ ، لكنَّهُمْ لَمْ يَنَالُوا خَيراً ، و رَدَّ عَلَيهِمُ الصِّدِّيقُ بِعَزمٍ و إيمانٍ إذْ ((**رَكِبَ في أَهلِ المَدِينَةِ و أُمراءِ الأنقَابِ ، إلى مَنْ حَولَ المَدينةِ مِنَ الأعرابِ الّذينَ أَغَاروا عَلَيها ، فلمَّا تَواجَهَ هُوَ و أَعداؤُهُ مِنْ عَبسٍ ، و بَني مُرَّةَ ، و ذُبيَانَ ، و مَنْ نَاصَبَ مَعَهُمْ مِنْ بَني كِنَانَةَ وَلَّوا المُسلِمِينَ الأَدبارَ ، و اتَّبَعَهُمْ أبو بكرٍ حَتَّى نَزَلَ بِذِي القِصَّةِ ، و ذُلَّ بِهَا المُشرِكونَ ، و عَزَّ بِهَا المُسلِمُونَ**))[2]

وَ وَصَفَ زِيادُ بنُ حَنظَلَةَ التَّميميُّ اندِحَارَ المُغيرينَ الّذينَ رَكِبَ إليهِمُ الصِّدِّيقُ ﷺ و تمزُّقُ صَفِّهِمْ خَوفاً و هَلَعاً أَمَامَ الحَقِّ الّذي سَمَا إليهِ أَبطَالُهُ و فُرسَانُهُ :

أَقَمنَا لَهُمْ عَرْضَ الشِّمَالِ فَكُبكِبُوا ... كَكَبكَبَةِ العُزَّى أَنَاخُوا عَلى الوَفرِ
فَمَا صَبَرُوا لِلحَربِ عِندَ قِيَامِهَا ... صَبيحَةَ يَسْمُو بالرِّجَالِ أَبو بَكرِ
طَرَقْنَا بَني عَبسٍ بِأَدنَى نِتَاجِهَا ... و ذُبيَانَ نَهنَهْنَا بِقَاصِمَةِ الظَّهرِ [3]

---

[1] تاريخ صدر الإسلام و الدَّولة الأمويَّة ، د. عمر فرُّوخ ، دار العلم للملايين ، بيروت ، 1972 ، ص94
[2] البداية و النهاية ، تحقيق د. رياض مراد و محمد عبيد ج7 ص21/20
[3] نفسه ، ص21 ، العَرَضُ : ناحية الجبل و سَفحُهُ ، و يُشَبَّه بهِ الجَيشُ العَظيمُ و الأبيات في تاريخ الطّبري ، ج 3 ، ص247

تَنَاوَلَ الشَّاعرُ فِي أبياتِهِ نُهُوضَ جَيشِ المَدينَةِ للمُرتَدِّينَ بِبُطُولةِ الزَّحفِ العَظيمِ فَهُوَ كَالجَبلِ تَصويراً مُنتَزَعاً مِنَ البيئَةِ العَربيَّةِ ، و استَحضَرَ صُورَةَ تَهَاوِي أَوثَانِ مكَّةَ عِندَ فَتحِهَا لِيَعرِضَ ذُلَّ المُنهَزِمينَ الّذينَ اطمَأَنُّوا

و رَكَنُوا إلى رَغَدِ عَيشِهِمْ و غِنَاهُمُ الّذي مَنَعُوا حَقَّ اللهِ فِيهِ . و مَا كَانُوا صُبُراً أَمَامَ جَيشِ الحَقِّ الّذي زَجَرَ عِبساً و ذُبيانَ بِقَاصِمَةِ الظَّهرِ قَبلَ أَنْ يَجُرَّ كَيدُهُمَا على المَدينَةِ نِتَاجاً مَشْؤوماً مِنَ الوَيلاتِ كَنِتَاجِ النَّاقَةِ الّتي تَلِدُ كَثيراً . و كُلُّ مَا تَلِدُهُ مَصدرُ شُؤمٍ و شَرٍّ ، و هذِهِ صُورَةٌ تُكَوِّنُ تَكويناً كَامِلاً لُؤْمَ طَوِيَّةِ المُرتَدِّينَ.

و لعلَّنَا نُلاحِظُ فِي الأبياتِ الغَدرَ بِعَهدِ الإيمانِ باللهِ و رَسُولِهِ ، و نَقضَ مِيثَاقَ الوَلاءِ نَقضاً انقَلَبَ هَلاكاً وَ وَبَالاً على تِلكَ الفِئَةِ البَاغِيَةِ الّتي شَقَّتْ صَفَّ المُسلمينَ ، و أَصَابَتْهُ بِالصَّدْعِ ، وَ هُوَ الّذي يَدْعُو إلى السِّلمِ ، و يُنَفِّرُ مِنَ الحَربِ ، وَ لَوِ التَقَتْ تِلكَ الحُشُودُ جَميعاً مِنْ دُونِ تَمَرُّدٍ أو رِدَّةٍ مَعَ حُشُودِ الدَّعوَةِ الإنسَانيَّةِ السَّامِيَةِ لَمَا جَلَبَتْ على المُجتَمَعِ المُسلِمِ مَا جَلَبَتْهُ مِنْ وَيلاتٍ وَ مِحَنٍ ، وَ لأَنتَجَتْ بُطُولاتٍ فِي سَبيلِ الخَيرِ تَزيدُ وَحدَةَ المُسلمِينَ مَنعَةً و هُمْ يَخرُجُونَ فَاتِحِينَ فِي سَبيلِ اللهِ ، و هُوَ الأَمرُ الّذي نَدَبَ الخَليفَةُ أبو بكرٍ نفسه إليهِ استئنافاً لِلعَمَلِ الجَليلِ الّذي بَدَأَهُ النَّبِيُّ ﷺ قَبلَ وفَاتِهِ .و لَقَدْ لَجَأَتْ بَنُو ذُبيانَ إلى الحِيلَةِ و المَكيدَةِ فِي مُواجَهَةِ أبطالِ المَدِينَةِ المُنَوَّرَةِ إذْ ((عَمِدُوا إلى أَنْحَاءَ (جَمعُ نَحوٍ و هوَ الظَّرفُ) ، فَنَفَخُوها ثُمَّ أَرسَلُوها مِنْ رُؤوسِ الجِبَالِ ، فلمَّا رَأَتْهَا إِبلُ أَصحابِ الصِّدِّيقِ نَفَرَتْ ، و ذَهَبَتْ كُلَّ مَذهَبٍ ، فَلَمْ يَملِكُوا مِنْ أَمرِها شَيئاً إلى اللَّيلِ ، و فِي ذَلكَ يَقُولُ قَائِلُهُمْ ، و هُوَ الخُطَيلُ بنُ أَوسٍ بِلِسَانِ التَّمرُّدِ و الخُضُوعِ لأَهواءِ النَّفسِ ، فَالقُوَّةُ و القُدرَةُ تُصْرَفانِ لِصُنعِ بُطُولاتٍ بِغَيرِ وَجهِ حَقٍّ:

فِدَىً لِبَني ذُبيَانَ رَحلِي و نَاقَتِي ... عَشِيَّةَ يَحدِي بالرِّمَاحِ أَبُو بَكرِ
أَطَعْنَا رَسُولَ اللهِ مَا كَانَ بَينَنَا ... فَيَا لَعِبَادِ اللهِ مَا لأَبِي بَكرِ
أَيُورِثُهَا بَكراً إذَا مَاتَ بَعدَهُ ؟! ... وَ تِلكَ لَعَمرُ اللهِ قَاصِمَةُ الظَّهرِ [١]

إنَّ أُسلُوبَ الاستِفهَامِ فِي البَيتِ الأَخيرِ يُبدِي سَرِيرَةَ هَؤلاءِ القَومِ على حَقيقَتِها ، و لكِنَّ عَزِيمَةَ الصِّدِّيقِ كَانَتْ أقوَى مِنْ عِنَادِهِمْ و انصِرافِهِمْ عَنِ الهُدَى ، وَ وقَفَ مَوقِفَ الحَزمِ الّذي لا يَلِينُ ، و تَجلَّى ذَلكَ فِي قَولِهِ ((**و اللهِ لَو مَنَعُونِي عَنَاقاً – و فِي روايةٍ عِقَالاً – كَانُوا يُؤَدُّونَهُ إلى رَسُولِ اللهِ ﷺ لأُقَاتِلَنَّهُمْ**

[١] نَفسُهُ ، ص20

على مَنْعِهَا ، و اللهِ لأُقَاتِلَنَّ مَنْ فَرَّقَ بَينَ الصَّلاةِ و الزَّكَاةِ ، و اللهِ لا أَدَعُ أُقَاتِلُ على أَمرِ اللهِ حتَّى يُنجزَ اللهُ وَعدَهُ ، و يُوفِيَ لَنا عَهدَهُ))[١]

وَ بِرَصِيدٍ عَاطِفِيٍّ مُتَدَفِّقٍ يَتَولَّدُ مِنْ خِلالِ الارتِبَاطِ بِطَاعَةِ الشَّرعِيَّةِ المُتسلِّحَةِ بالحَقِّ صَوَّرَ ضِرارُ بنُ الأَزوَرِ فِعلَ الإيمانِ باستِعدادِ البَاطِلِ الّذي خُضِدَتْ شَوكَتُهُ ، و فُلَّ جَمعُهُ ، و لَمْ تُغْنِ عَنهُ رِمَاحُ فُرسَانِهِ و قِسِيُّهِمْ أَمَامَ سُيُوفِ الإيمانِ الّتي سُلَّتْ مِنْ أَغمَادِهَا تَمضِي في عِظَامِ أَبطَالِ الرِّدَّةِ و تُقَطِّعُهَا ، و تَحمِلُ الرِّيحُ أَخبارَ البُطُولَةِ إلى كُلِّ مَكَانٍ:

فَلَو سُئِلتْ عَنَّا جَنُوبٌ لأَخبَرَتْ ... عَشيَّةَ سَالَتْ عَقرَبَاءُ و مُلهَمُ
عَشيَّةَ لا تُغني الرِّمَاحُ مَكَانَهَا ... و لا النَّبلُ إلاَّ المَشرفيُّ المُصَمِّمُ
فَإنْ تِبتَغِ الكُفَّارَ غَيرَ مُسَلِّمٍ ... جَنُوبٌ فَإنِّي تَابعُ الدِّينِ مُسلِمُ
أُجاهِدُ إذْ كَانَ الجِهَادُ غَنيمَةً ... وَ للهُ بالمَرءِ المُجاهِدِ أَعلَمُ [٢]

لَمْ يَكُنِ المَاضي بِمَنْأَى عَنْ ذِهنِ الشَّاعرِ ، فقَدْ جَاءَ بِهِ لِيَتلاءَمَ مَعَ مَقَامِ الدَّهماءِ الّذينَ رَفَضُوا الزَّمَنَ الإسلاميَّ الحَاضِرَ الّذي يَسْمُو على الحَيَاة الفَردِيَّةِ لِيَجعَلَها تَذُوبُ في الحَيَاةِ الإسلاميَّةِ الجَميلَةِ الجَديدَةِ.

و هَيَّأَ اللهُ لِعَزِيمَةِ الصِّدِّيقِ المَاضِيَةِ في إحقاقِ الحَقِّ عَزيمَةً عَسكَرِيَّةً تُتَوِّجُهَا عَبقَرِيَّةُ القِيَادَةِ تَزينُهَا البُطُولَةُ المُشبَعَةُ بِالوَرَعِ و التَّقوَى ، و صَاحِبُ هذهِ العَزِيمَةِ و العَبقريَّةِ هُوَ خَالدُ بنُ الوَليدِ الّذي حَمَلَ العِبءَ الأَكبَرَ و الأَهَمَّ في حُروبِ الرِّدَّةِ و في قِتَالِ المُرتَدِّينَ ، و القَضَاءِ على رؤوسِهِمْ الّذينَ رَفَضُوا الانصِيَاعَ لِصَوتِ الحَقِّ ، و العَودَةَ إلى طَاعَةِ اللهِ و رَسُولِهِ ، و طَاعَةِ أُولي الأَمرِ ، و مِنهُمْ طَائِفَةٌ مِنْ بَني تَميمٍ و زَعِيمُهُمْ مَالكُ بنُ نُوَيرَة الّذينَ كَبَّلَتْهُمْ كِبرياؤُهُمْ أَسرى ، و رَفَضُوا إلاَّ الإصرارَ على التَّمرُّدِ و الرِّدَّةِ . ((**و كَانَ مَالكٌ رَجُلاً سَرِيًّا نَبيلاً يَردِفُ المُلوكَ ، و كانَ فَارساً شُجاعاً ، شَاعِراً ، شَريفاً مُطاعاً في قَومِهِ ، و كَانَ فيهِ خُيَلاءُ و تَقدُّمٌ . قَدِمَ على رَسُولِ اللهِ ﷺ فأَسلَمَ ، فَوَلاَّهُ صَدَقَةَ قَومِهِ . ثُمَّ كانَ مِمَّنْ مَنعَ الزَّكاةَ بَعدَ مَوتِ النَّبيِّ**))[٣] و جِيءَ بِهِ أسيراً ، فَحَاوَرَهُ خَالدُ بنُ الوَليدِ ((**ثُمَّ كانَ**

---

[١] نفسه ص35 . و البداية و النهاية ، تحقيق د. التركي ، ج9 ، ص440 ، و العَناقُ : زكاةُ عامَين مِنَ الإبل و الغَنمِ ، العِقَالُ : زكاةُ عام مِنَ الإبل و الغنم.
[٢] البداية و النهاية ، د. مُراد عُبيد ، ج7 ، ص35 ، عَقرباءُ و مُلهَمُ : مِنْ أيَّامِ العَربِ ، المُصَمَّمُ : المَاضي القَاطِعُ
[٣] المُفَضَّلِيَّاتُ ، شاكر و هارون ، ص263

بَينَهُما مَا فَهِمَ خالدٌ مِنهُ أنَّ مَالِكَاً مُصِرٌّ على الرِّدَّةِ ، فَأَمَرَ ضِرارُ بن الأزوَرِ بقَتلِهِ ، فقَتَلَهُ فِيمَنْ قَتَلَ مِنْ مَانعي الزَّكاةِ و المُرتَدِّينَ))[1] .

و بَلَغَ الشَّاعرُ مَتَمِّمَ بنَ نُوَيرةَ مَقتَلَ أَخيهِ مَالِكٍ قُبَيلَ الفَجرِ ، فَحَضَرَ إلى مَسجدِ رَسُولِ اللهِ ، و صَلَّى الصُّبحَ خَلفَ أبي بَكرٍ ،فلَمَّا قُضِيَتِ الصَّلاةُ قَامَ مُتَمِّمٌ ، و اتَّكأَ على قَوسِهِ ، و أنشَدَ أبياتاً في رِثَاءِ أخيهِ :

نعمَ القَتيلُ إذا الرِّيَاحُ تَنَاوَحَتْ ... خلفَ البُيُوتِ قَتَلْتَ يَابنَ الأزوَرِ
أَدَعوتَهُ باللهِ ثُمَّ غَدَرتَهُ ... لَو هُوْ دَعاكَ بذِمَّةٍ لَمْ يَغدُرِ
وَ لَنعمَ حَشْوُ الدِّرعِ كانَ و حَاسِراً ! ... وَ لَنِعْمَ مَأْوى الطَّارقِ المُتَنَوِّرِ!
لا يُمسِكُ الفَحشاءَ تحتَ ثِيَابهِ ... حُلوٌ شمائلُهُ عَفيفُ المِئزَرِ

ثُمَّ بَكَى ، فمَا زَالَ يَبكي حَتَّى دَمَعَتْ عَينُهُ العَوراءُ . فقَامَ إليهِ عُمر بن الخطَّابِ ، فقالَ : لَوَدِدْتُ لَو أَنَّكَ رَثَيتَ زَيداً أخي بِمِثلِ ما رَثَيتَ بِهِ مَالِكاً أخَاكَ ؛ فقَالَ : يَا أبا حَفصٍ ، و اللهِ لَو عَلِمتُ أنَّ أَخي صَارَ حَيثُ صَارَ أَخُوكَ مَا رَثَيْتُهُ . فقَالَ عُمَرُ : مَا عَزَّاني أَحَدٌ عَنْ أخي بمثلِ تَعزيَتِهِ ، و أَرادَ مُتَمِّمٌ بِذَلكَ أنَّ أخاهُ مَالِكاً قُتِلَ عَنِ الرِّدَّةِ غَيرَ مُسلِمٍ ، و أنَّ زَيدَ بن الخَطَّابِ قُتِلَ شَهيداً يومَ اليَمَامَةِ [2] .

و قَضَى مُتَمِّمٌ حَيَاتَهُ بعدَ مَقتَلِ أخيهِ حَزيناً كَئيباً مُعتَكِفاً ، يَبكي أخَاهُ و يَرثِيهِ .

و الأبياتُ الآتِيَةُ مِنْ قَصِيدَةٍ رَوَتْ قِصَّةَ فَجيعَةِ قَلبِهِ ، و مَأسَاتِهِ بِفَقْدِ أَخيهِ ، فَاشتَهَرَ بِهَا ، حتَّى عَدَّهُ مُحمَّد بنُ سَلاَّمٍ الجُمَحِيُّ أوَّلَ الشُّعراءِ في طَبَقَةِ أَصحَابِ المَراثِي [3].

و قالَ عُمر بنُ الخَطَّابِ ﷺ لِلحُطَيئَةِ : ((**هَل رأَيتَ أو سَمِعتَ بِأَبكَى مِنْ هَذا ؟ فقالَ : لا واللهِ مَا بَكَى بُكَاءَهُ عَرَبِيٌّ قَطُّ و لا يَبكيهِ))**[4] .

يَبدأُ مُتَمِّمٌ رِثَاءَهُ بِذِكرِ مَا يَتحلَّى بِهِ أَخُوهُ مِنْ فَضَائلَ ، و هُوَ يَعلَمُ أنَّ الدَّهرَ لَنْ يُلقِي لَهُ سَمعاً مِنَ الفَجيعَةِ الّتي قَصَمَتْ ظَهرَهُ ، لَقَدْ كَانَ مَالكٌ فَارسَ الفُرسَانِ و بَطَلَ الأَبطالِ ، و مَا كانَ بالجَبَانِ الّذي

[1] نفسه و ذاته
[2] نفسه ، ص263 ، 264
[3] طبقات فحول الشعراء ، قرأه و شَرحَهُ . محمود شاكر ، دار المدني ، جُدة 1974/1394 ، السَّفر الأوّل ، ص204
[4] المُفَضَّلَيَّات ، ص263

يَنكِصُ على عَقِبَيهِ عِندَ التِقاءِ الخَيْلِ ، وَ كَانَ نَبيلَ النَّفْسِ ، يَطْرَبُ للكَرَمِ ، صَافِي السَّريرَةِ كَنَصْلِ السَّيْفِ ، و إنِ استَغَاثَ بهِ مَظْلومٌ فإنَّهُ مُنْتَصِرٌ لا مَحَالةَ ، و إنْ أثَّرَ الغَزْوُ في عَزَائم الأبطَالِ رَأيْتَهُ صُلْبَاً شُجَاعاً بِقَامَتِهِ المَدِيدَةِ ، وَ سِلَاحُهُ لَيسَ بِكَلِيلٍ عَن عَدُوِّهِ إذَا لاقَاهُ بلأمَتِهِ أَوْ حَاسِراً . ثُمَّ يَطْلُبُ الشَّاعِرُ المَفْجُوعُ مِنْ عَيْنَيْهِ أَنْ تَبْكِيَا لِمَالِكٍ فِي وَقْتِ الشِّدَّةِ لأَنَّهُ كَانَ يُسَارِعُ فِي إنْقَاذِ النَّاسِ حِينَ كَانَتْ تَضِيقُ بِهِمُ الأَحوَالُ وَأنْ تَبكِيَا كَرَمَهُ بِبَذلِ الخَمرِ لشُرَّابِهَا ، وَ شِدَّةَ وَطأَتِهِ عَلى الخَصمِ ، و قَضَاءَهُ على الفُرسَانِ ، مِمَّنْ يَخشَى الأَبطالُ الآخَرُونَ مُواجَهَتَهُمْ . و يُعَزِّي الشَّاعرُ نفسَهُ بِفَقْدِ أخيهِ الّذي عَاشَ مَعَهُ على خَيرِ حَالٍ ، و لكِنَّ المَوتَ الّذي فرَّقَ بَينَهُمَا لا سَبيلَ إلى رَدِّهِ ، فقَدْ أَتَى عَلى مَمَالِكَ كِسرَى و تُبَّعٍ اليَمَانِيِّ ، و لَمْ يُبقِ مِنهَا مِنْ أَثَرٍ ، ثُمَّ يَدعُو لأَخيهِ بالرَّحْمَةِ ، و يَستَسْقي الغَيثَ لِقَبرِهِ ، و هُوَ لا يَدعُو بِالسُّقيَا حُبَّاً بالأرضِ ، بَلْ حُبَّاً بِالفَارسِ البَطَلِ الّذي ثَوَى فِيها:

لَعَمرِي ، و مَا دَهرِي بتَأبينَ هَالِكٍ ... و لا جَزِعٌ مِمَّا أَصَابَ فَأَوجَعَا

لقَدْ كَفَّنَ المِنهَالُ تَحتَ رِدَائِهِ ... فَتَىً غَيرَ مِبْطَانِ العَشِيَّاتِ ، أَروَعَا

تَرَاهُ كَصَدرِ السَّيفِ يَهتَزُّ لِلنَّدَى ... إذا لَمْ تَجِدْ عِندَ امرِئِ السُّوءِ مَطمَعَا

و يَوماً إذَا مَا كَظَّكَ الخَصْمُ إنْ يَكُنْ ... نَصِيرُكَ مِنهُمْ لا تَكُنْ أَنتَ أَضيَعَا

وَ إنْ ضَرَّسَ الغَزوُ الرِّجَالَ رَأَيتَهُ ... أَخَا الحَربِ صَدقاً في اللِّقَاءِ سَمَيدَعَا

وَ مَا كَانَ وَقَّافَاً إذَا الخَيلُ أَجمَحَتْ ... و لاَ طَائِشاً عِندَ اللِّقَاءِ مُدَفَّعا

وَ لا بكَهَامٍ بَزُّهُ عَنْ عَدُوِّهِ ... إذا هُوَ لاقَى حَاسِراً أَو مُقَنَّعَا

فَعَينَيَّ ! هَلاَّ تَبكِيَانِ لِمَالِكٍ ... إذا أَذْرَتِ الرِّيحُ الكَنِيفَ المُرَقَّعَا

وَ لِلشَّربِ فَابكي مَالِكَاً وَلِبُهمَةٍ ... شَديدٍ نُواحِيهِ عَلى مَنْ تَشَجَّعا

وَ عِشْنَا بخَيرٍ فِي الحَيَاةِ و قَبلَنَا ... أَصَابَ المَنَايا رَهطَ كِسرَى و تُبَّعَا

سَقَى اللهُ أرضَاً حَلَّهَا قَبرُ مَالِكٍ ... ذَهابَ الغَوادِي المُدجنَاتِ فَأَمرَعَا

فَوَ اللهِ مَا أَسقِي البِلادَ لِحُبِّهَا ... وَ لكِنَّنِي أَسقِي الحَبِيبَ المُوَدَّعَا [١]

---

[١] المُفَضَّلِيَّاتُ ص265 ،266 ، 267 ،268 ، الكامل في اللغة و الأدب ، أبو العباس المُبَرِّد ، حققه و علّق عليه محمَّد احمد الدَّالي ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط1 1986/1406 ، مج2 ص862 ، مج 3 ص1439 ،1440 ، 1441 ، الكامل : نسخة ثانية ، شرح و تحقيق لَجنة من المحققين ، دار المعارف ، بيروت ، د. ت ، ج2 ص354 ، 355 ، مَا دهري بِذاكَ السُّمَيدعُ: الجميل الشُّجَاعُ المَديدُ القَامَةِ ، أجمَحَتْ ، بِتَقديمِ الجيم : جَبُنَت و كفّت ، المُدفَّع : المدفوع يرغب عن حُضُورِهِ لِجُبنه ، البَزُّ : السِّلاحُ ، الكَهَام: الكليل ، أذرَتْ : ألقَتْ ، الكَنيفُ : حظيرةٌ مِنْ شَجَرٍ للإبل ، البُهمةُ : الشُّجَاع ، شديدُ نواحيه : يقضي على أعتى الفُرسَانِ.أي: همَّتي و إرادَتي و عادتي ، المِنهال هو ابنُ عِصمةَ الرِّيَاحيُّ كفَّنَ مالِكاً بِردَائِهِ ، الأروَعُ: صفة مشبَّهة من الرَّوع ، يُلقس الرَّهبَةَ في النُّفُوسِ ، أغَرُّ : صَبُوحُ الوَجهِ ، و هيَ صفة تُقالُ لِصاحبِ النَّفس النَّبيلة ، كصَدرِ السَّيفِ: صَافي السَّريرة ، أو هُوَ مَاضٍ كالسَيفِ ، كَظَّكَ الخَصمُ ضَامَكَ ، و بلغَ مِنكَ غايةَ الغَمِّ . الخَصمُ : يُقالُ للمُفرَدِ و الجَمعِ و المذكر و المؤنث ، و الصَّدقُ: الصَّلبُ

هذه الأبيات صَدَى لأنَّاتِ نَفسٍ فَتَّتَتْ الضَّرْبَةُ القَاصِمَةُ مَا فيها مِنْ قُدُرَاتٍ على الجَلَدِ و مُقَاومةِ أبعادِ الأَسَى المُغلَّفِ بالعَاطِفَةِ الجَرِيحَةِ على أَخٍ شَقيقٍ بَطَلٍ ماتَ في سَاحَةِ بُطُولَةٍ لَمْ يَرضَ عَنهَا شُعورُ الأخِ البَاكي بِمَعانٍ مَألُوفَةٍ و لكنَّ حرَارَةَ التَعبيرِ المُفعَمَةِ بالصِّدقِ فجَّرَتْ مَا فِيها مِنْ أبعادٍ جَديدَةٍ .

و كَأَنَّ الشَّاعرَ المَفجُوعَ بِأَخيهِ تَوشَّحَ بِثَوبِ الصَّبرِ و التَّجلُّدِ حِينَ راحَ يُعَدِّدُ فَضَائلَ الفَقيدِ لَعلَّهُ يُبَرِّرُ بِغيَابِها الحُزنَ و البُكاءَ على فَقِيدِهِ الّذي كانَ نَموذَجَ الرَّجُلِ العَربيِّ الكَاملِ بِصِفَاتِهِ الإنسانيَّةِ المُكتَمِلَةِ.

و دُعَاءُ الشَّاعرِ لِقَبرِ أَخيهِ بالسُّقيَا على عَادَةِ القُدَمَاءِ يَفيضُ بالحَنَانِ الغَامِرِ ، و اجتِمَاعِ صِيغَةِ القَسَمِ معَ صِيغَةِ النَّفي لِحُبِّ الأرضِ ، و صِيغَةِ الاستِدراكِ لِتَوكِيدِ السُّقيَا حُبّاً لِقَبرِ أَخيهِ فيها يُظهِرُ قِيمَةَ الفَقيدِ و مَكَانَتَهُ.

و تَلاقَى الإحساسُ الفَاجِعُ بالفَقدِ المَريرِ ، تَلاقَى بِالتَّعبيرِ الأفجَعِ لِيَرسُمَ ما يَتفجَّرُ مِنْ قَلبِ الشَّاعرِ ضِمنَ مَعَانِي التَّأبينِ حتَّى و هُوَ يَسرُدُ شَمَائِلَ أخيهِ بِألفَاظٍ تَحُوطُها القُوَّةُ و الفَخَامَةُ ، فإنَّ تِلكَ الألفاظَ يَرشَحُ مِنهَا الأَسَى و العَذَابُ ، و مِنْ هُنَا كانَ التَّوافُقُ التَّامُّ بَينَ تَعابيرِ الشَّاعرِ و مَعَانيهِ ، فَاللَّفظُ يُصَوِّرُ مشاعرَ الشَّاعرِ أدقَّ تَصويرٍ.

و كانَ حَظُّ الخَيالِ ضَئيلاً في النَّصِّ غَيرَ بَعضِ الكِنَايَاتِ الّتي تُجَسِّدُ حالَ الشَّاعرِ النَّفسيَّةِ، فالواقِعُ المَأسَاويُّ المُفجعُ شَغَلَ خَيالَ الشَّاعرِ عَنْ أَنْ يَنأَى عَنْ لَفحِ المُعَانَاةِ المُبَاشَرَةِ.

هؤلاءِ القَومُ الّذينَ ضَلُّوا لَمْ تُرجِعُهُمُ الدَّعوَةَ بالحِكمةِ و المَوعِظَةِ الحَسَنَةِ إلى سَبيلِ الرَّشَادِ ، فَقُوتِلُوا بَعدَ يأسٍ مِن مُحاوَلاتِ التَّغَلُّبِ على استمرارِ نُفُوسِهِمْ في الغَيِّ ، لأنَّ الضَّابِطَ الذَّاتِيَّ لِسُلُوكِهِمْ تَشَكَّلَ مِنْ فُقدَانِ التَّوَازُنِ النَّفسِيِّ الّذي سَلَبَهُم القُدرَةَ على التَّلاؤُمِ معَ الحَياةِ الجَديدَةِ الّتي أشرَقَ بِهَا الإسلامُ.

بُطُولاتُ الفِتنَةِ:

كانَ العَربُ في الجَاهِليَّةِ على مَا رَأَينَا مِنَ التَّفكُّكِ السِّيَاسيِّ ، فَلمَّا جَاءَهُمْ رسُول اللهِ ﷺ جَمَعَ كَلِمَتَهُمْ أوَّلَ مَرَّةٍ في تَاريخِهِمْ تحتَ رَايَةٍ إنسَانيَّةٍ عَادِلَةٍ ، و نَهَضَ الخُلَفَاءُ الرَّاشِدُونَ بَعدَ انتِقَالِهِ إلى الرَّفيقِ الأَعلى لإتمَامِ مَا بَدَأَهُ عليه السلام و يُدِيرونَ شُؤُونَ المُسلِمِينَ.

كَانَتْ مُدَّةُ خِلافَةِ أبي بَكرٍ قَصيرَةً ، و قَدْ قَضَى شَطراً مِنهَا في حُروبِ الرِّدَّةِ ، و في الوَقتِ نَفسِهِ نَدَبَ المُسلِمينَ إلى الفَتحِ استِئنافاً لِلعَمَلِ الّذي بَدَأَهُ الرَّسُولُ قَبلَ وَفَاتِهِ ، و مُحاوَلَةً لِشَغلِ العَرَبِ و المُسلمِينَ عَنِ الاقتِتَالِ فِيمَا بَينَهُمْ بَعدَ أَنْ أَزِمَتِ الأُمُورُ ((**نِزَاعاً على الخِلافَةِ بَينَ بَني هَاشِمٍ و بَينَ بَني أُمَيَّةَ**

و بَلَغَ ذِروَتَهُ في أَيَّامِ عُثمَانَ و أَيَّامَ عَليٍّ ثُمَّ انتَهَى باستِيلاء مُعاوِيَةَ بنِ أبي سُفيَانَ عَلى الخِلافَةِ)).[١]

و انقسَمَ النَّاسُ شِيَعاً و أحزَاباً ، وَ أطَلَّتْ العَصَبِيَّاتُ الّتِي لَمْ تُبَارِحْ بَعضَ النُّفُوسِ ، فَكَانَتْ ضَحِيَّةَ فِتنَةٍ مَعقَّدَةٍ ذَهَبَتْ على أَثَرِهَا رِيحُ العَرَبِ ، فَانقَسَمُوا على أَنفُسِهِمْ لِقُربِ عَهدِهِمْ بالجَاهِلِيَّةِ ، وَ تَصَدَّعَ صَفُّهُمْ ، و تَدَاعَتْ هَيبَةُ الجَمَاعَةِ الإسلاميَّةِ الوّاحِدَةِ.

تِجَسَّدَتْ بَوادِرُ المَآسِي المَرِيرَةِ في صِراعٍ مُحزِنٍ في مَعرَكَةِ الجَمَلِ ، فقَبلَ أَنْ يُقَاتِلَ مُعاوِيَةُ عليَّاً ((**أَرَادَ أَنْ يُضعِفَهُ قَبلَ ذَاكَ ، فقَدْ استَطَاعَ أَنْ يُثيرَ حَربَ الجَمَلِ ، و وكانَ مَجموعُ مَنْ قُتِلَ يَومَ الجَمَلِ مِنَ الفَرِيقَينِ عَشرَةَ آلافِ : خَمسَةً مِنْ هَؤلاءِ و خَمسةً مِنْ هَؤلاءِ و انتَهَتِ المَعرَكَةُ بانتِصَارٍ حَزينٍ لِعَليٍّ –كرَّمَ اللهُ وَجهَهُ– و كَادَتْ نَفسُهُ تَذهَبُ حَسَراتٍ و قَدْ اطَّوَفَ حُزنُهُ الغَامِرُ في أرضِ القِتَالِ ((لَمَّا انقَضَى يَومُ الجَمَلِ ﷺ في ليلةِ ذَلكَ اليَومِ ، و مَعَهُ قَنبَرٌ و في يَدِهِ مَشعَلَةٌ مِنْ نَارٍ يَتصَفَّحُ القَتلَى حتَّى وَقَفَ على طَلحَةَ بنِ عُبَيدِ اللهِ ﷺ ، و قالَ ((أَعْزِزْ عَلَيَّ أبَا مُحمَّدٍ أَنْ أرَاكَ مُعَفَّراً تَحتَ تُخُومِ السَّماءِ، إلى اللهِ أشكُوا عُجَري و بُجَرِي)) ثُمَّ تَمَثَّلَ بأبياتٍ تَليقُ بأخلاقِ الشَّهيدِ و بُطُولَتِه:**

فَتىً كانَ يُدنيهِ الغِنَى مِنْ صَدِيقِهِ … إذَا مَا هُوَ اسْتَغنَى و يُبعِدُهُ الفَقرُ
فَتىً لا يَعُدُّ المَالَ رَبَّاً و لا تُرَى … بهِ جَفوَةٌ إنْ نَالَ مَالاً و لا كِبرُ
فَتَّىً كانَ يُعطَى السَّيفَ في الرَّوعِ حَقَّهُ … إذَا ثَوَّبَ الدَّاعي و تَشقَى بِهِ الجَزرُ [٢]

إنَّهُ يَتقرَّبُ مِنْ صَحبِهِ ببَذْلِ مَالِهِ أنْ رآهُ استَغنَى ، لا يُريدُ بذَلكَ جَزاءً و لا شُكُوراً إذا افتَقَرَ ، إنَّ المالَ لا يَستَعبدُهُ ، و لا يُدَاخِلُهُ في حَالِ غِنَاهُ كِبرٌ أو غِلظُ طَبعٍ .إنَّهُ فَتىً فَارسٌ يَعرفُ حقَّ السَّيفِ في الرَّوعِ ، و يُؤَدِّيهِ إنْ رَغَّبَ المُنادي في الجِهَادِ، و يُؤدِّي حَقَّ السَّيفِ في الكرَمِ بنَحرِ الشَّاءِ و الغَنَمِ و أَقَامَ عَليٌّ بالبَصرَةِ ثَلاثاً ، ثُمَّ صَلَّى على القَتلَى مِنَ الفَرِيقَينِ))[٣] و لكنَّ هذَا الانتِصَارَ فتحَ أَمَامَهُ أَبوابَ صِراعٍ دَمَويٍّ مَريرٍ يُحتَكَمُ فِيهِ إلى السَّيفِ لأنَّ مُعَاوِيَةَ ((**لَمْ يُمهِلْ عَلِيَّاً طَويلاً بَعدَ مَعرَكَةِ الجَمَلِ ، فبدَأَ بخَلقِ المَشَاكِلِ لَهُ ، و لَمْ يَخفَ على الإمامِ عَليٍّ أنَّ الحَربَ وَاقِعَةٌ بَينَهُ و بَينَ مُعاوِيَةَ لا مَحالَةَ . و لكنَّهُ تَعجَّلَ تِلكَ الحَربَ ، و نَقلَ عَاصِمَتَهُ مِنَ المَدِينَةِ المُنوَّرَةِ لِيَكُونَ أقرَبَ إلى الشَّامِ إذا نَشَبَتِ الحَربُ ، و التَقَى جَيشُ مُعاوِيَةَ بجَيِ الإمامِ عَليٍّ في صِفِّينَ قُربَ الرَّقَةِ))**[٤].

[١] تاريخ صَدرِ الإسلامِ و الدَّولَةِ الأُمويَّةِ ، د. عُمر فرُّوخ، دارُ العِلمِ للملايينِ ، بيروت 1972 ، ص110
[٢] الكامل في اللُّغة و الأدب ، مكتبة المعارف ، بيروت ، ج1 ، ص126
[٣] البداية و النهاية ،ج7 ، ص425
[٤] تاريخ صدر الإسلام و الدَّولة الأموية ، ص121 ، و الرَّقَّة على الفُراتِ شمال بلادِ الشَّامِ

و مَا كَانَ رَفعُ المَصَاحِفِ على الرِّمَاحِ فِي جَيشِ مُعاويةَ الّذي كادَ يَنهَزِمُ دَعوَةً إلى تَحكيمِ كِتَابِ اللهِ في الخِلافِ الّذي شَجَرَ بَينَ المُسلِمينَ سِوَى خِدعَةٍ أَدرَكَهَا الإمامُ عليّ رضي الله عنه ((**وَ لكنَّ جُندَهُ ، الّذينَ كَانُوا قَدْ سَئِمُوا الحَربَ بعدَ قِتَالٍ دَامَ ثَلاثَةَ أَشهُرٍ اضطرُّوهُ إلى أن يَقبَلَ بِوَقفِ القِتَالِ و التَّحكيمِ ، فوَقَفَ القِتَالُ**))[1] .

و لقَدْ تَرَكَتْ مَعرَكَةُ صِفِّينَ جراحاً لا تَندَمِلُ ، و شَرخاً لا يَلتَئِمُ ((**بَعدَ أَنْ قُتِلَ مِنْ كُلِّ بَيتٍ فِي الكُوفَةِ قَتيلٌ أو اثنانِ أو أكثرَ**))[2] .

و كانَ عليٌّ رضي الله عنه حَريصاً كُلَّ الحِرصِ على حَقنِ دِمَاءِ الإخوَةِ المُؤمِنينَ ، فقَدْ كانَ يَدعُو أيَّامَ القِتَالِ الّذي أُكرِهَ عَلَيهِ فِي صِفِّينَ ((**اللهُمَّ! احقِنْ دِمَاءَنا و دِمَاءَهُمْ ، و أَصلِحْ ذَاتَ بَيننَا و بَينَهُمْ ، و اهْدِهِمْ مِنْ ضَلالَتِهِمْ حتَّى يَعرِفَ الحَقَّ مَنْ جَهِلَهُ ، وَ يَرعَوِي عَنِ الغَيِّ و العُدوَانِ مَنْ لَهِجَ بِهِ**))[3] .

و قَد أوصَى المُقَاتِلينَ الّذينَ أيَّدُوهُ بآدابِ القِتَالِ و إنسَانيَّتِهِ إذا حَلَّتِ الهَزيمَةُ بخُصُومِهِ : ((**لا تُقاتِلُوهُمْ حَتَّى يَبدَؤُوكُمْ ، فإنَّكُمْ بحَمدِ اللهِ على حُجَّةٍ. فإذا كانَتِ الهَزيمَةُ بإذنِ اللهِ فلا تَقتُلوا مُدبِراً ، و لا تُصيبُوا مُعوِراً ، و لا تُجهِزُوا على جَريحٍ**))[4]

و لكنْ قَدَّرَ اللهُ و مَا شَاءَ فَعَلْ ، و حُمَّ القَضَاءُ على الإخوَةِ المُؤمِنينَ ((قَالَتْ عَائشَةُ –رضي اللهُ عنها– يَومَ وَقعَةِ الجَمَلِ : مَا زالَ جَمَلي مُعتَدِلاً حتَّى فقَدْتُ أصْواتَ بَني ضَبَّةَ ، كُلَّمَا قُتِلَ واحِدٌ مِنهُمْ مِمَّنْ يُمسِكُ الجَمَلَ حتَّى قُتِلَ مِنهُمْ أَربَعُونَ رَجُلاً ، ثُمَّ أَخذَ الخُطَامَ سَبعُونَ رَجُلاً مِنْ قُريشٍ ، و كُلٌّ وَاحِدٍ يُقتَلُ بعدَ صَاحِبِهِ ، فكَانَ مِنهُمْ مُحمَّدُ بنُ طَلحَةَ المَعروفُ بالسَّجَّادِ ، فقَالَ لِعَائشَةَ مُريني بأَمرِكِ يَا أُمَّهْ ! فقَالَتْ آمُرُكَ أَنْ تَكونَ كَخَيرِ بني آدَمَ ، فَامتَنَعَ أَنْ يَنصَرِفَ ، و جَعَلَ يَقُولُ : حَمِ لا يُنصَرُونَ ، فتَقَدَّمَ إليهِ نَفَرٌ فَحَمَلُوا عَلَيهِ فقَتَلُوهُ ، و صَارَ كُلٌّ وَاحِدٍ مِنهُمْ بَعدَ ذَلكَ يَدَّعي قَتلَهُ ، و قَدْ طَعَنَهُ بَعضُهُمْ بحَربَةٍ فَأَنفَذَهَا و قَالَ :

و أَشعَثَ قَوَّامٍ بآيَاتِ رَبِّهِ — قَليلِ الأذَى فِيما تَرى العَينِ مُسلِمِ
هَتَكتُ لَهُ بالرُّمحِ جَيبَ قَميصِهِ — فَخَرَّ صَريعاً لِليَدَينِ وَ لِلفَمِ
يُنَاشِدُني حَاميمَ و الرُّمحُ شَاجِرٌ — فَهلاَّ تَلا حَاميمَ قَبلَ التَّقدُّمِ

[1] نفسه و ذاتها.
[2] نفسهُ ص123
[3] نهجُ البلاغة ، مجموعُ ما اختارهُ الشريف الرضي مِن كلام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، شرح الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده ، نشر سفارة الجمهورية الإسلامية الإيرانية ، دمشق ، د.ت ،ج2 ، ص464
[4] نفسه ص530

عَلى غَيرِ شَيءٍ غَيرَ لَيسَ تَابعاً   عَلِيًّاً و مَنْ لا يَتبَعِ الحَقَّ يَندَمِ [1]

لَمْ يَتروَّ الشِّعرُ إذْ دَخَلَ هذا المُعتَرَكَ السِّياسيَّ المُفجعَ ، و كانَ لِكُلِّ فِئَةٍ شُعراؤُها المُنَافِحُونَ عَنهَا ، و لكنْ لَمْ يتَّخِذِ الشُّعراءَ مِنْ شِعرِهِمْ مِنبراً سِياسيَّاً بالمَعنَى الدَّقيقِ ، يُدلُونَ مِنْ فَوقِهِ بآراءِ فِئَتِهِمْ و حُجَجِهَا ، و يَردُّونَ على خُصُومِهِمْ آراءَهُمْ و حُجَجُهُمْ ، بَل كانَ شِعرُهُمْ تَغَنِّيَّاً بِبُطُولاتِ أنصَارِهِمْ و إشَادَةً بفَضَائِلِهِمْ ، و مَدْحاً لِلقَادَةِ ، و افتِخَاراً بِبَلائِهِمْ ، كَما كانَ الشُّعراءُ يَنفُحُونَ في نُفُوسِ المُقَاتِلينَ رُوحَ التَّحريضِ لِتَجيشَ فِيهَا مِشَاعرَ البُطُولَةِ و الإقدامِ ، مُستَأصِلَةً مشَاعرَ التَّرَدُّدِ و الاحجَامِ تَخلِّياً عَنِ الرِّضَا و الاقتِنَاعِ بحقِّ الفِئةِ الّتي يُقَاتِلُونَ تَحتَ لِوائِها بِالحُكمِ و الخِلافَةِ . بَعدَ أنِ انْفَتَلَ إخوَةُ الإيمانِ عَنْ وَقعةِ الجَملِ انطَلَقَ الشُّعراءُ حَولَ عليٍّ رضي الله عنه يَستَثيرونَهُ إلى القِتَالِ و مِنهُمْ الأَعورُ الشَّنِّيُّ [2] الّذي راحَ يُحَرِّضُ عَلِيّاً، و يُرَغِّبُهُ في المُبَادَرَةِ إلى قِتَالِ مُعاويَةَ لِرَدِّهِ عَنْ مَوقِفِهِ مِنَ الخِلافَةِ الّتي يَتطَلَّعُ إليها ، و هوَ على إيمانٍ بَأن يَنالَ عَليٌّ نُجُومَ السَّماءِ أَقرَبُ إليهِ مِنْ أنْ يَنَالَ مِنْ مُعاوِيَةَ مَا يَشَاءُ ، فلَيَأخُذهُ أخذَةً لا تَدعُهُ:

إنْ تَذَرْهُ فَمَا مُعاوِيَةُ   الدَّهرَ   بمُعطِيكَ مَا أراكَ تَشَاءُ

وَ لَنَيلُ السِّمَاكِ أَقرَبُ مِنْ ذَا   كَ و نَجمُ العَيُّوقِ و العَوَّاءُ

فَاضْرِبِ الحَدَّ و الحَديدَ إليهِمْ   لَيسَ –و اللهِ– غَيرَ ذَاكَ دَواءُ [3]

إنَّ الشَّاعرَ لا يُريدُ لعَليٍّ رضي الله عنه أنْ يُوطِّنَ نَفسَهُ على المُوَادَعَةِ و المُسَالَمَةِ . و لِكَيْ يَبلُغَ الشَّاعرُ مِنْ نَفسِ عليٍّ رضي الله عنه مَا يُريدُ لَجأَ إلى التَّوكيدِ لِيُبيِّنَ مَا يُبيِّتُهُ مُعاوِيَةُ ، كما لَجأَ إلى التَّصويرِ عَنْ طَريقِ الكِنَايَةِ و فيها مِنَ الجَمَالِ البَلاغِيِّ أنَّها أَعطَتِ المَعنويَّ صُورَةً تَزيدُهُ قُوَّةً وَ وُضُوحاً لأنَّ المَعنويَّ أصبَحَ مَصحُوباً بِدَليلٍ حِسِّيٍّ لِيُؤَكِّدَ اسْتِحالَةَ نَيلِ عَليٍّ رضي الله عنه مَطلَبَهُ بالتَّمَنِّي ، بل إنَّ الأمَانِيَ بِمَنعِ مُعاوِيَةَ و التَّضيِّيقِ عَليهِ بالسُّيوفِ و الرِّمَاحِ ، و لا دَواءَ نَاجعاً في مِثلِ تِلكَ المَواقِفِ سِوى حَدِّ السَّيف.

إنَّ مَأسَاوِيَّةَ الصِّراعِ لَمْ تُفَجِّرْ في نُفُوسِ طَائفَةٍ مِنَ الشُّعراءِ مِشَاعرَ الشَّوقِ إلى المُوادَعَةِ ، و عَودَةِ السُّيُوفِ إلى أَجفَانِها ، بل أَسرَفُوا في التَّحريضِ و اسْتِثَارَةِ الحَمِيَّةِ . هَذا الوَليدُ بنُ عُقبَةَ يَسعَى إلى تَأجيجِ عَاطِفَةِ مُعَاوِيَةِ لِيَثِبَ على عَلِيٍّ و جُندِهِ في المَدينَةِ المُنوَّرَةِ مُذَكِّراً إيَّاهُ بصِلَةِ القُربَى الّتي تَربطُهُ بعُثمانَ رضي الله عنه و بالأُمويِّينَ هُنَاكَ ، و لَو لَمْ تُكتَبِ الشَّهَادَةُ على عُثمانَ الأُمويِّ ، و قُدِّرَ القَتلُ على مُعاوِيَةَ لَسَعَى الخَليفَةُ عُثمانَ إلى طَلَبِ الثَّأرِ لِدَمِهِ دُونَ مُداورةٍ أو سَأمٍ ، و كَأَنَّهُ يُعرِّضُ بِتَلكُّؤِ مُعاوِيَةَ عَنْ ذَلكَ الأَمرِ العَظيمِ:

---

[1] البداية و النهاية ، ج7 ، ص423/422 ، و وَردَت حاميم هكذا في سياق البيت و في الأصولِ حَمِ

[2] الأعور الشَّنّي هو بشر بن منقذ من بَني عَبدِ القَيس ، و كَانَ شَاعراً مُحسِناً (الشِّعرُ و الشُّعراء) ص430

[3] وقعَةُ صِفين ، نصر بنُ مُزاحم المِنقَريُّ ، تحقيق عبدالسلام هارون ، مكتبة الخَانجي ، مصر ، ط3 ، 1981 ، ص9. السِّماك : نجمٌ نَيِّر . و السِّماكانِ هُمَا الرَّامحُ و الأعزل ، العَيُّوق : نجمٌ أحمر مُضيء في طرفِ المجرَّةِ الأيمن ، العَوَّاء: مِن مَنازلِ القَمرِ ، و هيَ خَمسَةُ أنجُمٍ

و قَومُكَ بالَمدينَةِ قَدْ أُصِيبُوا　　　فَهُمْ صَرعَى كَأَنَّهُمْ الهَشيمُ
فَلَوْ كُنْتَ القَتيلَ و كَانَ حَيَّاً　　　لَشَمَّرَ لا أَلَفٌ و لا سَؤُومُ [١]

إنَّ أحداثَ مَوقِعَةِ صِفِّين أَسَهَمَتْ في وِلادَةِ مُقَطَّعاتٍ قَصيرَةٍ تُواكِبُ المَعَارِكَ ، و تُظهِرُ القُوَّةَ ، لِتُلقِيَ الرُّعبَ في قُلوبِ الخُصُومِ ، و لا تَختَلفُ مِنْ حَيثُ الصِّيَّاغَةِ الفَنِّيَّةِ عَمَّا جَرَى على ألسِنَةِ المُقَاتِلينَ في الفُتُوحاتِ الإسلامِيَّةِ ، و كانَ الافتِخَارُ مِحوَرَ الاهتِمَامِ و الانصرافِ إلى الإشَادَةِ بالبُطُولاتِ ، و الاستِعدادِ لَهَا شَانُهُمْ في ذَلكَ الجَاهليِّينَ ، يَقُولُ أبو حيَّةَ عَمرو بنُ غَزِيَّةَ الأنصَاريُّ ، يَتغَنَّى بِمَا قَومُهُ مِنْ قِيَمٍ:

سَائِلْ حَليلَةَ مَعبدٍ عَنْ فِعلِنَا　　　و حَليلَةَ اللَّخميِّ وَ ابنَ كِلاعِ
وَ اسأَلْ عُبَيدَ اللهِ عَنْ أَرمَاحِنَا　　　لَمَّا ثَوى مُتَجَدِّلاً بالقَاعِ
وَ اسأَلْ مُعَاوِيَةَ المُوَلِّي هَارِباً　　　وَ الخَيلُ تَعدُو و هْيَ جدٌّ سِرَاعِ
مَاذا يُخبِّرُكَ المُخَبِّرُ مِنهُمُ　　　عَنَّا و عَنهُمْ عِندَ كُلِّ وَقَاعِ
إنْ يَصدُقُوكَ يُخَبِّرُوكَ بِأَنَّنا　　　أَهْلُ النَّدَى قِدْماً مُجيبُو الدَّاعي
نَدعُو إلى التَّقوَى و نَرعَى أَهلَهَا　　　بِرِعَايَةِ المَأمُونِ لا المِضْيَاعِ
إنْ يَصدُقُوكَ القَولَ يُخبِرُوكَ بأَنَّنَا　　　نَحمي الحَقيقَةَ عِندَ كُلِّ مِصَاعِ
وَ نَسُنُّ للأعدَاءِ كُلَّ مُثَقَّفٍ　　　لَدْنٍ و كُلَّ مُشَطِّبٍ قَطَّاعِ [٢]

و بَكَى الشُّعراءُ الفُرسَانَ الأبطالَ الّذينَ كانُوا يُجَندِلُونَ في احتِدَامِ القِتَالِ بَينَ الطَّرفَينِ ، فَتُعدَّدُ مَآثِرُهُمْ، و تُسرَدُ شَمَائِلُهُمْ نَسجاً على المِنوَالِ الجَاهليِّ ، بِشُعورِ الأَسَى المُتَدفِّقِ و الانفِعَالِ الّذي تَجيشُ بِهِ الصُّدُورُ في مَواقِفَ و لَحَظاتٍ كَهَذِهِ ، و مِن الشَّواهِدِ على ذلكَ قَولُ رَجُلٍ يُقَالُ لَهُ النَّجَاشيُّ يَرثي أبا عمرةَ بن عمرو بنِ مُحصِنٍ مُخاطِباً إيَّاهُ ، و مُتَحدِّثاً عَنهُ ، مُبدِياً جُودَهُ و في أيَّامِ القَحطِ خاصَّةً ، و إقدَامَهُ و ثَبَاتَهُ في لَحَظَاتٍ تَملأُ قُلوبَ الأبطالِ رُعباً:

فَيَا رُبَّ خيرٍ قَدْ أَفَدْتَ وَ جَفنَةٍ　　　مَلأتَ وَ قِرنٍ قَدْ نَزَلْتَ مُخَيَّبا
وَ يَا رُبَّ خَصمٍ قَدْ رَدَدْتَ بغَيظِهِ　　　فَآبَ ذَليلاً بَعدَمَا كانَ مُغضَبَا
وَ رَايَةِ مَجدٍ قَدْ حَمَلْتَ و غَزْوَةٍ　　　شَهدتَ إذا النِّكسُ الجَبَانُ تَهيَّبَا
حَؤُوطاً على جُلِّ العَشيرَةِ مَاجداً　　　وَ لَمْ يَكُ في الأَنصارِ نكساً مُؤَنَّبا
طَويلَ عَمُودِ المَجدِ رَحباً فِنَاؤُهُ　　　خَصيباً إذا مَا رَائِدُ الحَيِّ أَجدَبا

---

[١] أنسَابُ الأشرافِ ، دار اليَقظَة العربيَّة ،1997، ج2 ،ص202
[٢] وقعة صِفين ، ص379 ،380 ، الوقاع: المُبالغةُ في القِتال ، المِصَاعُ: الضَّربُ بالسَّيفِ ، مُشَطَّب: مِنْ شَطبِ الجلد: شقَّهُ

عَظيمَ رَمَادِ النَّارِ لَمْ يَكُ فَاحِشَاً   و لا فَشِلاً يومَ القِتَالِ مُغلَّبا [١]

إنَّ هذا القِتَالَ بَينَ طَائفتَينِ مِنْ أبطالِ المؤمِنينَ مَزَّقَ الأُمَّةَ ، إذْ أَحيَتَا شَريعَةَ الجَاهليَّةِ و لَمْ تَفِئْ إحداهُما إلى أمرِ اللهِ حتَّى آلَ القِتَالُ إلى حالٍ لا يُرضِي اللهَ و لا الرَّسُولَ.

و بَعدُ.. تِلكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ، و قَدْ أَفضَتْ إلى أَحكَمِ الحَاكِمينَ ، و هُوَ يَفصِلُ بَينَ اجتِهَادِهِمْ يَومَ القِيَامَةِ ، و مَا الاجتِهادُ إلا مُحاولاتٍ بَشَرِيَّةٍ ، فَمَنْ أَخطَأَ فَلَهُ أَجرٌ ، و مَنْ أصَابَ فلَهُ أَجرانِ.

[١] نفسه ، ص358

الخَاتِمَةُ و نتَائجُ البَحثِ

مَسرَدُ الشُّعراء

فهرست المصادر و المراجع

الخَاتِمَةُ و نتائجُ البَحثِ

لَعلَ جَهديَ المُتواضِعَ أَحَاطَ بِمَا طَمَحَتْ إليهِ نَفسي ، و لَعَلَّ النَّتائجَ الّتي انتَهَى إليها بَحثِي على صَوابٍ.

لَقَدْ وَصَلْتُ إلى التَّفَاؤلِ المَشرقِ بِأُمَّتِنَا العَربيَّةِ في وَقتِهَا الحَاضِرِ عَلى كَثرَةِ العَقَبَاتِ الكَؤودَةِ الّتي تَعتَرِضُ سَبيلَهَا ، مُستَلهِماً ذَلكَ مِنْ قَولِهِ تَعالَى ((**كُنتُمْ خَيرَ أمَّةٍ أُخرجَتْ للنَّاسِ تَأمُرونَ بالمَعروفِ و تَنهَونَ عَنِ المُنكَرِ و تُؤمِنُونَ باللهِ**))[1] لِتَثبيتِ هذِهِ الخَيريَّةِ ، فَصِيغَةُ الفِعلِ المَاضي تُفيدُ تَحَقُّقَ وُقُوعِ الفِعلِ لِهَذِهِ الخِصَالِ الحَميدَةِ المذكورةِ ، كَما تَدُلُّ على إرادَةِ الفِعلِ ، أيْ أَرادَ اللهُ ﷻ لِلعَرَبِ أَنْ يَكونُوا خَيرَ أُمَّةٍ أُخرِجَتْ لِلنَّاسِ .

أَتَفَاءَلُ بِصَحوَةِ أُمَّتِنَا الّتي تُغزَى غَزواً شَرِساً عَنيداً في فِكرِها و عَقيدَتِها و تارِيخِها ، أَتَفاءلُ بِصَحوَةِ شَبابِها و عَودَتِهِ إلى تَاريخِ أُمَّتِهِ و أَبطَالِها لِيَخرُجَ بِعَزِيمَةٍ إيمانيَّةٍ عالِيَةٍ بالأمجَادِ ، مُتَرَفِّعاً عَنْ غُثَاءِ الفِكرِ الدَّاهِمِ الطَّامي.

-إنَّ عَطاءَ أبناءِ أُمَّتِنَا المُمْرِعَ لَمْ يَنقَطِعَ عَلى التَّاريخِ ، و لَنْ يُبتَرَ ، فَأَسْفَارُ النُّهُوضِ و التَّصَدِّي تَسْطَعُ و تَبعَثُ الأَمَلَ في النُّفُوسِ ، فَنستَشرِفُ الغَدَ المُشرِقَ و نَحنُ نَحيَا واقِعاً مُثقلاً بالآلامِ و التَّضحِيَاتِ في صِراعِنَا معَ أعدائِنا صِراعَ وُجُودٍ و ثَقَافَةٍ و حَضارَةٍ ، فهؤلاءِ الّذينَ نَأَوا عَنْ الإنسَانيَّةِ مَا زَالُوا يَجهَدُونَ في فَرْضِ نَمَطِ حَيَاةٍ عَلَينَا يُغَايِرُ أَخلاقَنَا ، و هَمُّهُمْ الأَوَّلُ و الأَخيرُ مُحاصَرَتُنَا حِصَاراً يَعصِفُ بِقِيَمِنَا ، و مُثُلِنَا، و مَبَادِئِنَا ، و دَورِنَا الحَضَاريِّ الفَعَّالِ في مَيَادينِ العَطاءِ الإنسَانيِّ الكَريمِ.

-إنَّهُ الصِّراعُ بَينَ حَقِّنَا في الوُجُودِ بحُرِّيَّةٍ و كَرامَةٍ ، و بَينَ قُوَى البَغيِ و الاستِكبارِ في الأَرضِ الّتي تَعمَلُ جُهُودُها الخَبيثَةُ على إخراجِنَا مِنْ مَكرُمَتِنَا الجَليلَةِ : الخَيريَّةِ ، و تَغزُونَا في عُقرِ دَارِنَا لإذْلالِنَا و جَعلِنَا مُذَبذَبينَ لا إلى هَؤلاءِ و لا إلى هَؤلاءِ ، و إنِّني لأَكَادُ أَرَى نَتيجَةَ هَذَا الصِّراعِ المَريرِ ، فَالنِّضَالُ الصَّادِقُ ، و مَنطِقُ العَقلِ و التَّاريخِ ، و حَرَكَةُ الحَيَاةِ ، و جَدَليَّةُ الوَاقِعِ تُحَدِّثُنَا أَخبَارَها ، فَالنَّصرُ في مَراحِلِ التَّاريخِ المُختَلِفَةِ كانَ لِصَاحِبِ الحَقِّ في كُلِّ بُقعَةٍ مِنْ بِقَاعِ الأَرضِ ، و لَنْ تَكونَ مَرحَلَتُنَا الّتي

[1] سورة آل عمران ، من الآية 110

نَحيَاهَا إلاَّ حَلَقَةً في تِلكَ المَراحِلِ العَنيدَةِ و بُطُولاتُ أُمَّتِنَا في الوَقتِ الحَاضِرِ تَمشِي في مَوَاكِبِ العَطَاءَ و الإيثارِ على خُطَا الأسلافِ ، و مَآثِرِ فُتُوَّتِهمُ الرَّائعةِ في صُوَرٍ مُتَميِّزةٍ ، فَالبُطُولاتُ الحَاضِرَةُ سِلسِلَةٌ تَتَّصِلُ بالبُطولاتِ الغَابرَةِ و تُتَمِّمُهَا .

عَلى مَرِّ سَنَواتِ الاحتِلالِ المُتَبَدِّلِ كَانَتِ الأُمَّةُ العَربيَّةُ الضَّحيَّةُ الّتي أَبَتْ أَنْ تَكونَ مُنكَسِرَةً، ضَعيفَةً ، مُستَلَبَةً كما أرَادَها المُحتَلُّونَ حتَّى تَصِلَ مَرحَلَةَ اليَأسِ، بل كَانتْ مُقَاوَمَةً شَامِخَةً كَلَّفَتْ المُحتَلِّينَ بَاهِظاً . و عَلَينَا أَنْ نُثبتَ مَعنَى الخَيريَّةِ لأُمَّتِنَا و أنَّ رُوحَهَا العَاليَةَ مَا زَالَتْ تَسري فيها .

-و عَلَينَا ألاَّ نَركَنَ لِلَّذينَ ظَلَمُوا و لَو شَيئاً قَليلاً ، و قَدْ حمَلُوا عَناوِينَ برَّاقَةً تَدُسُّ السُّمَّ الزُّعَافَ في العَسَلِ، حَمَلُوا ((حِوارَ الحَضَاراتِ)) هَلْ يُمكِنُ لِتَاريخٍ حَافلٍ بالإرهابِ أنْ يُحاوِرَ أُمَّةً شَهِدَ التَّاريخُ أنْ لَيسَ ثَمَّةَ ظَاهِرَةٌ دَمَويَّةٌ أو عُنصُريَّةٌ وُلِدَتْ مِنْ رَحمِ حَضَارتِها ضِدَّ الآخَرين، بَل عَلَى النَّقِيضِ مِنْ ذَلِكَ، كَانَ العَرَبُ وَالمُسْلِمُونَ عَبْرَ تَارِيخِهِمْ وَمُنْذُ الجَاهِلِيَّةِ أُمَّةً ثَقَافِيَّةً حَضَارِيَّةً، بَلْ زَادُوا عَلَى ذَلِكَ فِي إسْلامِهِمْ و فَتَحُوا قُلوبَهُمْ و صُدُورَهُمْ لِلآخَرِ ، و أَعطَوهُ فُرصَةً لِلحِراكِ و الحِوارِ و التَّسَاوي امتِثَالاً لِقَولِهِ تَعالى:

((قُل يَا أهلَ الكِتَابِ تَعَالَوا إلى كَلِمَةٍ سَواءٍ بَينَنا))[1]

إنَّ صَاحِبَ التَّاريخِ الحَافِلِ بالإرهابِ و العُدوانِ و المَوتِ لَنْ يَستَجيبَ بَعضَ الاستِجَابَةِ لِمَقُولَةِ الحَقِّ و لَنْ يُبَدِّلَ حُمُولاتِهِ المَخزيَةَ الدَّامِيَةَ في حِوَارِهِ.

-إنَّ أطرافاً مِنَ المَاضي تُمَثِّلُ جُزءاً مِنْ وَاقِعِنَا ، فمَا هُوَ المَاضي الّذي نَستَفيدُ مِنهُ و نَستَثمِرُهُ في بِنَاءِ الحَاضِرِ؟ عَلَينا أَنْ نَختارَ مِنَ القِيَمِ الإيجابيَّةِ السَّامِيَةِ في شِعرِنَا الجَاهليِّ مَا يُنَاسِبُ كُلَّ مَوقِفٍ مِنْ مَواقِفِنَا، و ألاّ نَترُكَهَا تَعيشُ في الدَّواوينِ و المَجموعاتِ الشِّعريَّةِ.

-إنَّ تَسجيلَ مَواقِفَ البُطُولَةِ ، و حَيَواتِ الأَبطالِ الّذينَ صَنَعُوهَا إبرازٌ للمُثُلِ العُليَا و تَسجيلٌ لِلقُدوَةِ ، و إفادَةٌ مِنْ ذِكرى الخَالدِينَ بدِراسَةِ مَعَالِمِ البُطُولَةِ في تَاريخِهِمْ ، و عَرضِ جَوَانبِ المَجدِ، في أعماقِهِمْ و بِذَلكَ يَهتَدي شَبَابُ الأُمَّةِ العَربيَّةِ ، فَيُحَقِّقُونَ لِلعُروبَةِ آمَالَهَا الكِبَارِ .

[1]سورة آل عمران : من الآية 64

إنَّ نُصُوصَ الشِّعرِ الجَاهليِّ بزَخمِهَا المُتدفِّقِ بالعَواطِفِ و المَواقِفِ كَانَتْ وَجهَ الإنسانِ العَربيِّ الّذي تَألّقَ بالسِّلمِ و الحَربِ و التَّمرُّدِ ، و رَحَلَ عَلى أَجنحَةِ كَلِمَاتِهِ عَبرَ الزَّمانِ ، لأَنَّ الشِّعرَ حَوَّلَ الكَلِمَةَ إلى إشراقٍ بَاهِرٍ يَغمُرُ كُلَّ زَمَانٍ عَربيٍّ ، حتَّى وَصَلَ إلى زَمَانِنَا الّذي شَهِدَ تَحوُّلاتٍ جَذريَّةً ،
و تَطَوُّراتٍ تَاريخيَّةً عَميقَةً بدُخُولِ الأقطارِ العَربيَّةِ في صِراعٍ حَاسِمٍ مَعَ الاستعمارِ ، و انتِزاعِهَا حُرِّيَّتَهَا و استِقلالِهَا فكَانَ الشِّعرُ القَوميُّ الّذي يَستَلْهِمُ المَواقِفَ المُشرقَةَ بالبُطُولَةِ ، و يُصَوِّرُ الجَوانِبَ الإيجابيَّةَ و مَعانيهَا لِشَحنِ النُّفُوسِ بِرُوحِ الإقدامِ و البُطُولَةِ ، و التَّمرُّدِ على الظُّلمِ و العُدوانِ ، و إعادةِ الأمَلِ و التَّفاؤُلِ.

-و كَانَتِ استِجابَةُ الإنسَانِ العَربيِّ بِغَيرِ تَلَكُّؤٍ ، و كانَ الشِّعرُ الّذي سَجَّلَ رَوعَةَ الانتِصَاراتِ و فَرحَتَهَا.

-و استَمرَّ التَّمرُّدُ في مُواجَهَةِ الاستِعمارِ الشَّرِسِ بحَربَتِهِ المَسْمُومَةِ مُمَثَّلَةً بالدَّولَةِ الصَّنيعَةِ وَ عَبيدِهَا الخَونَةِ في قَلبِ الوَطَنِ العَربيِّ . و استَمرَّ الشِّعرُ العَربيُّ المُعاصِرُ يَتَألَّقُ بتَصوير مَظَاهِرِ الرَّفضِ و التَّمرُّدِ ، و مِنْ هَذَا التَّوَهُّجِ النَّبيلِ يَنبَغي على أَحرارِ و شُرَفَاءِ الأُمَّةِ العَربيَّةِ أَنْ يَنبُذُوا مِنْ رِكَابِهَا كُلَّ مُتَخَاذِلٍ لا يَستَرجِعُ وَقفَةَ عَمرو بنِ كُلثُوم ، النُّموذَجِ الحَيِّ للبُطُولَةِ الإيجابيَّةِ حِينَ شَعرَ بكَمينِ الذُّلِّ و قَدْ نُصِبَ لَهُ ، و كَمْ مِنْ كَمينٍ يُنصَبُ لِكُلِّ مُتخاذِلٍ في واقِعٍ عَالَميٍّ سَائِدٍ يَتَجافَى معَ طُموحِنَا الإنسَانِيِّ نَحوَ الشَّمسِ و الحَيَاةِ الفُضْلَى ، فَلا يَخرُجُ مِنْ دَائِرَةِ أَحلامِهِ و أَوهامِهِ ، لِيَعلُوَ صَوتُهُ في وَجهِ الاستِكبارِ : يَا جَلاَّدي ! خَسِئتَ يا أيُّهَا الوَحشُ ! فَالجَلدُ الفِكريُّ أَشَدُّ أَلوانِ العَذَابِ ن ثُمَّ يَنطَلِقُ يَفعَلُ مَا يَقُولُ ، فيَصُولُ و يَجُولُ مُسَاهِماً في رَفعِ الحَيفِ و الظُّلمِ عَنْ كَاهِلِهِ و كَواهِلِ أَبناءِ أُمَّتِهِ .

-نَزعَةُ التَّمرُّدِ سِجِلٌّ نَاصِعٌ للثَّقَافَةِ العَربيَّةِ ، و هِيَ لَيسَتْ حِكراً على حَدٍّ زَمَنِيٍّ ، أَو مُحيطٍ لا يَتخَطَّى المَسَاحَةَ المَكانيَّةَ ؛ فإنَّ تِلكَ الظَّاهِرَةَ النَّبيلَةَ المُتَأَصِّلَةَ في الذَّاتِ العَربيَّةِ ، و اللَّصِيقَةَ في مَشَاعِرِ عُروَةَ بنِ الوَردِ شَعَّتْ قَبلَ قُرونٍ إذِ احتَلَّتْ آلامُ الإنسانِ و شَكاواهُ و طُمُوحَاتِهِ مَسَاحَةً واسِعَةً مِنْ شِعرِهِ ، و مِنْ سَعيِهِ إلى جَعلِ قَولِهِ فِعلاً ، فقَدْ تَفَجَّرَ صِدقُ عَواطِفِهِ الإنسَانيَّةِ – على حِرمَانِهِ و خَصَاصَتِهِ – إيثَاراً و عَطفاً و شَفَقَةً على المَحرومِينَ و المُستَضعَفينَ وَ هُوَ خُلُقٌ حَمِدَهُ الإسلامُ فِيما بَعدُ و يَكُونُ بذَلكَ قَدْ حَلَّ في الذُّروَةِ العُليا مِنَ المَواقِفِ الإنسَانيَّةِ ، فَسَبَقَ الشُّعراءَ الإنسَانيِّينَ في العَالمِ ، و اخترَقَ بنَافِذِ بَصِيرَتِهِ القرُونَ لِيَبُزَّ مُنَظِّري العَالَمِ المُتَمَدِّنِ حِينَ رَفَعَ لِوَاءَهُ ، و مَا هُمْ إلاّ تَبَعٌ لَهُ يمشُونَ تحتَ

لِوَائِهِ لأنَّهُ وَصَلَ إلى مَا لَمْ يَصِلُوا إليهِ ، فَعَلَينا أَن نَستَمِدَّ مِنْ وَهَجِ تِلكَ الإِضَاءَةِ الفِكريَّةِ المُبهِرَةِ ذَاتِ المَبدأ السَّامي ((الحَيَاةُ كِفَاحٌ)) لِنُسَلِّطَهَا على وُجُوهِ مُستَغلّي الفَقرِ الإنسانيِّ و ذَوي الخَصَاصَةِ و الحَاجَاتِ في عَصرِنَا المُسَيَّجِ بِالقَهرِ و التَّسَلُّطِ و استِنزافِ خَيراتِ الشُّعوبِ . وَ إنْ دَلَّتْ هَذِهِ الظَّاهِرَةُ الكَرِيمَةُ على شَيءٍ فإنَّما تَدُلُّ على مَدَى عُمقِ حَضَارَةِ و أَصَالَةِ أُمَّتِنَا ، و الشِّعرُ انعِكاسٌ لِرُوحِهَا ، و تَعبيرٌ جَليٌّ عَنْ مَكَامِنِ القُوَّةِ و العِزَّةِ فِيها .

-إنَّ وقَفَةَ العَربِ صَفَّاً واحِداً أَمَامَ الفُرسِ في ذِي قارَ بَلوَرَ المَفْهُومَ الفِطريَّ و الإحسَاسَ المُبَكِّرَ بالقَوميَّةِ و الجِنسيَّةِ الوَاحِدَةِ ، و هُمْ في اتِّحادِهِمْ ذَلكَ أَصدَقُ مِنَّا في عَصرِ النَّظَريَّاتِ العِلميَّةِ لِتَكوُّنَ الأُمَمِ، أصدَقُ في التَّعبيرِ عَنِ الشُّعُورِ الوَاحِدِ ، فَلَيتَ أَصداءَ الأَصواتِ الشِّعريَّةِ الّتي تَعالَتْ زَهواً بَعدَ الانتِصَارِ تنهَمِرُ على قُلوبِنَا و أَسمَاعِنَا ، فنَستَجيبُ لَهَا ، و نَصرُخُ بأَعلَى أَصواتِنَا : يا وَحدَتَنا ! هَلُمِّي إلينَا لِيَتحَقَّقَ انتِصَارُ حُلمِنَا ، فَتَخفِقُ أَجنِحَةُ التَّعبيرِ الشّعريّ عَنهُ زَهواً في كُلِّ أُفُقٍ لأنَّهُ أُريدَ بِهِ وَجهُ حَقٍّ حَضَّنَا الإسلامُ عَلَيهِ ، و دَعَانا إلى أن نَفعَلَ ما نَقُولُ حتَّى لا يَعظُمَ فِعلُنَا هَذَا بُغضَاً عِندَ اللهِ ن قالَ اللهُ تعالى : ((**يَا أَيُّهَا الّذينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولونَ ما لا تَفعلونَ كَبُرَ مَقتاً عِندَ اللهِ أَنْ تَقُولوا ما لا تَفعَلونَ**))[1]

وَ واضِحٌ أنَّ الاستِفهامَ جَاءَ عَلى جِهَةِ الإنكارِ و التَّقريعِ ، ثُمَّ أُكِّدَ الإنكَارُ بِقَولِهِ ((**كَبُرَ مَقتاً عِندَ اللهِ**))
و دَعَانا إلى الثَّبَاتِ عِندَ لِقَاءِ العَدُوِّ كَبِنَاءٍ رُصَّ بَعضَهُ بِبَعضٍ ، فقَالَ : ((**إنَّ اللهَ يُحِبُّ الّذينَ يُقَاتِلُونَ في سَبيلِهِ صَفَّاً كَأَنَّهُمْ بُنيَانٌ مَرصُوصٌ**))[2] و مَا نَحنُ إلاَّ فُروعٌ لِتِلكَ الدَّوحَةِ العَظيمَةِ الّتي ضَرَبَتْ في الأرضِ و التَّاريخِ .

-الشَّاعرُ الفَارسُ عَنترةُ تَعالَى بِبُطُولَتِه على الّذين تَعَالَوا عَلَيهِ تَوسُّلاً إلى انتِزَاعِ حُرِّيَّتِهِ ،و تَأصيلِ شَخصيَّتِهِ، فلِمَاذا لا تَترُكُ هَذِهِ الشَّخصيَّةُ الثَّريَّةُ بِالمَعاني الإنسَانيَّةِ في نُفُوسِنَا مَا يَحفِزُنَا إلى التَّعَالي بِشَخصيَّتِنَا القَوميَّةِ على الّذينَ يَتَعالَونَ عَلَينا لِنُزيلَ الغِشَاوةَ عَنْ أَبصَارِهِمْ و مَا غَلَبَ على قُلُوبِهِم مِنْ صَدَأ البَاطِلِ ، و نَنتَزِعُ اعتِرافَهُمْ بِالحَقِّ . و قَدْ أرادَ الإسلامُ أَنْ نَرُدَّ عَنْ أنفُسِنَا البَغيَ و العُدوانَ ،

---

[1] سورة الصف ، الآية 3
[2] سورة الحج ، منَ الآية 60

و سَجَّلَ جَوهَرَهُ الشِّعرُ الإسلاميُّ ، وَ يُبَيِّنُ اللهُ ﷻ ذلكَ : ((**و مَنْ عَاقَبَ بِمِثلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيهِ لَيَنصُرَنَّهُ اللهُ**))[1]

-وَ عَلَينَا أَنْ نُظهِرَ لِلدُّنَيا عَلامَةً شِعرِيَّةً مُضِيئةً في تَاريخِ الإنسَانِ الجَاهليِّ ، وَ هِيَ نَظرَةُ حَكيمِ شُعراءِ الجَاهِلِيَّةِ إلى الحَربِ و العُدوانِ نَظرَةً إنسَانيَّةً ، فَسَبَقَ طُغَاةَ الأرضِ ، و عُتَاةَ السِّياسَةِ في هَذا العَصرِ المُتَحضِّرِ بِقُرونٍ ، فَبرهَنَ على أنَّ الإنسَان العَربيَّ مُتَحَضِّرٌ بكُلِّ مَعنَى و بُعدٍ لِهذِهِ الكَلِمَةِ . إنَّهُ يَختَلِفُ عَنهُمُ اختِلافاً كاملاً ، فَهُمْ أَصَمُّوا سَمعَهُمْ ، و أَعمَوا أَبصَارَهُمْ عَنِ الأَخطَارِ المَاحِقةِ الّتي يُهَدِّدُونَ بهَا بَقَاءَ الحَضَارَةِ و الحَيَاةَ الإنسَانيَّةَ ، و قَدْ تآزَرَتْ جُهُودُ أَجيالٍ مِنَ البَشَرِ على إعلاءِ بُنيَانِها .

و يُؤكِّدُ هَذهِ النَّزعَةَ الإنسَانيَّةَ النَّبيلَةَ المُطلَقَةَ الّتي لا يُقَيِّدُهَا زَمَنٌ ، و لا يَرْبِطُهَا عَهْدٌ ، أَو يَحُدُّ مِنْ شُمُولِيَّتِهَا نِظَامٌ ، و إنْ تَفَاوَتَتْ بَينَ إنسَانٍ و إنسَانٍ حِلفُ الفُضُولِ الجَاهِلِيُّ المُبَارَكُ إسْلامِيَّاً لأَنَّهُ وَسِعَ البَشَرِيَّةَ بِإنسَانيَّتِهِ ، و حَفِظَ حُقُوقَهَا ، فَسَبَقَ الأُمَمَ المُتَّحِدَةَ كَذَلِكَ بِخَمسَةَ عَشرَ قَرناً ، و في ذَلكَ دَلالَةٌ أُخرَى على رُشْدِ الإنسَانِ العَربِيِّ و إعمَالِهِ العَقلَ في إلغَاءِ القُوَّةِ و العُنفِ ، و مُحَارَبَةِ الإرهَابِ ، و لا يُنقَصُ حُرمَةَ هَذا الحِلفِ مُعتَرِضٌ كمَا هُوَ الحَالُ في الأُمَمِ المَتَّحِدَةِ الّتي يَلتَهِمُ بَاطِلُ النَّقضِ في أَروِقَتِها حَقَّ الإنسَانِ المُسْتَضعَفِ .

و هَذِهِ الشَّفَافِيَّةُ الإنسَانيَّةُ ، و الحَضَارَةُ الّتي لا تُضَاهَى زَادَهَا الإسلامُ تَثبيتاً في النُّفُوسِ ، و تَرسِيخاً في القُلوبِ ، فَنَهَى المُسلِمِينَ عَنْ قِتَالِ إلاَّ مَنْ يُقاتِلُهُمْ، و عَنِ العُدوانِ فَلا يَبدَؤُونَ بِقِتَالِهِمْ ، فإنَّهُ تَعالَى لا يُحِبُّ مَنْ ظَلَمَ أو اعتَدَى يَقُولُ اللهُ تَعالى : ((وَ **قَاتِلُوا في سَبيلِ اللهِ الّذينَ يُقَاتِلُونَكُمْ و لا تَعتَدُوا إنَّ اللهَ لا يُحبُّ المُعتَدينَ**))[2] .

-سَعَى الكَثيرُ مِنْ شُعراءِ العَصرِ الجَاهليِّ الفُرسَانِ إلى الخُروجِ مِنَ الحَقيقَةِ الّتي تُحاصِرُهُم : المَوتِ ، فَالبُطُولَةُ في مِقيَاسِ كُلِّ بَطَلٍ أَنْ يَمُوتَ غَيرَ مُوَسَّدٍ ، و يَسْعَى إلى مَوتٍ يُذكَرُ بِهِ بِإكبَارٍ ، و يَصدُقُ في التَّحرُّكِ وَفقَ مَا تَدعُو إليهِ الحَقيقَةُ الّتي لا مَفرَّ مِنْهَا لِيُثبِتَ ذَاتَهُ بِالخُروجِ مِنْ دَائِرَةِ العدَمِ و الفَنَاءِ إلى مَسَاحَاتٍ وَاسِعَةٍ مِنَ الذِّكرِ الحَميدِ الّذي يُثنَى به عَلَيهِ عَبرَ الزَّمَنِ المُطلَقِ في الحَيَاةِ الدُّنيَا.

[1] سورة الصف ، الآية 4
[2] سورة البقرة ، الآية 190

-و تَحوَّلَ مَفْهُومُ المَوتِ البُطُوليِّ عِندَ الأَبطالِ المُسلِمينَ إلى مَفْهُومِ الشَّهَادَةِ فَكَانَ المَوتُ في سَبيلِ اللهِ أَنبَلَ الغَاياتِ ، و أَعزَّ الأُمنيَاتِ ، و قَدْ كَشَفَ شِعرُ الفُرسَانِ المُسلِمينَ عَنْ مَدَى تَمكُّنِ قِيمَةِ الشَّهادَةِ مِنْ وُجدَانِ الأبطَالِ المُقَاتِلينَ بمِصدَاقِيَّةٍ صَبَّها اللهُ ﷻ في قُلوبِهِمْ ، فرَاحُوا يَتزَاحَمُونَ حَولَهُ ، و يُلاقُونَ أَسبَابَهُ طَمَعاً في الوَعدِ الصَّادِقِ مِنَ اللهِ سُبحانَهُ و تَعالى بَعدَ الوَفَاءِ بِبَيعِ النَّفسِ في سَبيلِهِ((**إنَّ اللهَ اشتَرى مِنَ المُؤمِنينَ أَنفُسَهُمْ و أَموَالَهُم بأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةُ يُقَاتِلُونَ في سَبيلِ اللهِ فَيَقْتُلونَ و يُقتَلُونَ وَعداً عَلَيهِ حَقّاً في التَّوراةِ و الإنجيلِ و القُرآنِ و مَنْ أَوفَى بعَهدِهِ مِنَ اللهِ فَاستَبشِرُوا بِبَيعِكُمُ الّذي بَايَعتُمْ بهِ و ذَلكَ هُوَ الفَوزُ العَظيمُ**))[1] . و هذا الشَّكلُ الجَميلُ مِنَ المَوتِ جَعلَ الأعداءَ يُولُّونَ مِنْ مُلاقاةِ الَبطالِ المُسلِمينَ ، و يُملَؤونَ مِنهُمْ رُعباً .

كَانَتْ صُورَةُ المَوتِ الجَديدةُ الجَميلَةُ تُحيطُها هَالَةٌ مِنَ السَّعادَةِ انعِكَاساً لِطُمُوحٍ يَملأُ نَفسَ الشَّاعرِ المُسلِمِ، لأَنَّهُ إنْ ظَفَرَ بحُسْنَى الشَّهادَةِ ظَفِرَ بجَنَّةٍ عَرضُهَا السَّمَواتُ وَ الأَرضُ في الآخِرَةِ ، و ظَفِرَ بخُلُودِ ذِكرِهِ في الدُّنيَا مَثلاً أَعلَى للمَوتِ النَّبيلِ .

-لَيسَ مَفهُومُ الالتِزامِ بوافِدٍ على شِعرِنَا المُعاصِرِ ، و في تُراثِنَا الشِّعريِّ شَواهِدُ نَاصِعَةٌ على أنَّ الشُّعراءَ المُسلِمِينَ أوَّلُ مَنْ طَبَّقَ هذا المَفهُومَ ، فقَرَنُوا الفِعلَ بالقَولِ ، و كَانُوا مَضرِبَ الأَمثَالِ صِدقاً و حَقّاً .

-إنَّنَا لا نَفقِدُ في الشِّعرِ الجَاهليِّ البُطُوليِّ قَصَائدَ ذَواتِ بِنَاءٍ مَلحَميٍّ شِبهَ مُتَكَامِلٍ لأَنَّ الشَّاعرَ العَربيَّ كانَ يَعزِفُ عَنِ الإطَالَةِ ، و يُؤثِرُ الإيجازَ و التَّكثيف . و مَعَ قِصَرِ الأَنفَاسِ الشِّعريَّةِ فَإنَّ صُوَرَ حَمحَمَةِ الخُيُولِ و صَهيلَها ، و النَّقعِ المُنعَقِدِ فَوقَ رُؤوسِ الأبطالِ ، و بَريقِ السُّيُوفِ تَعلُو و تَنخَفِضُ لِتَحصُدَ الهَامَ ، أو تُسقَى مِنْ دِماءِ الفُرسَانِ يَسُوقُها الشَّاعِرُ بأَدواتِ السَّردِ المَلحَمِيِّ مِنْ رَوعَةِ الصِّيَاغَةِ ، و ارتِفَاعِ نَبرَةِ الإيقاعِ بِمُوسيقا القَافِيَةِ لِيَقُومَ عَالَمٌ يَضِجُّ بالأَصواتِ الّتي تُثِيرُها المَعرَكَةُ لِنَلقَى القَصِيدةَ تَكادُ تَكونُ بِبُنيَانِها الفَنِّيِّ المُوجزِ ذَاتَ ميزَاتٍ مَلحَميَّةٍ ، و هِيَ بَريئَةٌ مِنَ الخَيالِ المُسرِفِ ، و المُبَالَغةِ الّتي لا يأَلَفُها الذَّوقُ العَربيُّ.

[1] سورة التوبة : الآية 111

-لَو شَاءَ الشُّعراءُ الجَاهِليُّونَ الإطالَةَ لَفعلُوا لأَنَّهُمْ أُولوا قُدرَةٍ على ذلكَ ، و لَو فَعَلُوا لَوَصَلَتْ إلينَا مَلاحِمُ بُطُوليَّةٌ كَامِلَةً غَيرَ مَنقُوصَةٍ ، و الدَّليلُ الّذي لا يُدحَضُ أنَّ الشَّاعرَ الفَارسَ كانَ يَعيشُ التَّجرِبَةَ البُطُوليَّةَ حَيَّةً و يُعَاني فِي سَاحاتِهَا مَا يُعَاني .

-جَاءَتْ صِيَاغَةُ الأَعشَى الشِّعريَّةُ لِمَعرَكَةِ (ذي قار) شَبيهَةً بالمَلحَمَةِ بخَصَائصِهَا الفَنِّيَّةِ ، و لَمْ يَدخُلْ فِيها الخَيَالُ الشِّعريُّ الّذي يَتجاوَزُ المَعقُولَ ، كما دَخلَ فِي مَلاحِمِ الأُمَمِ ، و غَابَ عَنهَا الحَضُورُ الأُسطوريُّ خِلافَ تِلكَ الملاحِمِ ، و القَصيدَةُ تَملؤُها صُوَرُ البُطُولَةِ و التَّلاحُمِ القِتَاليِّ ، و أَغدَقَ الأَعشَى على الفُرسِ مِنْ مَظاهِرِ العَظَمَةِ ما أغدَقَ لِيَكُونَ مُنطَلَقاً إلى التَّبَاهي بِبُطُولاتِ قَومِهِ الحَقيقيَّةِ .

-نَسَجَتْ بُطُولَةُ عَنترَةَ و فُروسيَّتُهُ الأَصيلَةُ مَا يُقارِبُ المَلحَمَةَ الشِّعريَّةَ بِمُقَوِّمَاتِهَا شَبَهاً فِي الصِّيَّاغَةِ بِمَلاحِمِ الآخَرينَ مَعَ فَارقٍ مَضيءٍ هُوَ الصِّدقُ و الوَاقِعيَّةُ فِيما قَالَهُ الفارسُ البَطَلُ عَنترةُ.

و بَعدُ فقَدْ طَوَّفْتُ فِي آفاقِ تُراثِنَا الشِّعريِّ الجَليلِ لأُسدِي خِدمَةً لَهُ ، فَلَعلِّي وَجَدتُ على نَارهِ هُدَىً ، و إلاَّ فَحَسبي شَرَفُ المَسعَى ، و سُمُوُّ الغَايَةِ ، و حُسْنُ النِّيَّةِ ، و لكُلِّ امرئٍ مَا نَوى ، و على اللهِ قَصْدُ السَّبيلِ ، و هُوَ نِعمَ المَولى ، و نِعمَ النَّصيرُ ، و لَهُ الحَمدُ فِي الأُولى و الآخرَةِ .

****

مَسرَدُ الشُّعراء

– الأَسوَدُ بنُ يَعفُرَ بنِ عَبدِ قَيسِ بنِ نَهشَلٍ ، كانَ شَاعراً فَصِيحاً مُتَقَدِّماً مِنْ شُعراءِ الجَاهليَّةِ لَيسَ بالمُكثِرِ.

شُعراءُ النَّصرانيَّةِ قَبلَ الإسلامِ جَمَعَهُ و نَسَّقَهُ . لويس شيخو دارُ

المَشرِقِ ، بيروت ، ط 4 ، 1991، ص475

– الأَفوَهُ الأَوديُّ : هُوَ أبو رَبيعَةُ صَلاءَةُ بنُ عَمرِو بنُ مُذْحِجٍ ، و أَودُحَيٌّ مِنْ مُذْحِجَ ، مِنْ كِبَارِ الشُّعراءِ القُدَامَى فِي العَهدِ الجَاهليِّ ، و كانَ سَيِّدَ قَومِهِ ، يَقُودُهُمْ فِي الحُروبِ ، و لُقِّبَ بالأَفوَهِ لِغِلَظٍ فِي شَفَتَيهِ ، و بُروزِ أنيابِهِ . ((شَرحُ حَماسَةِ أبي تمَّام ، مج1 ، ص111))

– إياسُ بنُ الأَرَتِّ : اسمُهُ خَالدٌ طَائيٌّ مِنْ بَنِي شَمجَى و نُعِتَ بِالكَريمِ الشَّاعرِ . شَرحُ دِيوانِ الحَماسَةِ ، مج1 ، ص172.

– بَشَامَةُ بن عَمرو: هو بشَامَةُ بن الغَديرِ ، و الغدير هو عمرو بن هلال بن سهم بن مرة بن عوف ابن سعد بن ذبيان بن بغيض بن ريث بن غطفان . شاعر محسن مقدم ، و هو خال زهير بن أبي سلمى . ولد مقعداً و لا ولد له ، و كان مكثراً من المال ، فلما حضره الموت جعل يقسم ماله في أهل بيته و بني إخوته ، فأتاه زهير فقال : يا خالاه: لو قسمت لي من مالك ! فقال : و الله يا ابن أختي لقد قسمت لك أفضل ذلك و أجزله ، فقال : و ما هو ؟ قال: شعري و رثتنيه . و كان أحزم الناس رأياً ، كانت غطفان تستشيره إذا أرادت الغزو . (المُفَضَّلِيَّات ، ص55)

– بِشْرُ بن أبي خازم : هو مِنْ بَنِي أسد ، جاهليٌّ قديم ، قال أبو عمرو بن العلاء : فحلان مِنَ الشُّعَراء كانا يُقويان النَّابغة و بِشر بن أبي خازم. الشِّعر و الشُّعراء ص168.

– و عدَّه ابن سلاَّم مِنْ شعراء الطبقة الثانية . السِّفر الأوَّل ص 97.

– تَأَبَّطَ شَرًّا : اسمه ثابت و كنيته أبو زهير و هو مِنْ بني فَهْم ، و إنَّما لُقِّبَ بهذا اللَّقبِ لأَنَّهُ تَأَبَّطَ سكيناً و خرج فسُئلتْ عنه أمُّهُ فقالت : لا أدري إنَّه تأبَّطَ شَرًّا و خرج.

ديوان الحماسة ج1 حاشية ص16

– و كان أحد لصوص العرب المغيرين ، قرينا للشنفرى الأزدي و عمرو بن براق ، و كانوا ثلاثتهم من العدائين ، الذين يعدون على أرجلهم فلا يدركهم الطلب ، بل كانوا أعدى العدائين في العرب ، لم تلحقهم الخيل.

المُفَضَّلِيَّاتُ ، تحقيق وَ شَرح : أحمد مُحَمَّد شَاكِر وَ عَبْدُالسَّلاَمِ مُحَمَّد هَارُون ، ص27

- تميم بن أُبيّ بنُ مُقْبِل : مِنْ بَنِي العَجلان ، كان جاهليَّاً و إسلاميَّاً .

الشِّعر و الشُّعراء ص203 ، الإصابة ط مطبعة السَّعادة – مصر ج 1 ص195 ، و طبعة إحياء التراث العربي ص862 .

- و جعله ابن سلاَّم في الطبقة الخامسة و قال عنه ((شاعر مُجيد مُغلَّب)) .

السَّفر الأوَّل ص151

- جابرُ بنُ حُنَيٍّ التَّغْلِبيُّ : هو جابر بن حُني بن حارثة بن عمرو بن بكر بن حبيب بن عمرو ابن غنم بن تغلب بن وائل شاعر جاهلي قديم ، كان صديقاً لامرئ القيس.

المُفَضَّلِيَّات ، ص208

- الحادِرَةُ : الحادرة لقب ، و أصل ((الحادر)) الضخم ، و نبز بذلك لقول صاحبه زبان بن سيار فيه يشبهه بضفدع غليظة :

كأنك حادرةُ المَنْكِبَيْـــ ـــنِ رَصْعَاءُ تُنْقِضُ في حائِرِ

و يقال له ((الحويدرة)) أيضاً على التصغير. و اسمه : قطبة بن محصن بن جرول بن حبيب بن عبدالعزى بن خزيمة بن رزام بن مازن بن ثعلبة بن سعد بن ذبيان بن بغيض بن ريث بن غطفان. و في اللسان 5 : 366 أن اسمه ((قطبة بن أوس الغطفاني)). و هو شاعر جاهلي مُقل.

المُفَضَّلِيَّاتُ ، ص 43

- الحُصَيْنُ بنُ الحُمَامِ المُرِّيُّ : هو الحصين بن الحمام بن ربيعة بن مساب بن حرام بن وائلة بن سهم بن مرة بن عوف بن سعد بن ذبيان بن بغيض بن ريث بن غطفان. كان سيداً شاعراً وفياً ، يعد من أوفياء العرب ، وفى لجيرانه الحرقة ، كما مضت الإشارة إليه في القصيدة 10. و كان سيد قومه ، و ذا رأيهم و قائدهم و رائدهم ، و كان يقال له ((مانع الضيم)). ذكره ابن عبدالبر و ابن الأثير و ابن حجر في الصحابة. و عده أبو عبيدة في الثلاثة الذين اتفقوا على أنهم أشعر المقلين في الجاهلية. انظر الشعر و الشعراء 630.

المُفَضَّلِيَّات ، ص64

- خَدَّاش بن زهير بن ربيعة بن عمرو : كان أبو عمرو بن العلاء يقول : خداش بن زهير أشعرُ في عَظْم الشِّعر يعني نَفَس الشِّعر من لبيد. الشِّعر و الشُّعراء ص 435 ، المؤتلف و المختلف ص107

- الخَصَفيُّ ، واسمُه عامِرٌ المَحَارِبيُّ : و هو من بني محارب بن خصفة بن قيس بن عيلان بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان

المُفَضَّلِيَّاتُ ، ص318

- دُرَيْدُ بن الصِّمَّةِ : هو دريد بن الصمة ، و اسم الصمة معاوية ، بن الحرث بن معاوية بن بكر بن علقة ، و يقال علقمة ، بن جداعة بن غزية بن جثم بن معاوية بن بكر بن هوازن ابن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس بن عيلان. و أمه ريحانة بنت معدي كرب ، و هو أحد الشجعان المشهورين و ذوي الرأي في الجاهلية.

- و كان سيد بني جثم و فارسهم و قائدهم و كان مظفراً ميمون النقيبة ، و غزا نحو مائة غزوة ما أخفق في واحدة منها. و أدرك الإسلام فلم يسلم. و خرج مع قومه في يوم حنين مظاهراً للمشركين ، و لا فضل فيه للحرب ، و إنما أخرجوه تيمناً به و ليقتبسوا من رأيه ، فمنعهم مالك بن عوف من قبول مشورته ، و خالفه لئلا يكون له ذكر ، فقتل دريد يومئذ على شركه. و دريد أحد المعمرين ، يقال إنه عاش نحو مائتي سنة.

المُفَضَّلِيَّات ، ص105

- رُبَيعُ بنُ ضَبُعٍ بنِ وَهْبِ بن بَغيضٍ الفَزَاريُّ الذُّبيَانيُّ : شاعرٌ جاهليٌّ مُعَمِّرٌ ، مِنَ الفُرْسَانِ ، قَاتَلَ في حَربِ دَاحِسٍ. أَدْرَكَ الإِسْلامَ و قَدْ كَبرَ و خَرِفَ ، فَقِيلَ : أسلِم ، و قِيلَ مَنَعَهُ قَومُهُ أن يُسلِمَ.

الأعلامُ – خَيرُ الدِّين الزركليُّ ج3 – ط2 – د.ت – ص39

- سَلامَةُ بنُ جَنْدَل السَّعْدِيُّ : سلامة بن جندل بن عمرو بن عبيد بن الحرث ، و هو مقاعس ، بن عمرو بن كعب ابن سعد بن زيد مناة بن تميم. شاعر جاهلي قديم ، و كان من فرسان العرب المعدودين ، و أشدائهم المذكورين ، و كان أحد من يصف الخيل فيحسن ، و أجود شعره هذه القصيدة.

المُفَضَّلِيَّاتُ ، ص119

- السَّمَوءَلُ بْنُ غَرِيْضِ بْنِ عَادْيَا اليَهُودِيُّ ، شَاعِرٌ جَاهِلِيٌّ مَشْعُورٌ بِحِصْنِهِ المَعْرُوفِ بالأَبْلَقِ الفَرْدِ ، ضُرِبَ بِهِ المَثَلُ في الحِفَاظِ عَلَى الأَمَانَةِ ، وَ كَانَتْ أُمُّهُ غَسَّانِيَّةً ، وَ كَانَ بَيْتُهُ مِنْ بُيُوتَاتِ الشِّعْرِ.

شَرْحُ دِيوانِ الحَمَاسَةِ ، مج1 ، ص261

- شُبهة مردودة :

من الأخطاء التي وقع فيها مؤرخو الأدب المعاصر نسبة القصيدة إلى السَّمَوءَلِ و هي لشاعر عربي من صدر الدولة العباسية من شعراء اليمنيّة. و اسمه عبدالملك بن عبدالرحيم الحارثي.

و مَنْ رَوَاهَا لِغَيْرِ السَّمَوءَلِ يُنْكِرُونَ أَنْ تَكُونَ لَهُ لِقَوْلِهِ : ((و مَا مَاتَ مِنَّا سَيِّدٌ حَتْفَ أَنْفِهِ)) لأَنَّهَا كَلِمَةٌ لَمْ يُسْبَقْ إِلَيهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ قَالَ اللَّجَاجُ في صَاحِبِ القَصِيدَةِ : ((اسْمُهُ عَبْدُالمَلِكِ ابنُ عبدِالرَّحيمِ الحَارِثيُّ ، مِنْ بَني الحَارِثِ بنِ كَعبٍ)) . ((شَرْحُ حَمَاسَةِ أبي تَمَّام ، مج 1 ، ص261/260))

- الشَّمَّاخ بن ضِرار بن سِنان بن أُمامةَ : أَحد بني سَعد بن ذبيان .

(طبقات فحول الشُّعراء) السَّفر الأوَّل ص123

شاعرٌ أدرك الجاهليَّة و الإسلام .

ديوان الحماسة ، حاشية الصفحة 452 ج1

و يُقال : إن اسمه معقلُ بن ضِرار و هو مِنْ أَوْصَفِ الشُّعَرَاءِ للقوس و الخمر.

(الشِّعر و الشُّعراء ص199)

- الشَّنْفَرَى الأَزْدِيُّ : الشنفرى شاعر جاهلي من بني الحرث بن ربيعة بن الأواس بن الحجر بن الهنء بن الأزد بن الغَوث. و الشنفرى اسمه ، و قيل لقب له ، و معناه عظيم الشفة. و هو ابن أخت تأبط شراً. و كان أحد الثلاثة العدائين ، كما مضى في ترجمة تأبط شراً ، و ضرب المثل في العدو به ، فقيل : ((أعدى من الشنفرى))

المُفَضَّلِيَّات ، ص108

- عَامِرُ بنُ الطُّفَيلِ : شَاعِرُ قَيْسٍ وَ فَارِسُهَا في الجَاهِلِيَّةِ ، و ابنُ عَمِّ لَبيدٍ الشَّاعِرِ ، وَ كَانَ عَامِرٌ قَدْ أَتَى النَّبيِّ –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ– وَ اشْتَرَطَ لِإسْلامِهِ أَنْ يَجْعَلَ لَهُ الأَمْرَ مِنْ بَعْدِهِ ، فَدَعَا عَلَيْهِ النَّبيُّ ﷺ ، فَطُعِنَ في طَرِيقِهِ : أي أُصِيبَ بِالطَّاعُونِ. ((شرْحُ حَمَاسَةِ أبي تَمَّامِ ، مج 1 ، ص356))

- عبَّاس بن مرداس : أسلمَ قبل فتح مكّة ، و حضر مع النَّبي ﷺ يومَ الفَتْحِ في تسعمئةٍ و نَيِّف مِنْ سُلَيم بالقنا و الدُّروعِ على الخيلِ

الشِّعر و الشُّعراء ص505

- عبد الشَّارق بن عبد العُزَّى الجهني : و يظهر اسمه و اسم أبيه أنه جاهلي لأنَّ الشَّارق و العُزَّى صَنَمَان.

شرح حماسة أبي تمام. تحقيق و تعليق د.علي المفضَّل حمّودان ، حاشية ص483 ، مج1 .

- عَبْدُ يَغُوثَ بنُ وَقَّاصٍ الحَارِثِيُّ : هو عبد يغوث بن الحرث بن وقاص بن صلاءة بن المعقل ، و اسمه ربيعة ، بن كعب الأرت بن ربيعة بن كعب بن الحرث بن كعب بن عمرو بن علة ابن جلد بن مالك بن أدد بن زيد بن يشجب بن يعرب بن زيد بن كهلان بن سبأ ، و اسمه عامر ، ابن يشجب بن يعرب بن قحطان. شاعر جاهلي. فارس سيد لقومه بني الحرث بن

كعب ، و كان قائدهم في يوم الكلاب الثاني إلى بني تميم ، و في ذلك اليوم أُسر فقتل .
و هو من أهل بيت معرق في الشعر في الجاهلية و الإسلام ،
المُفَضَّلِيَّاتُ ص155

- عُروة بن الورد بن زيد بن عمرو : ينتهي نسبه إلى عبس بن بغيض ، شاعرٌ من شعراء الجاهليَّة و فارسٌ مِن فرسانها و صُعلوكٌ مِنْ صعاليكها المعدودين المقدَّمين الأجواد. و كان يُلقّبُ عروة الصَّعاليك لجمعه إياهم و قيامه بأمرهم إذا أخفقوا في غزواتهم.
شرح ديوان الحماسة حاشية ص16 ج1 . الشِّعر و الشُّعراء ص453
- عَمْرُو بنُ بَرَّاقَةِ الهَمَدَانِيُّ ، يَنْتَسِبُ إِلى أُمِّهِ بَرَّاقَةَ ، وَ قِيْلَ : ((إِنَّهُ ابْنُ بَرَّاق ، وَ هُوَ مُنَبِّهُ بنُ نَهْم، شاعِرٌ جَاهِلِيٌّ إِسلامِيٌّ مَشْهُورٌ بالشَّجَاعَةِ و الفَتْكِ. ((شَرْحُ دِيوانُ الحماسةِ ، مج 1 ، ص350))
- عمرو بن قميئة : و جدُّهُ ذريح بن سعد بن مالك أحد بني ضبيعة و كان عمرو بن قميئة شاعراً فحلاً مقدّماً مِن قُدماءِ الشُّعراءِ في الجاهليَّةِ و هو أقدمُ مِنَ امرئ القيس.
ديوان الحماسة ج2 حاشية ص10
عدَّهُ ابن سلاّم في الطّبقة الثّامنة . القسم الأوّل ص159
- عَمْرُو بْنُ مَعْدِيَكرِبَ : هو عمرو بن عبدالله بن عمرو بن عصم بن عمرو بن زبيد — و هو منبه– بن صعب بن سعد العشيرة بن مذحج بن أدد بن زيد بن يشجب بن عريب بن زيد ابن كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب ابن قحطان ، و يكنى أبا ثور . كان فارس اليمن و يقدم على زيد الخيل في الشدة و البأس . و قدم عمرو على رسول الله صلى الله عليه و سلم في وفد مذحج فأسلموا ، ثم ارتد عمرو عن الإسلام حتى كانت غزوة تبوك ، فلقي رسول الله في منصرفه منها فدعاه إلى الإسلام فأسلم و بايع لقومه على الإسلام . و شهد عمرو القادسية و هو ابن مائة و ست سنين فيما يزعمون و أبلى فيها بلاءً عظيماً. و اختُلف في وفاته ، فقيل في القادسية و قيل بعد
المُفَضَّلِيَّات ، ص121
- عَلقمةُ بن عَبْدَة : هُوَ مِنْ بني تميم جاهليٌّ و هو الذي يُقال له علقمة الفحل كان يُنازِعُ امرأ القيس الشِّعْرَ.
الشِّعر و الشُّعراء ص130 و 131
وَ عَدَّهُ صاحب طبقات الشُّعراء ثالث الفحول الأربعة بين شعراء الطبقة الرابعة ،
السِّفر الأوَّل ص137

- قُرَيطُ بنُ أُنَيفٍ : رَجُلٌ مِنْ بَلْعَنْبَر ((شَرْحُ حَمَاسَةِ أبي تَمَّامَ الأَعْلَمُ الشَّنْتَمِرْيُّ ، تحقيق د. عَليّ المُفَضَّل حَمُّودان ، مج1 ، ص357))
- قيس بن الخطيم : اسمه ثابت بن عدي بن عمرو بن سواد ، و يُكَنّى أبا زيد.
شاعرٌ مُجيد فَحلٌ ، من النَّاسِ مَنْ يفضلُهُ على حَسَّان شِعراً . و قال حسَّان / إنا إذا نافرتنا العربُ فَأردنا أَنْ نُخْرِجَ الحِبِراتِ مِنْ شِعْرِنا أتينا بقيس بن الخطيم.
معجم الشّعراء للمَرزبانّي ، تحقيق عبدالسّتار أحمد فرّاج ص196
- قَيسُ بنُ زُهَيرٍ : شَاعرٌ شَريفٌ حَازمٌ مِنْ أَهلِ الجاهِليَّةِ ، ذُو رَأيٍ في الحَرْبِ ، كانتْ عَبْسٌ تَصْدُرُ عَنْ رَأيِهِ .
شرح حَماسَةُ أبي تَمَّام ، مج1 ، ص341
- مالك بن نُوَيرة : هو مالك بن نويرة بن جمرة بن شداد بن عبيد بن ثعلبة بن يربوع بن حنظلة ابن مالك بن زيد مناة بن تميم ، و هو أخو متمم. و كان يقال لمالك ((فارس ذي الخمار)) و هو اسم فرسه. و كان مالك قد أسلم قبل وفاة الرسول صلى الله عليه و سلم ، و كان عريف ثعلبة بن يربوع ، فقبض رسول الله و إبل الصدقة برحرحان ، فجمع مالك جمعاً نحواً من ثلاثين فأغار عليها فاقتطع منها ثلاثمائة ، و اعترف بذلك في شعره ، فلما قام أبو بكر و بلغه قوله بعث إليه خالد بن الوليد فرأى منه ما استوجب قتله عنده فقتله. و كان مالك شاعراً شريفاً فارساً معدوداً في فرسان بني يربوع ، و كان من أردف الملوك.
الأصمَعِيَّاتُ ، ص192
- مُتمَّم بن نُويرة بن حجرة بن شداد بن عبيد بن ثعلبة بن يربوع : و هو صَحابيٌّ و له في أخيه مالك بن نوبره قصائد يرثيه بها مِنْ غُرر الشِّعر.
المفضّليات – القسم الأوّل ص137
((و قد عدَّهُ ابن الجُمَحيّ مُقَدَّمَاً)) طبقات فحول الشُّعراء ، قرأه و شرحه محمود محمّد شاكر السِّفر الأَوَّل ص204
كان متمم يُكنَّى أبا نهشل و هو شاعر مخضرم صَحابيّ.
ديوان الحماسة ج1 حاشية ص320
و عَدَّهُ ابن سلاَّم أوَّل شاعر في طبقات أصحاب المراثي.
القسم الأوَّل ص 203
- المُثقّب العَبْديّ :
و هو قديمٌ جاهليٌّ ، كان في زمن عمرو بن هند. و كان عمرو بن هند يستجيد هذه القصيدة له و يقول لو كان الشعر مثلها لوجب على الناس أن يتعلموه.

الشِّعر و الشُّعراء ص255
اسمه عائذ بن محصن بن وائلة بن عديّ ، لُقِّبَ ببيتٍ قالهُ و هُوَ :

ظهَرْن بِكلَّةٍ وَ سَدَلْنَ رَقْمَاً   و ثَقَّبْنَ الوصاوص للعُيونِ

المفضَّليات ، القسم الثاني ص555

- مُزَرِّدُ بنُ ضِرَارِ الذُّبْيَانِيُّ : ((مزرد)) لقب له لبيت قاله. و اسمه : يزيد بن ضرار بن حرملة ابن صيفي بن أصرم بن إياس بن عبد غنم بن جحجاش بن بجالة بن مازن بن ثعلبة بن سعد ابن ذبيان ابن بغيض بن ريث بن غطفان ، الذبياني الغطفاني . شاعر فارس مضهور ، أدرك الإسلام فأسلم، و له صحبة.

المُفضَّلِيَّات ص 75

- المَسَيَّبُ بنُ عَلَس : ((المسيب)) بفتح الياء المشددة. و ((علس)) بفتحتين. و المسيب : لقب لُقب به ببيت قاله. و اسمه : زهير بن علس بن مالك بن عمرو بن قمامة بن عمرو بن زيد ابن ثعلبة بن عدي بن ربيعة بن مالك بن جشم بن بلال بن جماعة ، بضم الجيم ، بن جلي بن أحمس بن ضبيعة بن ربيعة بن نزار. و هو خال أعشى قيس ، و كان الأعشى راويته ، و كان يطري شعره و يأخذ منه. و هو جاهلي لم يدرك الإسلام ، و لا عقب له.

المُفَضَّلِيَّات ، ص60

- مُهلهِلُ بن ربيعةَ : المهلهل لقب له ، و اسمه امرؤ القيس بن ربيعة بن الحارث بن زهير بن جشم ابن بكر بن حبيب بن عمرو بن غنم بن تغلب. قالوا : سمي مهلهلا لأنه أول من هلهل الشعر ، أي أرقَّه أو أرقَّ المراثي. و يقال إنه أول من قصد القصيد.

الأصمَعِيَّاتُ ، ص154

- يزِيدُ بنُ الخَذَّاقِ الشَّنِّيُّ : ((الخذاق)) بالخاء و الذال المعجميتين ، و يصحف في كثير من المصادر. و قد نص على صوابه ابن دريد في الاشتقاق 200 قال : ((خذاق فعال من قولهم خذق الطائر و خزق إذا رمى بذرقه)).

و هو يزيد بن الخذاق الشني العبدي ، من بني شن بن أفصى بن عبدالقيس بن أفصى بن دعمي ابن جديلة بن أسد بن ربيعة بن نزار ، و لم يرفعوا نسبه إلى شن. و هو شاعر جاهلي قديم.

المُفَضَّلِيَّات ص 295

ثَّبتُ المَصَادِرِ و المَراجِعِ

- القُرآنُ الكَريمُ .
- الاتِّجَاهُ النَّفسيُّ في نَقدِ الشِّعرِ العَربيِّ : د. عبدالقادر فيدوح ، منشوراتُ اتِّحاد الكُتَّابِ العَرَبِ، دمشق ، ط1 ، 1992
- أَثَرُ العَرَبِ في الحَضَارَةِ الأُوربيَّة ، دار المعارف ، القاهرة ، 1946
- أَزمَةُ المُواطَنةِ في شِعرِ الجَواهِريِّ : فَرحانُ اليحيى ، اتِّحاد الكُتَّابِ العَربِ ، دِمشق ، 2000/1421
- أَسَاطيرُ التَّوراةِ الكُبرَى ، وَ تُراثُ الشَّرقِ القَديمِ : مَحمود كارم عبدالعزيز ، دار الحَصَادِ للنَّشرِ و التَّوزيعِ ، دمشق ، ط1 ،1999
- الاستشراقُ الفرنسيُّ في المغربِ و المَشرِقِ : إعدادُ د. مُحمَّدالعَربيّ مَعريش ، إشرافُ أ. د. أبو القاسم سَعد الله ، دار الغَرب الإسلامي ، تونس ، ط1 -2009
- أسماءُ خَيلِ العَربِ و أنسَابُها ، وَ ذِكرُ فُرسَانِها : الغُندُجَانيُّ ، حقَّقَهُ و قَدَّمَ لَه . مُحمَّد عَليّ سُلطَانيّ ، مُؤَسَّسةُ الرِّسَالةِ ، بَيروت ، د.ت
- أشعارُ الشُّعراءِ السِّتَّةِ الجَاهليِّينَ : الأَعلَمُ الشَّنتمريّ ، تَحقيق لجنةِ إحياءِ التُّراثِ العربيّ ، دار الآفاقِ الجَديدةِ ن بيروت ، ط3 ، 1980/1401
- أَشعارُ الشُّعراءِ السِّتَّةِ الجَاهليِّينَ : الأَعلَمُ الشَّنتمريّ ، نسخة ثانية ، شرح و تعليق . د. محمد عبدالمنعم خَفاجي ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، د.ت
- أَصداءُ: دِراساتٌ أدبيَّةٌ و نَقديَّةٌ ، أ.د. عِناد غزوان ، اتِّحاد الكُتَّاب العَرب ، دِمشق ، 2000
- الأصمَعيَّاتُ: اختيار الأصمعيِّ ، أبي سعيد عبدالملك بن قريب بن عبدالملك ، تحقيق و شرح . أحمد مُحمَّد شاكر و عبدالسَّلام هَارون ، دار المعارف ، مصر ، ط7 ، 1993
- الأَعمالُ القَوميَّةُ لِسَاطعِ الحُصَريّ / في اللُّغَةِ و الأَدبِ / : مركز دراساتِ الوَحدةِ العَربيَّةِ ، بيروت ، ط2 ، 1985.
- أَعلامُ النُّبَلاءِ : شَمسُ الدِّينِ مُحمَّد بنِ أَحمدَ بنِ عُثمانَ الذَّهبيَّ ، مُؤسَّسة الرِّسَالةِ ، دمشق ، ط11 ،1422

- أعلامُ النِّسَاءِ في عالَمي العربِ و الإسلامِ : عمر رضا كحَّالة ، المطبعة الهَاشميَّة ، دمشق 1940/1359،
- الأغاني : تحقيق مُحمّد عليّ البجاوي ، إشراف . محمَّد أبو الفَضل إبراهيم ، الهيئة المِصريَّةُ العَامَّةِ للتَّأليفِ و النَّشرِ ، القَاهرة ، 1970/1389
- الأغاني : (نسخة ثانية) تحقيق عبدالكريم إبراهيم العَزباويّ ، إشراف . محمَّد أبو الفَضل إبراهيم ، الهيئة المِصريَّةُ العَامَّةِ للكتاب ، 1972/1391 ، ج19
- الأغاني : (نسخة ثالثة) ، إشراف و تحقيق عبدالسَّتَّار فرَّاج ، دار الكُتب المِصريَّة القاهرة – د.ت ، مج21
- الأغاني : (نسخة رابعة) دارُ الكُتبِ المِصريَّة ، القَاهرة 1929/1247 ، ج3 و ج 8
- الأغاني: (نسخة خامسة) ، أحمد فرَّاج ، دار الثقافة ، بيروت ، د.ت ، مج14
- أَنسَابُ الأَشرافِ ، الإمامُ أحمدُبنُ يَحيَى بن جابر البُلاذريّ ، تحقيق د. مُحمَّد حميد الله ، معهد المخطوطات لجامعة الدُّولِ العَربيَّة ، و دار المعارف بالقاهرة ، 1959
- الإنسان و الزَّمان في الشِّعر الجاهليّ : حسني عبدالجليل – مكتبة الآداب و مطبعتها ، القاهرة 1989.
- أيَّامُ العربِ في الجاهليَّة ، مُحمَّد جاد المَولى ، عليّ محمَّد البجاوي ، مُحمَّد إبراهيم ، دار الجيل ، بيروت ، ط3 ، 1966
- البدايَةُ و النِّهايَةُ ، ابن كثيرٍ الدِّمَشقِيُّ ، مكتبة المعارف ، بيروت ، ط2 ، 1974/1394
- البداية و النِّهايةُ ، نُسخَةٌ ثَانيةٌ ، تحقيق . أحمد أبو ملحم و غَيرُهُ ، دار الكُتُبِ العِلمِيَّةِ ، بيروت ، ط3 ،1987
- البدايةُ و النهايةُ ، نسخةٌ ثالثة ، تحقيق الدكتور عبدالله بن عبدالمحسن التركي ، دار عالم الكتب ، الرياض ، ط2 ،2003/1424 /ج9
- الحَماسَةُ: أبو عُبادَة البُحتريُّ ، ضَبطَها و علَّقَ حَواشِيها كمال مصطفى ، المطبعة الرَّحمانيَّةِ ، مِصرُ ، ط1، 1929
- بُطُولاتٌ إسلاميَّةٌ و عَربيَّةٌ ، أحمد الشُّرباصيُّ ، الدَّارُ القَوميَّةُ للطِّبَاعَةِ و النَّشرِ ، القَاهرة – د.ت

- بُلوغُ الأَربِ في مَعرفَةِ أَحوالِ العَربِ ، مَحمود شُكري الآلوسيُّ ، دار الشَّرقِ العَربيّ – بيروت ط1 /1314

- تاريخ الأدبِ العربيّ ، العَصرِ الجَاهليِّ – الدكتور شوقي ضيف ، دار المعارف ، القاهرة ، ط3، د.ت .

- التَّاريخُ الإسلاميُّ ، مَحمود مُحمَّد شَاكر ، المكتبُ الإسلاميُّ ، بيروت ، ط7 ،1991/1411

- تاريخُ الشِّعرِ العَربيِّ حتَّى آخرِ القَرنِ الثَّالثِ الهِجريِّ ، نجيب مُحمَّد البهيتي ، دار الفكر ، القاهرة ، ط4 ، 1970

- تاريخُ العربِ في عَصرِ الجَاهليَّةِ ، الدُّكتور سيِّد عبدالعَزيز سَالم ، دار النَّهضَةِ العَربيَّة ، بيروت، ط1 ، 1970

- تاريخ الأمَمِ و الملوكِ ، ابن جرير الطبري ، راجعه نخبة من العلماء الأجلاّء ، مطبعة الاستقامة ، القاهرة 1939/1357

- تاريخُ النَّقدِ الأَدبيِّ عِندَ العرب ، الدكتور عبدالعزيز عَتيق ، دارُ النَّهضَةِ العَربيَّة ، بيروت ، ط2 ، 1367 ، 1984

- جَامعُ التّرمِذيّ ، مكتبة ابن حجر ، دمشق ، ط1 ، 2004/1424

- جَدليَّةُ القِيَمِ في الشِّعرِ الجَاهليِّ ، الدُّكتور بُو جمعة بُو بعيو ، اتِّحاد الكُتَّاب العَرب ، دمشق ، 2001

- جَمهَرَةُ أَشعار العَرب ، تحقيق و دراسة . محمَّد نايف الدُّلَيميّ ، دار النِّضَال للطِّبَاعةِ و النَّشرِ و التَّوزيعِ ، بيروت ، ط1 ، 1991

- الجِهادُ في الإسلامِ ، كَيفَ نَفهَمُهُ و نُمارِسُهُ ، د. مُحمَّد سعيد رمضان البُوطي ، دار الفكر ، دمشق ، ط2 ، 1994/1414

- جَوانِبُ منَ الأَدبِ و النَّقدِ في الغَربِ ، د. حُسَام الخطيب ، منشورات جامعة دمشق ، 1402/1403-1982/1983

- حَضَاراتُ العالمِ في العُصُورِ القَديمَةِ و الوُسطَى . شَفيق جُحا ، منير البعلبكي ، بهيج عُثمان، دار العلم للملايين ، بيروت ، ط1 ، 1968

- دِراساتٌ في الأدبِ الجَاهليِّ ، د. عادل جاسم البياتيّ ، دارُ النَّشرِ المَغربيَّةِ ، الدَّارُ البَيضَاءِ ، 1968
- دِراساتٌ في الأدبِ الجَاهليِّ ، د. عادل جاسم البياتيّ ، دارُ النَّشرِ المَغربيَّةِ ، الدَّارُ البَيضَاءِ ، 1986 ، ج2
- دراساتٌ في أدبِ و نُصُوصِ الشِّعرِ الجَاهليِّ ، د. مُحمَّد عبدالقادر أحمد ، مكتبة النَّهضَةِ المِصريَّة ، القاهرة ، ط1 ، 1983/1403دَورُ الأدبِ في الوَعيِ القَوميِّ ، بُحوثٌ و مُناقَشَاتٌ ، مركز دِراسات الوَحدة العربيَّة ، بيروت ، ط4 ، 1986
- ديوانُ المعاني ، أبو هلال العَسكري عَنْ الإمامَينِ الشَّيخَينِ . مُحمَّد عبدُه ، و مُحمَّد محمود الشَّنقيطيّ ، مكتبة المَقدِسيّ ، القَاهرة ، 1352
- ديوان المعاني الكبير ، ابن قُتيبةَ ، حَيدر آباد ، 1949
- الرِّثَاءُ في الجَاهليَّةِ و الإسلامِ ، د. حُسَين جُمعَة ، دار مَعدٍ للطِّبَاعَةِ و النَّشرِ ، دمشق ، 1991
- رجالٌ حولَ الرَّسُولِ ، خالد مُحمَّد خالدِ ، دار الفِكر ، دمشق ، ط2 ، 1995/1416
- رسَائلُ الجاحظ ، تحقيق . عبدالسَّلام هارون ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، د. ت
- رسالةُ الحَنين إلى الأوطانِ : مِنْ رِسَائلِ الجاحظِ ، تحقيق عبدالسَّلام مُحمَّد هارون، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، د.ت
- رِيَاضُ الأدب في مَرائي شَواعرِ العَرب ، لويس شيخو ، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ، 1897
- سَلامَةُ ينُ جَندلٍ ، دِراسَةٌ لِشَخصيَّتِهِ و فَنِّهِ ، الدكتور فخر الدِّينِ قَبَاوَة ، دار الفِكرِ ، دمشق، ط2 ، 1994/1414
- سُنَنُ أبي داود ، مكتبة ابن حجَر ، دمشق ، ط1 2004/1424
- سُنَن ابن ماجه ، مكتبة ابن حجر ، دمشق ط1 ، 2004/1424
- سِيَرُ أعلامِ النُّبلاءِ ، شَمسُ الدين بنُ أحمَدَ بنِ عُثمانَ الذَّهبيَّ ، مُؤسَّسَةُ الرِّسَالةِ ، دمشق ، ط11 ، 2001/1422

- السِّيرةُ النَّبويَّةُ ، تحقيق و ضبط . مصطفى السَّقا ، و إبراهيمِ الأنباريّ ، و عبدالحفيظ شَلبيّ ، مطبعة البَابيِّ الحَلبيِّ ، القاهرة ، 1955/1375

- شرحُ حَياةِ الصَّحابَةِ ﷺ العلاَّمة الشَّيخ محمَّد يُوسف الكاندهلويّ ، دار ابن كثير، دمشق و بيروت ، ط3 ، 2008/1429
- شَرحُ حَماسَةِ أبي تَمَّامٍ ، تحقيق و تعليق د. عليّ المُفضَّل حُمُّودان ، مطبوعات مركز جمعة الماجد للثّقافة و التُّراث بِدُبيّ ، ط1، 1992/1413
- شَرحُ حَماسَةِ أبي تَمَّامٍ ، نسخة ثانية ، الأعلمُ الشَّنتَمريِّ ، د. عليّ المُفضَّل حمُّودان ، دارُ الفِكرِ المُعاصِرِ ، بيروت ، و دار الفكر بدمشق ، ط1 ،1992/1413
- شَرحُ حَماسَةِ أبي تَمَّامٍ ، نسخة ثالثة ، أحمد أمين و عبدالسَّلام هارون ، ط1 ، 1959/1371
- شَرحُ ديوان حسَّانُ بنِ ثَابت الأنصَاريّ ، عبدالرَّحمن البَرقُوقيُّ ، دار الأندلس ، بيرون ، 1966/1386
- شَرحُ ديوان زُهير ، صنعة الإمامِ أبي العبَّاسِ احمد بنِ يَحيى بنِ زَيدٍ الشَّيبَانيِّ ثَعلب ، دار الكُتُبِ المِصريَّة ، 1944/1336
- شَرحُ شِعرِ زُهير بن أبي سَلمى ، صَنعَةُ أبي العبَّاس ثَعلب ، تحقيق الدَّكتور فخر الدِّين قَبَاوةَ ، منشُوراتُ دارُ الآفاقِ الجَديدةِ ، بيروت ، ط1 ، 1982/1402
- شرحُ ديوان عَنترةَ بنِ شَدَّاد ، تحقيق و شرحُ عبدالمنعم عبدالرَّؤوف شَلبي ، المكتبةُ التِّجاريَّةُ الكُبرى ، القاهرة ، د.ت
- شرحُ ديوان عَنترةَ بنِ شَدَّاد ، نسخة ثانية ، الخطيبُ التَّبريزيُّ ، دار الكتاب العَربيِّ ، بيروت، ط2 ، 1994/1415
- شَرحُ ديوانِ لَبيد ، حقَّقهُ و قدَّمَ لَهُ الدُّكتور إحسان عبَّاس ، سِلسلةُ التُّراث العربيِّ ، الكويت، ط1 ، 1962
- شَرحُ ديوان كعب بن زُهير ، صنعةُ الإمام الحسَنِ بن عبدالله السُّكريَّ ، دار الكُتبِ المِصريَّة، القاهرة ، 1950/1369

- شَرحُ القَصَائدِ العَشرِ ، صنعَةُ الخَطيب التَّبريزي ، تحقيقُ الدُّكتور فخر الدِّين قَبَاوة ، دار الأَصمَعيِّ ، حلب ، ط2، 1973/1393
- شَرحُ القَصَائدِ العَشرِ ، نسخة ثانية ، الشَّيخ أحمد الشَّنقيطيُّ ، حقَّقَهُ و أَتَمَّ شَرحَهُ . مُحمَّدٌ الفَاضليُّ ، المكتبةُ العَصريَّةُ ، صَيدا ، 1998/1418
- شَرحُ المُفضَّليَّاتِ ، التَّبريزيُّ ، تحقيقُ . عليّ مُحمَّد البجاويّ ، دار نَهضَةِ مِصرَ للطِّباعة و النَّشرِ .
- شرحُ المُعلَّقَاتِ السَّبعِ للزَّوزني ، تحقيق و تعليق ، يُوسِف عليّ بديوي ، دار ابن كثير ، دمشق ،ط1 ، 1989/1410
- الشُّعراءُ الفُرسَانُ ، بُطرسُ البُستَانيُّ ، دار المكشوفِ ، بيروت ، 1944
- الشِّعرُ الجَاهليُّ ، خصَائصُه و فُنُونُهُ ، د. يحيى الجبوريّ ، منشوراتُ جامعة ، بغداد ،1970
- الشِّعرُ الجَاهليُّ ، قراءة سيكولوجيَّة ، د. أحمد محمود خليل ، مطبعةُ اليمامَةِ ، حمص ، ط1،2004
- شِعرُ الحَربِ في أدبِ العَربِ في العَصرينِ الأُمويِّ و العبَّاسيِّ إلى عَهدِ سيفِ الدَّولَةِ ، د. زكي المَحاسِنيّ ، دار الفكرِ العَربيِّ ، القاهرة ، د. ت
- شِعرُ الحربِ في العَصرِ الجَاهليِّ ، د عليّ الجُنديُّ ، مطبعةُ الرِّسَالةِ ، القاهرة ،د.ت
- الشِّعرُ و الشُّعراءُ ، ابن قُتيبةَ ، دار إحياءِ العُلومِ ، بيروت ، ط1987/1407/3
- الشِّعرُ و اللُّغَةُ ، د. لُطفي عبدالبَديعِ ، مكتبةُ النَّهضَةِ المِصريَّةِ ، القاهرة ، ط1 ،1969
- شُعراءُ إسلاميُّونَ ، د. نُوري حُمُودي القَيسيُّ ، مكتبةُ النَّهضَةِ العربيَّةِ ، بيروت ، ط5، 1984/1405
- شُعراءُ مُذحِج ، أخبَارُهُمْ في الجَاهليَّةِ و الإسلامِ ، صَنعَةُ . مُقبلِ التَّامِّ الأَحمَديِّ، وزارة الثَّقافةِ و السِّيَاحَةِ ، صنعاء ، 2004/1425
- شِعرُ خِدَاش بن زُهيرٍ العَامريّ ، صَنعَةُ الدُّكتور يَحيى الجبُوريّ ، مطبوعاتُ مَجمعِ اللُّغةِ العربيَّةِ بدِمشقَ ، 1986/1406
- شِعرُ عبداللهِ بنِ الزِّبعرى ، الدُّكتور يحيى الجبوري ، مؤسسة الرِّسَالةِ ، بيروت ، ط1 ، 1978/1398

- شِعرُ عمرو بن مَعدي كرب ، جمعه و حقَّقَهُ . مُطاع طَرابيشي ، مجمع اللغة العربيَّة ، دمشق، ط2 ، 1985/1405.
- شِعرُ الطَّبيعة في الأدب العربيِّ ، د. سيِّد نوفل ، دار المعارف ، القاهرة ، د.ت
- شِعرُ الفُتوح الإسلاميَّة ، النعمانُ عبدالُمتعال القاضي ، الدَّارُ القَوميَّةُ للطِّباعةِ و النَّشرِ ، القاهرة ، 1965/1385
- الصِّحاحُ ، تاجُ اللُّغة و صِحاحُ العربيَّة، أبو النَّصر إسماعيل الجَوهريّ ، دار الحديث ، القاهرة ، ط1 ، 2009/1430
- صَحيحُ البُخاريّ ، ضَبطهُ و خرَّجَ أحاديثَهُ د. مُصطفى البُغا ، دار العلوم الإنسانيَّةِ –دمشق ، ط2 ، 1993/1413
- صَحيحُ مسلم ، دار الجيل ، بيروت ، د.ت
- صَفوةُ التَّفاسير ، مُحمَّد علي الصَّابونيّ ، دار البشائر ، دمشق ،ط1 ، 1993/1414
- صفوةُ الصَّفوةِ ، الإمام جمال الدِّين أبو الفَرج عبدالرحمن بن الجوزيِّ ، دار الجيل ، بيروت ، ط1، 1992/1412
- الطَّبقاتُ الكُبرى ، ابن سَعدٍ ج3 ، تقديم الدكتور .إحسان عبَّاس ، دار صادر ، بيروت 1992/1418
- الطَّرائفُ الأدبيَّةُ ، عبدالعزيز المَيمَني ، دار الكُتب العِلميَّةِ ، بيروت ، د.ت
- عائشة و السِّياسَة ، سعيد الأفغانيّ ، دار الفكر ، دمشق ، ط2 ، 1971/1391
- العرب في العُصُور القديمة ، د. لطفي عبدالوهاب يحيى ، دار النهضة العربيَّة ، بيروت 1978
- العُروبة ، دراسة في وحدة الشَّخصيَّة القَوميَّة للأُمَّة العَربيَّة ، إسماعيل مُلحم، مَنشُوراتُ اتِّحاد الكُتَّاب العرب ، دمشق ، 1987
- العُمدةُ ، ابنُ رَشيق القَيراونيُّ ، تحقيق د. عبدالحميد الهِنداوي ، المكتبة العصريَّةُ صَيدا ، ط1 ، 2001/1422
- عُيُونُ الأثَر في فُنونِ المغازي و الشَّمائل و السِّيَرِ ، مُحمَّد بنُ مَحمَّد اليَعمُريُّ ، تحقيقُ د. مُحمَّد الخَطراويُّ و مُحيي الدِّينِ مِستو ، المدينة المُنوَّرة ، ط1 ،ج1 ، 1992/1413

- الفُتوَّةُ عندَ العربِ ، د. عُمر دُسُوقي ، دار نهضَة مِصر للطَّبعِ و النَّشرِ – القاهرة ، ط4 ، 1966

- فَجرُ الإسلامِ ، أحمد أمين ، دار الكتاب العربيّ ، بيروت ، ط11/1979

- فِقهُ السِّيرة النَّبويَّةِ ، د. مُحمّد سعيد رمضان البُوطيّ ، دار الفِكر ، دمشق ، ط27 ، 2007/1428

- فِقهُ اللُّغَةِ و سِرُّ العربيَّةِ ، أبو مَنصُور الثَّعالبيّ ، دار الكِتاب العربيِّ ، دمشق ، د.ت

- في النّقدِ الجَماليِّ ، رُؤيَةٌ في الشِّعرِ الجاهليِّ ، د. أحمد محمود خَليل ، دار الفِكرِ ، دمشق ، 1996/1417

- قِصَّةَ الحَضَارة ، ول ديورانت ، ترجمة د. زكي نجيب محمود – القاهرة ، د. ت ، مج 4 ، ج3 ، ص451

- قِصَّة الحضَارة ، نسخة ثانية ، ترجمة محمد بدران ، القاهرة ، 1958/1957

- قَصيدةُ المَدحِ حتَّى نهاية العَصرِ الأمويِّ ، د. وَهب رُوميَّة ، وزارة الثَّقافَةِ ، دمشق ، ط1، 1981

- قِطَاعُ البُطولَةِ و النَّرجسيَّةِ في الذَّاتِ العَربيَّةِ ، عليّ زينور ، دار الطَّليعة للطِّباعة و النَّشر ، بيروت ، ط1 ،1982

- قيمة الزمن عند العلماء ، الشيخ عبدالفتاح أبو غُدَّة ، دار البشائر الإسلامية ، بيروت ، طبعة 2009/ 1430/13

- الكَاملُ في اللُّغَةِ و الأدَبِ ، أبو العبَّاس المُبرِّدُ ، تحقيق و تعليق مُحمَّد أحمد الدَّالي ، مُؤسسة الرِّسَالة ، بيروت ، ط1 ، 1986/1406

- كتاب الأنوار و محاسن الأشعار ، محمَّد بن المطهّر العَدوي ، تحقيق د. السَّيِّد محمد يوسف ، مَطبعَة حُكومَة الكُويت ، 1977/1397

- كتاب الحيوان ، الجاحظ ، تحقيق و شرح عبدالسلام محمَّد هارون ، دار الجيل ، بَيروت، 1996/1416

- لِسانُ العَربِ ، ابن منظور ، دار صادر ، بيروت ، د.ت

- اللاَّمِيَّتانِ ، لاميَّةُ العَربِ و لاميَّةُ العَجم ، من شُروحِ الزَّمَخشريِّ و الصَّفَديِّ ، أعدَّهُما و علَّقَ عَليهما . عبدالُمعين الُلّوحي ، وزارة الثَّقافة و الإرشاد القَوميّ ، دمشق ، د.ت
- لاميَّةُ العرب لِشَاعرِ الأَزدِ (الشَّنفرى) شَرَحها و حقَّقها . مُحمَّد بَديع شَريف ، مكتبة الحياة ، بيروت 1964
- كنـــزُ العُمَّال ، دارُ الرِّسَالةِ ، دمشق
- المَجازاتُ النَّبويَّةُ الشَّريفَةُ ، الشَّريفُ الرَّضيُّ ، حقَّقهُ و علَّقَ علَيهِ ، د. مُحمَّد رضوان الدَّايَة ، و مروان عطيَّة ، منشورات الُمستشاريَّة الثَّقافيَّةِ للجُمهُوريَّةِ الإسلاميَّةِ الإيرانيَّةِ ، دمشق ، 1987/1408
- المرأةُ في الشِّعرِ الجاهليِّ ، د. أحمد محمَّد الحُوفيُّ ، دار الفكر العربيّ ، القاهرة ، د.ت
- مُسند الإمام احمد ، دار إحياء التُّراثِ العربيِّ ، بيروت ، ط1 ، 1992/1412
- مُروجُ الذَّهب و معادنُ الجَوهر، أبو الحسن عليّ بنُ الحُسين المَسعوديُّ ، تحقيق الشَّيخ قاسم الرِّفاعي ، دار القلم ، بيروت ، ط1 ، 1989/1408
- مُعجَمُ الأساطير اليُونانيَّة و الرُّومانيَّةِ ، إعداد . سُهيل عُثمان و عبدالرَّزاق الأصفر ، مطبوعات وزارة الثَّقافة و الإرشاد القَوميَّ ، دمشق ، 1982
- معجم الشُّعراء و معه كتاب المؤتلف و المختلف ، للإمام أبي القاسم الحسن بن بِشر الآمديِّ ، تهذيبُ الُمستشرق ، الأستاذ سَالم الكرنكوي، نشر مكتبة المقدسيّ ، القاهرة ، 1354
- مُعلَّقة عمرو بن كلثوم ، شرح أبي الحسن بن كَيسان ، دراسة و تحقيق ، محمد إبراهيم البنَّا ، دار الاعتِصام ، القاهرة ، ط1 ، 1980/1400
- الُمفضَّليَّاتُ ، الُمفضَّلُ الضَّبيُّ / تحقيق و شرح أحمد محمّد شاكر و عبدالسَّلام هارون ، دار المعارف ، القاهرة ، 1942/1361
- مَقالاتٌ في الشِّعر الجاهليِّ . يُوسف اليُوسف . دار الحقائق ، بيروت ، ط2 ، 1980
- مقدمة ابن خلدون ، المطبعة التجارية ، القاهرة ، د.ت
- مَنَاهِجُ البُلَغاءِ و سِراجُ الأُدباءِ ، حازم القُرطاجنيُّ ، تحقيق . مُحمّد الحبيب الخُوجة ، دارُ الكُتب الشَّرقيَّة ، تونس 1966

- مُنتَهى الطَّلب مِنْ أشعار العربِ ، جمع محمّد بن المُبارك بن مُحمّد بن مَيمُون ، تحقيق و شرح د. محمد نبيل طريفي ، دار صادر ، بيروت ، ط1 ، 1999

- نهاية الأرب في فنون الأدب ، شهاب الدِّين النُّويري ، مطبعة الكتب المصريَّة ، القاهرة ، 1924/1343 ، ج15

- نَهجُ البلاغة ، مجموع ما اختارَهُ الشَّريفُ الرَّضِيُّ من كلام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب — رضي الله عنه — شرح الأستاذ الإمام الشَّيخ محمد عبده ، نشرُ سَفَارةِ الجُمهوريَّةِ الإسلاميَّةِ الإيرانيَّةِ ، دمشق ، د.ت

دَواوينُ الشِّعرِ القَديم:

- ديوان أبي مِحجَنْ الثَّقَفيِّ / نَشَرَهُ و قدَّمَ لَهُ ،د. صلاح الدين المَنجِّد، دار الكتاب الجديد ، بيروت ، ط1 ، 1970/1389.
- ديوان الأعشى الكبير ، ميمون بن قيس، المكتب الشَّرقي للنَّشر و التَّوزيعِ ، بيروت ، د.ت
- ديوان أميَّة بن أبي الصَّلتِ ، جمع و تحقيق و دراسة ، صنعة الدكتور . عبدالحفيظ السَّطليَّ ، دمشق ،ط3 ،1974
- ديوان أوس بن حَجَر ، تحقيق و شرح د. مُحمَّد يوسف نجم ، دار صادر ، بيروت ، 1960/1380
- ديوان بِشر بن خازم الأَسَديِّ ، تحقيق د. عِزَّة حِسَن ، وزارة الثَّقَافَةِ و الإرشاد القَومي في الإقليم السَّوري ، دمشق ، 1960/1379
- ديوان حاتمٍ الطَّائيَّ ، دار صَادر ، بيروت ، 1981/1401
- ديوان الخنساءِ ، دار صادر ، بيروت ، 1960/1379
- ديوان دُريد بن الصِّمَّة ، تحقيق د. عمر عبدالرَّسُولِ ، دار المعارف ، مصر ، د.ت.
- ديوانُ زهير بن أبي سَلمى ، صنعة الإمام ثعلب ، دار الكُتب المِصريَّة ،1944/1363
- ديوان سَلامةَ بن جَندل ، تحقيق الدكتور فخر الدين قباوة ، نشر و توزيع المكتبة العربيَّ ، حلب ، ط11387/1968
- ديوانُ الشَّنفرى ، دار صادر ، بيروت ، د.ت
- ديوان طرفةَ بنِ العَبدِ ، شرحُ الشَّنتمريِّ ، تحقيق . دُرِّيَّة الخَطيب و لُطفي الصَّقَّال، مجمع اللغة العربيَّة ، دمشق.
- ديوان عامر بن الطُّفيل ، رواية أبي بكرٍ مُحمَّد بن القَاسِمِ الأنباريِّ عَنِ العبَّاس أحمد بنِ يَحيى ثعلب، دار صادر ، بيروت 1379
- ديوان العبَّاس بن مرداس السُّلَمِيِّ ، جمعهُ و حَقَّقَهُ د. يحيى الجُبوري ، مطابع دار الجمهوريَّة ، بغداد 1968/1388
- ديوان عبدالله بنِ رواحة الأنصاريِّ الخَزرَجيِّ ، د. حسَن بَاجُوده ، دار التُّراث ، القاهرة ، د.ت

- ديوان عبيد بن الأبرص، شرح و تحقيق د. حُسين نَصَّار ، القاهرة ، ط1، 1957/1377
- ديوان عروة بن الورد ، شرح ابن السّكّيت ، تحقيق . عبدالمعين الملُّوحي ، وزارة الثقافةو الإرشاد القومي دمشق 1966
- ديوانا عروة و السَّموءَل ، دار صادر ، بيروت ، د.ت
- ديوان عمرو بن كلثوم ، صنعة الدكتور علي أبو زيد ، دار سعد الدِّين ن دمشق ، ط1 ، 1991/1412
- ديوان الإمام عليّ ﷺ— شرح د. يوسف فرحات ، دار الكتاب العربيِّ ، بيروت ،ط5 1998/1418.
- ديوان قيس بن زهير ، جمع و دراسة د. عادل جَاسم البيَّاتي ، النجف ،1972
- ديوان قيس بن الخطيم ، تحقيق د. ناصر الدّين الأسد ، دار صادر ، بيروت ، ط1 ، 1962/1381
- ديوان كعب بن مالك الأنصاريّ ، دراسة و تحقيق د. سامي مكّي العاني ، عالَم الكتب ، بيروت ،ط1997/21417
- ديوان كعب بن مالك الأنصاريّ ، نسخة ثانية ، تحقيق و شرح مجيد طراد ، دار صادر ، بيروت ، د.ت
- ديوان لَقيط بن يَعمر ، حقَّقَهُ و قدَّمَ لَهُ ، د. عبدالمُعين خَان ، دار الرِّسالة ، بيروت ،ط!، 1987/1408
- ديوان لبيد بن ربيعة ، تحقيق الدكتور إحسان عبَّاس ، وزارة الإعلام ، الكويت ، ط2، 1984
- ديوان لَقيط بن يَعمر نسخة ثانية على رواية هشام بن السَّائب الكَلبي ، شَرح و تحقيق د. محمد التُونجيّ، دار صادر ، بيروت /1988
- ديوان المهلهل عَدِيّ بن ربيعة الكَلبيِّ ، دار صَادر ، بيروت ، ط1996،1
- ديوان النَّابغة الذُّبيانيِّ ، تحقيق مُحمد أبو الفضل إبراهيم ، دار المعارف ، مصر ، د.ت

المَراجِعُ المُترجَمَةُ:

- الأبطالُ : تُوماس كَارليل ، ترجمةُ . مُحمَّد السِّبَاعيُّ ، دارُ الكِتَابِ العَربيِّ ، بَيروت ، د.ت
- الجماليُّ و الفَنيُّ ، هيغل ، ترجمة . جورج طرابيشي ، دار الطَّليعةِ للطِّبَاعَةِ و النَّشرِ ، بيروت ، ط2 ، 1987
- تاريخُ العَربِ العَامُّ : سِيديو ، ترجمَةُ . عَادلُ زعَيتر ، دار إحياءِ الكُتُبِ العَربيَّةِ ، القَاهِرة ، 1948/1367
- حتَّى الملائكةُ تَسألُ ، رحلَةُ الإسلامِ إلى أمريكا ، جفري لانغ ، ترجمة . د. منذر العَبسِيّ ، دار الفكر ، ط3 ،2008/1429
- الصِّراعُ مِنْ أَجلِ الإيمانِ ، د. جفري لانغ ، ترجمة الدكتور . منذر العَشِّي ، دار الفكر ، دمشق ، ط1 ، 1988/1419
- الغَربُ و العالمُ . كَافين رايلي ، ترجمةُ د. عبدالوهَّاب مُحمَّد المسيريّ ، هُدَى عَبدالسَّميعِ حِجازيّ ، مُراجعَة د. فؤاد زكريَّا ، عالم المَعرفة ، العَدد 90 رَمضان 1405/ حزيران 1985
- فِكرَةُ الجَمَالِ . هيغل ، ترجمة جورج طرابيشيّ ، دار الطَّليعَةِ ، بيروت ، ط2 – د.ت
- قِصَّةُ الحَضَارَةِ ، اختَارتهُ و ترجَمَتهُ الإدارة الثَّقافيَّةُ في جَامِعَةِ الدُّولِ العَربيَّةِ ط2 ، د.ت
- قِصَّةُ الحَضارةِ ، ترجمة . زكي نجيب محمود ، القاهرة ، د.ت ، مج3 ، ج4
- المِائةُ الأَوائلُ ، د. مايكل هارت ، ترجمة الأستاذ خالد أسعَد عيسى و المُحامي الأستاذ غسَّان سبانو ، دار قُتيبة للطِّبَاعَةِ و النّشرِ ، ط3 /1984/1404
- مَا يَعِدُ بِهِ الإسلامُ ، رُوجيه غاروديه ، ترجمة . قُصَيّ أتاسي و ميشيل واكيم ، دار الوثبة ، دمشق ، ط2، 1983
- مُحمَّد في الكِتَابِ المُقدَّس ، البروفسور عبدالأحد داود ، ترجمة فهمي شمَّا ، مراجعة و تعليق أحمد محمَّد الصِّدِّيق ، ط1 ، قطر ،1985/1405
- نَظريَّاتُ العُنفِ في الصِّراعِ الأَيدُيولوجيِّ ، ف دينيسوف ، ترجمة د. سحر سعيد ، دار دمشق ، دمشق ، د. ت.

الدَّوريَّاتُ:

- مَجَلَّةُ (الأمل) حمص ، العَدد(8) ربيع الآخر 1367/آذار 1948 ، مِنْ كَلِمة لأسرَةِ التَّعليمِ في حمص ، الأستاذ زكريَّا القصَّاب.
- سِلسِلَةُ (اقرَأْ) ، البُطُولَةُ في الشِّعرِ العربيِّ ، د. شَوقي ضَيف ، العَدد331، تموز ، 1970
- سِلسِلَةُ (اقرَأْ) ، الفِداءُ في الإسلام ، د. أحمد الشُّرباصيّ، دار المعارف ، مِصر ، 1969
- مَجلَّةُ (التُّراثُ العَربيُّ) اتِّحاد الكُتَّابِ العَربِ ، دمشق ، العَدَد (44) تَمُّوز 1991، مقالة بعنوان ظاهرة الانتِماء ، د. حسين جمعة.
- مجلَّة (التُّراثُ العربيُّ) العددان (83 ،84) جُمادى الآخرة 1422/أيلول 2001، مقالة بعنوان (قراءة في لاميَّات الأمم ، د. محمود الرَّبداويّ
- مجلَّة (التُّراثُ العربيُّ) العدد (88) شَوَّال 1423/ كانون الأوَّل 2002 ، مقالة بعنوان خالد ابن الوليد و حُروبُ الرِّدَّة ، هاني الُمبَارَك
- مجلَّة (التُّراثُ العربيُّ) العددان (93 ،94) ، الُمحرَّم و رَبيعُ الثَّاني 1425/آذار و حزيران 2004 مقالة بعنوان ((توظيفُ الأسطورة في الشِّعرِ الجاهليّ ، د. وهب روميَّة
- مجلَّة (الرَّافد) وزارة الإعلام و الثَّقافة ، الشَّارقَة ، العدد (122) شَوَّال1428/ تشرين الأوَّل 2007 ، مقالة بعنوان (الحِسُّ القَوميُّ في الشِّعرِ الجَاهلي ، الدكتور بهجت الحَديثيّ
- مجلَّة (العربيُّ) العدد (278) ربيع الأوَّل 1402/كانون الثَّاني 1982 ، مقالة بعنوان : ((جَلجامش ، طوفان ما قَبل الطُّوفان)) ، جمال الكِتَّانيّ.
- مجلَّة (العربيُّ) العدد568، 1427 ، آذار 2006 مقالة بعنوان ((عَنِ التَعَصُّبِ و العَصَبيَّة)) د. جابر عُصفور .
- مَجلَّة (فلسطين المسلمة) ، العدد (5) ربيع الثَّاني 1429 ، أيَّار 2008 ، مقالة بعنوان ((الولاياتُ الُمتَّحِدَةُ و حُلمُ السَّيطرةِ على العالمِ))
- مجلَّةُ (الُمجاهد) العَدَد 402 ، شعبان 1427، مقالة بعنوان ((الصَّليبيُّونَ و لُغَةُ الانتِقَام و المجازرِ)) هَيئَةُ التَّحرير.

“In the Name of Allah , Most gracious , Most Merciful’’

The (Championship) heroism idea in Arabic poetry is not a new one , in searching ways. Many aspects have been showed , in their integrated researches (papers) , that concerns about the Pre-Islamic poetry , and the Poetry of the Islam forefront .So , the efforts were thanked , in appearing of the most matters which were related with the heroism and knighthood poetry.

I have looked into several researches , in this blessing field , I mention some of them respectfully :

- “**Islamic and Arabic Heroisms**” Prof. Ahmad Al Shurbasi.
- “**The Sacrifice in Islam**” Prof. Shawki Deif.
- “**The War Poetry in the Pre-Islamic Age**” Prof. Ali Al Jundi
- “**The Knighthood in the Pre- Islamic Age**” Prof.Nouri Hamoudi AlKaisi
- “**The Knights poets**” Butrous Al Bustani.
- “**The Youthfulness at Arab People**” Nu’man AbdulMutaal AlKadi

I haven’t got to an investigated research that balancing between the Pre-Islamic Arab heroisms , and other nations heroisms. So I have not could getting to comparison study , between the heroisms that the pre-Islamic poetry recorded them, and the heroisms that the Islam recorded ,as I have referred to it .

So I have determined to make this fair matter. And I have found the way opened before me to present a new work or research , its title is “Championship or heroism in Arabic Poetry Until the End of Islamic Forefront Age”.

- Perhaps , the negative mental reality , which majority of our Arabic nation young men are involved in its hell , motivates the keen man to dream in salvation of it , through coming back to the inherited positive values.

-There are objective motivates , that have connections with the mental motivates. They have been a result to wish of more of learning that does not stop at certain age.

Scientists said “**Ask the science from the cradle to the tomb**”

Prophet Mohammad said “**There is not except scientist or learner in my nation**”.

Because , the science as a word , means each science is useful comprehensively for our nation, and that eliminates evilness and injury.

-One of the clear motivates , the historical aggression of our nation , selves inherited it , that refused acceptance the beauty , truth and goodness values.

Orientalist circulated that aggression through accuse Arab people of untruthful and fabricated accusations . And abstaining from showing the bright images of pre- Islamic Arab life , which other orientalists showed them , who had a live and clear consciousness . Where they had taken a just method by appearing of most bright aspects at Arabic tribes life , and had decorated them before Islam religion unified them.

I hope this work is contribution in the precedent efforts , according to every free Arab one wishes the best for his nation.

I have made this research consisted of introduction for recognizing it two chapters , and conclusion shows what I have got it of results .

-The first chapter has four sections :

-I have discussed at the first section ,the heroism of other nations the heroism concept of language , and critical , mental and aesthetic studies .Explaining the difference between the heroism and knighthood.

-The second section “The heroism of pre-Islamic poetry”

I have showed that poet is a tribe sound , showing of images of the Arabic heroism , I have not forgotten referring to the knights heroes’ admitting of the rivals heroism .And this admission was mentioned in poems called

“Al-Monsefat”.

-I have made the third section for the individual heroism through several images against image of satire of men staying behind fighting, good men

certified that . Where the denied cowardice image was embodied in their behaviour .

There is image between two sides , is the amusing youth , which responds if it is called to do heroic works .

-The forth section talks about the Arabic heroism reality comparing with other nation heroisms . And features of epic poetry at Arab people , which clarified in Abbasid age later.

I have not covered the woman role of making heroism, who she walks behind the fighters at battles . And the horses role , which the knight was proud them as he was proud by his sword and javelin in the battle ground .

So I have talked about ‘Antarah’ the hero knight, where I have showed the good and bad features of his personality , to dominate the nobility and moralities in his biography , so I have taken him a pattern to talk about the heroism in the Islam Forefront. And I have closed this chapter by talking about the beauty of ugliness , in the heroism images where were not all of them were beautiful.

-In the second chapter : the first section I have started talking about heroism through the new religion effect in constructing of a new man , then I have detailed the heroism concept of Islam , then I have discussed the heroism image which heroes have done it in Islam forefront age .

And poetry has recorded them through values which Allah and his prophet -may be pleased with them- before Mekka conquering .

-The third section :To show unique and great values , in conquests heroism , how they were magnificent , wide and large out of Arab peninsula , how they were distinguished features and characteristics without equivalent in all times . And I have discussed the Allah’s prophet heroism - Allah’s blessing and peace be upon him-. That group of orientalists witnessed it was just and honour , without forgetting the heroism of muslim women .

-The forth chapter , I have shown some of heroisms , no respectful man has never liked to mentioned in bouncing and trait ones . But Allah fate has wanted . I have named this chapter ((Tragedies of the Islamic heroism))

-If I achieved the research methodology , and tradition majesty , I would be thanking Allah is exalted .

If I did not reach to do that , because my weakening expression , eloquence , and determination to serve our great tradition .

I think ,I intend possessor of glory and honour –Allah –

Thank of glorious Allah , all times

****